مكسيم غوركي

المؤلفات المختارة في ٦ مجلدات

المجلد ٥

الأم

رواية

ترجمة الدكتور فؤاد ايوب
والمحامي سهيل ايوب

دار «رادوغا»
موسكو

М. ГОРЬКИЙ

Собрание сочинений
в 6 томах.
Т. 5.

Мать

Роман

На арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار التقدم ، ١٩٨٣
© دار «رادوغا» ، ١٩٨٨

طبع فى الاتحاد السوفييتى

$\text{Г}\,\frac{4702010200-394}{031(01)-88}\,069-88$

ISBN 5-05-001726-2
ISBN 5-05-001731-9

القسم الاول

١

كان دوىُ صفارة المصنع ينطلق عنيفاً ، كل صباح ، في الجو الدبق المثقل على الضاحية العمّالية ؛ فيخرج ، في تلبية صاغرة لندائه المرتجف ، اناس انقبضت وجوههم وتجهمت وانهك التعب عضلاتهم واجهدها ، ولم تردّ عليهم يقظتهم المبكرة ما يحتاجون إليه من راحة وقوة . كانوا ينطلقون من بيوتات صغيرة غبراء اللون اشبه بالصراصير المذعورة ويستحثون الخطا ، في الفجر البارد المظلم ، عبر الشارع غير المرصوف ميممين شطر جدران المصنع الحجرية الشاهقة التي تنتظرهم في طمأنينة باردة غير عابئة ، مُضيئةً الطريق الموحلة بعشرات من الأعين الزيتية المربّعة . وكان الوحل يبقبق تحت اقدامهم ، والجوُ يتمزق بشتائم قبيحة او آهات عميقة تطلقها حناجر ناعسة مبحوحة ؛ فيما أصداء أخرى تبلغ آذان هؤلاء القوم هي جعجعة الآلات الثقيلة وضجيجها ، وغليان البخار وصفيره . وكانت المداخن العالية ، القاتمة ، السوداء تشرف على الضاحية بأسرها مثل مسلات شامخة تنذر بالويل والثبور .

فإذا تولى النهار وراحت الشمس ، وهي تأوي إلى مضجعها ، تجد لها على زجاج النوافذ انعكاسات حمراء متعبة تقيأ المصنع اولئك القوم من احشائه الحجرية وكأنهم فضلات لا حاجة به إليها ، فيملأون – من جديد – الشوارع

الوسخة ، متعفرة وجوههم ومسودّة بالدخان ، متالقة أسنانهم الجائعة ، فائحة من أجسادهم رائحة زيت الآلات اللزبة . ثمة شيء من النشاط ، بل ثمة غبطة أيضاً ، يترددان الآن في أصواتهم . لقد انتهى العمل الشاق الى يوم آخر ، والعشاء والراحة في الدار ينتظران . . .

لقد استهلك المصنع النهار بأسره ، وامتصت آلاته من عضلاتهم ما تحتاجه من قوة . ويمرُّ اليوم على هذا المنوال ، دون ان يخلّف أثراً ، ويتقدم المرء خطوة جديدة في اتجاه لحده . لكنه يتوقع الآن ، بالرغم من ذلك ، بعض الأفراح ، افراح الراحة في حانة تعج بالدخان والقذارة ؛ وإنه بذلك لسعيد . . .

في ايام الآحاد كان الناس ينامون عشر ساعات ، ثم يرتدي المتزوجون الوقورون منهم أفضل ثيابهم ويغدون الى الكنيسة ، موجهين اللوم – أثناء ذلك – الى الشبان لانصرافهم عن أمور الدين والآخرة . فإذا انتهت خدمة القداس قفلوا راجعين الى دورهم ، واكلوا الفطائر اللذيذة ، واستسلموا من جديد للنوم حتى المساء .

إن التعب المتكدس خلال الأيام يُفقد الشهية ، فلينبّهوها إذن بالشراب الغزير ، وليخرشوا المعدة الكسول بلذع الفودكا الحارق الملتهب .

وإذا أتى المساء اخذوا يتجولون في الشوارع بكسل . . والذين يملكون جزمة مطاط لبسوها وإن كانت الأرض جافة ؛ والذين يملكون مظلة حملوها وإن كان الطقس صافياً لا ينذر بالمطر .

وإذا تلاقى الأصحاب دار الحديث حول المصنع والآلات ، او تناقلوا الشكوى ضد رؤسائهم وتعسفهم ، فهم لا يفكرون او يتكلمون إلا في الامور المتعلقة بعملهم ، وفيما ندر ، تخترق ومضات من الافكار العاجزة المتلعثمة اجواء ايامهم الرتيبة المملة ، حتى اذا عادوا إلى بيوتهم ليلاً اخذ الرجال يخاصمون زوجاتهم ، او يضربونهن في غالب الأحيان ، دون ان يأبهوا لما يلحق اكفهم من الأذى . اما الفتيان فيترددون على الحانة او يحيون الحفلات في المنازل حيث يعزفون على الأكورديون ، وينشدون اغاني بشعة مرذولة وهم يرقصون ، ويتسابّون ويعبون الخمرة دون حساب ، وسرعان ما تتسرب الفودكا إلى رؤوسهم ، هم الذين اضناهم التعب وارهقهم ، فيتّقد في صدورهم هيجان مريض عصبيّ على الإدراك يسعى وراء منفذ له ، فيتمسكون بأتفه الأسباب كي يطلقوا لمشاعرهم العنان ، مزمجرين في وجوه بعضهم بعضاً بوحشية حيوانية تنتهي دائماً باصطدامات دامية ، تنتج عنها اضرار بالغة في بعض الاحيان والقتل فى احيان اخرى .

كان إحساس بالحقد الدفين يسيطر على علاقاتهم الانسانية . وكان ذلك الإحساس قديماً قِدَمَ التعب الذي لا شفاء له في عضلاتهم . إنهم يولدون وذلك المرض الروحي فيهم ، يرثونه عن آبائهم ، فيرافقهم كشبح مظلم طوال حياتهم حتى القبر ، يدفعهم دون انقطاع إلى ارتكاب افعال تثير وحشيتها العديمة المعنى الاشمئزاز والنقمة معاً .

وكان الفتيان – أيام الأعياد – يؤمون منازلهم في ساعة

متأخرة من الليل ، متمزقة ثيابهم متلطخة بالأقذار والأوحال . مظلمة عيونهم ، دامية أنوفهم ، وهم يتبجحون أحياناً ، في اعتزاز فارغ ، بما كالوا لرفاقهم من لكمات ؛ أو يكشرون عن أنيابهم ، في أحيان أخرى ، غاضبين أو باكين لما نالوا من إهانات . كانوا سكارى مساكين يثيرون في النفس الشفقة والنقمة في آن واحد . وما أكثر ما كان الآباء والأمهات يعودون بأبنائهم الى الدار ، وهم يلعنونهم بفظاظة وبذاءة ، من حيث وجدوهم يتمرّغون في ظل احد الأسوار ، أو على أرض احدى الحانات في حالة من الغيبوبة السكرى ، فيسيلون على أجسادهم المترهلة وابلاً من الضربات ثم يوسدونهم الفراش في كثير او قليل من العناية ، كي يوقظوهم للعمل في الصباح الباكر عندما تصرخ صفارة المصنع الصاخبة ، فيأتي دويها هادراً في تيارٍ مظلمٍ خلال نور الفجر المنبثق .

كانوا يشتمون أبناءهم ويضربونهم بقسوة ، لكن سكر الفتيان وعربدتهم الدائمة كانا مقبولين لديهم كأمرٍ لا مفر منه او مهرب . كان الآباء ، في شبابهم يتقاتلون أيضاً ويعاقرون الخمرة ويتلقون اللكمات من آبائهم وأمهاتهم . . . هذه هي سنّة الحياة دائماً ، يجري تيارها الموحل في بطء واستمرار سنوات بعد سنوات ، مشدوداً إلى درب لا تتبدل من عادات للتفكير والسلوك قديمة ثابتة تتكرر من يوم الى يوم . وإن الرغبة في إدخال أي تغيير على ذلك كله لم تساور يوماً أحداً منهم على الاطلاق .

وفي بعض الأحيان كان يؤمُّ الضاحية أناس غرباء يسترعون الانتباه للوهلة الأولى بسبب من حداثة قدومهم .

وكان الاهتمام الضئيل الذي يحيونه يعيش مدة من الزمن مدعوماً بما يروون من أقاصيص عن الاماكن التي جاؤوا منها وعملوا فيها . لكن سرعان ما كانت البدعة تمضي ، ويألفهم الناس ، ويكفون عن الشعور بوجودهم . وكان يتضح ، مما يروي هؤلاء القادمون حديثاً ، أن حياة الشعب العامل واحدة في كل مكان وإن كان الأمر كذلك فماذا بقي لهم كيما يتناولوه في احاديثهم ؟

بعض هؤلاء الغرباء كانوا يتحدثون أحياناً عن أمور غريبة لم يُسمع بها من قبل في ذلك المكان ، فلا يناقشهم احد ، بل يصيخ الجميع إليهم في شيء من الإنكار والارتياب . وكان الحديث يثير في البعض حقداً أعمى ، وفي آخرين ذعراً غامضاً وقلقاً مبهماً ، وفي فريق ثالث خيالاً شاحباً من الأمل يعكّر صفوهم ، ويقودهم إلى الاستزادة من الخمرة بغية طرد تلك الافكار غير المرغوب فيها التي تجعل الحياة أصعب واشد عسراً .

وكان العمال ، اذا لحظوا في شخص غريب أمراً شاذاً غير عادي ، أخذوه عليه ، وراحوا يراقبونه في يقظة وحذر ، وكأنهم يخافون أن يشوش الانتظام المملّ لتلك الحيوات التي هي — وإن كانت عسيرة شاقة — هادئة غير مضطربة على الأقل . لقد اعتادوا أن يشعروا بثقل الحياة متساويا في سائر الاوقات ، واصبحوا يرون في كل تبديل ، بعد أن يئسوا من التخفيف عنهم ، وسيلةً قمينة بمضاعفة بؤسهم وشقائهم والاستزادة منهما .

كان العمال يتوارون ، في سكون ، عن أولئك الذين

ينطقون بآراء جديدة ويتجنبون طريقهم . وهكذا اختفى القادمون الجدد ساعين وراء اماكن اخرى . وفي الحالات النادرة حين يؤثرون البقاء في المصنع يصبحون مثل اقرانهم ، او يعيشون حياة انعزالية منفردة .

وبعد خمسين عاماً من مثل هذه الحياة كان المرء يموت .

٢

هكذا كان ميخائيل فلاسوف يعيش ، وهو ميكانيكي غزير الشعر متجهم الوجه ذو عينين صغيرتين تلمعان بحذر وارتياب ولؤم وضيع تحت حاجبيه الكثين . كان احسن ميكانيكيي المصنع واقوى رجال الضاحية ، لكنه كثير الفظاظة مع رؤسائه بحيث لم يكسب من المال إلا النزر اليسير . وكان ينال بالسوء بعض الناس في كل يوم احد ، فابغضه الجميع وخافوه . ولقد باءت سائر المحاولات للتعويض عليه من نوع عملته بالفشل الذريع ، فهو يلتقط حجراً او هراوة او قضيبا من الحديد كلما استشعر ان بعض الناس ينوون مهاجمته ، ويغرس قدميه متباعدتين في الأرض ، ويروح ينتظر العدو في هدوء وسكينة . وكان منظر ساعديه المكسوين بالشعر ، ووجهه النامية عليه – منذ العينين حتى العنق – لحية سوداء كثة ، يكفي ليلقي الرعب في قلب اشجع الناس وأشدهم إقداماً . وكان الجميع يخشون ، بصورة خاصة ، عينيه الصغيرتين القاسيتين اللتين يخيل للناظر إليهما انهما تخترقان كل شيء كحربتين من الفولاذ ، واللتين يحسُّ

كلُّ من يشخص إليهما انه في حضرة قوة متوحشة متحفزة ابداً للضرب دون اثر من خوف او رحمة . كان يصيح في اعدائه بصوت اجش ، واسنانه الصفر الكبيرة تلمع من خلال لحيته :

– هيا اغربوا عن وجهي ، يا ابناء الكلبة !

فيولي هؤلاء الإدبار ، مزمجرين بالعديد من الشتائم الجبانة في تقهقرهم .

ويهتف فلاسوف باقتضاب في إثرهم ، وعيناه محتدّتان كمخرزين مدببين :

– يا ابناء الكلبة !

ويتبعهم شامخ الأنف ، وهو يهتف متحدياً :

– حسناً ، من يرغب منكم في الموت ؟

لكن احداً لم يكن يرغب في الموت .

كان قليل الكلام ، وكلمتا «ابن الكلبة» اكثر ما يتردد على لسانه من اقوال ، ينعت بهما رجال الشرطة ، ورؤساءه . اما زوجته فلا يناديها إلا «الكلبة» ، فيقول لها مثلاً :

– انظري هنا ، افلا ترين أن سروالي ممزق ، ايتها الكلبة ؟ !

وذات مرة ، عندما كان ابنه بافل في الرابعة عشرة من العمر ، اراد ان يمسك به من شعره ، ولكن الفتى التقط مطرقة ثقيلة ، ونبر باقتضاب وفظاظة :

– لا تمسني . . .

فسأل الأب ، متقدماً من ابنه الطويل النحيل مثل خيال يقترب من شجرة فارعة :

– ما هذا ؟

فقال الفتى في هدوء ، رافعاً المطرقة في يده :

– لقد اكتفيت ، ولا اطيق مزيداً . . .

نظر إليه الأب برهة ، واخفى يديه كثتي الشعر وراء ظهره ، قائلاً في ضحكة قصيرة :

– حسناً . .

واضاف ، بعد ان صعّد زفرة حرّى :

– انت ابن كلبة على اية حال . .

بعد فترة قصيرة من ذلك الحادث عالن امرأته :

– لا تسأليني مالاً بعد اليوم . بافل يقوم بأودك من الآن فصاعداً . . .

فوجدت المرأة الجرأة على الجواب بقولها :

– وانت ستسكر بأجورك كلها ، على ما أظن ؟

– ليس هذا من شأنك ، يا كلبة . سأتخذ خليلة إن راقني ذلك . .

لم يتخذ خليلة . لكنه تجاهل منذ ذلك الحين حتى وفاته ، خلال سنتين تقريباً ، وجود ابنه ولم يكلمه ابداً .

كان يملك كلباً يماثله ضخامة وكثافة شعر ، يتبعه الى المصنع كل صباح وينتظره عند البوابة كل مساء . وكان فلاسوف يقضي ايام العطل متنقلاً من حانة الى حانة دون ان ينبس ببنت شفة ، مكتفياً بتفحص وجوه الناس كمن يفتش عن شخص ما ، وكلبه يجرّ ذيله الغليظ وراء سيده النهار بطوله . حتى إذا عاد فلاسوف إلى البيت مخموراً ، وجلس للعشاء ، اطعمه من ذات الصحن الذي يأكل منه . لم يكن

يلعنه ابداً او يناله بالضرب ، ولكنه لم يكن ليدلله ايضاً . وإذا انتهى من العشاء فهو يلقي بالاواني ارضاً ان تأخرت زوجه في رفعها ، ويضع زجاجة من الفودكا امامه ، ويستند بظهره الى الجدار ، ويغمض عينيه ، ويفتح فمه ، ويعول باغنية ما بصوت أجش يرسل في جسد المستمع قشعريرة باردة . وكانت الأصداء البشعة الكئيبة تتداخل في شاربيه وتدفع ما علق بهما من فتات الخبز ، فيمسح الميكانيكي لحيته وشاربيه بأصابعه الثخينة ، ويسترسل في الغناء دون توان أو كسل . كانت كلمات اغنيته غامضة غير مفهومة ، اما اللحن فيذكّر بعواء الذئاب في زمهرير الشتاء . وكان يغني ما دام في الزجاجة شيء من الفودكا ، فإذا فرغت استلقى على الدكة ، او القى برأسه على المنضدة ، ونام حتى تدوّي الصفارة . وكان كلبه ينام إلى جانبه .

مات بفتق بطني . ظل اياماً خمسة يتململ في فراشه وقد اسودّ وجهه ، وانغلقت عيناه ، وصرّ على اسنانه ، وبين الفينة والفينة يصيح بامرأته :

– اعطيني بعض الزرنيخ . سمّميني . . .

وصف له الطبيب لزقة خردل ، واضاف انه لا بدّ من إجراء عملية لميخائيل ونقله الى المستشفى في ذلك اليوم بالذات . فلهث ميخائيل :

– إذهب إلى الشيطان ! سأموت دون عونك ، يا ابن الكلبة !

عندما رحل الطبيب وراحت الزوجة ترجوه ، وقد عسف

الدمع في جفونها ، ان يقبل باجراء تلك العملية ، هزّ قبضته في وجهها ونبر :

– إذا شفيت لن تزداد حالك إلا سوءاً على سوء !

مات في الصباح في ذات اللحظة التي دوت فيها الصفارة .

رقد في نعشه فاغر الفم ، مقطب الحاجبين استياء . قبره امراته ، وابنه ، وكلبه ، ودانيلو فيزوفشيكوف (وهو لص قديم وسكير عربيد طُرد من المصنع) ، وبعض المستعطين المحليين . بكت امراته قليلاً ، في كثير من الهدوء ، اما بافل فلم يذرف الدمع ابداً . كان الناس المارّة الجنازة بهم يقفون ، ويرسمون إشارة الصليب ، ويقولون :

– يجب ان تكون بيلاجيا سعيدة لموته . . .

واضاف بعضهم :

– مات كلباً مثلما عاش . . .

رجع الناس بعد ان واروا النعش التراب . اما الكلب فبقي جالساً على الارض الرطبة برهة طويلة يشمُّ القبر في سكينة وهدوء . وبعد ايام وجدوه مقتولاً . . .

٣

رجع بافل فلاسوف الى البيت وقد تعتعه السكر ، ذات احد عقيب موت ابيه باسبوعين ، ودلف الى البيت مترنحاً ، وتجمع في مقعد عند راس الطاولة ، وراح يضرب عوارضها الخشبية بقبضة يده على ما اعتاد ابوه أن يفعل صائحاً بأمه :

– العشاء !

جلست الأم بجانبه ، ولفّت عنقه بذراعيها ، وجذبت راسه الى صدرها . فابعدها عنه صائحاً :

– هيا ، يا امي ، عجّلي !

ردّت الأم في حزن وعطف ، وهي تواصل معانقته :

– ايها المجنون !

فتمتم بافل متلعثماً ، وهو يحرك لسانه الخشن بصعوبة فائقة :

– وإني عازم على التدخين أيضاً ! هاتي غليون أبي . . .

تلك اول مرة يعاقر الخمرة فيها . انهكته الفودكا بمفعولها ، لكنها لم تذهب بوعيه تماماً ، فراح هذا السؤال يطنُّ في راسه دون انقطاع :

«اأنا سكران ؟ اأنا سكران ؟»

شعر بالضيق تجاه حنان امه وعطفها ، وتأثر بمخايل الكآبة والحزن في عينيها . وأحسَّ برغبة في البكاء . لكنه راح يتظاهر ، كيما يتغلب على هذا الشعور ، بأنه أشد سكراً مما هو عليه حقيقة .

داعبت الام شعره المشتبك الرطب ، قائلة في لطف ورقة :

– ما كان يجب أن تفعل هذا . . .

بدأ يحس بالغثيان والقرف . وبعد نوبة شديدة من القيء رافقته الأم الى فراشه ، ووضعت منشفة مبلولة على جبينه الشاحب . ردَّ عليه ذلك بعض رشده ، لكن الأشياء ظلت تسبح وتدور حوله وتحته ، كما بقيت أجفانه ثقيلة حتى ليعجز عن رفعها . وشخص من خلال أهدابه ، وذلك

الطعم الكريه يملأ فمه ، إلى وجه أمه العريض مفكراً :

«يبدو انني لا ازال صغير السن . فالآخرون يشربون ولا يصيبهم شيء ، اما انا فمرضت . . .»

اتاه صوت امه الحنون من مكان ناء سحيق :

– وكيف تستطيع إعالتي إذا ادمنت بنت الكرم ؟ . .

فاجاب ، مغلقاً عينيه بشدة :

– الجميع يشربون . . .

تنهدت الأم . . إنه على حق . فهي نفسها تعرف ان الحانة هي المكان الوحيد الذي يجد الناس فيه قطرات من سعادة .

قالت :

– لكنْ ، لا تعتد انت على الشرب ! شرب أبوك عنه وعنك ، وما يزيد ايضاً . أفلا يكفيني ما لقيت من شقاء على يديه . . افلا ترحم امك قليلاً ؟

تذكر بافل ، وهو يصغي الى هذا الكلمات الحزينة الناعمة ، انه لم يكن يشعر بوجود امه في الدار تقريباً في حياة ابيه ، فهي تحيا في سكون وخوف دائم من الضرب والصفع . ولقد ظل ، هو الآخر ، بعيداً عن الدار ما استطاع الى ذلك سبيلاً تجنباً لملاقاة ابيه ، فشبَّ بعيداً عن امه غير مؤالف لها . أما الآن فهو يشخص إليها بشدة وثبات ويصحو من سكره شيئاً فشيئاً .

كانت وافية القامة على شيء من الانحناء الى الأمام ؛ يتحرك جسدها الذي حطمه العمل المرهق وضرب زوجها المستمر دون ضجة ، مائلاً قليلاً إلى احد الجانبين كمن

تخاف أن ترتطم بشيء ما ، وكان وجهها المتورم العريض البيضوي الشكل الذي جعدته السنون وحفرت فيه غضوناً كثيرة عميقة يتضوأ بعينين سوداوين يطفح منهما الذعر والكآبة ، مثلها مثل معظم عيون النساء في الضاحية . وكان يعلو حاجبها الأيمن ندبة عميقة تجر الجفن إلى الأعلى ، موحية ان اذنها اليمنى ترتفع ايضاً عن مستوى الأذن اليسرى ، فيضفي ذلك على وجهها سيماء من يصيخ السمع دائماً ، خائفاً من شيء ما . وكانت خيوط من البياض تلمع في شعرها الأسود الكثيف . لقد كانت ، بكليتها ، رقة وكآبة وإذعاناً . . .

انحدرت دموع متانية على خديها ، فقال ابنها في عذوبة :

– مهلاً ، لا تبكي ! أعطيني لأشرب .

– سآتيك بقليل من الماء المثلج . .

وجدته حين عادت يغطّ في النوم فوقفت برهة تترنى إليه ، يرتعش القدح في يدها فيقرع الثلج فيه جدرانه المعدنية . ثم وضعت القدح على المائدة ، وسقطت بهدوء جاثية على ركبتيها أمام الأيقونات . كانت أصداء الحياة الثملة في الخارج تصطدم بزجاج النافذة ، واكورديون يزعق في دكنة مساء الخريف ورطوبته ، وشخص ما يغني بصوت عالي النبرة ، وشخص آخر يتشدق بسلسلة من الشتائم القبيحة ، واصوات بعض النسوة تعكرّ سجوّ الليل منهوكة هائجة . . .

اخذت الحياة تجري في دار آل فلاسوف الصغيرة في هدوء وسكينة اكثر من ذي قبل ، تختلف نوعاً ما عنها في البيوت الأخرى . كانت دارهم تقوم على حافة الضاحية فتشرف على

منحدر حاد – إن لم يكن على جرف مرتفع – يؤدي الى المستنقع الموحل . وكان ثلث الدار يتألف من المطبخ وغرفة صغيرة منفصلة عنه بحاجز خفيف تنام فيها الام ، أما الثلثان الباقيان فغرفة مربعة واسعة ذات نافذتين ، يحتل سرير بافل إحدى زواياها ، ويحتل الزاوية الأخرى مائدة ودكتان . وكان بقية الأثاث يتألف من عدد المقاعد وصوان بياضات عليه مرآة صغيرة ، ومن صندوق يحوي ثيابهم ، وساعة ثبتت في الحائط ، وايقونتين قائمتين في زاوية ثالثة من الغرفة .

فعل بافل ما ينتظر ان يفعل شاب مثله ، فابتاع لنفسه اكورديوناً ، وقميصاً ياقته منشّاة ، وربطة عنق زاهية الألوان ، وجزمة مطاط ، وعصاً ، فاصبح بذلك مثله مثل اقرانه جميعاً على حد سواء . وكان يذهب الى الحفلات مساء ويتعلم كيف يرقص البولكادريل ، ويؤوب في عشيات الآحاد الى البيت ثملاً ، متألماً أبداً من تاثير الفودكا . وكان يفيق صباح الاثنين وفي رأسه صداع ، وفي معدته حرقة ، وفي وجهه شحوب وأمارات بؤس وأوجاع .

سألته أمه مرة :

– هل قضيت وقتا طيبا مساء البارحة ؟

فاجاب في امتعاض وانفعال مكتوم :

– الضجر . . . الضجر ! يفضل أن أخرج لصيد السمك ، أو لعلي أبتاع بندقية أصطاد بها طيوراً .

كان يعمل في أمانة وغيرة ، فلا يرتكب أبداً ما يستحق اللوم عنه . وكان سكوتاً على الدوام ، يطفح الاكتئاب من عينيه الزرقاوين الواسعتين ، مثله في ذلك مثل أمه . ولم

يشترِ بندقية أو يخرج لصيد السمك ، ولكن ما أسرع أن اتضح انه يحيد عن الدرب التي يسلكها الجميع دونما تفريق إذ ندر اشتراكه في الحفلات ، وجعل يعود إلى المنزل صاحياً أيام الآحاد بالرغم من تغيبه . واستطاعت عين الأم الحادة الثاقبة ان تلمح تحولاً متزايداً في وجه ابنها الأسمر النحاسي ، وَجداً متعاظماً في عينيه ، وانضماماً في شفتيه يجعلهما منطبقتين بشدة في خط قاس يضمُّ في جنباته حزناً يرعاه أو علة تمتصُّ عافيته . وما أكثر ما كان أصحابه يأتون لزيارته فيما سبق ؛ أما الآن ، فاصبحوا لا يلقونه في الدار فانقطعوا عن المجيء . واغتبطت أمه حين رأته يختلف عن سائر الشباب في المصنع ، وإن لم تستطع أن تخفي القلق والخشية لدى شعورها أنه يوجه طريق حياته ، في كثير من العزم والعناد ، بعيداً عن تيار الحياة المظلمة التي تحدق به .

كانت تسأله من حين لآخر :

– أواثق أنت ، يا باشا* ، من سلامة صحتك ؟

فيجيب :

– انني لعلى أحسن حال !

فتتأوه وتقول :

– ما أشدَّ هزالك !

بدأ يحمل معه كتباً الى الدار . كان يقرؤها خفية ، ويخبئها عندما ينتهي من قراءتها في حرز أمين . وفي بعض

* كنية التدليل من بافل . **المترجمان** .

الأحيان يروح ينسخ شيئاً من أحد تلك الكتب ويخفـــي الورقة . . .

كانا يتكلمان قليلاً ، ولا يلتقيان إلا في فترات قصيرة جداً ؛ فهو يحتسي شايــه في الصباح صامتــاً ، ثــم يغادر المنزل إلى عمله . وعند الظهيرة يجيء لتناول الغداء فيتبادل وإياها – اثناء الطعام – بعض الملحوظات العابرة ويختفي من جديد حتى المساء . فإذا رجع بعد انتهاء العمل اغتسل بعناية وتناول عشاءه وقعد يقرأ مدة طويلة . في ايام الاعيــاد كان يغادر البيت منذ بكور الصباح ولم يرجع إلا في ساعة متأخرة من الليل . وعرفت انه يقصد المدينة احياناً حيث يشهد المسرح من وقت لآخر . لكن احداً من المدينة لم يأت لزيارته أبداً .

وكان يبدو لها ان كلام ابنها يتناقص باستمرار على مــرّ الأيام ، بَيْدَ انها وعت في حديثه كلمات جديدة لا تفهمها ، فيما تلك التعابير القاسية الفظة التي كان يستعملها قبلاً تتوارى شيئاً فشيئاً من احاديثه . واسترعى انتباهها كثير من التفاصيل الجديدة في سلوكه ، فهو لا يتحذلق الآن في تأنقه بل يزيد من العناية بنظافة جسده وثيابــه . وصارت حركاته أكثر حرية واتزاناً وتصرفاته اكثر بساطة واقــل شراسة . ومع ذلك ، انشغل بالها لهذه التبدلات التي لم تجد لها تعليلاً – لا بل إن عناصر جديدة ظهرت في علاقاته معهــا فهو ينظف ارض الغرفة احياناً ، ويرتب سريره في أيام الآحاد دائماً ، ويسعى بصورة عامة إلى معاونتها في عملها . إن أحداً من الرجال الآخرين في الضاحية لم يفعل ذلك أبداً .

في ذات يوم حمل معه الى البيت صورة علّقها في الحائط .

كانت الصورة تمثل ثلاثة أشخاص غارقين في نقاش عميق ، وهم يحثون الخطا – بخفةٍ ولهفة – على طول الطريق .

قال بافل لها معنى الصورة :

– إنه المسيح القائم من بين الأموات في طريقه إلى قرية عيماس !

اعجبت امه بالصورة ، لكنها قالت في نفسها :

«لماذا لا تذهب إذن إلى الكنيسة ما دمت مغرماً بالمسيح حتى هذا الحد ؟ . . .»

وتضاعف عدد الكتب على الرف الجذاب الذي صنعه نجار من اصدقاء بافل . وبدأت الغرفة تأخذ مظهراً جميلاً لطيفاً .

كان يدعوها امي عادة ، لكنه شرع يخاطبهــا باحترام اكثر ، ويستعمل صيغة الجمع في حديثه معها . ومن حين لآخر يتوجّه إليها في كثير من الحنان والرأفة قائلاً :

– لا تقلقي من اجلي ، يا امّاه ، فلربمــا تأخرت في العودة هذه الليلة . . .

كانت تحبُّ ذلك ، وتشعر بوجود شيء رزيــن قوي في هذه الكلمات .

لكن قلقها نما وتضاعف ؛ وبالرغم من أنها لم تعد تدري له سبباً ، فقد ازداد قلبها ثقلاً يوماً بعد يوم ، وهــي تشعر – بغموض – ان ثمة شيئاً غير عادي وراء تلك الأمور . لا بل إنها تستاء من ولدها في بعض الأحيان ، وعندئذ تأخذ في التفكير :

«الناس يتصرّفون كما ينبغي أن يتصرفوا ، امــا هو

فأشبه بالرهبان ، جديّ أبداً ورزين دائماً . ذلك لا يلائم سنه . . .»

ثم تهامس نفسها من جديد :

«لربما علق بفتاة في مكان آخر !»

لكن صحبة الغواني تتطلب مالاً ، وهو ينقدها كامل أجوره تقريباً .

ومرت الأسابيع والشهور على هذا المنوال ، وانصرم عامان من هذه الحياة الصامتة الغريبة الملأى بالأفكار الغامضة ، الطافحة بالمخاوف المتزايدة أبداً .

٤

ذات مساء ، بعد العشاء ، أسدل بافل ستائر النافذة وعلّق المصباح القصديري في الحائط فوق رأسه ، وجلس في إحدى الزوايا مستغرقاً في القراءة . فخرجت أمه من المطبخ حيث تغسل الصحون ، واتجهت نحوه متبطئة في سيرها . رفع رأسه وأمعن النظر فيها متسائلاً ؛ فتمتمت بسرعة ، وهي تقفل راجعة الى المطبخ ، وحاجباها يرتفعان في إرتباك :

– لا شيء ، يا باشا ، لا شيء على الاطلاق !

توقفت وسط المطبخ برهة قصيرة مستغرقة في افكارها القلقة ثم غسلت يديها بعناية كبيرة واقتربت مرة أخرى من ولدها ، وقالت في سكينة :

– كنت اريد ان اسألك عما تقرأ طوال الوقت ؟

فاطبق الكتاب ، وقال لها :

– اجلسي ، يا أماه . . .

جلست أمه متثاقلة الى جانبه ، وقومت من اعوجاج ظهرها ، وتهيأت لسماع أمور فائقة الخطورة .

تكلم بافل ، دون ان ينظر اليها ، في صوت خفيض لم يخلُ ، لسبب ما ، من قسوة :

– انا أقرأ كتباً ممنوعة . هي ممنوعة لأنها تقول الحقيقة عن حياة العمال . . . وهي تُطبع في الخفاء . وإذا وجدوها عندي القوا بي في غياهب السجن ، في السجن لأني اريد معرفة الحقيقة . هل تفهمين ؟

على حين غرة أحست صعوبة كبرى في التنفس . فتحت عينين واسعتين ، وشرعت تنظر إلى فتاها وقد خيل اليها أنه غريب عنها تراه للمرة الأولى . كان صوته متبدلاً ، لكن أعمق واثرى واشدّ رنيناً . وكان يفتل شاربه الكث ، ويرنو إلى الزاوية بصورة غريبة من تحت جفنيه المسبلين . ساورها الخوف من اجله ، وأشفقت عليه في الوقت ذاته .

استفسرت :

– ولماذا تفعل ذلك ، يا باشا ؟

فرفع رأسه وروّى النظر فيها ، وأجاب في هدوء وطمأنينة :

– لاني اريد معرفة الحقيقة .

كان صوته ناعماً لكن ثابتاً ، وكان عزم عنيد يتّقد في عينيه . حدثها قلبها أن ابنها نذر نفسه ، حتى الأبد ، لشيء رهيب محوط بالأسرار . كانت تعتبر كل شيء في الحياة أمراً محتوماً لا مفرّ منه ولا مهرب ، وكانت معتادة على الاستسلام

دون سؤال او تذمـــر ، فاستسلمت تبكـي الآن في هدوء وبساطة ، دون ان تجد الكلام في قلبٍ يعتصره الألـــم واللهفة ، والغمّ .

عالنها بافل في لهجة ناعمة حنون ، هدهدَ لهـا – مع ذلك – انها كلمات الوداع :

– لا تبكي ! فكري فقط في نمط الحياة التي نعيش ! هذه انت سلخت من عمرك اربعين عاماً ، فماذا رايت خلالها ؟ كان والدي يضربك – وانا ادرك الآن انه كان يخفف بذلــك المتاعب عنه ، وينفّس كل شقاء الحياة التـي يعيش . كان ذلك الشقاء يرهقه إرهاقاً دون ان يدري من اين ياتي . لقد عمل طوال ثلاثين عاماً ، بدأ يعمل يوم لم يكن المصنع باسره اكثر من محلين صغيرين ؛ اما الآن فقد اصبح سبعاً مــن البنايات الضخمة !

كانت تصغي إليه في لهفـة ، لكـن في خـوف أيضـاً . لتلتهبُ عيناه بنورٍ حبيبٍ إلى النفس ، وهو يستند بصدره الى المائدة وينحني عليها حتى يلامس وجهها المبلل بالدموع ، ويتفوّه باول حديث له عن الحقيقة التي اهتدى إليها أخيراً . كان يتحدث عن الأمور التي اصبحت واضحة بينة بالنسبـة إليه بكل قوى فتوّته ، وبكل حماسة التلميذ الفخـــور بمعرفته المؤمن كل الإيمان بحقيقتها . إنه يتحدث ليجرّب نفسه اكثر منه ليقنع والدته . وكان يتوقف احياناً ، تعوزه الكلمات ، ثم يصبح شاعراً بذلك الوجه المتالم الماثل امامه بعينيه اللطيفتين المتالقتين من خلال غشاءٍ من الدموع ، الناظرتين إليه في ذعر وعجب . أشفق عليها ، فطفق يتحدث

من جديد ، لكن عنها وعن حياتها هذه المرة ، فقال :

– ما هي الأفراح التي عرفتِ ؟ ماذا خلّف لـك الماضي من ذكريات ؟

اصغت إليه وهزت راسها بكآبة ، وهي تحس شيئـاً جديداً مجهولاً ، شيئاً مفرحاً ومؤلماً في وقت واحد ، يمسح برفق وحنوٍ على قلبها الموجع الأسوان . كانت تلـك هي المرة الاولى التي تسمع فيها إنساناً يتحدث عنها وعـن حياتها ، فأثارت الكلمات في خاطرها افكاراً غامضة ابعدتها عنها منذ زمن سحيق ؛ بل أحيت فيها – بكل هدوء – شعوراً ميتاً بالاستياء من الحياة ، افكار الشباب البعيد ومشاعره . في ذلك الحين كانت تتحدث عن الحياة مع صديقات صباهـا وفتوّتها ؛ كانت تتحدث وإياهن عن كـل شيء وفي فترات طويلة . لكن سائر صديقاتها ، وهي معهنّ أيضاً ، لم يفعلـن سوى الشكوى دون السعي وراء إيجاد تعليلٍ لقساوة الحيـاة التي يعشنها . وهذا ولدها يجلس أمامها الآن فيمسُّ شغاف قلبها كلُّ ما تعبّر عنه عيناه ، ووجهه ، وكلماته ؛ فيمتلئ ذلك القلب فخراً بهذا الابن الذي يفهم جيداً حياة أمه ، والذي يتحدث إليها عن آلامها ويعطف عليها .

لكن الأمهات لم يكنّ يوماً ليتمتّعن بالعطف والشفقة .

إنها تعرف هذا ، وتعرف أن كل ما قال عن حياة النسـاء هو الحقيقة المألوفة المرّة ؛ ولذلك تحس الآن مشاعر لطيفةٍ تضطرب في صدرها وتدبُّ ، وتدفئ قلبها بعطـف غيـر معهود .

قطعت عليه الحديث متسائلة :

– وماذا تنوي أن تفعل ؟

فاجاب :

– ان ادرس اولا ، ثم أعلمّ الآخرين . نحن ، العمال ، يجب ان ندرس ؛ يجب ان نفتش ونفهم أسباب العناء في حياتنا .

كانت سعيدة وهي ترى عينيه الزرقاوين ، وعهدها بهما صارمتين قاسيتين على الدوام ، تمتلئان الآن بنور ناعم ، حلو ، لطيف . تاهت بسمة هادئة على شفتيها ، وان كانت الدموع لما تزل ترتجف في غضون وجنتيها . كان يتنازعها عاملان : شعور بالفخر بابنها الذي وعى ، بكل ذلك الوضوح ، مرارة الحياة ؛ وإدراكها انه لا يزال شاباً ، وانه يتكلم بصورة تختلف كثيراً عن سائر الآخرين ، وانه أخذ على عاتقه ان يخوض المعركة وحيداً ضدّ هذه الحياة المألوفة لدى جميع الناس ، وهي منهم . وارادت أن تقول له : «ماذا تستطيع أن تفعل أنت وحدك ، يا حبيبي ؟»

لكنها أشفقت ان تتلف إعجابها به ، هو الذي كشف ، بغتةً ، عن ذكاء لم تكن تنتظره منه ، . . . ان أحست في الوقت نفسه انه أصبح غريباً عنها بعض الشيء .

ورأى بافل الابتسامة على شفتي أمه ، والانتباه في وجهها ، والمحبة في عينيها ، فبدا له انه نجح في إنهامها الحقيقة التي يدافع عنها ويذود ، واعتراه شعورٌ مستجدٌ بالاعتزاز بقوة كلماته رفع من ايمانه بنفسه . وانثال يتكلم بحماسة ، يبسم تارة ، ويعبس تارة أخرى ، وترن كلماته في بعض الأحيان في كثير من الحقد ، فتجفل الأم لدى سماعها

هذه الكلمات القاسية الرنانة ، وتهز راسها وهي تساله في نعومة :

– أحقٌ ما تقول ، يا باشا ؟

فيجيب في ثبات :

– نعم ، إنه لكذلك !

ويشرع يحدثها عن اولئك الذين ارادوا مساعدة الشعب ، فزرعوا الحقيقة بين الناس ، الأمر الذي لاحقهم من أجله اعداء الحياة كالوحوش المفترسة ، والقوا بهم في ظلمات السجن ، وحكموا عليهم بعبودية الأشغال الشاقة . . .

صاح متحمساً :

– لقد رايت مثل هؤلاء الناس ! إنهم ملح الأرض !

اجفلت ذعراً لدى التفكير في هؤلاء الناس ، وودّت مرة اخرى ان تستوضح فتاها : هل الحقيقة ما يقول ؟ لكنها لم تجرؤ على ذلك . أخذت تصغي ، منقطعة الأنفاس ، إلى اقاصيصه عن اناس لا تفهمهم ، هم الذين علموا ابنها أن يقول تلك الأمور الخطيرة ويفكر فيها .

واخيراً قالت له :

– سينبلج الصبح عما قريب ، فهلّا أصبت بعض الراحة ؟

فوافق قائلاً :

– سأذهب إلى الفراش الآن !

وانحنى عليها ، وسأل :

– افهمت ما قلتُ ؟

فردّت ، وهي تتنهد :

– نعم !

تدفقت الدموع من عينيها مرة اخرى ، وقالت وهي تشهق :

– سيؤول ذلك بك إلى الدمار ، يا بنيّ !

نهض ، وطفق يتمشى في الغرفة جيئةً وروحةً ، وقال :

– حسناً ، انت الآن تعلمين ما افعل ، والى اين أذهب . لقد رويتُ لك كل شيء ! فإن كنت تحبينني ، يا أماه ، فلا تعترضي سبيلي !

فهتفت :

– أواه ، يا عزيزي ! لربما كان من الأفضل الاّ تروي لي شيئاً !

فامسك يدها وضغط عليها بحرارة ، فغمرها ذلك الاحساس الدافئ الفائضة به كلمة اماه ، المتجلي في ذلك الضغط الغريب غير المعتاد على يدها .

قالت في صوت متكسر :

– لن افعل ما يسوؤك ، إنما اطلب إليك أن تحترس لنفسك ! إحترس جيداً !

ثم اضافت في كآبة ، دون أن تفهم ماهية الخطر الذي يهدّد ولدها :

– انت تزداد نحولاً يوماً بعد يوم . . .

واحاطت جسده القوي المتين بنظرة تطفح محبة وحناناً . واخذت تقول في هدوء وعجل :

– فليكن الله معك ! عش كما تجد مناسباً أن تعيش ! معاذ الله أن اقف في طريقك . بَيْد أني أسألك شيئاً واحداً

فقط – لا تكُ متهوراً في حديثك مع الناس ! ينبغي أن تحمل في نفسك الخوف منهم . إنهم يبغضون بعضهم بعضاً ! يعيشون جميعاً في الطمع ، والحسد ، والغيرة ، ويبتهجون إذ يُلحقون الأذى ببعضهم البعض . فإذا أخذت تكشف عن حقيقتهم وتتهمهم ابغضوك ودمروك !

وقف فتاها في فجوة الباب يستمع الى كلماتها الموجعة ، ثم تبسم عندما انتهت من حديثها وقال :

– إنك لعلى حق ، فالناس أشرار جميعاً ! لكنني حين عرفت انّ في العالم شيئاً كالعدالة بدوا لي افضل من ذي قبل !

وابتسم من جديد ، واضاف :

– انا نفسي لا اعرف كيف حدث ذلك ! في طفولتي كنت اخاف من جميع الناس . وعندما شببتُ كنت أكرههم جميعاً ، ابغض البعض لدناءتهم والآخرين دون ان ادري لماذا ، هكذا لمجرد البغض ! أما الآن ، فكل شيء يبدو لي غير ما كان عليه . لعلّ السبب في ذلك أني أشفق على الناس . لقد رقّ قلبي نوعاً ما عندما تحققت أن الناس جميعاً ليسوا بمسؤولين عن حقارتهم ودناءتهم . . .

كفّ عن الكلام ، وكأنه يصغي الى صوت في داخله . ثم اضاف في عذوبة وتروٍ :

– تلك هي الحقيقة إذن !

قالت أمه في هدوء ، وهي تنظر اليه :

– أواه ، أيها المسيح المخلص ! أي تبدل خطير طرأ عليك !

عندما استغرق في نومه نهضت من فراشها بهدوء وذهبت إليه . كان بافل مستلقياً على ظهره ووجهه الصارم الممتلىء عزماً ينعكس بوضوح على غطاء الوسادة الأبيض . وقفت الأم هناك حافية القدمين ، في ثياب النوم ، ويداها تضغطان على صدرها ، وشفتاها تتحركان دون ضوضاء ، ودموع كبيرة عكرة تتدحرج ببطء على وجنتيها . . .

٥

وعادا مرة ثانية الى حياتهما الصموت ، متباعدين متلاصقين في وقت واحد .

ذات يوم عطلة في منتصف الأسبوع التفت بافل إلى أمه وهو يغادر البيت ، وخاطبها قائلاً :

– سيزورني ، نهار السبت القادم ، ضيوف من المدينة .

فردّدت والدته :

– من المدينة ؟

وتملكها فجأة نشيج عنيف دفع الدموع إلى عينيها .

سأل بافل متضايقاً :

– ما بالك ، يا أماه ؟

فمسحت عينيها بطرف مئزرها وقالت ، وهي تتنهد :

– لست ادري . . . لا شيء البتة . . .

– اخائفة أنت ؟

فتمتمت موافقة :

– نعم !

انحنى عليها ، وخاطبها بفظاظة كما تعوّد أبوه أن يفعل ، قائلاً :

– هذا الخوف هو دمارنا ، والذين يقودوننا يستغلون هذا الخوف ويضاعفون في ذعرنا .

فغمغمت والدته ، والشقاء يرتجف مع ارتجافات صوتها :

– لا تغضب ! كيف يمكنني الا أخاف ؟ قضيت حياتي والخوف يعتصرني . شبّت روحي والخوف معاً !

فقال في لهجة عذبة :

– إصفحي عني . ليس هناك من سبيل آخر !

وذهب .

ظلت طوال ثلاثة أيام ترتعد فرقاً ، ويكفُّ قلبها عن الخفقان كلما تذكرت أنّ اولئك القوم الغرباء المخيفين الذين دلوا ابنها على الدرب التي يسير عليها الآن سيؤمون بيتها .

رجع بافل مساء السبت من المصنع ، فاغتسل وارتدى ثياباً نظيفة ، وخرج بعد أن قال لأمه ، دون ان ينظر إليها :

– إن سأل عني أحد قولي إني لن اتأخر في العودة . ولا تجزعي من محبة بالآلهة . . .

تراخت في ضعفٍ على دكة قريبة ، فاقترح بافل بعد أن نظر اليها نظرة عابسة :

– لعلك ترغبين في الذهاب إلى مكان ما ؟

آلمتها كلماته وقالت وهي تهز رأسها نفيا :

– كلا ، ليس بي رغبة !

كان ذلك في أواخر تشرين الثاني ، وقد تساقط ثلج ناعم جاف ، طوال النهار ، على الأرض المتجمدة التي أخذت

تتكسر تحت أقدام الفتى المنصرف لتبلغ فرقعتها سمع الأم . وكان الظلام الغليظ يخيم في الخارج ويتعلق بزجاج النوافذ ، وكأنه يتربع منتظراً في تحفز وعداوة . وبقيت الأم جالسة في مكانها ، تشدّ بكلتا يديها على الدكة الخشبية ، وعيناها تراقبان الباب لا تحيدان عنه .

خيل إليها ان اناساً أشراراً ، يرتدون ثياباً غريبة يخبون في الظلمة من كل جانب ظهورهم مقوسة وانظارهم مختلسة ؛ وان خطوات متلصصة تحاصر المنزل ، واصابع محاذرة تتحسس الجدران .

وسمعت صوتاً يصفر لحناً شرعت أصداؤه تنساب رقيقة في السكون ، حزينة متناسقة ، تتيه في الظلمة الفارغة وكأنها تسعى وراء شيء ضاع منها . وأخذ الصفير يزداد قرباً ، ثم انقطع بغتة عند النافذة تماماً ، وكأن خشب الحائط امتصّه عن آخره . وتردد عند الباب وقع أقدام فأجفلت الأم ، وهبت على قدميها واقفة ، وقد ارتفع حاجباها بشدة .

فُتح الباب ، وبدا فيه أولاً رأس تغطيه قبعة كبيرة شعثاء الفرو ، ثم خطا في بطء جسد مديد عبر الباب المنخفض الى داخل الغرفة ، وانتصب الشخص الدخيل ولوّح دون عجل بذراعه اليمنى تحية ، وقال في نبرة عميقة وهو يتنهد بشدة وضجيج :

– عمي مساء !

فانحنت الأم دون أن تردّ جواباً .

– هل بافل هنا ؟

خلع الزائر ببطء سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع

إحدى رجليه ليمسح بقبعته عن حذائه ما علق به من الثلج ، وكرّر العمل ذاته بالرجل الثانية ، ثم ألقى قبعته في إحدى الزوايا ، وتقدم عبر الغرفة مترنحاً على ساقيه الطويلتين وبعد أن تفحص بدقة أحد المقاعد ، وكأنه يتأكد من متانته جلس أخيراً وتثاءب وهو يستر فمه بإحدى يديه . كان رأسه مستدير الشكل قصير الشعر ، ووجهه حليقاً باستثناء شاربه الطويل المسترسل الى المنتهى . طفق يتفحص الغرفة باعتناء بعينيه الواسعتين الرماديتين الجاحظتين ثم استفسر وهو يلفّ ساقاً على ساق ، ويتأرجح إلى الأمام والخلف في مقعده :

– أهذا الكوخ ملككما ، أم تقطنانه بالأجرة ؟

فأجابت الأم من حيث جلست قبالته :

– بل بالأجرة .

– ليس هو بالمكان الجميل !

– سيأتي باشا عما قريب ، فانتظره قليلاً !

فردّ الرجل الطويل في هدوء :

– وهذا ما أنا فاعلٌ !

شجعها هدوؤه ، وصوته الرقيق ، ومحياه البسيط . كانت نظرته صريحة تبعث على الارتياح ، وشرارات من المرح تسطع في أعماق عينيه الصافيتين . كان في طلعته المنحنية ، الذابلة ، المتطاولة الساقين ، شيء جذاب يتوجه الى القلب مباشرة . وكان يرتدي قميصاً أزرق ، وسروالاً عريضاً أسود يدخل في حذائيه . أرادت أن تسأله عن هويته ، وعن المكان الذي قدم منه ، وعما إذا كان يعرف ابنها منذ طويل

زمن ولكنه مال إلى الأمام ، على حين غرة ، وبدأ الحديث سائلاً :

– من لطمك بكل هذا العنف على رأسك ، يا اميمة ؟

كان صوته لطيفاً ، وعيناه تضحكان دون خبث ، ولكن سؤاله جرح شعورها . سألته في أدب بارد ، من خلال شفتين منضمتين بعد برهة قصيرة من الصمت :

– وما شأنك في ذلك ، يا فتى ؟

فقال ، وقد انحنى صوبها بكامل جسده :

– ليس في هذا ما يسوؤك ، يا اميمة ! سألتك لأن الأم التي تبنتني حملت ندبة تشبه هذه الشبه كله . وكان الرجل الذي نعيش معه السبب فيها ، إذ ضربها مرة بقالب الأحذية . كان إسكافياً وهي غسالة . لقد التقطته في مكان ما – لسوء طالعها اللامتناهي – وهو السكير الذي لا يصلح لشيء ، وجرى ذلك بعد أن تبنتني . لشدّ ما كان يضربها ! كان جلدي يتشقق عندئذ خوفاً . . .

جرّد هذا الاعتراف الأم من سلاحها ، فبدأت تخاف غضبة بافل إذا علم انها أجابت الرجل الغريب بتلك الحدة . قالت ، وعلى شفتيها ابتسامة مذنبة :

– لم يسؤني ذلك حقاً . ولكنك سألتني بصورة مفاجئة باغتتني . هو زوجي الذي ترك لي هذه الندبة ، أسكنه الله جنان ملكوته ! ألست تترياً ؟

هز الرجل ساقيه ، مبتسماً بسخاء حتى لاحت أذناه وقد تراجعتا إلى الخلف . لكنه سرعان ما استرد جدّه ورزانته :

– كلا . لم أصبح تترياً بعد .

فقالت الأم مبتسمة ، وقد أدركت النكتة :

– في حديثك رطانة غير روسية !

قال الضيف وهو يهز رأسه في مرح :

– إن لهجتي أفضل من اللغة الروسية ! أنا أوكراني من مدينة كانيف .

– وأنت هنا منذ زمن طويل ؟

فقال ، وهو يفتل شاربيه :

– عشت في المدينة سنة أو أقل . ثم جئت المصنع هنا منذ شهر تقريباً . ثمة قوم طيبون ههنا ، ابنك ، وبعض الآخرين أيضاً . أعتقد أني سأبقى هنا طويلاً !

أحبته ، وأرادت أن تكافئه بطريقة ما من أجل تلك الكلمات التي قالها عن ابنها . فسألته :

– لعلك ترغب في تناول كأس من الشاي ؟

فأجاب ، وهو يهز كتفيه :

– ولِمَ أتناوله وحدي ؟ انتظري قدوم الباقين ، وعندئذ تكرميننا جميعاً . . .

فذكرتها كلماته بمخاوفها . همست في نفسها بحرارة :

«لو أن الباقين يماثلونه لطفاً فقط !»

علا من جديد وقع أقدام عند مدخل الدار ، وانفتح الباب بسرعة ، فهبت الأم مرة أخرى على قدميها ، ولشدّ ما كانت دهشتها عظيمة عندما رأت فتاة في زهوة الصبا تدخل المطبخ . كانت أقرب إلى القصر ، لها وجه بسيط كوجوه الفلاحات ، وقد جمعت شعرها الأشقر في جديلة واحدة كثيفة . سألت في لهجة عذبة :

– هل تأخرت ؟
فأجاب الأوكراني ، متطلعاً من خلال الباب :
– كلا ، لم تتأخري ! أجئت ماشية طوال الطريق ؟
– طبعاً ! أأنتِ أمُّ بافل ميخائيلوفيتش ؟ عمي مساء ، اسمي ناتاشا . . .
فسألتها الأم :
– ولقبك ؟
– فاسيليفنا . وأنت ما اسمك ؟
– بيلاجيا نيلوفنا .
– وهكذا تعارفنا الآن . . .
فقالت الأم ، وهي تتنهد بلطف وتبتسم للفتاة :
– نعم !
وسأل الأوكراني ، وهو يساعد الفتاة على خلع معطفها :
– أكان الطقس بارداً ؟
– لاذع عبر الحقول ! يا لها من ريح عصوف !
كان صوتها غنياً صافياً ، وفمها صغيرا ، وشفتاها ممتلئتين ، وقامتها قصيرة مستديرة ، حيّة كالخوخة الناضجة . وبعد أن خلعت معطفها راحت تدلك خديها المورّدين بيدين صغيرتين محمرتين بتأثير الصقيع ، ثم دخلت عجلى إلى الغرفة الكبيرة وهي تضرب الأرض بشدة بنعلي حذائها .
همست الأم لنفسها : «إنها لا تلبس جزمة مطاط !»
وقالت الفتاة ، وهي ترتجف :

– بر – ر – ر . . . أنتما لا تتصوران كم أنا متجمدة !
فصاحت الأم ، وهي تسرع إلى المطبخ :
– لحظة واحدة وأهيئ السماور ، لحظة واحدة فقط .
كان يخيل لها أنها تعرف هذه الفتاة منذ فترة طويلة ، وأنها تحبها بكل عطف الأم الرؤوم وحنانها . وراحت تبتسم ، وهي تصغي إلى الحديث في الغرفة المجاورة . قالت الفتاة :
– ما الذي يحزنك ، يا ناخودكا ؟
فأجاب الأوكراني في هدوء :
– لا شيء على التعيين ! إن للأرملة عينين رائعتين ، وكنت أفكر أن عيني أمي ربما كانتا مثلهما أيضاً . ما أكثر ما أفكر بأمي ، فيخيل إليّ أنها يجب أن تكون على قيد الحياة .
– ولكنك رويتَ لي أنها ماتت ؟
– تلك حاضنتي التي ماتت ، وأنا أتحدث عن أمي الحقيقية . يبدو لي أنها تستعطي الآن في مكان ما على أرصفة كييف ، وتشرب الفودكا ، والشرطة تلطمها على وجهها كلما شربت وثملت . . .
وفكرت الأم ، وهي تتنهد : «يا للصبي المسكين !»
قالت ناتاشا ، في عجلة ، شيئاً رقيقاً مؤثراً ، فعاد صوت الأوكراني العميق يتردد من جديد :
– لا تبرحين طفلة ، ولم تجتازي الكثير من التجارب بعد ! إن ولادة إنسان في العالم أمر صعب للغاية ، والأصعب من ذلك أيضاً تعليمه أن يكون شريفاً . . .
– يا لها من حقيقة !
هتفت الأم بذلك في نفسها ، وأحست بدافع يحدوها

لأن تقول للأوكراني شيئاً لطيفاً . لكن الباب انفتح ببطء ودخل منه نيقولاي فيزوفشيكوف ، ابن اللص القديم دانيلو . كان نيقولاي مشهوراً في الضاحية بجفوته الناس ، وانعزاله عنهم ، فكانوا يسخرون منه من جراء ذلك .

سألته الأم في دهشة :

– ماذا تريد ، يا نيقولاي ؟

فقال دون أن يحيّيها ، وهو يمسح وجهه العريض المجدور براحة يده :

– هل بافل هنا ؟

– كلا !

فالقى نظرة الى الغرفة ودخلها وقال :

– مساء الخير ، ايها الرفاق . . .

وفكرت الأم في استهجان : «أهو منهم أيضاً ؟»

ازداد عجبها عندما رات ناتاشا تقدم إليه يدها ، وهي سعيدة برؤيته . . .

وتبع نيقولاي اثنان آخران يكادان أن يكونا صبيين عرفت الأم احدهما ، وهو فتى قاسي القسمات ، مجعد الشعر ، عريض الجبهة ، يدعى فيودور ، وهو ابن أخ سيزوف ، العامل القديم في المصنع . اما الثاني فكان خجولاً ذا شعر صقيل يكاد أن يلتصق برأسه ؛ لم تكن تعرفه ، لكن لم يكن فيه ما يبعث على الذعر . واخيراً ظهر بافل ، يصحبه عاملان شابان لم يكونا مجهولين عندها .

قال بافل في لطف :

– هل هيأت السماور ؟ شكراً جزيلاً !

فسألته ، وهي لا تدري كيف تعبر عن امتنانها لشيء غامض غير محدود :

– أأشتري شيئاً من الفودكا ؟

فقال بافل ، وهو يبتسم بحنان كثير :

– كلا ، لن نحتاج إليها !

وخطر لها ، بغتة ، أن ابنها بالغ في وصف خطورة هذا الاجتماع حتى يضحك منها ، فسألته في عذوبة :

– أهؤلاء هم الناس الخطرون ؟

فاجاب بافل ، وهو يتسلل الى الغرفة المجاورة :

– هم أنفسهم !

فصاحت الأم خلفه في لطف :

– انت لا تعني ذلك حقاً ؟ يا لك من مازح !

وفكرت في تسامح : «هو لا يزال صبياً !»

٦

عندما اصبح السماور جاهزاً حملته الأم الى الغرفة المجاورة حيث تجمهر الضيوف ، جلوساً حول المائدة ، الا ناتاشا التي قعدت في الزاوية تحت المصباح وبين يديها كتاب صغير . كانت تقول :

– كي نفهم السبب في قذارة حياة الناس . . .

فأضاف الأوكراني مقاطعاً :

– والسبب في أنهم ، هم أيضاً ، قذرون حتى هذه الدرجة . . .

– لا بدّ من إلقاء نظرة على اصول حياتهم . . .
فتمتمت الأم وهي تصبّ الشاي :
– انظروا يا اعزائي ، انظروا في ذلك جيداً !
فصمت الجميع .
سأل بافل ، وقد زوّى ما بين حاجبيه :
– ما الأمر ، يا أماه ؟
– ما الأمر ؟
تلفتت حواليها ، فرأت الجميع يتطلعون إليها بثبات ، فغمغمت في اضطراب :
– اواه ! كنت احدث نفسي ، وقلت : القوا نظرة ! . .
فضحكت ناتاشا ، وابتسم بافل في شاربيه ، وقال الأوكراني :
– شكراً من اجل الشاي ، يا أُميمة !
– يفضل ان تعلن شكرك بعد أن تتذوقه !
واضافت ، وهي تصبو إلى ولدها :
– هل يزعجكم وجودي ؟
فاسرعت ناتاشا تجيبها :
– وكيف يمكن ان يزعج وجود المضيفة ضيوفها ؟ لكن يا عزيزتي ، لو انك تسرعين وتعطينني بعض الشاي الساخن ! إن سائر اعضائي ترتجف وقدمي تجمدتا حتى اصبحتا كالجليد !
كان صوتها شاكياً ، وكأنها طفلة صغيرة ، فهتفت الأم في عجلة :
– حالاً ، حالاً !

عندما انتهت ناتاشا من تناول الشاي صعّدت زفرة عميقة ، والقت ضفيرتها الكثّة عن كتفيها ، وأخذت تقرأ في الكتاب ذي الغلاف الأصفر المزين بالرسوم . وراحت الأم تصب الشاي وتستمع إليها ، وهي تحاول الا تثير – أثناء ذلك – ادنى ضجة على الاطلاق . كان صوت الفتاة الرنان يمتزج بهمهمة السماور المتأملة ؛ فيما ينتشر عبر الغرفة نسيج رائع من الأقاصيص المحدّثة عن بشر متوحشين كانوا يقطنون الكهوف ويصطادون بالحجارة . وكان ذلك كله يتردّد كإحدى سير الجنّ ، والأم تلقي النظر مراراً الى ابنها ، تشاء ان تسأله كيف يمكن ان تكون مثل هذه المعرفة ممنوعة محرّمة . وسرعان ما تعبت من الاستماع إلى المطالعة فراحت تدرس ضيوفها بنظرات مختلسة حتى لا ينتبه احد منهم ، أو ينتبه ابنها ، إلى ذلك .
كان بافل يجلس إلى جانب ناتاشا ، وكان أجمل الحاضرين طلعة . وكانت ناتاشا ، المنكبّة فوق الكتاب ، تدفع من وقت لآخر خصلات الشعر المنزلقة على صدغيها . كانت تتفوه بين الفينة والفينة ، وهي تهزّ رأسها وتخفض صوتها ، بملحوظات من عندها ؛ فتكفّ عندئذ عن النظر إلى الكتاب ، وتأخذ تتطلع إلى الوجوه المحيطة بها في كثير من الحنان والعطف . وكان الأوكراني ، المتكئ على إحدى جوانب المائدة ، ينظر إلى أرنبة انفه ، ساعياً الى رؤية طرفي شاربه المسترسل . وكان فيزوفشيكوف يقعد على كرسيه مستقيماً كالعصا ، ويداه على ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العديم الحاجبين ، الدقيق الشفتين ، خالٍ كالقناع من كل تعبير .

كان لا يحيد بناظريه عن صورته المنعكسة على نحاس السماور اللمّاع دون ان يرف جفناه مطلقا ، لا بل كان يؤتى للناظر إليه انه لا يتنفس ايضاً . وكان فيودور الصغير يصغي الى القراءة ، ويحرك شفتيه دون ضجة وكانه يردّد كلمات الكتاب لنفسه ؛ بينما جلس رفيقه منحنياً بكل جسده ومرفقاه يستندان إلى ركبتيه ، وخداه يعتمدان راحتيه ، وابتسامة مفكرة تتيه على شفتيه . وكان أحد الشابين اللذين جاءا مع بافل أحمر الشعر مجعّده ، له عينان خضراوان مرحتان ، لا ينقطع عن الحركة فوق مقعده ، وكانه يريد ان يقول شيئاً ؛ أما الشاب الآخر ، وهو ذو شعر اشقر مقصوص ، فلا يفتأ يداعب رأسه بيده وهو مطرق يشخص إلى الأرض ، بحيث لم تستطع الأم رؤية وجهه أبداً . وكانت الغرفة مليئة بجو طيب واحست الأم شيئاً غير مالوف لديها مطلقاً ، وتذكرت من وراء صوت ناتاشا امسيات صباها الصاخبة ، وحديث الشباب القذر ومداعباتهم السمجة ، هؤلاء الشباب الذين كانت تفوح من أنفاسهم رائحة الفودكا دائماً . وعندما تذكرتهم انقبض قلبها أسفاً لحياتها وإشفاقاً على نفسها .

تذكرت كيف خُطبت لزوجها . امسك بها في إحدى تلك الأمسيات في الممرّ المظلم ، وضغط جسدها على الجدار بعزم ، وسألها بصوت خشن ابشّ :

— اتريدين الزواج مني ؟

آذاها ذلك وجرح كرامتها ، بَيْدَ انه استمر يضغط على ثدييها باصابعه الغليظة ، وينفخ أنفاسه الحارة الرطبة

في وجهها . سعت جاهدة للإفلات منه فلم تنجح إلا في الاستدارة جانباً ، فزمجر قائلاً :

— إلى اين تذهبين ؟ أعطيني جواباً أولاً !

لم تنضّ شفتاها حرفاً ، وانقطعت أنفاسها ألماً وحياءً .

وفتح احدهم باب الممرّ ، فافلتها من قبضته ببطء وقال :

— سوف ارسل خاطباً يوم الأحد المقبل . .

ولقد فعل . . .

اغلقت الأم عينيها ، وصعّدت زفرة حرّى ، بينا ارتفع صوت فيزوفشيكوف محتجاً :

— اريد ان أعرف كيف يجب أن يعيش الناس ، لا كيف كانوا في الماضي يعيشون !

فقال الفتى الأحمر الراس ، وهو ينهض :

— ذلك صحيح !

فهتف فيودور يقول :

— لا اوافقكما على هذا !

وتبع ذلك نقاش حامي الوطيس اتّقدت الكلمات فيه كالسنة النيران الواهرة الملتهبة . ولم تفهم الأم مبعث صراخهم ، وإن وجدت أن أحداً منهم لم يفقد زمام نفسه أو يلجا إلى تلك الكلمات البذيئة التي اعتادت سماعها على الدوام ، هذا بالرغم من أن وجوه الجميع احمرّت حدةً وهياجاً .

قالت لنفسها في تعليل ذلك : — «وجود الفتاة بينهم يكبح جماحهم !»

حلت" لها سيماء الرزانة التي تعلو وجه ناتاشا ، وهي تراقب الجميع بانتباه ، وكأنها تجد هؤلاء الفتيان أطفالاً صغاراً ليس غير .

صاحت أخيراً ، على حين فجأة :

– انتظروا لحظة ، أيها الرفاق !

فخيم الصمت على الجميع ، وراحوا يتطلعون اليها .

– من يقول منكم إن واجبنا أن نعرف كل شيء هو على حق ، ذلك انه ينبغي أن نشعل نبراس المعرفة في انفسنا حتى يشعّ على أولئك الذين أظلمت عقولهم وغمرهم الجهل بظله الممقوت . يجب ان نملك جواباً صحيحاً شريفاً لكل شيء . يجب ان نعرف كل الحقيقة ، ونتبيّن كل البهتان . . .

كان الأوكراني يصغي وهو يهزّ رأسه بتوافق مع كلماتها ، اما فيزوفشيكوف ، والأحمر الرأس ، وأحد الشابين اللذين جاءا في رفقة بافل ، فقد شكلوا فريقاً واحداً ، ولسبب ما استاءت الأم منهم .

عندما انتهت ناتاشا من الكلام ، نهض بافل وقال في هدوء تام ، وهو ينظر الى الثلاثة معاً :

– أهي معدة ممتلئة فقط ما نسعى إليه ؟ أبداً ! لا شيء من هذا القبيل ! يجب ان نبين لأولئك الذين يركبون ظهورنا ، ويضعون العصابة في ذات الوقت على عيوننا ، اننا نرى كل شيء . نحن لسنا اغبياء ، وكذلك لسنا حيوانات لا تطلب الا معدة ممتلئة . نحن نريد أن نعيش حياة جديرة بكائنات بشرية ! يجب ان نبرهن لأعدائنا أن حياة

العبودية التي ألجمونا بها لا تمنعنا أن نكون مساوين لهم فكرياً ، لا بل متفوقين عليهم أيضاً !

كان شعور من الفخر والاعتزاز يجتاح صدر الأم وهي تسمع الى هذه الكلمات . حقاً ، ما أجمل حديثه !

قال الأوكراني :

– ثمة عدد غفير من الناس يجدون كفافهم من الطعام ، لكن الشرفاء بينهم قلّة ! علينا ان نبني جسراً فوق مستنقعات هذه الحياة العرجاء يقودنا الى مملكة الأخوّة الانسانية المقبلة ! ذلك هو الواجب الذي يواجهنا ، أيها الرفاق !

فاعترض فيزوفشيكوف بفظاظة :

– ما دامت ساعة القتال قد حلت ، فما جدوى القعود مكتوفي الأيدي إذن ؟

لم ينفرط عقد الاجتماع إلا بعد انتصاف الليل . سبق فيزوفشيكوف والأحمر الشعر الباقين في مغادرة المكان ، الأمر الذي استاءت منه الأم أيضاً .

قالت في نفسها ، وهي تنحني لهما في شيء من جفوة : «لشدّ ما أنتما مسرعان !»

وسألت ناتاشا :

– هل تصحبني الى المنزل ، يا ناخودكا ؟

فأجاب الأوكراني :

– طبعاً ، وهل في ذلك من ريب ؟

وقالت الأم تخاطب ناتاشا المرتدية ثيابها في المطبخ :

– جورباك رقيقان جداً بالنسبة لهذا الطقس البارد ! لعلك لا تمانعين في ان أشتغل لك زوجاً من الجوارب الصوفية ؟

اجابت ناتاشا ضاحكة :

– شكراً لك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ! الجوارب الصوفية مثار للحكة !

فقالت الأم :

– ولكني سانسجها من نوع لا يثير الحكة !

فنظرت إليها ناتاشا من خلال أهدابها بثبات أحسّت الأم تجاهه بعض الارتباك ، فاسرعت تضيف بهدوء :

– يجب أن تغفري لي حماقتي ، ولكني قلت ذلك من اعماق قلبي !

فاجابت ناتاشا في هدوء مماثل ، وهي تضغط يد الأم بحماسة :

– يا لك من امراة طيّبة !

وقال الأوكراني ، وهو ينظر في عينيها وينحني ليعبر الباب خلف ناتاشا :

– طابت ليلتك ، يا أميمة !

نظرت الأم إلى ابنها . كان يقف على عتبة الباب يبتسم ، فسالته في ارتباك :

– ما الذي تضحك منه ؟

– هكذا ، فرحاً !

فردّت بصوت ينمّ عن شيء من الزعل :

– قد أكون عجوزاً حمقاء ، إنما استطيع بعد ان أفهم جيداً !

فقال :

– عظيم هذا ! لكن ، يحسن أن تاوي الى الفراش ، فلقد مضى من الليل أكثره !

– إني في طريقي إليه !

راحت تدور حول المائدة ترفع عنها الصحون والاقداح ، متفجرة سعادة حتى تصببت عرقاً . كانت مغتبطة لأن كل شيء جميل ، وانتهى بخير وسلام .

قالت :

– لقد صنعت حسناً ، يا باشا ، بدعوتهم ! الأوكراني لطيف جداً ، وأما الفتاة . . . فيا لها من فتاة ذكية ! . . من هي ؟

فاجاب بافل باقتضاب ، وهو يسير في الغرفة جيئة وذهوباً :

– معلمة !

– لا ريبة أنها فقيرة جداً ، فلباسها سيئ للغاية ، وهي لا تحتاط لنفسها من البرد . أين اهلها ؟

– في موسكو !

قال بافل ذلك ، ثم وقف قبالة والدته ، وقال لها في رقة وشيء كثير من الرزانة :

– والدها واسع الثروة ، وهو مساهم في شركة الحديد ويملك عدة أبنية ، ولكنه طردها لأنها اختارت هذه الطريق في الحياة . لقد شبت في الدفء ورغد العيش ، واعتادت الحصول على كل ما ترغب فيه ، أما الآن فهي تمشي سبعة فراسخ ، في الليل ، وحدها دون رفيق . . .

شُدِهَت الأم لهذا الخبر ، فوقفت في وسط الغرفة

تنظر إلى ابنها وجفناها يرفّان دهشة . سألته في رزانة :

– هل غدت الآن إلى المدينة ؟

– نعم !

– يا الله ، ومي ليست خائفة ؟

فضحك بافل ، وأجاب :

– تستطيعين ان تتأكدي ، من تلقاء نفسك ، أنها ليست خائفة .

– ولكن لماذا ؟ كان يمكن ان تقضي الليل هنا ، فتنام معي !

– هذا شيء غير مرغوب فيه ! فقد تراها العيون في الصباح هنا ، وذلك ما لا نريد .

شخصت أمه من خلال النافذة ، غارقة في لجة من التفكير ، وقالت في صوت خفيض :

– بافل ، انا لا افهم ما في ذلك من . . . خطر ، ومن . . . ممنوع . . . انتم لم تفعلوا شيئاً مؤذياً ، اليس كذلك ؟

لم تكن واثقة تماماً من ذلك ، فكانت تسعى وراء تأكيد فتاها له .

نظر بافل في عينيها بانتباه ، واجاب في ثبات :

– إننا لا نرتكب شيئاً مؤذياً على الاطلاق ، ومع ذلك فلسوف نستقر جميعاً في غياهب السجن يوماً . يجب ان تعلمي ذلك . . .

فبدأت يداها ترتعشان ، وسألته في صوت مختنق :

– ربما ، بارادة الله ، تفلتون من ذلك بطريقة ما ؟

فأجابها في لطف :

– كلا ! لست أريد خداعك ، فليس من ذلك مفر !

وابتسم :

– إذهبي الى الفراش ، الآن ، فأنت واهنة القوى . طابت ليلتك !

عندما اصبحت وحيدة توجهت إلى النافذة ، ومدّت نظرها الى الخارج . كان كل شيء وراء النافذة بارداً غير واضح المعالم . وكانت ريح صرصر تنفخ الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الناعسة ، وتصطدم بالجدران ، وتهمس بشيء ما وهي عجلى ، ثم تنحدر حتى الأرض لتثير عاصفة من ندف الثلج الجافة تملأ الشارع بها . . .

همست الأم في رقة وسكينة :

– كن رحوماً بنا ، أيها الحبيب يسوع !

كانت الدموع تزدحم في قلبها ، وتوقّع الكارثة التي تحدّث عنها ابنها بكل تلك الثقة يرفرف في صدرها كفراشة تحت جنح الظلام . وخيل إليها أنها ترى أمامها سهلاً معموراً بالثلج تهبُّ فوقه ريح بيضاء خافقة ، وتعصف وهي تعول بحدة وعنف . وثمة شبح صغير أسود لفتاة تترنح في وسط السهل . كانت الريح تلتف حول ساقيها ، وترفع ثيابها ، وتصفع وجهها بالثلج القارص ، وهي تتقدم بصعوبة ، وقدماها الصغيرتان تغوصان في الثلج . وكان البرد لاذعاً والظلام مخيماً ، وجسدها يتقوّس الى الأمام مثل عرق وحيد من العشب ينحني تحت تأثير نفحات ريح الخريف ، وجدار الغابة يرتفع في المستنقعات إلى يمينها حيث تتهامس أشجار

البتولا الناحلة والحور المعراة بيأس قاتل ؛ وهناك ، **من بعيد** جداً ، كانت أنوار المدينة تتلألأ باهتة . . .

همست الأم ، وهي ترتعد خوفاً وفرقاً :

— أيها المخلص الحبيب ، ارفق بها !

٧

تعاقبت الأيام ، الواحد تلو الآخر ، مثل حبات السبحة تشيّد الأسابيع والشهور . وفي كل يوم سبت كان أصدقاء بافل يجتمعون في داره ، وكل اجتماع يمثل درجة جديدة في السلم الطويل الصاعد التي يرتفع عليها الناس ببطء نحو هدف بعيد .

وانضم اناس آخرون الى جماعتهم حتى ضاقت بهم الغرفة الصغيرة في منزل آل فلاسوف وأصبح جوها خانقاً . وثابرت ناتاشا على الحضور مهدودة القوى ، متجمدة الأطراف ، لكنها مرحة أبداً . ونسجت لها أم بافل زوجاً من الجوارب وضعته ، هي نفسها ، في قدمي الفتاة الصغيرتين ، فضحكت ناتاشا في البدء ، ثم عادت بغتة هادئة جادة ، وقالت في صوت مخفوض :

— كان لي ، ذات يوم ، مربية لطيفة هي الأخرى بصورة مدهشة ! ما أغرب ذلك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ! الشعب العامل يرزح تحت نير حياة قاسية ذليلة ، ومع ذلك فقلبه رقيق وهو ألطف من أولئك !

لوّحت بيدها تشير الى مكان ما بعيد بعيد . . .

قالت بيلاجيا :

— وانت أيضاً ، يا لك من فتاة ! تركت اهلك وكل شيء . . .

وتنهدت ، ولاذت بالصمت يعجزها التعبير عن أفكارها . وعندما نظرت في وجه ناتاشا احست من جديد ذلك الشعور من الامتنان لشيء غامض غير محدود . جلست على الأرض قبالتها ، بينما الفتاة تبتسم ، مفكرة ، مطرقة الراس .

ردّدت :

— تركت أهلي ؟ هذا لا يعني شيئاً ! والدي إنسان قاس ، وكذلك أخي . وهو سكير أيضاً . وأختي البكر تعيسة الحياة ، تزوجت رجلاً يكبرها عدة سنين ، كثير الثراء ، لكنه وضيع وبخيل مقتر . وإني لآسفة من أجل والدتي ! إنها امرأة بسيطة مثلك ، هزيلة كالفارة ، سريعة الركض كالفارة أيضاً ، تخاف من كل شيء . وإني لأريد في بعض الأحيان بصورة مخيفة ، أن أراها . . .

فقالت الأم ، وهي تهز رأسها بكآبة :

— يا لك من مسكينة !

رمت الفتاة بسرعة رأسها الى الخلف ، ومدت يدها كمن تدفع شيئاً ما بعيداً عنها :

— أوه ، كلا ! تلهبني الفرحة في بعض الأحيان ، فأسعد إلى أبعد الحدود !

اصفرّ وجهها ، واتقدت عيناها الزرقاوان ، وقالت في صوت خفيض مؤثر ، واضعة يديها على كتفي الأم :

– لو أنك تعلمين ، لو كنت تستطيعين فقط أن تفهمي عظمة الغاية التي نعمل في سبيلها !

فمسّ قلب بيلاجيا فلاسوفا شيء يقرب من الحسد كثيراً ؛ وقالت في كآبة ، وهي تنهض عن الأرض :

– انا عجوز لا اصلح لمثل ذلك ، واميّة بالاضافة إليه . .

. . ازداد كلام بافل أكثر فاكثر ، فهو يتكلم زمناً طويلاً بحماسة أعظم من ذي قبل ، ويزداد نحولاً دون انقطاع . وصوّر لأمه أن نظرته ترقّ ، وصوته يصبح الطف ، ومجمل مظهره اكثر بساطة وهو ينظر إلى ناتاشا أو يتحدث معها .

فكّرت : «ارجو ان يكون الأمر كذلك بإذن الله !» وابتسمت .

في كل مرة يحتد النقاش بينهم اثناء اجتماعاتهم يهبّ الأوكراني ناهضاً ، ويقف هناك يتأرجح إلى الأمام والخلف مثل مطرقة الناقوس ، وهو يتفوه في نبرة رنانة عميقة بكلمات لطيفة ، بسيطة ، سرعان ما تسبغ الهدوء والجدّ على الجميع . . . وكان فيزوفشيكوف متجهماً ابداً ، يحث الاخرين دائماً على إتيان هذا الأمر او ذاك . فيبدأ ، هو او الأحمر الراس الذي كان اسمه صمونيلوف كل المجادلات يعضدهما فيما يذهبان اليه ايفان بوكين المدور الراس اشقره الذي يبدو كمن اغتسل في ماء قلويّ . ولم يكن ياكوف سوموف النظيف الثياب ، الحليق الوجه ، يتكلم إلا قليلاً ؛ فإن فعل َفبوقارٍ جمّ . . وكان هو وفيدور مازين ذو الجبين

العريض يدعمان دائماً بافل والأوكراني في سائر المناقشات .

وفي بعض الأحيان كان نيقولاي إيفانوفيتش ، وهو رجل يحمل نظارتين ولحية شقراء قصيرة ، يجيء من المدينة بدلاً من ناتاشا . ولد نيقولاي هذا في إحدى المقاطعات النائية ، الأمر الذي يتضح من لكنته في لفظ بعض الأحرف . وكان يبدو بعيداً بصورة عامة . فيتحدث عن أبسط الأمور : عن الحياة العائلية والاطفال ، عن السوق والشرطة ، عن ثمن الخبز واللحم ، وعن سائر تلك الأشياء الخاصة بحياة الشعب اليومية . ولكنه يفعل ذلك بأسلوب خاص ، بحيث يكشف كل ما فيها من بهتان مناف للمعقول ، وما فيها من بلاهة ومدعاة للهزء والسخرية ، لكن مضر بالناس ملحق بهم الأذى . كان يخيل للأم انه جاء من بعد سحيق ، من واقع مختلف ، حيث يعيش الجميع حياة ميسورة شريفة . وكان كل شيء هنا غريباً عليه ، فلا يستطيع ان يألف هذه الحياة فيقبلها كأمر محتوم لا مفرّ منه . إنه يكرهها ، فيثير فيه هذا البغض رغبة هادئة دائبة فى تبديلها على طريقته الخاصة . كان وجهه مصفراً ، تحيط عينيه خطوط دقيقة . وكان صوته ناعماً ، ويداه دافئتين ابداً . وكان يضم مجموع يد بيلاجيا فلاسوفا بين أصابعه القوية كلما صافحها ، فتحس على الدوام الهدوء والراحة لمثل هذه التحية .

كانت وجوه أخرى من المدينة تظهر في هذه الاجتماعات ، واكثر من غيرهم جاءت فتاة طويلة ، ناحلة القدّ ، ذات عينين

واسعتين ووجه هزيل شاحب ، تدعى ساشنكا • . كان في حركاتها وطريقتها في السير شيء خليق بالرجال ، فهي تعقد ما بين حاجبيها الكثيفين السوداوين بصرامة ، بينما يرتجف الجناحان الرقيقان لانفها المستقيم عندما تتحدث . كانت هي اول من اعلن ، ذات يوم ، في صوت عال قاسي النبرات :

– نحن . . . اشتراكيون . . .

عندما سمعت الأم هذا شخصت الى الفتاة في ذعر ساكن . فلقد بلغها ، ذات يوم ، ان الاشتراكيين اغتالوا القيصر •• . وكان ذلك في أيام صباها عندما هبّ الملاكون يريدون ، كما تقول الرواية ، ان ينتقموا لأنفسهم من القيصر الذي حرّر عبيدهم ، واقسموا أن لا يقصوا شعورهم إلا بعد ان يقتلوه ، فلقبوا بالاشتراكيين لهذا السبب . أما الآن ، فإن بيلاجيا لا تستطيع ان تفهم لماذا يسمي ابنها واصدقاؤه أنفسهم بالاشتراكيين .

بعد أن انصرف الجميع سألت بافل :

– هل أنت اشتراكي ، يا باشا ؟

فقال ، وهو يقف تجاهها كعادته قوياً متين البنيان :

– نعم ! لماذا تسألين ؟

فتنهدت بعمق ، واسبلت اجفانها :

• كنية التدليل من ساشا . **المترجمان** .

•• المقصود هنا اغتيال اعضاء المنظمة الثورية الارهابية «ارادة الشعب» للقيصر الكسندر الثاني في بطرسبورغ في اول آذار ١٨٨١ . **الناشر** .

– اصحيح ذلك ، يا بنيّ ؟ ولكنهم . . . ضد القيصر ، لا بل إنهم قتلوا احد القياصرة أيضاً .

فاخذ بافل يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وهو يداعب خدّه بيده ، ثم قال ، بعد ضحكة قصيرة :

– نحن لسنا في حاجة إلى ارتكاب مثل هذه الأمور .

تحدث إليها طويلاً في كلمات هادئة رزينة . وفكرت ، وهي تنظر في وجهه :

«إنه لن يرتكب إثماً أبداً ! إنه لا يستطيع ذلك !»

وتكررت من بعد الكلمة المخيفة على مسمعها مراراً وتكراراً حتى نعمت شفرتها الحادة . واعتادت أذنها على سماعها كما اعتادت على سماع عشرات من الكلمات الأخرى غير المفهومة . ولكنها لم تحب ساشنكا ، بل هي تشعر بالاضطراب والانقباض في حضرتها . . .

تحدثت عنها ذات يوم إلى الأوكراني ، وهي تضم شفتيها باستياء :

– كم هي صارمة ساشنكا هذه ! لا تنفك تصدر الأوامر للجميع . انت يجب ان تفعل هذا ، وانت يجب أن تفعل ذلك . . .

فقهقه الأوكراني ضاحكاً ، وقال :

– لقد أصبتِ المرمى ! لقد أصبت الحقيقة في كبدها ، يا اُميمة ! ما رأيك في هذا ، يا بافل ؟

عالنها وهو يغمز بعينه والابتسامة الساخرة تشع في عينيه :

– هي من عائلة نبلاء !

وقال بافل في جفوة :

– إنها لانسانة رائعة !

فوافق الأوكراني بقوله :

– صحيح جداً ! ولكن ثمة شيئاً واحداً لا تفهمه . كل شيء بالنسبة إليها «يجب» ، اما بالنسبة إلينا فهو «نريد» و«نستطيع» !

كانا يتجادلان في اشياء غير مفهومة .

لاحظت الأم ايضاً ان ساشنكا تعامل بافل بصرامة اكثر من الباقين ، حتى لتصيح في وجهه احياناً . وعندئذ لا يقول بافل شيئاً ، بل يضحك ضحكة قصيرة ، وينظر في وجه الفتاة بتلك النظرة الرقيقة التي كان يخص بها ناتاشا من قبل . وذلك اساء الى الأم ايضاً .

كانت بيلاجيا تندهش احياناً لذلك المرح الشديد الذي يأخذهم جميعاً على حين غرة ، الأمر الذي يجرى عادة في تلك الامسيات حيث يقرؤون ما تحمل الصحف من اخبار حياة العمال في الخارج . كانت اعين الجميع تشع عندئذ فرحاً ، فيصبحون جميعاً سعداء بشكل غريب صبياني ، يضحكون جميعاً ضحكتهم النقية الصافية ، وكل منهم يربت بعطف على كتف الآخر . ويصيح احدهم وكأنه ثمل بخمرة الغبطة :

– مرحى لرفاقنا الألمان !

وصاحوا في مرة اخرى :

– عاش العمال الايطاليون !

كان يبدو عليهم ، وهم يرسلون تلك الصيحات الى اصدقاء بعيدين عنهم ، مجهولين منهم ، لا يستطيعون فهم

لغتهم ، انهم واثقون من سماع اولئك الناس المجهولين لهم ، وفهمهم مبعث غبطتهم وفرحهم .

قال الاوكراني ، وعيناه تطفحان بنور محبة تحتضن جميع الحاضرين :

– حبّذا لو نكتب إليهم حتى يعلموا أن لهم أصدقاء يعيشون هنا في روسيا ، ويؤمنون بذات عقيدتهم ، ويحيون من اجل الهدف ذاته ، ويفرحون بانتصاراتهم !

كانوا يتكلمون طويلاً ، والابتسام الحالم يعلو شفاههم ، عن الفرنسيين والبريطانيين والسويديين كما لو كانوا اصدقاء لهم ، واناساً اعزاء على قلوبهم يحترمونهم ويقاسمونهم افراحهم وآلامهم .

في تلك الغرفة الصغيرة ولد شعور بالقربى الروحية مع عمال العالم اجمع . وكان هذا الشعور يصهرهم جميعاً في روح واحدة عظيمة . ويؤثر في الأم نفسها . وبالرغم من عدم إدراكها لذلك الشعور ، فقد يستهويها بقوته الفتية المسكرة ، وببهجته ، وبالأمل النابض فيه .

قالت للاوكراني ذات مرة :

– إني لأعجب لكم ! كل الناس لكم رفاق ، اليهود والارمن والنمسويون . وانتم سعيدون او حزينون من أجلهم جميعاً !

فصاح الأوكراني :

– من أجلهم جميعاً ، يا اميمة ، جميعاً دون استثناء ! نحن لا نعرف فرقاً واُمماً . بل نعرف رفاقاً فحسب ، واعداء فحسب . سائر العمال رفاق لنا ، وجميع الحكومات والأغنياء

اعداؤنا . عندما يلقي المرء بصره على الأرض ، يرى ما اكثر عددنا نحن العمال ، وما اعظم قوانا ، يجتاحه فرح لا حدود له ، ويرقص العيد في قلبه . الفرنسي والألماني يحسّان الشعور ذاته عندما يريان الحياة ، وكذلك الايطالي ، يا أميمة . نحن جميعاً ابناء ام واحدة ، وتلك هي عقيدة اخوّة العمال في العالم اجمع ، العقيدة التي لا تُغلب . وتلك الفكرة تدفّئ قلوبنا . انها الشمس تشعّ في سماء عادلة ، وتلك السماء هي في قلب الانسان العامل . إن الاشتراكي ، كائناً من كان ، وبأي اسم يدعى ، هو اخ لنا في الروح اليوم والى دهر الداهرين !

كان ذلك الايمان الصبياني ولكن المتين يتجلى اكثر فاكثر بينهم ويزداد علواً ، وهو ينمو بقوة جبارة عاتية . عندما كانت الأم تنظر اليه تحس ، بصورة خارجة عن إرادتها ، ان العالم اكتسب – في الحقيقة – شيئاً عظيماً حسناً كالشمس التي تنظر إليها بذات عينيها .

وما اكثر ما كانوا يغنون ، فينشدون بأصوات عالية سعيدة تلك الأغاني البسيطة التي يعرفها الناس جميعاً . وكانوا ينشدون احياناً اغاني جديدة جدية في تناسق جميل ، لكن بلحن غير معهود . كانوا ينشدونها بأصوات خفيضة وكأنهم يرتلون في الكنيسة ، فتحمر وجوه المغنين وتشحب ، فيما قوة هائلة تنبض في الكلمات القوية الرنانة .

كانت إحدى تلك الأغاني الجديدة تزعج الأم وتؤثر فيها بصورة خاصة ، فهي لم تكن تفصح عن الآمال الموجعة التي تحسها نفس جريحة تهيم خلال شعاب الارتياب والقلق ، ولا

كانت تعكس شكاوى المخلوقات المسحوقة بوطأة الفاقة والخوف ، الفاقدة لكل شكل او لون او كيان ، ولا كان يسمع فيها ذلك الأنين المفجع الصادر عن قوى عمياء تتلمّس لها مكاناً رحباً ، ولا تلك الصيحات المتحدية المفعمة جراءة غير هيّابة المستعدة لإلقاء نفسها في الخير والشر على السواء . لم يكن يتردّد في تلك الأغنية ذلك الشعور المبهم بالأذى والتعطش للانتقام ، القادر على تدمير كل شيء والعاجز عن بناء اي شيء ؛ ولا كان في تلك الأغنية شيء من العالم القديم العبودي .

لم تستمرىء الأم كلمات تلك الاغنية القاسية ولحنها الجاف ، ولكن شيئاً أعظم من الكلمات واللحن كان يختبىء وراء ، حداء اللحن والكلمات فيتغلب عليها بقوته ويثير في القلب إحساساً بشيء لا يمكن للفكر ان يحتويه . كانت ترى هذا الشيء في اعين الفتيان ووجوههم ، وتحسّ انه يعيش ضمن صدورهم ، فتستسلم لقوة اكبر من ان تنحصر في اية كلمات و لحن . وكانت تصغي على الدوام الى هذه الأغنية بانتباه اكبر وتأثر أعمق من سواها . فهم ينشدونها بعذوبة تفوق رقة الأغنيات الأخرى ، لكن صداها يتردّد مع ذلك بقوة اكبر ويغمر القوم كجو يوم آذار ، اليوم الأول من الربيع المقترب .

وكان فيزوفشيكوف يقول في جفوة :

– آن الوقت لكي ننشد هذه الاغنية في الشوارع خارجاً !

وعندما القي ابوه في السجن مرة اخرى جزاء سرقتـــه الأخيرة ، قال فيزوفشيكوف لرفاقه في هدوء :

– نستطيع الآن ان نجتمع في داري . . .

وفي كل مساء تقريباً ، كان أحد أصدقاء بافل يرد البيت معه بعد العمل ، فيقرآن ويسجلان بعض الملحوظات ، وهما على عجلة من امرهما ينسيان معها ان يغتسلا . وكانا يتناولان العشاء ويحتسيان الشاي والكتب بين ايديهما ، وقد أضحى حديثهما يزداد صعوبة ، يوماً بعد يوم ، على مفاهيم الأم . وكثيراً ما كان بافل يقول :

– نحن في حاجة إلى صحيفة !

ازدادت حمى الحياة وعجلتها ، واصبح القوم ينتقلون بخفة من كتاب إلى آخر كأسراب النحل تذهب من زهرة إلى زهرة .

ذات مرة قال فيزوفشيكوف :

– بداوا يتحدثون عنا ! سينكشف امرنا عن قريب . . .

فلاحظ الأوكراني قائلاً :

– خُلقت الأسماك للوقوع في الشبكة !

كانت الأم تزداد تعلقاً به يوماً بعد يوم ، ويخيــل إليها – كلما ناداها يا اميمة – ان يد طفل ناعمة تمسح على خدها . وكان الأوكراني يقتطع الحطب يوم الأحد اذا انشغل بافل . وفي ذات يوم جاءها يحمل لوحاً كبيراً من الخشب على كتفه ، واخذ الفاس وصنع – بسرعة واتقان – عتبة للباب بدل العتبة المهترئة . وفي مرة اخرى اصلح السور دون ان

يحسّ به أحد . وكان يصفر على الدوام بنغم حزين حبيــب اثناء عمله .

قالت لابنها ذات يوم :

– فلنأخذ الاوكراني جارا لنا . ذلك افضل لكما ، فــلا يحتاج احدكما أن يركض الى بيت الآخر دائماً .

فاجاب بافل ، وهو يهز كتفيه :

– ولماذا تحمّلين نفسك عناء جديداً ؟

– هراء ! عانيت الكثير طوال حياتي دون سبب معقول . فلأتحمل الآن بعض العناء من أجل رجل طيب مثله .

فقال الابن :

– ليكن ما تقولين ! سأكون سعيداً إذا جاء . . .

وهكذا انتقل الأوكراني إلى دارهما .

٨

بدا البيت الصغير القائم في أقصى الضاحيــــة يلفــت الأنظار ويثير الفضول . فعشرات من الأعين الظانة ظنّ السوء تتفحص جدرانه بعناية كبيرة ، وأجنحة الشائعات المختلفـة تحوم في اضطراب حوله ، والناس يسعون جاهدين لاكتشاف ذلك الأمر الخفيّ الذي احسوه مختبئاً وراء جدران المنزل المنتصب على شفا المنحدر . وفي بعض الأحيان يتلصصون ليلاً من خلال النوافذ أو يقرعون الزجاج ، ثم يولون الادبـار فزعاً دون تأخر .

وفي ذات يوم اعترض سبيل بيلاجيا في الشارع صاحب

الحانة بيكونتسوف ، وهو رجل عجوز جميل المحيّا ، يرتدي دائماً صديريا سميكاً من المخمل الليلكي اللون ، وتحيط ربطة عنق حريرية سوداء عنقه المترهّل الأحمر . كان أنفه المدبب البرّاق مركوباً ، في كل الأوقات ، بنظارتين صنع إطارهما من عظم السلحفاة ، الأمر الذي اكسبه لقب «صاحب العينين العظميتين» . صب على الأم وابلاً من الكلمات الجافة المتكسرة دون أن يستريح ليتنفس او يتلقى جواباً :

– كيف حالك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ، وكيف حال ابنك ؟ الا تفكرين في زواجه ؟ فهو في سن موافقة للتأهل فيما اعتقد . كلما تزوج الأولاد باكراً خففوا عن والديهم العناء والمشقة . والانسان يكسب جسداً وروحاً في العائلة ، مثله مثل الفِطر في إناء للخل ! لو كنت مكانك لزوّجته واسترحت ، فالأيام الحاضرة تتطلّب عيناً ساهرة تراقب عقل المرء ، وقد اخذ الناس يعيشون حسب هواهم فيخلطون في التفكير ، ويتحررون في العمل حتى استحقوا منا اللوم والعتاب . الفتيان لم يعودوا يؤمون كنائس الله او يقتربون من الاماكن العامة ، بل هم ينتحون الزوايا المظلمة للتهامس بأسرارهم وما الذي يدعوهم الى التهامس أود معرفة ذلك ! ما الذي يدفعهم الى تحاشي الناس ؟ ما الذي يخاف المرء ان يقوله أمام الناس علانية ؟ في الحانة مثلاً ! أسرار ! . المكان الوحيد للأسرار هو كنيستنا الرسولية المقدسة . وكل الأسرار الأخرى المحاكة في الخفاء ، هي وليدة الشذوذ والاختلاط العقلي ! أتمنى لك صحة جيدة !

ورفع قبعته بيده الملتوية بطريقة تكلفية ولوّح بها

في الهواء ، ثم انصرف تاركا الأم في خضم من البلبلة والحيرة . ولاقتها في السوق ، في يوم آخر ، جارتها ماريا كورزونوفا ، وهي ارملة حداد تكسب عيشها ببيع الطعام عند بوابة المصنع . خاطبتها قائلة :

– انتبهي لولدك هذا ، يا بيلاجيا !

فسألت الأم :

– ماذا تعنين ؟

فأسرّت لها ماريا في صوت خفي :

– الشائعات تتردّد ، وهي شائعات سيئة وربّي ! يقولون انه يؤلف جمعية سرية كجمعية «الخليستي» * . وهم يسمونها شيعة ، ويقولون انهم سيأخذون ، عما قريب ، يجلدون بعضهم بعضاً مثل الخليستي تماماً . . .

– كفى هراء ، يا ماريا !

فقالت البائعة المتجولة :

– لا نار دون دخان !

قصّت الأم هذه الأحاديث على ابنها ، فاكتفى بهزّ كتفيه ، اما الأوكراني فجعل يضحك ضحكته العميقة الناعمة .

قالت الأم :

– والفتيات حانقات أيضاً ! فأنتم فتيان رائعون تصلحون للزواج . تعملون دون كلل ولا تسكرون ، ومع ذلك لا

---

* فرقة دينية مسيحية نشأت في روسيا . في القرن السادس عشر . **الناشر** .

تعيرونهن انتباهاً . وهن يقلن إن فتيات سمعتهن مريبة ياتين لزيارتكم من المدينة .

فقال بافل ، وقد عبس استياءً واشمئزازاً :

– اوه طبعا !

وقال الأوكراني ، ومصعّداً تنهيدة عميقة :

– الاناء ينضح بما فيه ! وتفعلين حسناً ، يا اميمة ، إذا اوضحت لهؤلاء الفتيات الغبيات ماهية الحياة الزوجية . وعندئذ لا يتسرعن على هذه الصورة وراء خلع رقابهن . . .

فقالت الأم :

– يا الله ! إنهنّ يرين كل شيء بوضوح ، ويفهمن جيداً . ولكن ، اية امور اخرى مخبأة لهن ؟

قال بافل :

– اذا كنّ يفهمن فليسعين وراء سبيل للخلاص !

وتطلعت الأم إلى وجهه القاسي ، وقالت :

– ولماذا لا تعلمونهن ؟ ادعوا اكثرهن ذكاء ليأتين الى هنا !

فقال الابن في جفوة :

– ذلك لن يفيد شيئا !

فسأل الأوكراني :

– ماذا لو جرّبنا ؟

صمت بافل قليلاً قبل ان يجيب :

– وعندئذ يشرعون بالتنزه اثنين اثنين ، ولا يلبث البعض أن يتزوجوا ، ويكون ذلك خاتمة المطاف !

فاستغرقت الأم في التفكير . كان تقشف بافل الرهباني

يحيّرها ، فهي ترى أن الجميع ، حتى الرفاق الذين يكبرونه سناً كالأوكراني مثلاً ، يأخذون التوجيه منه . إنما خيل إليها انهم يخافونه ايضاً ، وان احداً منهم لا يحبه بسبب من صرامته هذه .

في ذات مساء ، بعد أن سعت إلى فراشها تاركة ابنها والأوكراني يقرآن استطاعت ان تسمع ، من خلال الحاجز الخشبي الرقيق ، ما يدور بينهما من حديث خافت .

هتف الأوكراني على حين غرة :

– إني احب ناتاشا هذه !

فأجاب بافل بعد لحظة صمت :

– اعرف ذلك !

وسمعت الأوكراني ينهض ببطء ويذرع الغرفة حافي القدمين . ثم اخذ يصفر بنعومة وحزن ، وعاد يقول :

– إني لاتساءل عما اذا كانت أدركت ذلك !

فلم يحر بافل جواباً .

خفض الأوكراني صوته ، وإنثنى يسأل :

– ما رايك في الأمر ؟

– لقد أدركت ذلك ، وهذا ما منعها عن المجيء إلى هنا . . .

جر الأوكراني قدميه بشدة على الأرض ، وعاد يصفر صفيراً خفيتا .

سال :

– ماذا لو صارحتها ؟

– تصارحها بماذا ؟

- أصارحها . . . اني . . .

قال الأوكراني ذلك في صوت مخفوض ، بيد ان بافل قاطعه قائلاً :

- وما يدعوك الى ذلك ؟

فسمعت الأم الاوكراني يتوقف عن المسير . وخيل إليها انه يبتسم .

- اعتقد انك اذا أحببت فتاة فلا بدّ أن تصارحها بعواطفك ، وإلا فاية فائدة تُرجى من ذلك ؟

فاغلق بافل الكتاب بشدة ، وسأل :

- وماذا تنتظر أن ينتج عن ذلك ؟

سكت كلاهما لحظة طويلة ، وأخيراً سأل الأوكراني :

- ما رأيك ؟

فقال بافل في صوت متمهل :

- ينبغي عليك ، يا اندريه ، أن تُمعن النظر جيداً فيما تريد ، فلنفرض أنها تحبك - وانا ارتاب في ذلك - وانك تزوجتها ! يا للزواج الجميل ! هي مثقفة . . . وأنت رجل عامل ! ويأتي الاولاد فتضطر ان تعمل وحدك وتبذل جهداً كثيراً . وستصبح الحياة نيراً ثقيلاً في سبيل رغيف من الخبز ، في سبيل الأطفال وأجرة البيت ، وعندئذ تخسركما القضية معاً !

خيم السكون برهة على الغرفة ، ثم رجع بافل إلى الحديث ، لكن صوته كان أعذب هذه المرة :

- من الأفضل ، يا اندريه ، أن تدع هذا جانباً ولا تثقل عليها . . .

خيّم الصمت من جديد ، إلا رقاص الساعة الذي يدق الثواني بوضوح رنان .

قال الأوكراني :

- نصف قلبي يُحبّ ، والنصف الآخر يبغض ، أتسمي هذا قلباً ؟

وعلا حفيف تصفّح اوراق الكتاب . لا ريبة أن بافل شرع يقرأ من جديد .

استلقت الأم ، مغمضة العينين ، لا تجرؤ أن تتحرك وهي تتألم من صميم قلبها من أجل الأوكراني . وكان إشفاقها على ابنها أعظم . فكرت فيه :

«يا حبيبي المسكين ! . . .»

وعلى حين فجأة ، انفجر الأوكراني قائلاً :

- وهكذا ، فانت تعتقد أن عليّ الاعتصام بالصمت ؟

فأجاب بافل في نبرة هادئة :

- ذلك أشرف ما يمكن أن تفعل !

- ذلك ما سأفعله اذن !

واضاف الأوكراني ، بعد ثوان قليلة ، في رقة وكآبة :

- سيكون ذلك كثير القسوة ، يا بافل ، عندما تقع بدورك فيه . . .

- إنه قاس منذ الآن !

ونفخت الريح على جدران المنزل ، وثابر الرقاص على تسجيل مرور الزمن بدقة وامانة .

قال الأوكراني متمهلاً :

- هذا ليس هزلاً ، أليس كذلك ؟

فطمرت الأم وجهها بين الوسائد وراحت تبكي دون أن تثير أدنى ضجيج . في الصباح ، خيل إليها أن أندريه صغر قامة" واصبح اعز على قلبها من ذي قبل ؛ أما ابنها فكان مثله ابداً ، مستقيم العود ، نحيلاً ، صامتا . كانت تنادى الأوكراني ، حتى ذلك الحين ، أندريه اونيسيموفيتش ، اما اليوم فتوجهت إليه دون قصد منها :

– اندريوشا • ، يفضل ان ترمّم حذائيك وإلا أصابك منهما برد !

فأجاب ضاحكاً :

– سأشتري زوجاً جديداً يوم الدفع المقبل !

والقى ذراعه الطويلة حول كتفها ، وقال فجأة :

– لعلك امي الحقيقية بعد هذا كله ولكنك ترفضين الاعتراف بذلك امام الناس لشدة قبحي ، أليس كذلك ؟

ربتت على يده دون ان تجيب . كانت تود ان تقول اشياء كثيرة لطيفة ، ولكن قلبها كان منقبضاً شفقة وأسى ، والكلمات ترفض ان تغادر شفتيها .

٩

اخذ الناس في الضاحية يتحدثون عن الاشتراكيين الذين يوزعون منشورات مكتوبة بالحبر الأزرق ، تنتقد بشدة وعنف ادارة المصنع ، وتتحدث عن إضرابات في بطرسبورغ ،

• اسم التدليل من اندريه . **المترجمان** .

وفي جنوب روسيا ، وتدعو العمال الى الاتحاد في الدفاع عن مصالحهم الخاصة .

وغضب الكهول الذين كانوا يقبضون اجوراً كبيرة في المصنع ، واستشاطوا غيظا ، وشرعوا يقولون :

– إنهم مشاغبون ، ويجب أن تحطّم أفواههم لمثل هذه الأمور !

وحملوا المنشورات الى رؤسائهم . أما الفتيان فقرأوها في حماسة ، وقالوا :

– انهم يقولون الحقيقة كلها !

لكن أكثرية العمال لم يبدوا كثيراً من الحماسة بتلك المنشورات . كان العمل المنهك قد أرهقهم وامتص قواهم . قالوا في نبرة لامبالية :

– لن يجدي ذلك فتيلاً ، فهل يمكن أن تنقذنا مثل هذه الأشياء ؟

ومع ذلك احدثت المنشورات اضطراباً وهياجاً عظيمين ، وعندما انصرم أسبوع دون أن يصدر منها شيء جديد ، أخذ العمال يدمدمون بينهم وبين أنفسهم :

– يبدو أنهم أقلعوا عن الاستمرار فيها !

بيد ان منشورات جديدة ظهرت ، على اية حال ، يوم الاثنين اللاحق ، فشرع العمال يتهامسون مرة أخرى ويلغطون .

وظهر في المعمل ، وفي الحانة ، اشخاص جدد لا يعرفهم أحد ؛ وكان هؤلاء الناس لا ينفكون يراقبون ما يجري

حولهم ، ويطرحون الأسئلة ، ويدسّون انوفهم في امور الجميع على حدّ سواء ، فيلفتون الانظار اليهم اما بحذرهم الشديد وبما يثيرون من الارتياب وأما بمبالغتهم في فرض انفسهم على الناس .

وادركت الأم ان هذا الهيجان كله وليد اعمال ابنها ورات كيف يتألب الناس حوله ، فاخذ القلق على سلامته يساورها ممزوجا بالاعتزاز والفخر .

في ذات مساء ، قرعت ماريا كورزونوفا نافذة آل فلاسوف ، وقالت في همس مرتفع حين فتحت الأم النافذة :

– حاذري ، يا بيلاجيا ، اللعبة انتهت ! فهم آتون الليلة لتحري منزلك ، وكذلك سيفتشون داري آل مازين وآل فيزوفشيكوف . . .

واصطفقت شفتا ماريا الغليظتان بسرعة ، وشخرت من خلال انفها الكبير وهي تطرف بعينيها تختلس النظر يميناً وشمالاً ، وكانها تبحث عن شخص ما في الشارع وقالت :

– وانا لا اعرف شيئاً ، ولم أنقل لك شيئاً ، ولم ارك هذا النهار . . . أسمعت ؟

ثم اختفت .

تهاوت بيلاجيا ، بعد ما اغلقت النافذة ، خائرة القوى متخاذلة على أحد المقاعد غير ان نذير الخطر الذي يهدّد ابنها ما لبث ان اهاب بها ، فنهضت في الحال ، وارتدت ثيابها بسرعة ، وغطت راسها بوشاح ، ثم خرجت تعدو في اتجاه دار فيودور مازين . كان مريضاً ، فلم يذهب إلى العمل ذلك النهار . وجدته حين دخلت جالساً الى النافذة يطالع كتابا ،

وهو يهز بيده اليسرى يده اليمنى التي كان ابهامها مرتفعاً بشكل غير طبيعي . شحب لونه لدى سماعه الاخبار الجديدة ، وقفز واقفاً على قدميه وهو يتمتم :

– انها وربّي تحية رائعة !

سالت بيلاجيا ، وهي تمسح العرق عن جبينها بيد مرتجفة :

– ما العمل الآن ؟

فرد فيودور ، وهو يمسّ شعره الأجعد بيده السليمة :

– انتظري لحظة ، ولا تجزعي !

صاحت :

– لكنك مذعور انت الآخر !

فاحمرّت وجنتاه ، وهتف :

– انا ؟

وابتسم في الارتباك والحيرة ، وقال :

– نعم ، يا للشيطان ! يجب أن نُعلم بافل بذلك . سارسل اليه من يخبره ! أما انت فارجعي إلى الدار ولا تقلقي ! لن يضربونا ، أليس كذلك ؟

عندما بلغت الدار جمعت سائر الكتب وراحت تطوف في البيت ، وهي تضمها الى صدرها ، تنظر الى الموقد تارة ، وما تحت الموقد تارة اخرى ، وحتى في برميل المياه احيانا . وتخيلت ان بافل سيعود حالاً من المعمل ، لكنه لم يفعل . واخيراً جلست ، منهوكة القوى ، على دكة في المطبخ والكتب تحتها وبقيت هناك طويلاً ، لا تجرؤ على النهوض ، حتى رجع بافل والأوكراني إلى الدار .

صاحت ، حين راتهما وهي ما زالت تجلس في مكانها :

– هل تعرفان ؟

فاجاب بافل وهو يبتسم :

– نعم ، إننا نعرف . هل انت خائفة ؟

– إني خائفة ، خائفة جداً !

فقال الاوكراني :

– يجب الا تخافي ! الخوف لا يفيد شيئاً .

ولاحظ بافل :

– إنها لم تهيىء السماور أيضاً !

فقالت الأم بلهجة المذنب ، وهي تنهض وتشير الى الكتب :

– نعم ، بسبب هذه الاشياء . . .

فانفجر الابن والاوكراني ضاحكين ، الأمر الذي سكن من روعها قليلاً . وانتقى بافل بعض الكتب ، وذهب بها الى الفناء الخارجي ليخفيها . قال الاوكراني ، وهو يهيىء السماور :

– ليس ثمة ما تخافين منه ، يا اميمة . لكن من الخجل حقاً ان يضيع الناس وقتهم في مثل هذه السخافات . ان رجالاً بالغين تخصروا السيوف ولبسوا المهاميز في أرجلهم سيأتون الى هنا ، وينبشون كل شيء . وسينظرون تحت السرير ، وتحت الموقد ، وينزلون الى القبو إن كان في دارك قبو ، ويصعدون الى العلّية ، وستعلق هناك خيوط العناكب في وجوههم وسينفخون في أنوفهم اشمئزازاً ، وسيتضايقون ، ويخجلون ، وبسبب من ذلك سيتظاهرون أنهم شرسون غاضبون ، لأنهم يدركون تماماً نتانة مهنتهم

وهوانها ! ولقد شعروا بالضيق الشديد ، ذات مرة ، وهم يهاجمون اشيائي حتى إنهم تركوا كل شيء وانصرفوا . وفي مرة اخرى اخذوني معهم والقوا بي في السجن ، وتركوني هناك طوال اربعة شهور . والمرء لا يفعل شيئاً في السجن ، يجلس ويظل هكذا جالساً على الدوام . ثم يامرون باحضاره اليهم ، فيقتاده الجنود خلال الشوارع ، يشرعون بتوجيه اليه بعض الاسئلة . هم ليسوا اذكياء فقالوا اشياء غير معقولة ، بل هم يثرثرون كثيرا ، ثم يامرون الجنود بالعودة به الى السجن . وهكذا يتقاذفونه ذهاباً وإياباً مدة طويلة . فلا بدّ لهم ، على اية حال ، ان يفعلوا شيئاً كي يكسبوا اجورهم ! واخيراً ، يطلقون له الحرية . . وهذا كل شيء ! . .

هتفت الأم به :

– يا له من اسلوب في الحديث ، يا اندريوشا !

فرفع وجهه الأحمر حيث كان جاثياً ينفخ النار في السماور وسالها ، وهو يفتل شاربيه :

– ما باله ؟

– كان احداً لم يؤذك أبداً !

فاعلن مبتسماً ، وهو ينهض ويهز راسه :

– افي اية بقعة من العالم نفس لم ينلها الأذى ؟ لقد آذوني كثيراً حتى لم أعد الاحظ ذلك مطلقاً . ما عساك تفعلين ما دام الناس جُبلوا هكذا ؟ إن ملاحظتك الأذى لا تفعل إلا اعتراض سبيلك ، وإنه لمضيعة للوقت أن تفكري فيما يؤذيك . هكذا هي الحياة ! كنت اجنّ فيما قبل ،

واحنق على الناس ، ثم وجدت ذلك لا يجدي فتيلاً ، ورأيت الأمر لا يستحق أن يغضب المرء له . إن كل إنسان يخاف مبادهة جاره له ، ولذلك يحاول أن يتغدّى جاره قبل أن يتعشاه الجار . . . هكذا هي الحياة يا أميمة !

كانت كلماته تتدفق برفق فتطرد بعيداً مخاوفها من التفتيش المقبل ، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان . الفتى خفيف الحركة بالرغم من عدم رشاقته .

تنهدت الأم ، ونبرت بحرارة :

– جعل الله حياتك سعيدة ، يا أندريوشا !

فسعى الأوكراني إلى السماور من جديد ، وقرفص أمامه مرة اخرى ، وتمتم في هدوء :

– لو اني وُهبت قليلاً من السعادة لما رفضتها ، ولكني لن استجديها أبداً !

رجع بافل من الفناء ، وقال في ثقة وهو يبدأ حمّامه :

– لن يجدوها بتاتاً !

والتفت إلى أمه ، وهو ينشّف يديه بشدة وفي عناية كبيرة وخاطبها بقوله :

– إن ظهرت لهم خائفة سيفكرون عندئذ على هذا المنوال : لا بدّ أن يكون في هذا البيت شيء يجعلها ترتجف هكذا ! أنت تعلمين أننا لا نرتكب شراً وان العدالة في جانبنا ، وسنعمل طوال حياتنا من أجل هذه العدالة ، وتلك هي جريمتنا الوحيدة ، فلماذا تخافين إذن ؟

فقطعت على نفسها عهداً :

– سأمسك زمام نفسي ، يا باشا !

ولكنها ما لبثت ، في اللحظة التالية ، أن نبرت بصورة مؤثرة أسيفة :

– لو انهم يسرعون فقط ، يأتون في أقرب وقت !

لم يأتوا ذلك المساء . وفي الصباح قطعت الأم على الشابين طريق السخرية من خوفها ، اذ كانت السابقة الى الضحك من نفسها . قالت :

– لقد جزعتُ قبل أن يحين اوان الجزع !

١٠

جاؤوا بعد شهر تقريباً من ذلك المساء المقلق . كان نيقولاي فيزوفشيكوف قد قدم لرؤية بافل واندريه . واستغرق ثلاثتهم في جدالٍ يتعلق بالجريدة . كان الوقت متأخراً من منتصف الليل . والأم سعت إلى فراشها ، تسمع وهي تغفو أصواتهم الهادئة القلقة . ثم نهض أندريه ، واجتاز ارض المطبخ متلصصاً ، واغلق الباب خلفه . وعلا في الدهليز ضجيجُ دلو يتدحرج ، ثم فَتحَ الباب بعزم واندفع الأوكراني منه إلى المطبخ هامساً في صوت عال :

– المهاميز تجعجع في الشارع !

وثبت الأم من فراشها ، واختطفت ثيابها بيدين مرتعشتين ؛ وظهر بافل في مدخل الباب ، وقال في هدوء :

– عودي إلى فراشك ، فأنتِ . . . لست على ما يرام !

وسُمِعَ في الرواق الخارجي خفيف اقدام محاذرة متأنية ، فدنا بافل من الباب ، وفتحه بعزم وهو يقول :

– من هناك ؟

ظهر عند الباب في الحال شخص طويل القامة ، بثوب رمادي ، ومن خلفه شخص آخر ، فيما دفع اثنان من رجال الدرك بافل الى الخلف ، ووقف كل منهما عن أحد جانبيه .

وارتفع صوت عالي النبرة ساخر يقول :

– لسنا من كنتم تنتظرون ، أليس كذلك ؟

كان المتكلم ضابطاً فارع القامة ، نحيل العود ، ذا شاربين اسودين غير كثيفين . وقف فيدياكين وهو شرطي الضاحية قرب سرير الأم ، جاحظ العينين وقال وهو يلمس قبعته باحدى يديه تحية للضابط ، ويشير بالأخرى الى وجه بلاجيا :

– تلك هي أمه ، يا صاحب السعادة !

ثم أضاف ، مشيراً الى بافل :

– وهذا هو !

فاستوضح الضابط ، وهو يزرّ عينيه :

– بافل فلاسوف ؟

فاومأ بافل إيجاباً . وتابع الضابط ، وهو يفتل شاربيه :

– لديّ أمرٌ بتحرّي بيتك . إنهضي ، أيتها العجوز . من يوجد هناك ؟

ألقى نظرة من خلال الباب ، ثم دخل الغرفة المجاورة حيث جلجل صوته يقول :

– ما أسمكما ؟

وظهر شاهدان عند عتبة الباب الخارجي . كان أحدهما

السبّاك العجوز تفيرياكوف ، والآخر واقد النار ريبين ، وهو رجل ثقيل الجثة ، أسمر الوجه ، يستأجر غرفة في دار تفيرياكوف . حيّا الأم بصوت عميق عال :

– عمي مساء ، يا نيلوفنا !

اما هي فكانت تردّد لنفسها في هدوء ، وهي ترتدي ثيابها ، مستحثة شجاعتها وجلَدَها :

– ما هذا ؟ كيف يأتون في منتصف الليل هكذا ، والناس نيام ؟ ثم هم يدخلون الدار أيضا !

ازدحمت الغرفة ، وفاحت بقوةٍ من أرجائها ، لسبب ما ، رائحة شمع الأحذية . وكان دركيان ورئيس شرطة المخفر المحلي وهو يدعى ريسكين يتناولون الكتب من فوق الرف وهم يجرجرون اقدامهم بصخب وضجيج ، ويرميان بها على المنضدة أمام الضابط ، فيما دركيان آخران يضربان على الجدران بقبضات أيديهما ، ويفتشان تحت المقاعد ، لا بل تسلق احدهما الموقد بحركة خرقاء . وكان الاوكراني وفيزوفشيكوف يقفان جنباً إلى جنب في إحدى الزوايا ، وقد امتلأ وجه نيقولاي المجدور بلطخات حمر ، وهو يرمق بعينيه الصغيرتين الرماديتين وجه ذلك الضابط ولا يحيد بهما عنه . ووقف الأوكراني يفتل شاربيه حتى إذا دخلت الأم الغرفة ارسل ضحكة قصيرة ، وهزّ راسه لها مشجعاً .

لكي تتغلب الأم على خوفها وجزعها ، لم تمِلْ إلى أحد الجانبين كعادتها دائماً ، بل مشت منتصبة القامة ، مرتفعة الصدر ، الأمر الذى اغدق على هيئتها مظهر عظمة وأبهة

مضحكتين . وراحت تدبّ على الأرض بتحدّ صاخب ، الا ان حاجبيها كانا يرتجفان . . .

كان الضابط يختطف الكتب باصابع رقيقة ليده البيضاء ، ويقلب صفحاتها بسرعة ، ثم يهزها ويلقيها جانبا بمهارة ، فيتساقط بعضها على الأرض دون ان تحدث ضجيجاً . وكان الجميع سكوتا ، والاصداء الوحيدة المترددة هي لهاث الشرطة المتصببين عرقاً ، وقرقعة مهاميزهم ، وبعض اسئلتهم الملقاة في نبرة خفيضة :

– افتشتَ هنا ؟

استندت الأم الى الحائط بالقرب من ولدها بافل ، وذراعاها متشابكتان كذراعيه ، وعيناها تحدقان النظر في الضابط وهي تحس ضعفاً شديداً يتسلط على ركبتيها ، وغشاوة مظلمة جافة تستر عينيها .

ارتفع صوت نيقولاي الحاد ، فجاة ، يرعد وسط ذلك السكون :

– لماذا تلقون الكتب على الأرض ؟

فجفلت الأم . وانتفض راس تفيرياكوف وكان احدهم دفعه بعزم ، وزمجر ريبين رامياً نيقولاي بنظرة ثابتة .

زرّ الضابط عينيه ، وساقط نظره على وجه نيقولاي المتحجر المجدور ، وشرع يقلب صفحات الكتب بسرعة اكثر من ذي قبل . واحياناً كان يفتح عينيه الرماديتين الواسعتين محملقاً ، وكانه يشكو ألماً ممضاً ، وهو على وشك ان يصيح صيحة عالية في احتجاج عاجز .

قال فيزوفشيكوف مرة ثانية :

– هيه ، أنت أيها الجندي ! التقط الكتب من الأرض . . .

استدار رجال الدرك جميعاً ، وشخصوا إليه . ثم انحرفوا بابصارهم جهة الضابط . فرفع الأخير رأسه من جديد ، غمر هيئة نيقولاي العريضة بنظرة فاحصة ثاقبة ، ثم جمجم من انفه :

– همْ – م – م . . . التقطوها . . .

فاكبّ دركي على الأرض ، وراح يجمع الكتب المبعثرة وقد شزر الى فيزوفشيكوف . . .

همست الأم في أذن بافل :

– يجدر بنيقولاي أن يمسك لسانه !

فهز كتفيه ، ونكس الأوكراني رأسه .

– من يقرا هذه التوراة ؟

اجاب بافل :

– انا !

– ولمن هذه الكتب كلها ؟

اجاب بافل :

– هي لي !

فقال الضابط ، مستنداً بظهره إلى مسند مقعد :

– حسناً ، حسناً جداً !

وطقطق باصابع يديه الرشيقتين ، ومدّ ساقيه تحت الطاولة ، وفتل شاربيه ، ثم قال مخاطباً نيقولاي :

– اانت اندريه ناخودكا ؟

فردّ نيقولاي ، وهو يتقدم منه :

– نعم !
امسك الاوكراني به من كتفه ، ودفعه الى الوراء :
– التبس الأمر عليه فاخطأ ، انا هو اندريه ! . .
فرفع الضابط يده ، وهزّ إصبعه الصغيرة في وجه ميزوفشيكوف مهدداً :
– اياك ان تفعل هذا !
ثم أخذ يقلب اوراقه ، باحثاً متفحصاً .
كان الليل ، بنور قمره الأضحيان الصافي ، يطلّ من النافذة بارداً غير مبالٍ ؛ والثلج يخشخش تحت أقدام شخص يمر بالمنزل متباطئاً .
سأل الضابط :
– ناخودكا ؟ هل سبق ان اعتقلوك بتهمة جريمة سياسية ؟
– نعم . مرة في روستوف ، واخرى في ساراتوف . . . إنما كان رجال الدرك هناك يخاطبونني بصيغة الجمع * . . .
فطرف الضابط بعينه اليمنى ، وفركها . . . وأخيراً ابانَ ، مكشّراً عن أسنانه الصغيرة :
– هل تعرفون يا ناخودكا انتم بالذات من هم اولئك السافلون الساقطون الذين يوزعون منشورات سرية مجرمة في المصنع ؟
فكشر الأوكراني ، متمايلاً الى الامام والى الوراء ، وهمّ

---

* تشير صيغة الجمع في اللغة الروسية الى الاحترام والتادب . الناشر .

أن يقول شيئاً فإذا نيقولاي يقتحم الميدان قائلاً بتحدٍ :
– هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها سافلين ساقطين . . .
خيم سكون عميق ، وجمد كل شيء لحظة قصيرة .
ازدادت الندبة في وجه الأم بياضاً ، وارتفع حاجبها الايمن عالياً ، واخذت لحية ريبين السوداء ترتجف بشكل غريب ، فدفع اصابعه في وسطها يمشطها متباطئاً ، وغضّ من بصره .
قال الضابط :
– احملوا هذا الكلب من هنا !
فقبض الدركيان على نيقولاي من ذراعيه ، ودفعاه بقسوة داخل المطبخ حيث وقف ، وضرب الأرض بقدميه في قوة متشبثاً وصاح :
– انتظروا . . . اريد أن ارتدي ثيابي !
ودخل رئيس الشرطة قافلاً من الفناء ، وقال :
– لم نجد شيئاً هناك . لقد فتّشنا كل مكان !
نبر الضابط وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :
– طبيعي ! إننا نتعامل مع رجل بارع مجرّب . . .
أصغت الأم الى صوته الضعيف المرتجف ، وراحت تشخص بخوف إلى وجهه الأصفر ، وهي تحس أنها أمام عدو لدود عمّرَ قلبه بغضاً كلياً لعامة الشعب . إنها لم تحتك بمثل هؤلاء الناس إلا في الندرَى ، ولقد كادت أن تنسى

وجودهم تقريباً وفكرت : «إذن ، فهولاء هم الذين أقلقتهم المنشورات وأزعجتهم» .

– يا سيد أندريه أونيزيموف ، الابن غير الشرعي الذي يحمل اسم ناخودكا ، أنت موقوف !

سأل الأوكراني في نبرة رصينة :

– ولِمَه ؟

فقال الضابط برقة خبيثة :

– سأخبركم فيما بعد !

واستدار إلى بيلاجيا ، وسألها :

– اتحسنين القراءة والكتابة ؟

أجاب بافل :

– كلا ! هي تجهل ذلك !

فقال الضابط بجفوة :

– انا لا أسألك أنت ! أجيبي ، أيتها العجوز !

كانت جوانب الأم قد طفحت بكراهية عفوية لهذا الرجل . وانتابتها نوبة من الارتعاش على حين غرة فكأنها سقطت في ماء بارد كل البرودة . وانتصبت مستقيمة العود ، وقد احمرّت الندبة في وجهها ، وارتخى احد حاجبيها كثيراً فوق عينيها .

قالت ، وهي تمد يدها نحوه :

– لا حاجة تدعو للصياح ! فأنت لما تزل صغيراً حتى تعرف معنى البلوى . . .

فقال بافل ، وهو يحاول اعتراض طريقها :

– هدئي من روعك ، يا أماه !

فصاحت ، وهي تندفع في اتجاه المنضدة :

– انتظر ، يا بافل ! لماذا تأخذون هؤلاء الناس ؟

فصاح الضابط ، وهو ينهض :

– هذا لا يعنيك أبداً ! اصمتي ! أحضروا فيزوفشيكوف ، فهو موقوف أيضاً !

وراح يقرأ ورقة أمسك بها قريباً من أنفه . وجيء بنيقولاي . فتوقف الضابط عن القراءة ، وصاح :

– إنزع قبعتك عن رأسك !

وتقدم ريبين من بلاجيا ، ودفعها بكتفه برفق ، وقال بصوت خفيض :

– هدئي روعك ، يا أماه . . .

سأل نيقولاي ، مغطياً بصوته قراءة مذكرة الاجراءات :

– وكيف أستطيع نزع قبعتي إذا كانوا يمسكون بكلتا يدي ؟

صاح الضابط ، رامياً بالورقة على المنضدة :

– وقّعوها !

راحت الأم تراقبهم يوقعون ، وقد استكنّت حميّاها وضاق قلبها وغصت عيناها بالدموع ، دموع الأذية والعجز . لقد ذرفت مثل هذه الدموع خلال عشرين عاماً من حياتها الزوجية ، ولكنها كادت تنسى ، خلال السنوات القليلة الأخيرة ، معنى تلك الدموع ولذعتها المؤلمة الحارة . ألقى الضابط نظرة عليها وقال مكشراً في ازدراء وترفّع :

– جاءت دموعك قبل الاوان يا ستتي ! وفريها لنفسك ، وإلا لم يبق لك منها شيء للمستقبل !

فاجتاحتها موجة ثانية من الغضب المرّ . . .

– إن للام ، دائماً ، ما يكفيها من الدموع لكل شيء – لكل شيء ! وإن كانت لك ام ، فهي لا بدّ تعرف ذلك ! فوضع الضابط اوراقهُ متسرّعاً في محفظة جديدة لها قفل لماع ، واصدر اوامره بالمسير في لهجة عسكرية .

قال بافل بحرارة وهدوء ، وهو يصافح رفيقيه :

– إلى اللقاء ، يا أندريه ؛ الى اللقاء ، يا نيقولاي !

فكرر الضابط ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– الى اللقاء . . . صحيح ما تقول وسيتحقق قريباً !

راح فيزوفشيكوف يتنفس بصعوبة ، واحتقن الدم في عنقه الغليظ ، والتمعت عيناه بغضب شديد قاس . اما الأوكراني فاومض وجهه بابتسامة لطيفة ، وهز رأسه واسرّ شيئاً في اذن الأم . فرسمت الأم إشارة الصليب فوق صدره ، وقالت :

– ان الله يرى من هو المحقّ . . .

واخيراً ، تجمهر اولئك الذين يرتدون سترات رمادية ، واتجهوا إلى الممرّ ، ثم اختفوا ، وقرقعة مهاميزهم تثير ضجيجاً مزعجاً . وكان ريبين آخر من غادر المكان ، وهو يقيس بافل بنظرة طويلة ثاقبة من عينيه السوداوين .

– حسناً ، الى اللقاء !

قال هذا مفكراً ، ثم اتجه الى الباب متباطئاً ، وهو يسعل في لحيته .

عقد بافل يديه خلف ظهره ، وراح يذرع ارض الغرفة ببطء وتمهل ، وهو يخطو فوق الكتب والثياب المبعثرة على الأرض .

قال في صوت كئيب :

– ارايت ؟ هذا هو اسلوبهم في ذلك .

رمقت الأم فوضى الغرفة بنظرة مندهلة ، وسألت همساً في اسف واسى :

– ولم كان نيقولاي وقحاً هكذا ؟

اجاب بافل في هدوء :

– أعتقد انه كان خائفاً .

وهمهمت ، وهي تُلوّح بيديها :

– لقد دخلوا – وقبضوا عليهما – واقتادوهما .

ان ابنها لم يُعتقل ، ولذلك يخفق قلبها في شيء أكثر من الهدوء . ولكن أفكارها شُلّت تماماً أمام ذلك الحادث غير المفهوم الذي كانت شاهدة عليه .

– لقد سخر منا ذلك الرجل الأصفر الوجه ، وحاول اخافتنا . . .

فقال بافل في حزم مفاجىء :

– حسناً، يا أُماه ، تعالي نرتب كل شيء . . .

ناداها «أُماه» بتلك اللهجة التي يستعملها عندما يشعر بالعطف عليها . فدنت منه ، ونظرت في وجهه ، ثم سألته في رقة :

– هل آلموك ؟

– نعم ، فذلك صعب جداً . ليتهم اخذوني مع الآخرين . . .

خُيّل إليها ان الدموع تترقرق في عينيه ، فتنهدت وقالت وهي تجاهد كي تخفف عنه الألم الذى استشعرته في غموض :

– صبراً ، فلسوف يأخذونك أيضاً !
– ذلك لا ريب فيه !
واعتصمت بالصمت لحظة ، ثم قالت في كآبة :
– ما اقساك ، يا بافل ! يجدر بك بالأحرى أن تطمئن والدتك وتهوّن عليها ، فأنا أقول اشياء مخيفة ، وانت تزيد الخوف .
فتطلع إليها ، ودنا منها وقال في هدوء :
– لست ادري كيف افعل ذلك ، يا أماه ! يجب ان تعتادي عليه .
فتنهدت ، وصمتت لحظة ، ثم سالته وهي تحاول الا ترتعش ذعراً :
– اتعتقد انهم يعذبون الناس ؟ وأنهم يمزقون أجسادهم ويحطمون عظامهم ؟ كلما فكرت في ذلك . . . أواه ، يا عزيزي ، انه شيء مخيف !
– انهم يحطمون الروح . . . وهذا اكثر اذية ، عندما يضعون أيديهم الوسخة على روحك . . .

١١

اتضح في اليوم التالي انهم القوا القبض ايضاً على بوكين ، وصمونيلوف ، وسوموف ، وخمسة آخرين . وفي العشية ، جاء فيودور مازين . لقد فتشوا بيته أيضاً ، وهو مسرور جداً ، يغمر قلبه الشعور بصيرورته بطلاً بكل معنى الكلمة .

سالته الأم :
– اكنت خائفاً ، يا فيودور ؟
شحب وجهه ، وقست تقاسيمه ، وارتجف جناحا انفه :
– خفت ان يضربني الضابط ! كان بدين الجثة ، له شعر اسود ، واصابع غزيرة الشعر ، ونظارتان سوداوان فوق انفه توهمان انه فاقد العينين . وكان يضرب الأرض بقدميه ، ويصيح : «لأطوّحن بك في السجن !» ان احداً لم يضربني قط ، حتى ولا والديّ ، فأنا ابنهما الوحيد ، وهما يحبانني كثيراً .
اغمض عينيه برهة ، وضمّ شفتيه بشدة ، حرّك شعره بحركة سريعة من كلتا يديه . قال وهو ينظر الى بافل بعينين محمرتين :
– اذا جرؤ احد يوماً على ان يضربني ، فسألقي بنفسي فيه كالمدية ، واعضه باسناني . وليقتلوني بعدئذٍ ، فذلك افضل لي !
فقالت الأم متعجبة :
– انت هزيل العود وضعيف ، واظنك لست بالمقاتل الشديد !
فأجابها فيودور خافت الصوت :
– لكنني سأقاتل على اية حال !
قالت الأم لبافل ، بعد انصراف فيودور :
– سوف يكون أول من لن يصمد !
فلم يحر بافل جواباً .

بعد دقائق فتح باب المطبخ ببطء ، ودلف ريبين منه قائلاً ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– مرحباً ، يا قوم ! هاانذا هنا مرة اخرى . البارحة اتوا بي قسراً ، اما الآن فجئت بمحض ارادتي !

صافح بافل بحرارة ، وامسك بيلاجيا من كتفها ، وسأل :

– ما رايك في قدح من الشاي ؟

تفحص بافل ، في سكينة ، وجه الضيف العريض ، الأسمر ، بلحيته السوداء الكثة ، وعينيه السوداوين . وكانت نظرته الهادئة طافحة بمعنى كبير .

دلفت الأم الى المطبخ تهيئ السماور ، اما ريبين فجلس ومسح لحيته واعتمد المائدة بمرفقيه ، ورنا الى بافل برهة بنظرة غامضة وقال ، وكأنه يتابع حديثاً سابقاً لم ينته :

– حسناً ، اريد محادثتك بصراحة تامة ، فلقد ظللت اراقبك زمناً طويلاً ، ولاحظت قبل كل شيء ، باعتباري جاراً لك تقريباً ، ان بعض الناس ياتون منزلك دون انقطاع ، ولكنهم لا يسكرون او ياتون امراً إداً . هذا اول ما يلفت الانظار . ولا مفر من ملاحظة الناس عندما يحسنون السلوك ، فالمرء يتساءل عندئذ عما حدث ، وعما يدفعهم إلى ذلك . وانا نفسي عرضة للانظار الآن ، لأني أختلي بنفسي دون الناس .

كان كلامه يتدفق ثقيلاً هادئاً . وهو يسرّح لحيته بيد سوداء كبيرة ، ويشخص بإمعان في وجه بافل :

– لقد شرع الناس يتحدثون عنك ، منهم صاحب البيت

الذي اسكن فيه ، وهو يدعوك كافراً لانك لا تذهب إلى الكنيسة ، وانا لا اذهب أيضاً . ثم هناك تلك المنشورات ، اهي من صنعك ؟

– نعم !

فصاحت الأم في جزع ، وهي تطل براسها من خلال باب المطبخ :

– ماذا تقول ؟ انت لست الوحيد في هذا !

فضحك بافل وضحك ريبين . وقال هذا الأخير :

– حسناً !

نشقت الأم بانفها الهواء في صوت عال ، وابتعدت مستاءة قليلاً من طريقهما في تجاهل كلماتها . وعاد ريبين يقول :

– فكرة عظيمة هذه المنشورات . فهي تثير الناس . لقد اصبح عددها تسعة عشر منشوراً ، اليس كذلك ؟

– نعم !

– وهذا يعني اني قراتها جميعاً ! إن بعض ما تحويه ليس واضحاً ، والبعض الآخر ليس ضرورياً ؛ ولكن عندما يكون عند المرء امور كثيرة يريد الافضاء بها ، فمن الصعب الا يدسّ بينها كلمة زائدة او كلمتين . . .

وابتسم ريبين ، فكشف عن اسنان متينة بيض ، واستتلى يقول :

– ثم جاء التفتيش ، وذلك الذي حملني اليكم اكثر من اي شيء آخر . انت والأوكراني ونيقولاي ، لقد اظهرتم جميعاً . . .

ولما اعوزته الكلمة المناسبة جنح إلى الصمت ، وهو

يتطلع من النافذة إلى الخارج ، وينقر بأصابعه على المائدة :

– اظهرتم ما تعتقدون كما لو كنتم تقولون : إذهب أنت إلى واجبك ، يا صاحب السعادة ، ونحن نلتفت أيضاً الى واجبنا . والأوكراني أيضاً طيب رائع ، وعندما اسمعه احياناً يتحدث في المصنع اقول في نفسي : ليس من وسيلة لسحقه . وحده الموت يستطيع ان يقهره . إنه قوي الشكيمة ، قُدّ من صخر ! هل تثق بي ، يا بافل ؟

فأجاب بافل بإشارة من رأسه :

– نعم ، إني أثق !

– حسناً ! انظر إليّ – إن لي من العمر اربعين عاماً – فانا اكبرك سناً بمرتين إذن ، واستطيع القول إني رايت من امور الدنيا اكثر مما رايت انت بعشرين مرة . ولقد قضيت في الجندية ما يزيد عن ثلاث سنوات . تزوجت مرتين . زوجتي الأولى ماتت . وهجرت الثانية . ولقد ذهبت إلى القوقاز . ورايت «الدوخوبورتسي» * . إنهم لا يعرفون كيف يبارون الحياة يا أخي ، إنهم لا يعرفون !

كانت الأم تصغي بلهفة إلى حديثه القاسي ، وهي تفيض سعادة إذ يفتح مثل هذا الرجل الكهل قلبه أمام ابنها . ولكنها وجدت أن معاملة بافل له جافة نوعاً ما ، وارادت ان تعوّض عن تلك الجفوة بحسن ضيافتها .

قالت :

* احدى الطوائف المسيحية . نشأت في روسيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وقفت بحدة ضد الكنيسة والدولة . **الناشر** .

– لعلك تحب ان تأكل شيئاً ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش ؟

– شكراً ، أيتها الأم ! تناولت عشائي . وهكذا تعتقد ، يا بافل ، ان الحياة ليست كما يجب أن تكون ؟

فنهض بافل ، وطفق يراوح في الغرفة ويغادي ويداه خلف ظهره ، وقال :

– إنها تتجه في الصراط القويم ! الم تأتِ بك اليّ بقلب مفتوح ؟ إنها تجمعنا قليلاً قليلاً ، نحن الذين نقضي العمر في العمل ، وسيجيء اليوم الذي تجمع فيه جميع البشر ! إن الحياة قاسية وصعبة بالنسبة إلينا ، ولكن الحياة ذاتها تفتح اعيننا على اكثر معانيها مرارة ، وترينا كيف نعجّل في سيرها .

فقال ريبين :

– هذا صحيح ! فالانسان يحتاج الى اصلاح وتجديد واسعين . فالمرء إذا لحق القمل به ارسلته إلى الحمام ، ودلكته جيداً ، ثم اعطيته ثياباً نظيفة . وعندئذ يصبح مقبولاً من جديد ، أليس كذلك ؟ ولكن ، كيف نستطيع تنظيف المرء من الداخل ؟ تلك هي القضية !

راح بافل يتكلم في حماسة وحدّة عن الرؤساء ، والمصنع ، وعن النضالات الخائض غمارها العمال في البلاد الأخرى دفاعاً عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر بأصبعه على الطاولة أحياناً وكأنه يحدّد المقاطع والمواقف في حديث بافل . وكثيراً ما كان يهتف :

– تلك هي القضية ! تلك هي القضية !

وضحك مرة ، وقال في رصانة :

– انت ما زلت حدثاً ، ولم تتعلم كيف تعرف الناس !

فأجاب بافل في رزانة ، وهو يقف امام ريبين :

– فلندع الكلام عن الشيوخ والفتيان جانباً ، ولنر الحق في اي صف يقف .

– إذن انت تعتقد انهم حاولوا أن يخدعونا فيما يتعلق بالله ايضاً ؟ هو ذلك ، فانا اعتقد أن ديانتنا لا تنفع شيئاً .

وهنا تدخلت الأم في الأمر . كانت – كلما تحدث ابنها عن الله وعن الأمور ذات العلاقة بإيمانها به ، هذا الأيمان العزيز على قلبها والمقدس في نظرها – تسعى إلى ملاقاة عين فتاها ، وتتوسل إليه في صمت الا يجرح قلبها بكلمات إلحاده القاسية . ولكنها تخمّن ، خلف ذلك الالحاد ، ايماناً ؛ فيواسيها ذلك ويرفّه عنها .

كانت تفكر : «كيف استطيع فهم أفكاره ؟»

هَدْهِدَ لها أن ذلك الرجل الكهل لا بدّ مستاء مثلها من كلمات ابنها . ولما طرح ريبين ذلك السؤال بكل هدوء ، لم تعد تستطيع أن تتمالك نفسها فقالت في الحاح :

– اما فيما يتعلق بالرب ، فخير لكما أن تكونا أكثر روية فيما تقولان ! يمكنكما أن تفكرا فيما يروقكما !

وارسلت نفساً عميقاً عميقاً ، واضافت بحماسة مضاعفة :

– اما انا ، المرأة العجوز ، فلن يبقى لي شيء ألتفت إليه في آلامي لأسأله الغوث والمعونة إذا طرحتما الله بعيداً عني !

واخضلّت عيناها بالدموع ، واخذت يداها ترتجفان وهي تغسل الصحون .

قال بافل في نبرة لطيفة :

– انت لم تفهمينا يا اماه !

وقال ريبين بصوته العميق المتماهل :

– إصفحي عنا ، يا أم !

وارسل ضحكة قصيرة ، وهو يختلس النظر إلى بافل ، واضاف :

– لقد غاب عن بالي انك أكبر سناً من أن تستاصلي ما فيك من ثآليل . . .

وتابع بافل :

– انا لم أكن أتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنين به . بل عن ذلك الإله الذي يستعمله الكهنة مثل العصا لتخويفنا والذي يحاولون باسمه جعل الشعب بأسره ينحني امام إرادة البعض الشريرة . . .

فصاح ريبين ، وهو يضرب الطاولة بأصابعه :

– تلك هي القضية ! لا بل استأجروا من اجلنا إلهاً كاذباً . وهم يحاربوننا بكل ما تقع عليه أيديهم دون تفريق ! فكّري في هذا لحظة ، يا اماه ! الله خلق الإنسان على صورته ومثاله ، وهذا يعني انه يشبه الإنسان ما دام الانسان يشبه الله ! ولكننا نحن اشبه بالوحوش الكاسرة منا بالآلهة ؛ والكنائس تلوّح بفزاعة في وجهنا ليس غير . . . إن علينا أن نبدّل إلهنا ، يا اماه ، وعلينا ان نطهّره كذلك !

لقد احاطوه بالاكاذيب والافتراءات وشوهوا وجهه كي يقتلوا ارواحنا ! . . .

كان يتحدث بعذوبة ، ومع ذلك وقعت كل كلمة من كلماته صفعة ثقيلة على راس الأم الذاهلة التي اجفلت خوفاً من ذلك الوجه العريض المكتئب في إطار لحيته السوداء وعجزت عن تحمل البريق الأسود في عينيه الباعثتين في قلبها جزعاً مؤلماً .

قالت ، وهي تهز راسها :

– لا ، إني ذاهبة ، فسماع مثل هذه الأمور يتجاوز قواي !

دلفت إلى المطبخ مسرعة ، فيما ريبين يقول لبافل :

– ارايت ، يا بافل ؟ ليس الراس ، بل القلب . . . ذلك هو الأمر الأهم ! القلب هو مكان خاص جداً بالنفس الانسانية ، ولا يمكن ان ينمو فيه شيء آخر على الإطلاق . . .

فقال بافل في عزم :

– العقل وحده يقوى على تحرير الإنسان !

فعاد ريبين يقول في صوت مرتفع وبالحاح :

– العقل لا يهب الانسان القوة ! قلبه من يهب القوة ، لا عقله !

خلعت الأم ثيابها ، وسعت الى فراشها دون أن تتلو صلواتها . كان إحساس بارد مقيت يعتصرها في قبضته . ولم يعد ريبين ، الذي بدا لها للوهلة الأولى ذكياً رصيناً ، يثير فيها الآن إلا شعور العداوة والنفور .

كانت تفكر ، وهي تستمع إلى صوته : «الكافر ! الملحد ! ما الذي أتى به إلى هنا ؟»

لكنه تابع حديثه بثقة هادئة :

– لا يمكن ان نترك المكان المقدس فارغاً ! فالمكان الذي يحتله اللّه من الروح البشرية هو أكثر الأماكن إيلاماً . فان أنت نزعته من هناك ترك جرحاً كبيراً جداً ! يجب إذن ان نفكر في ايمان جديد ، يا بافل . يجب أن نخلق إلهاً يكون صديقاً للانسان ! تلك هي القضية !

فهتف بافل في حماسة :

– هناك المسيح !

– المسيح لا يملك جراة روحية . لقد قال : لو ترفع عني هذه الكاس ! ثم هو اعترف بقيصر . كيف يمكن للّه أن يعترف بسلطة دنيوية على مخلوقاته ؟ هو نفسه القوة المهيمنة الوحيدة ! يستحيل أن يقسم نفسه أجزاء – هذه حصة اللّه ، وتلك حصة الانسان . . . ولكن المسيح قَبلَ بالتجارة ، وكذلك الزواج . ثم انه كان مخطئاً عندما لعن شجرة التين – اكانت شجرة التين تستحق اللوم لأنها لم تحمل ثمراً ينوعاً ؟ وكذلك النفس البشرية لا تستحق اللوم انْ لم تحمل ثمراً صالحاً . اأنا الذي بذرت هذا الشرّ في نفسي ؟ تلك هي القضية !

ظلّ الصوتان يتشابكان في الغرفة ، يلتحمان ويتدافعان في نضال شديد ، والأرض تصرُّ تحت وقع أقدام بافل وهو يذرعها روحةً جيئة . وعندما كان بافل يتكلم كانت سائر الأصداء تتلاشى تماماً ، فاذا تكلم ريبين بتمهل وهدوء

استطاعت الأم أن تسمع صوت تارجج الرصاص ، وطقيق الجليد الخافت على جدران الدار .

– سأقول ذلك بكلماتي الخاصة ، كلمات الوقّاد : إن اللّه لهيب خالص ، وهو يعيش في القلب . وقديماً قيل : «في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان الله». وهكذا ، فان الكلمة هي الروح . . .

فعقّب بافل يقول بإصرار :

– الكلمة هي العقل !

– حسناً ، فاللّه اذن في القلب والعقل معاً ، وليس في الكنيسة ! الكنيسة هي لحد اللّه .

واستغرقت الأم في النوم ، فلم تشعر بريبين وقتما غادر المنزل .

بيْد انه اصبح منذ ذلك الحين ضيفاً دائماً . فإن كان ثمة احد من رفاق بافل جلس ريبين في إحدى الزوايا دون ان يقول شيئاً ، اللهم إلا ان ينطق – فيما ندر – بهذه الكلمات :

– تلك هي القضية !

وفي ذات مرة لفّ الجماعة بنظرته السوداء ، وقال مستاءً :

– يجب أن نتحدث عن الأشياء كما هي في الواقع لا كما سوف تكون . . . من يعرف ذلك ؟ عندما يحصل الناس على حريتهم ، فعندئذ يقررون افضل الأمور بالنسبة إليهم. لقد كفاهم ما حُشيَت أدمغتهم به حتى الآن دون ان يطلبوا ذلك . آن الوقت ليعطوا فرصة يفعلون فيها شيئاً من تلقاء

انفسهم ، ولربما أرادوا أن يرفضوا كل شيء ، مجمل الحياة والمعرفة . ولربما وجدوا ان كل شيء كإله الكنيسة موجّه ضدهم . ضعوا الكتب بين أيديهم فيجدوا بأنفسهم الأجوبة عن اسئلتهم . تلك هي القضية !

وان كان وبافل معاً ، دخلا مباشرة في نقاش لا ينتهي ولا يفقدان خلاله ابداً زمام نفسيهما . وكانت الأم تصغي اليهما في قلق واضطراب ، وتلاحق كل كلمة من كلماتهما ، جاهدة ان تفهم معنى اقوالهما . وكان يخيل إليها احياناً أن الرجل العريض المنكبين ، الأسود الذقن ، وابنها المديد القامة ، المتين البنيان ، فقدا البصر تماماً . فهما ينطلقان اولاً في احد الاتجاهات ، ثم في اتجاه آخر ، يفتشان عن طريق للخروج ، ويمسكان بكل شيء بين اصابعهما القوية العمياء ، يهزاه ، وينقلاه من مكان إلى آخر ، ثم يدفعان به على الأرض ليطآه باقدامهما . كانا يرتطمان بالاشياء ويتحسسانها ، ثم يقذفان بها بعيداً دون أن يفقدا أيمانهما وآمالهما .

علّماها أن تسمع كلمات مخيفة في صراحتها وجراتها . ولكن هذه الكلمات لم تعد تؤلمها بذات القوة التي اوجعتها بها في المرة الاولى – لقد تعلمت ان تدفع بها بعيداً عنها . وكانت تميز ، أحياناً ، وراء الكلمات الجاحدة باللّه أيماناً ثابتاً به ، فتبتسم عندئذ ابتسامة هادئة صفوحا . واستمر ريبين لا يروق في عينيها ، وان لم يعد يثير نفورها أبداً .

في كل أسبوع كانت تحمل الى الاوكراني في سجنه كتباً وثياباً نظيفة ، ونالت الاذن مرة في رؤيته ؛ فروت بحنان ، عندما رجعت ، اثرَ تلك المقابلة فيها . قالت :

– انه يشعر نفسه هناك كما لو في بيته . طيب على الدوام لكل الناس ، وكل الناس يمازحونه . من الصعب عليه ان يكون هنالك ويؤلمه ذلك جداً ولكنه لا يظهر اوجاعه .

فعلق ريبين على ذلك بقوله :

– صحيح ما يفعل ! فالحزن مثل جلدنا ، ونحن في داخله تعودنا هذا الثوب . وليس في هذا ما يستحق الفخر . هناك البعض من الناس وُضعت على أعينهم عصابات وهناك البعض الآخر يغمضون اعينهم بانفسهم ، تلك هي القضية ! فان كنا اغبياء ، فليس امامنا الا التجهم وتحمل ذلك ! . .

١٢

اخذ اهتمام الضاحية بمنزل آل فلاسوف الصغير الأغبر يتضاعف يوماً بعد يوم . وكان ذلك الاهتمام ممزوجاً بالريبة وشعور غير واع بالعداوة والنفور . لكن فضولاً آمناً يغلي في قلب البعض ، فيجيء غريب أحياناً وهو يختلس النظر يمنة ويسرة ، ويقول لبافل :

– إسمع ، أيها الأخ . انت تقرأ الكتب وتعرف القوانين ، أفلا تستطيع ان توضح لي . . .

ويروي له قصة ظلامة ارتكبها رجال الشرطة او إدارة المصنع . واذا كانت الحال معقدة عسيرة أعطى بافل الرجل كلمة منه الى محام من معارفه في المدينة . ولكنه كان يوضح القضية بنفسه كلما استطاع الى ذلك سبيلاً .

وبدأ الناس يحترمون ، شيئاً فشيئاً ، هذا الشاب الرزين الذي يتكلم ببساطة وجرأة ، ويحتفظ بعينيه مفتوحتين أبداً ، واذنيه واعيتين على الدوام ، ويغوص بعناد الى أعماق كل نزاع ، ويجد دون انقطاع ، وفي كل مكان ، السلك المشترك الذي يربط الناس بعضهم ببعض بآلاف من العقد المتينة .

ولقد اكتسب بافل هيبةً خاصة بعد حادث «كوبيك المستنقع» .

كان مستنقع كبير مكسو بشجر الشوح والبتولا يمتد حول المصنع حتى يكاد أن يحيط به في شبه حلقة متعفنة منفرجة . وكان ينشر في الصيف ابخرة صفراً كثيفة ، وسحباً عظيمة من بعوض يبذر الحمّى في طول الضاحية وعرضها . ولما كان ملكاً للمعمل ، فقد قرر المدير الجديد تجفيفه بحيث يستخرج منه الفحم النباتي ويستفيد من الأرض في الوقت ذاته . فاصدر أمره أن يُحسم كوبيك واحد من كل روبل من أجور العمال ليخصص لمصروفات تجفيف المستنقع ، متذرعاً بانه لجأ الى ذلك في سبيل تنقية الجو وتحسين شروط معيشة العمال .

استشاط العمال غيظاً واثارهم ، بصورة خاصة ، أن هذا الحسم الجديد من أجورهم لا يشمل المستخدمين في المصنع .

كان المرض قد احتجز بافل في الدار يوم السبت الذي اعلن فيه المدير تلك الضريبة الجديدة ، فلم يدر بها . في اليوم التالي وبعد صلاة العشاء ، قدم سيزوف لزيارته ، وهو سبّاك محترم وسيم المحيا ، يرافقه ماخوتين الميكانيكي ،

المديد القامة ، السريع الانفعال . وبعد ان تحدثا الى بافل عن قرار المدير ، قال له سيزوف بلهجة ذات مغزى :

– اجتمع الأكبر سناً بيننا وناقشوا الأمر ملياً . قرر الرفاق أن يرسلونا اليك باعتبارك شخصاً مطلعاً لتعلمنا عما اذا كان ثمة قانون يسمح للمدير ان يكافح البعوض بقروشنا .

وقال ماخوتين ، وعيناه الضيقتان تبثان اللهب :

– تذكر فقط ! هؤلاء اللصوص اخذوا اموالنا منذ اربعة اعوام كي يبنوا حماماً . ولقد جمعوا ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل يومذاك . اين هي الآن ؟ نحن لم نر اثراً لأي حمام على الاطلاق !

اوضح لهما بافل عدم شرعية ذلك الحسم ، والفائدة الأكيدة التي يجنيها المعمل من هذا التدبير ، فخرج الرجلان عابسين . وبعد ان شيعتهما الأم قالت ، وهي ترسل ضحكة قصيرة :

– الشيوخ أنفسهم بدأوا يستخدمونك أدمغةً لهم .

لم يجبها بافل ، بل جلس الى المنضدة وعليه سيماء القلق ، وشرع يكتب طوال عدة دقائق ، ثم توجه اليها قائلاً :

– لي رجاء عندك ، يا أماه ، هو الذهاب الى المدينة وتسليم هذه الرسالة الى صاحبها . . .

– اهي رسالة خطرة ؟

– نعم ، فإني مرسلك الى المكان الذي يطبعون فيه

جريدتنا ، فمن الضروري جداً أن تظهر قصة هذا الكوبيك في العدد المقبل . . .

– حسناً ، انا ذاهبة في الحال . . .

تلك كانت المهمة الأولى التي ينتدبها ولدها لها ، وقد تقبلتها مغتبطة بصراحته في شرح الموقف دون خداع او مواربة .

قالت وهي ترتدي ثيابها :

– إني افهم ، يا باشا ، فهم يسرقونهم دون حياء ! ما هو اسم ذلك الرجل . . . ييجور إيفانوفيتش ؟

آبت الى الدار في وقت متأخر من الليل شديدة الاعياء ، لكنها كثيرة المرح والبهجة ، وخاطبت ابنها قائلة :

– لقد رايت ساشنكا ، وهي ترسل إليك تحياتها ؛ اما ييجور ايفانوفيتش هذا فرجل بسيط كثير المرح ، وان له اسلوباً طريفاً في الحديث !

فقال بافل في عذوبة :

– إني سعيد باستلطافك لهم !

– هم أناس بسطاء ، يا باشا ، وانه لجميل ان يتواضع الانسان ولا يشمخ بأنفه ! وهم يحترمونك كثيراً . . .

لازم بافل الدار يوم الاثنين ايضاً لأنه لم يسترد عافيته بعد . وقدم فيدور مازين اثناء فرصة الغداء يعدو منقطع الأنفاس ، منفعلاً ، سعيداً ، وصاح :

– هيا بنا ، فالمعمل بأسره في هياج هادر ، ولقد بعثوا بي في طلبك . سيزوف وماخوتين يقولان ان في مقدورك شرح

الأمور أفضل من أي انسان آخر . ولسوف ترى ماذا يجري هناك !

أخذ بافل يرتدي ثيابه ، دون أن ينطق حرفاً .

– لقد جاءت النسوة أيضاً ، وهن يضفن زعيقهن الى صراخ الرجال !

وقالت الأم :

– إني قادمة ايضاً ! ماذا هم فاعلون ، يا ترى ؟ إني قادمة أيضاً !

فقال بافل :

– تعالي ، هيا بنا !

مضوا يحثون الخطا ، في صمت ، خلال الشوارع . كانت الأم منقطعة الأنفاس تقريباً لشدة انفعالها ، تشعر أن أمراً عظيم الخطورة سيحدث عما قريب . وكان جمهور من النساء يتخاصمن ويتصايحن عند بوابة المعمل . وما إن تسلل ثلاثتهم الى الساحة الكبيرة حتى وجدوا أنفسهم وسط حشد أسود كبير يزمجر في هياج شديد . ولاحظت الأم أن سائر الأنظار متجهة إلى حائط المصهر ، حيث كان سيزوف ، وماخوتين ، وفيالوف ، وخمسة او ستة آخرون من العمال القدامى ذوي النفوذ ، يعلون كومة من الحديد الصدئ تجاه الحائط الآجري الأحمر تماماً .

صاح بعضهم :

– هذا هو فلاسوف آت !

– فلاسوف ؟ فليأت إلى هنا ! .

وصاحت أصوات من أماكن مختلفة :

– هدوءاً !

وتعالى صوت ريبين المنتظم من مكان قريب :

– لسنا نناضل من أجل الكوبيك ، بل في سبيل العدالة ! تلك هي القضية ! ليس الكوبيك بالعزيز علينا حتى هذه الدرجة ، فهو ليس أكثر استدارة من سواه وان كان أثقل ، لأن فيه من الدم الانساني أكثر مما في روبل المدير بما لا يقاس ! ليست القيمة في الكوبيك ، بل في الدم ، في العدالة ! تلك هي القضية !

سقطت كلماته في قلب الحشد الذي تلقفها بلهفة ، فأثارت بينه هتافات حادة :

– انت على حق ، يا ريبين !

– قول حسن ، أيها الوقاد !

– هو ذا فلاسوف !

واختلطت الأصوات في إعصار من الضجيج طغى على زمجرة الآلات ، وصفير البخار ، وطنين المعادن . وتراكض العمال من كل حدب وصوب وهم يلوحون بأذرعتهم ، ويحرضون بعضهم بعضاً بكلمات حادة قاسية . كان الاستياء الكامن أبداً في تلك الصدور المتعبة يولد الآن ويطلب مخرجاً . كان يحلّق في الجو منتصراً ، وينشر اجنحته اوسع فاوسع ويشد قبضته على خناق الناس ، ويجرهم في يقظته ، ويلقي بعضهم في وجه بعض ، ويغمرهم بلهيب تحوّله المنتقم . وهبّ فوق الحشد سحابة من الغبار والهباب ، فالتمعت انفعالاً الوجوه المتصببة عرقاً ، وبكت الخدود دموعاً سوداً ، وبرقت العيون والاسنان جميعاً في الوجوه المسودة .

وظهر بافل فوق كومة الحديـــد ، حيث كان سيزوف وماخوتين واقفين وصاح :

– ايها الرفاق !

لمحت الأم شحوباً شديداً في وجهـــه ، وارتعاشاً في شفتيه ، فتحركت الى الامام دون وعي ، تشق لنفسها طريقاً خلال الازدحام الشديد . صاحوا بها في حدة :

– إبقي مكانك !

دفعوها بالمناكب فلم تأبه لذلك ، ولم تفلّ عزيمتها ، بل استمرت تشق طريقها بكتفيها ومرفقيهـــا ، وهي تقترب ببطء من ابنها تحدوها الرغبة في الوقوف الى جانبه .

عندما افرغ بافل ما في صدره من كلمة تطفح معنىً كبيراً ومغزىً خطيراً بالنسبة اليه احس بالغصة في حلقه هي فرحة المناضل . وامتلكته رغبة جامحة في إلقاء قلبـــه إلى هؤلاء الناس ، هذا القلب الملتهب بأحلام العدالة .

– ايها الرفاق !

هتف بهم ، وهو يستقي من هذه الكلمة قوته واشراقه ، ثم اضاف :

– نحن الذين نبني الكنائس والمعامل ؛ نحن الذين نصهر القيود ، ونصوغ النقود ؛ نحن تلك القوة الحية التي يطعـــم منها الجميع ويتسلون بها منذ المهد حتى اللحد . . .

فصاح ريبين :

– تلك هي القضية !

– دائماً ، وفي كل مكـــان ، نحن الأولون في العمـــل ، والآخرون في اكتساب الاعتبار . من يهتم بنا ؟ من فعل يوماً

أبسط الأشياء من أجل منفعتنا وخيرنا ؟ لا بل هل نظر الينا احد ، في يوم من الأيام ، على أننا كائنات بشرية ؟ أبداً !

فردد صوت كرجع الصدى :

– أبداً !

ويزداد كلام بافل بساطة وهدوءاً كلما تمالك نفسه ، بينا الحشد يقترب منه أكثر فاكثر ، ويذوب في جسد أسود واحد يعيش بألف رأس ورأس ، ويحملق في وجه بافل بآلاف الأعين المنتبهة ، وينهل بلهفة العطشان كل كلمة من كلماته .

– لن نكون أحسن حظاً ما لم ندرك أننا رفاق جميعاً ، أننا عائلة واحدة من الاصدقاء الذين يجمعهم رباط وحيد ، الا وهو النضال من أجل حقوقنا .

فصاح احد الحاضرين في صوت جاف ، وكان يقف قريباً من الأم :

– تكلم في الموضوع !

فصفعه صوتان خفيضان ينصبان من جهتين مختلفتين :

– لا تقاطعه !

عبست الوجوه المسودة تفصح عن ارتياب متشائم ، ولكن عيوناً كثيرة كانت متجهة الى وجه بافل وهي تشع بالجـــد والاهتمام .

ولاحظ بعضهم :

– إنه اشتراكي ، ولكنه ليس أحمق !

وقال عامل طويل أعور ، وهو يدفع الأم من كتفها :

– ما أشجع كلامه !

– لقد آن الأوان لنا ، ايها الرفاق ، كي ندرك انه ليس

من يغيثنا سوى أنفسنا ! المجموع للفرد ، والفرد للمجموع ، ذلك يجب أن يكون شعارنا إذا أردنا التغلب على العدو !

فصاح ماخوتين ، وهو يرفع يده عالياً في الهواء :

– إنه يقول الحقيقة ، أيها الاخوان !

وتابع بافل :

– نطالب بحضور المدير !

لكأن إعصاراً مباغتاً من ريح صرصر جفول اكتسح الحشد بأسره ، فترنح كموجة عاتية ، فيما انطلقت عشرات الأصوات تصيح :

– نطالب بحضور المدير !

– ارسلوا وفداً إليه !

شقت الأم ، من جديد ، طريقها مقتربة من ولدها ، ونظرت إليه ووجهها يطفح فخراً واعتزازاً . هو ذا بافل ، فتاها ، يقف بين هؤلاء العمال الشيوخ المحترمين ، والجميع إليه مصغون ، يوافقون على أقواله . وكانت سعيدة لأنه لم يحتدم غيظاً ، ولم يشتم كما يفعل الباقون .

كانت الشتائم والهتافات والكلمات الجارحة تنهال من كل حدب وصوب كالبَرَدِ فوق سطح من القصدير الرنان . وتطلع بافل نحو القوم الذين احتفّوا به ، وبدا عليه أنه يفتش عن شيء ما بعينيه الواسعتين العريضتين .

– عيّنوا الوفد !

– سيزوف !

– فلاسوف !

– ريبين ، فإن له أسناناً مخيفة !

فجأة تعالت هتافات مكتومة بين المحتشدين :

– لقد جاء من تلقاء نفسه !

– المدير ، المدير !

افسح المتجمهرون الطريق لرجل فارع القامة ، متطاول الوجه ، مدبب اللحية :

– اسمحوا لي !

كان يقول ذلك وهو يدفع العمال عن طريقه بإشارة خفيفة من يده لم يكن يريدها أن تنال منهم مساً . وكانت عيناه متضيقتين ، وهو يتفحص وجوه العمال بنظرات خبيرة تدل عن سيد واسع التجربة . وأخذ القوم ينتزعون قبعاتهم وينحنون له أثناء مروره ، فيما هو يتابع طريقه دون أن يردّ تحياتهم ، زارعاً الصمت والبلبلة بين المحتشدين الذين طفقوا يبتسمون في حيرة واضطراب ، ويرسلون صيحات مكتومة كالأطفال حين يعبّرون عن ندمهم وتوبتهم بعد أن يضبطوا بالجرم المشهود .

اجتاز الأم ، فانزلقت نظراته القاسية على وجهها انزلاقاً ، ثم توقف تجاه كومة الحديد . ومدّ أحدهم يده ليساعده على اعتلائها ، فرفض تلك اليد وتسلق الكومة من تلقاء نفسه بحركة نشيطة ، وصرى بافل وسيزوف :

– ما معنى هذا الاجتماع ؟ ولماذا توقفتم عن العمل ؟

خيّم الصمت برهة وجيزة ، وتموجت رؤوس القوم كسنابل القمح ، ولوّح سيزوف بقبعته ، وهزّ كتفيه واطرق برأسه .

صاح المدير بحدة :

– أجيبوا عن سؤالي !

فتقدم بافل ووقف الى جانبه ونبر في صوت مرتفع ، وهو يشير الى سيزوف وريبين :

– لقد انتُخِبَ ثلاثتنا من قبل رفاقنا كي نطلب إليك إلغاء قرارك المتعلق بحسم الكوبيك . . .

فسأل المدير ، دون ان يتكلف التطلع إلى بافل :

– لِمَ ؟

فاجاب بافل في صوت مرتفع ايضاً :

– لأننا نعتبر مثل هذه الضريبة ظلماً !

– اتعتقدون ان نيتي في تجفيف المستنقع املتها عليَّ الرغبة في استثمار العمال لا الرغبة في تحسين شروط معيشتهم ؟ اهذا ما تظنون ؟

فقال بافل :

– نعم !

فاستدار المدير إلى ريبين وسأل :

– وانت ايضاً ؟

– جميعنا نعتقد الشيء ذاته !

فاستدار إلى سيزوف :

– وانت ، ايها الرجل المحترم ؟

– وانا ايضاً ، الافضل ان تركتم لنا كوبيكاتنا هذه !

ونكس سيزوف راسه مرة اخرى ، وعلت شفتيه ابتسامة مذنبة .

فاكتسح المدير الجمهور بنظرة متانية ، وهز كتفيه ، واستدار إلى بافل وحدجه بنظرة فاحصة :

– يبدو انك رجل مثقف نوعاً ما . ايعقل انك ، انت الآخر ، لا تدرك حسنات مثل هذا التدبير ؟

فاجاب بافل في نبرة ارادها ان تكون مسموعة من الجميع :

– لو ان المعمل يجفف المستنقع على حسابه الخاص ، لادركنا جميعاً عندئذ تلك الحسنات !

فقال المدير في جفوة :

– ليس المعمل مؤسسة خيرية ! آمركم بالعودة حالاً إلى عملكم جميعاً !

وشرع يهبط عن الكومة ، وهو يتحسس الحديد بعناية فائقة ، دون ان ينظر إلى اي من المحتشدين .

فارتفع من الحشد دويُّ استياء شديد .

توقف المدير في مكانه ، وسأل :

– ما بالكم ؟

فحطم السكون صوت وحيد بعيد :

– اذهب واشتغل بنفسك !

فَرعَدَ المدير في جفاء ، وبلهجة واضحة :

– إن لم تعودوا إلى العمل في خمس عشرة دقيقة ساصدر امري بتوقيع الغرامة عليكم جميعاً !

وشقَّ طريقه مرة اخرى وسط الحشد ، فإذا زمجرة ثقيلة ترتفع خلفه هذه المرة وتروح تتعالى كلما ابتعد :

– جربوا ان تتكلموا معه !

– إليكم عدالتكم ! يا لها من حياة مسكينة . . .

وتوجهوا الى بافل ، وصاحوا :

– ماذا ينبغي علينا ان نفعل الآن ، ايها اللبيب ؟

– لقد القيتَ خطبة رائعة ، وعندما أطلّ الرئيس بوجهه تبدلت وجهة الريح !

– هيا ، يا فلاسوف ، قل لنا ما نفعل !

ولما ازدادت الأسئلة والصيحات إلحاحاً ولجاجة ، قال بافل :

– اقترح ، أيها الرفاق ، أن نترك العمل حتى يتنازل عن فكرة الحسم . ..

فقفزت التعليقات في هياج وانفعال شديدين :

– أتعتقد أننا مجانين لا ندرك ؟

– ولكن هذا يعني الاضراب !

– امن اجل كوبيك واحد نفعل هذا ؟

– لماذا لا نضرب ؟

– سيسرحوننا جميعاً !

– ومن يعمل له عندئذ ؟

– سيجد الكثيرين الذين يعملون راضين !

– من الخونة ؟

١٣

هبط بافل عن كومة الحديد ، واتخذ موقفه إلى جانب امه .

كان هياج شديد يطغى على الحشد كله فيلغطون ، ويتناقشون ، ويتصايحون في حمية فائقة .

اقترب ريبين من بافل ، وقال له :

– لن تستطيع أبداً حملهم على الاضراب ! هم جماعة شرهون جداً ولكنهم جبناء ، ولن يتبعك أكثر من ثلاثمائة منهم . السماد كثير جداً ، ولن تستطيع مذراة واحدة أن ترفعه كله . . .

اعتصم بافل بالصمت . كان الحشد الأسود الجسيم يتموج امامه ، يبحث عن عينيه في رجاء ملحاح . وراح قلبه يخفق في قلق ، وبدت له كلماته وقد تلاشت بين الناس دون أن تترك اثراً ، مثل قطرات منفردة من المطر سقطت على ارض ظمأى .

ورجع الى بيته متعباً ، حزيناً يتبعه – عن قرب – أمه وسيزوف ، فيما ريبين يسير الى جانبه ، ولا ينقطع عن الطنين في اذنه :

– لقد تكلمت حسناً ، لكنك لم تتوجه إلى القلب . تلك هي القضية ! ينبغي عليك أن تتحدث إلى قلوبهم وان تلقي بالشرر في اعماق أرواحهم بالضبط . لست تستطيع إقناع الشعب بمحاكمتك ، فهذا الحذاء لا يناسب تلك القدم . إنه صغير جداً وضيق جداً !

وكان سيزوف يقول للأم :

– لقد حان الوقت لكي نفتش ، نحن الشيوخ ، عن مكان لنا في المقبرة ، يا بيلاجيا ! ثمة نوع جديد من البشر ينمو حالياً . كيف عشنا ، انت وانا ، جاثيين على ركبنا ، ضاربين الأرض بجباهنا ، منحنيين لمن هم اقوى منا . اما في هذه الأيام ، فلعل الناس استعادوا رشدهم – لست ادري – او لعلهم يرتكبون خطأ افدح منا ، ولكنهم ليسوا مثلنا على اية

حال . خذي الشبيبة مثلاً ، هم يخاطبون اليوم المدير وكأنهم مساوون له . . . حسناً ، وداعاً ، يا بافل ميخائيلوفيتش ! لقد كانت طريقتك في الدفاع عن الشعب رائعة حقاً ! فليكن اللّه في عونك ! ربما تجد المخرج ! فليكن اللّه في عونك !

ومضى . غمغم ريبين :

– هيا اذهب ، وامضِ إلى الموت ! إن الناس أمثالـه ليسوا بكائنات إنسانية ، بل طين يصلح ان يكون ملاطـاً للحجارة . لاحظ مَنْ صاحوا يريدونك ان تكون موفداً ، يا بافل ؟ إنهم هم الذين أذاعوا تلك الاشاعات القائلة إنـك اشتراكي مشاغب . هم انفسهم ! لقد فكروا : سيسرّحونه ، وهو يستحق ذلك .

فقال بافل :

– هم على حق ، إذا اعتبرنا الأشياء من وجهة نظرهم !

– الذئاب أيضاً على حق عندمـا تمزق أخوتهـا إرباً إرباً . .

كانت سحابة غبراء تغشى وجه ريبين ، وصوته يكشف عن اضطراب غير معهود :

– الناس لا يريدون الاستماع إلى الكلمات العاريـة – يجب ان تتألم ، ينبغي ان تغمس كلماتك في الدم . . .

ظل بافل طوال النهار حائراً ، متعباً ، كئيباً ، مضطربـاً بصورة غريبة ، تلتهب عيناه وتبدوان كأنهما تفتشان عن شيء ضائع . ادركت الأم ذلك فاستوضحته في حذر :

– ما بالك ، يا باشا ؟

رد متفكراً :

– أصابني صداع .

– هلا اضطجعت ، وسأدعو لك طبيباً . . .

فاسرع يجيب بعد ان ألقى النظرة عليها :

– كلا ، لا تزعجي نفسك !

واضاف فجأة في همس خفيض :

– إني صغير جداً وضعيف جداً . ذلك هو العناء ! هم لا يصدقونني ، ولا ينضمون الى قضيتي ، وهذا يعني أني لا اعرف ان اشرحها لهم وابيّن معانيها . إني أحس بعجزي مما يؤلمني ألماً شديداً !

شخصت إلى وجهه العابس ، وسعت الى مواساته فاعلنت في رقة :

– انتظر ! لسوف يفهمون غداً ما لم يفهموا اليوم . . .

فهتف :

– لقد آن لهم أن يفهموا !

– حتى أنا ارى أنك على حق . . .

فاقترب بافل منها :

– انت رائعة ، يا اماه . . .

قال هذا واستدار عنها ، فاجفلت كأنما طعنتها كلماته الهادئة . تركته خارجة ، ويدها تضغط على قلبها ، تنعـم بعطفه وحنانه .

في تلك الليلة بعد أن توجهت الأم الى فراشها واضطجع بافل في سريره يقرأ كعادته ، جاء رجال الدرك واخذوا ينقبون البيت وهم يهددون في غضب ، يصعدون إلى السطح ويخرجون الى الفناء في حركة دائبة . وتصرّف الضابط الأصفر الوجه في

سخرية مهينة كما فعل في المرة الأولى ، وهو يتلذذ بتصويب طعناته إلى قلب بافل وقلب امه . وقبعت الأم صامتة في إحدى الزوايا لا تحيد بعينيها عن وجه فتاها الذي يحاول إخفاء عواطفه ، وان كانت اصابعه تهتز بغرابة كلما ضحك الضابط . وادركت مبلغ ما يبذل من جهد كي يمتنع عن الرد عليه ، ومبلغ ما يحز في قلبه وهو يتحمل نكات الضابط وسخريته . ولم تكن خائفة هذه المرة مثلها في المرة الأولى . لقد نما بغضها لهؤلاء الضيوف الرماديين الليليين بمهاميزهم فاستهلك مخاوفها وطغى عليها .

استطاع بافل ان يهمس في اذنها :

– سيأخذونني معهم . . .

فأجابت خافتة الصوت ، وهي تحني رأسها :

– أعلم ذلك . . .

إنها تدرك انهم سيلقون به في السجن بسبب ما قاله للعمال في ذلك الصباح . ولكن الجميع وافقوه فيما ذهب اليه . وهكذا فسوف يهبون كرجل واحد للدفاع عنه فلا يطول اعتقاله . . .

ارادت ان تلقي بذراعيها حول عنقه ، وأن تبكي . وكان الضابط يقف الى جانبها يراقبها بعينيه الضيقتين ، ترتجف شفتاه وشارباه وكأنه يبتسم في سره . وصوّر لبيلاجيا ان هذا الرجل ينتظر دموعها وشكاواها وتوسلاتها فجمعت كل قواها ولم ترد أن تقول كلمات كثيرة . انما ضغطت على يد ابنها وهي تقول ببطء ، وصوت خافت ، وتنفس ضعيف :

– إلى اللقاء ، يا باشا ! هل أخذت جميع ما تحتاج إليه ؟

– نعم . لا تستوحشي !

– فليكن اللّه معك . . .

بعدما خرجوا مع بافل تهالكت على دكة ، وأغمضت عينيها ، وراحت تئن بصوت خافت . جلست وظهرها إلى الحائط ، كما اعتاد زوجها أن يفعل ، يرهقها الحزن والادراك المؤلم لعجزها وضعفها . ألقت رأسها الى الوراء ، وأنّت أنيناً طويلاً بطيئاً سكبت فيه كل مرارة قلبها المكلوم ، بينما طفق ذلك الوجه الأصفر الجامد بشاربيه الرفيعين ، وعينيه الضيقتين اللتين تبرقان سروراً ولذة ، يتنقل على فكرها ويعذبها . وتراكمت في صدرها سحب سود من المرارة والكراهية لأولئك الناس الذين يحرمون الأمهات من أبنائهن لأن هؤلاء يسعون وراء العدالة ليس غير .

كان البرد قاسياً ، وقطرات المطر تضرب على النوافذ في عنف ، وهُدْهِدَ لها أن أشباحاً رمادية ذات وجوه حمر عريضة لا عيون فيها ، وسواعد طويلة جداً ، تخطو في الليل حول بيتها متربصة ، ومهاميزها تدوّي في خفوت . جمجمت في فكرها : «لو انهم اخذوني ، أنا الأخرى !»

ودوّت الصفارة تدعو الناس إلى العمل ، فارتفع دويها ذلك الصباح بطيئاً ، أجش الصوت متردداً . فتح الباب ودلف ريبين منه . وقف تجاهها وسأل ، ماسحاً عن لحيته قطرات المطر :

– هل أخذوه ؟

فأجابت ، وهي تزفر :

– نعم ، أخذوه ! لعنة الله عليهم !

فضحك ريبين ضحكة مقتضبة ، وقال :

– كان يجب أن ينتظر ذلك ! لقد فتشوا بيتي أيضاً ، ومروا بأصابعهم على كل شيء ، وتفوهوا بشتائم كثيرة . . . إنما لم يرتكبوا إلا قليلاً من الأذى . وهكذا أخذوا بافل إذن ! يغمز المدير بعينيه ، والدركي يومىء برأسه ، وإذا شخص آخر موقوف ! إنهما متفاهمان بصورة مدهشة ، فأحدهما يمسك الشعب من القرنين ، والآخر يستدر لبنه حتى يجف . . .

صاحت الأم ، وهي تنهض :

– ينبغي أن تدافعوا عن بافل ! فما فعله كان في سبيل الجميع .

– من ينبغي له ؟

– الجميع !

– كذا إذن ، ذلك هو رأيك ؟ لن يحدث هذا أبداً !

ومضى وئيد الخطوات وهو يضحك ضحكة قصيرة . وقد تركت كلماته اليائسة الأمّ أكثر بؤساً منها في أي وقت آخر .

«ماذا إذا ضربوه ؟ إذا عذبوه ؟ . . .»

تخيلت جسد ولدها محطماً يدمى من الضراب ، فعصف بقلبها خوف بارد ، وراحت عيناها توجعانها .

في ذلك اليوم لم تشعل النار في الموقد ، ولم تهيىء غداءها ، ولم تشرب الشاي . وحين حل المساء، تناولت كسرة

من الخبز فقط . ولما حبت إلى فراشها تلك الليلة ، أحست أن حياتها لم تكن في يوم من الأيام باردة موحشة مثلها الآن . لقد اعتادت ، خلال السنين القليلة الأخيرة ، أن تعيش وهي تتوقع باستمرار شيئاً عظيماً رائعاً ، محوطاً بنشاط الشبان المبتهج وضجيجهم ، معتادة على رؤية وجه ابنها المحرّض على تلك الحياة الجيدة ، لكن الخطرة في الوقت ذاته ، أما الآن ، فلقد ذهب . . . وذهب معه كل شيء آخر .

١٤

لم ينقض ذلك النهار ، والليلة التي أعقبته ، إلا بعد طول سهاد لا ينتهي . وحلّ اليوم التالي ، فإذا هو يجرّ أذياله أكثر تمهلاً من سابقه . كانت تنتظر وفود شخص ما ، لا تدري هويته على وجه التحقيق ، لكن أحداً لم يأتِ . وهبط المساء ؛ وجُنّ . . . الليل أيضاً ؛ وزفر المطر البارد فوق الجدران وتدحرج عليها ؛ وصفرت الرياح وهي تعصف من خلال المدخنة ؛ وأسرع شيء يجري تحت أرض المنزل مثيراً ضوضاء خافتة ؛ وانزلقت قطرات من المطر عن السطوح ، فاختلط صدى سقوطها على الأرض مع دقات الساعة بصورة غريبة ؛ وبدا لها المنزل بكامله كأنه يتأرجح مترنحاً ، وقد أحال الحزن كل ما يحيط بها ميتاً ، عديم الحياة . لا فائدة منه . . .

قُرع زجاج النافذة في هدوء . . . مرة . . . مرتين . كانت قد تعودت مثل هذا القرع فلم يعد يخيفها مطلقاً ، ولكنها

ارتجفت هذه المرة في انتفاضة سرور ، وقد لمست شرارة غبطة قلبها الكئيب . إن آمالاً غامضة غير منتظرة تهيب بها ، فتلقي على كتفيها وشاحاً ، وتهرول إلى الباب تفتحه . . .

دخل صمونيلوف ، يتبعه شخص آخر اختبأ وجهه وراء ياقة معطفه المرفوعة ، والقبعة الغارقة في جبينه حتى الحاجبين . سألها صمونيلوف ، دون ان يلقي عليها تحية المساء :

– أيقظناك ؟

كان صوته ، على خلاف عادته ، قلقاً مكتئباً .

اجابت الأم ، وهي تراقب القادمين بنظرات مستفهمة :

– لم اكن نائمة !

نزع رفيق صمونيلوف القبعة عن راسه ، وصعد زفرة عميقة مبحوحة ومد للأم يداً عريضة غليظة الأصابع ، وهو يسألها مثل صديق قديم :

– سلاماً ، يا أماه ! أفلا تذكرينني !

فهتفت بيلاجيا ، وقد أحست بالسعادة بغتة لسبب لم تدركه جيداً :

– أهذا أنت ، يا ييجور إيفانوفيتش ؟

اجاب ، وهو يومئ برأسه العريض الذي طال شعره حتى صار اشبه راس شماس الكنيسة :

– هو ذاته !

كانت ابتسامة جميلة تعلو محياه ، وعيناه الصغيرتان الرماديتان ترنوان بعطف كثير إلى الأم . كان أشبه بالسماور ، صغير القامة ، مستدير الجثة ، ثخين العنق ، قصير الذراعين .

وكان وجهه يبرق بكل أساريره ، وتنفسه صاخباً يجيش ويدمدم على الدوام بشيء غريب يجتاح صدره بعمق وسعة . . .

قالت الأم :

– ادخلا الغرفة الأخرى ريثما أرتدي ثيابي !

قال صمونيلوف في قلق ، ونظر اليها شزراً :

– هناك موضوع نودّ أن نتحدث معك فيه !

دلف ييجور ايفانوفيتش الغرفة المجاورة حيث يرتفع صوته :

– إن نيقولاي ايفانوفيتش ، وأنتِ فيما يبدو تعرفينه جيداً ، خرج من السجن هذا الصباح ، أيتها الأم العزيزة . . .

فقاطعته الأم بقولها :

– ما كنت أدري انه في السجن .

– بقي فيه طوال شهرين واحد عشر يوماً ، وشاهد الأوكراني هناك وهذا الأخير يرسل اليك تحياته ، وكذلك شاهد بافل الذي يرسل اليك تحياته أيضاً ويسألك الاّ تقلقي أبداً . هو يقول أخبروها أن كلٌ من اختار طريقه يتمتع من حين لآخر بلذة الراحة في السجن ، وهذا ما يكفله لنا حرص رؤسائنا الدائب وعطفهم علينا . والآن سأنتقل الى العمل ، يا أماه : هل تعلمين عدد الأشخاص الذين اعتقلوا البارحة ؟

فهتفت الأم :

– أبداً ! هل اوقف أحد خلاف بافل ؟

فقاطعها ييجور ايفانوفيتش بهدوء قائلاً :

– كان بافل الموقوف التاسع والأربعين ، ولا ريب أن الادارة ستسعى إلى توقيف عشرة آخرين ! هذا الشاب مثلاً . . .

فقال صمونيلوف عابساً :

– نعم ، أنا أيضاً !

احست بيلاجيا أن التنفس ، لسبب ما ، أصبح أيسر عليها . وومضت هذه الفكرة في ذهنها : «على الأقل ، فهو ليس وحيداً هناك !»

عندما انتهت من ارتداء ثيابها لحقت بضيفها ، مبتسمة له في مرح :

– لست أعتقد أنهم سيحتفظون بهم طويلاً ما داموا قد أخذوا هذا العدد الكثير . . .

فقال ييجور إيفانوفيتش :

– لقد أصبتِ ! إذا استطعنا أن نفسد عليهم – بطريقة ما – هذا المشهد ، فلسوف يتراجعون وقد لفوا أذنابهم بين اقدامهم . اليك المشكلة كلها : إذا توقفنا عن توزيع المنشورات في المعمل ، فإن رجال الدرك سيستفيدون من هذه الفرصة الكئيبة ويستغلونها ضد بافل وبقية رفاقه المعتقلين . . .

فصاحت الأم في جزع :

– ماذا تعني ؟

أجاب ييجور إيفانوفيتش في هدوء :

– الأمر بسيط جداً ! الدرك يفكرون أحياناً بصورة صائبة. تصوري ذلك جيداً : كان بافل طليقاً . . فكانت

هناك كتب ومنشورات . اعتُقل بافل . . . فلم يعد هناك كتب او منشورات . النتيجة : كان بافل هو الذي يوزع تلك المنشورات ، أليس كذلك ؟ وعندئذ يأخذون يتهمون الجميع . لقد اعتاد رجال الدرك افتراس الناس بصورة فظيعة ، حتى لا يتركوا منهم إلا بعض آثار لا تعني شيئاً !

فقالت الأم في كآبة :

– إني افهم ، يا إلهي ! ولكن ما عسانا نفعل في هذا الشأن ؟

فجاء صوت صمونيلوف من المطبخ يقول :

– ألقوا القبض على سائر رفاقنا تقريباً ، فليأخذهم الشيطان ! وينبغي علينا متابعة العمل الآن ، لا من أجل قضيتنا فحسب ، بل كي ننقذ رفاقنا أيضاً .

واضاف ييجور ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– وليس ثمة من يعمل ! إن لدينا الكثير من المنشورات الرائعة أعددتها بنفسي جميعا ! ولكن ، كيف السبيل لإدخالها الى المعمل ؟ تلك مشكلة لم نجد لها حلاً بعد !

وقال صمونيلوف :

– لقد شرعوا يفتشون سائر الداخلين عند البوابة !

احست الأم أنهما ينتظران منها شيئاً ، فقالت في لهفة :

– كيف يمكن إنجاز ذلك ؟ كيف ؟

فظهر صمونيلوف في مدخل الباب :

– ألك معرفة بالبائعة كورزونوفا ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

– نعم ، وماذا في ذلك ؟

– تحدثي اليها ، ولعلها تقبل ان تحمل المنشورات الى الداخل .

فلوّحت الأم بذراعيها معارضة ، وقالت :

– اوه ، كلاّ ! إنها ثرثارة ! انهم سيعرفون انها حصلتْ عليها بواسطتي . . . ان المنشورات تخرج من هذا البيت . . . اوه كلاّ !

واضافت في هدوء ، على حين غرة ، وكان وحياً هبط عليها :

– اعطيانها . . . لي أنا ! وسادبر الأمر واجد طريقة ناجعة ! سأطلب إلى ماريا أن أعمل كمساعدة لها ، إذ لا بدّ لي من كسب عيشي بطريقة ما ، واعمل ! وهكذا سأحمل طعاماً أبيعه للعمال في المصنع ! سادبر الأمر على أحسن وجه !

وضمت يديها إلى صدرها ، واسرعت تؤكد لزائريها أنها ستنجز كل شيء على اكمل وجه دون ان تلفت الأنظار ، او تسمح بافتضاح امرها . ثم هتفت أخيراً في لهفة :

– وليروا ان يد بافل تمتد إليهم حتى من السجن ، فليروا ذلك جيداً !

اشرق وجه الثلاثة معاً ، وفرك ييجور يديه بقوة وقال مبتسماً :

– عظيم ، يا أم ! لا بدّ إنك لا تقدّرين روعة ذلك ! إنه ، بكل بساطة ، فخم للغاية .

وقال صموئيلوف ، وهو يفرك يديه أيضاً :

– إذا نجح هذا فساذهب الى السجن ، وكأني ذاهب إلى فراش النوم !

وصاح ييجور بصوت أبح :

– أنت أروع نساء العالم !

ابتسمت الأم . كان من الواضح بالنسبة إليها أن الادارة لا تستطيع إتهام بافل بتوزيع المنشورات اذا استمرت هذه المنشورات على الظهور في المعمل . وشعرت أنها قادرة على القيام بهذا الواجب ، فارتعش جسدها كله فرحاً وبهجة .

قال ييجور :

– عندما تزورين بافل في سجنه ، أخبريه ان له اماً رائعة . . .

فضحك صموئيلوف ، وقال :

– سوف أكون الأسبق الى رؤيته !

– قل له إني سأقوم بكل ما يجب ، وليطمئن بالاً !

وسأل ييجور وهو يشير الى صموئيلوف :

– واذا لم يرسلوا صموئيلوف إلى السجن ؟

– إذن ، فلا حيلة لنا في ذلك !

وانفجر كلا الرجلين ضحكاً . وعندما أدركت الأم غفلتها ، راحت هي الأخرى تضحك في ارتباك هادئ وفي شيء من المكر الساذج . ثم قالت مطرقة إلى الأرض ببصرها :

– ما أصعب ان يرى المرء الآخرين يزعجون أنفسهم من أجل غيره !

فهتف ييجور :

– ذلك طبيعي جداً ، ثم لا تجزعي من أجل بافل ولا تحزني ، فلسوف يعود من السجن أفضل منه حين دخل إليه . فالمرء يجد هناك راحة جيدة وفرصة للتحصيل أيضاً ، وهذا

ما لا يتهيأ لأمثالنا وقتما نكون أحراراً طليقين . لقد دخلت السجن ثلاث مرات ، وكل مرة خرجت بجليل الفائدة قلباً وعقلاً ، ولو لم يكن ذلك لذة بالمعنى الصحيح للكلمة .

فقالت في عطف ، وهي تتطلع إلى وجهه البسيط :

— إن التنفس يكلّفك جهداً كبيراً !

فرفع إصبعه عالياً ، وأجابها :

— إن لذلك سبباً خاصاً ! إذن ، اتفقنا على كل شيء ، يا أم ؟ غداً سأرسل تلك البضاعة إليك ، فيأخذ الدولاب بالدوران من جديد مبدداً ظلمات العصور . لتعش حرية الكلام ، وليعش قلب الأم ! الى اللقاء !

وقال صمونيلوف ، وهو يصافحها في شدة :

— وداعاً ! لم يكن في استطاعتي حتى أن ألمح لأمي شيئاً كهذا !

فقالت بيلاجيا ، وهي تودُّ التخفيف عنه :

— الجميع سيفهمون يوماً ما !

بعد أن مضيا أترست الباب خلفهما بالمزلاج ، وجثت في وسط الغرفة تمزج صلواتها بأصداء المطر المتساقط . كانت تصلي دون كلمات ، لمجرد قلقها على أولئك القوم الذين ادخلهم بافل في حياتها . وتراءى لها أن سائر هؤلاء الناس البسطاء ، القريبين الى بعضهم البعض بصورة غريبة ، الوحيدين مع ذلك من دون البشر جميعاً ، تراءى لها أنهم يتحركون رائحين غادين بينها وبين الأيقونات .

في صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة ماريا كورزونوفا في ساعة مبكرة ، فاستقبلتها هذه وسخة الثياب كثيرة الضوضاء

كعادتها أبداً ، واستوضحتها في لطف وهي تضرب على كتفها بيد قذرة :

— أتحسين الوحدة ؟ خففي عنك ! لقد أمسكوا به وابعدوه عنك ، فهذا ليس بلاء ! وليس ثمة ما يخجل المرء منه . لقد كانوا قبلاً يسجنون الناس لانهم يسرقون ، أما الآن فهم يزجون بهم هناك لأنهم يقولون الحقيقة . لعل بافل لم يفهم بما كان يجب أن يقول ، ولكن ما فعله كان من أجل صالح الجميع ، والكل يعرفون ذلك ، فلا تقلقي ! ويعرف الجميع من هو ذا قلب طيب على الرغم من أنهم ليسوا جميعاً يفصحون عن ذلك . لقد أردت أن آتي لزيارتك ، ولكني لم أجد فسحة من الوقت ، فالنهار ينقضي في الطبخ والبيع ، ولكنك سترين أني سأموت مستعطية تستندي الأكفّ رغم كل شيء . الرجال يعلقون بي ، اللعنة عليهم ! ويسرقونني هنا ، ويسرقونني هناك ، مثل سرب من الصراصير يأكل الخبز ! وكلما اقتصدت عشرة روبلات جاء أحد أولئك السكيرين وابتلعها . انها لتعيسة الأمراة ! ذلك آخر ما أتمنى لأي انسان على الأرض . إذا عشتِ وحيدةً . . . فالحياة لا معنى لها ، وان أتاكِ رجل . . . فقد انتهت حياتك إذن !

فقالت بيلاجيا ، تقطع عليها ثرثرتها :

— جئت أسألك أن تتخذيني مساعدة لك !

— ما معنى هذا ؟

وحينما شرحت لها الأم ما ترمي إليه ، هزت ماريا رأسها موافقة وأعلنت :

— طبعاً ! أتذكرين كيف كنت تخبئينني من زوجي ؟

والآن ساخفيك عن الحاجة . . . من واجب الجميع أن يقدموا العون لك ، باعتبار أن ابنك اعتُقِل في سبيل المصلحة العامة . إنه فتى رائع ، والجميع يقولون ذلك بصوت واحد وهم يشعرون جميعاً بالأسف من أجله . صدقيني . . . لن يستفيد الرؤساء شيئاً من هذه الاعتقالات . انظري إلى ما يجري في المعمل ! الأقوال سيئة للغاية هناك ، يا عزيزتي ! إنهم يعتقدون ، هؤلاء الرؤساء ، انهم إذا نهشوا المرء من عقبيه فسيتوقف عن الركض . إنهم يضربون عشرة . فإذا مائة يجنون !

ظهرت الأم ، نتيجة هذا الحديث ، في المعمل ظهر اليوم التالي ، وهي تحمل سلتين مملوءتين بأطعمة ماريا ، بينما ذهبت ماريا نفسها إلى السوق للبيع هنالك .

١٥

لفتت البائعة الجديدة أنظار العمال في الحال ، واقترب بعضهم منها وقال مشجعاً لها :

– ابداتِ تعملين ، يا بيلاجيا !

واسرع بعضهم يؤكدون لها أن غيبة بافل لن تطول ، وحرّك آخرون عواطفها بكلمات عطوفة . لا بل ذهب البعض أبعد من ذلك فلعنوا المدير والدرك ، الأمر الذي وجد له صدىً وترجيعاً حلوين في قلبها المكلوم . ولكنها لم تعدم من يتفرّس فيها بنظرات تعبر عن الشماتة . بل إن أشعيا

غوربوف ، مراقب الدوام ، قال لها من خلال أسنانه المنطبقة :

– لو كنتُ الحاكم لشنقت ابنك ! وهو يستحق ذلك لانه يقود الناس إلى الضلال !

أرسل هذا الوعيد السافل قشعريرة باردة في جميع أعضائها . ولم تجب أشعيا ، بل اكتفت بالنظر في وجهه الصغير الأنمش ثم أطرقت بعينيها وهي تصعّد الزفرات .

كان المصنع يفور باضطراب شديد ؛ والعمال يتكتلون في جماعات صغيرة يتهامسون ويلغطون ؛ والمراقبون القلقون ينتقلون من مكان الى آخر ؛ والشتائم ترتفع من هنا وهناك ، ترافقها في بعض الأحيان ضحكات خبيثة .

مرّ بجانبها شرطيان يقودان صموئيلوف . كان يسير بينهما ويده الواحدة في جيبه ، ويده الأخرى تعبث بشعره الضارب الى الحمرة ، يتبعهم حوالي مئة من العمال يشتمون الشرطيين ويوسعونهما سخرية وتهكماً . هتف أحدهم :

– اانت ذاهب في عطلة ، يا صموئيلوف ؟

واضاف آخر :

– إنهم يكرّموننا في هذه الأيام ، ويرسلون إلينا حرساً يرافقوننا في تطوافنا . . .

وتبع ذلك شتيمة بذيئة . . .

صاح عامل طويل أعور في غيظ :

– يبدو أن إلقاء القبض على اللصوص لم يعد اليوم أمراً ذا بال ، وهكذا شرعوا يعتقلون الناس الشرفاء . . .

وارتفع صوت من بين ذلك الحشد يقول :

– لو أنهم يتحلون بما يكفي من الحياء فيمسكون بهم ليلاً على الأقل ! ولكنهم يفعلون ذلك في وضح النهار . . . أولئك الكلاب !

عبس الشرطيان ، وراحا يستحثان الخطا محاولين ألا يلاحظا شيئاً ، متظاهرين أنهما لا يسمعان تلك النعوت المنهالة عليهما من كل حدب وصوب . وتقدم منهما ثلاثة عمال يحملون قضباناً طويلة من المعدن ، وهم يصيحون مصوبينها نحوهما :

– حذار ، أيها الصيادان !

وأومأ صموئيلوف الى الأم ، وقال باسماً :

– ها هما قاداني الى هناك !

فانحنت له في صمت . لقد أثر في قلبها رؤية هؤلاء الفتيان الشرفاء الأذكياء يذهبون الى السجن وابتسامة تعلو شفاههم فطفحت نفسها عليهم بعاطفة الأم الرؤوم وحنانها .

بعدما عادت من المعمل قضت بقية النهار مع ماريا تساعدها في عملها ، وتستمع إليها في ثرثرتها التي لا تنتهي . ولم تعد إلى بيتها الخاوي ، البارد ، الكئيب ، إلاّ في ساعة متأخرة من المساء . ظلت طويلاً تهيم على وجهها من مكان إلى آخر ، مضطربة لا تجد السكينة الى قلبها درباً ، لا تدري ماذا تصنع بنفسها ، يراودها القلق لأن ييجور إيفانوفيتش تأخر كثيراً رغم هبوط الليل وحلول الظلام ، فلم يحمل اليها المنشورات الموعودة بها .

كانت ندف ثقيلة من ثلج الخريف تتساقط وراء النافذة ،

متعلقة بزجاجها برهة وجيزة من الزمن قبل أن تذوب بسكينة وتنزلق عنه تاركة وراءها خطوطاً ندية . وراحت تفكر في ولدها . . .

قرع الباب في حذر ، فطارت الأم إليه ترفع عنه المزلاج ، فدلفت منه ساشنكا . لم ترها الأم منذ زمن بعيد بعيد ، فكانت أولى الانطباعات التي تركتها فيها الآن بدانة لم تعهدها فيها من قبل قط .

هتفت بها مستبشرة بقدوم من يزجي ولو جزءاً صغيراً من الليل معها ، فينقذها من وحدتها المؤلمة :

– نعمت مساءً ! لم أركِ منذ زمن بعيد . هل كنت في سفر ؟

فعانقتها الفتاة ، وهي تبتسم :

– كلا ، كنت في السجن ! أنا ونيقولاي إيفانوفيتش معاً . . . هل تذكرينه ؟

– بالطبع أذكره ! لقد روى لي ييجور ايفانوفيتش البارحة أنهم أطلقوا سراحه . ولكني لم أكن أعرف شيئاً عنك . . . لم يذكر لي أحد مطلقاً أنك كنتِ هناك أنت الأخرى .

فقالت ساشا ، وهي تجيل نظرها في الغرفة :

– لا دعوى للكلام عن هذا ! أرغب في تبديل ثيابي قبل قدوم ييجور إيفانيتش !

– لقد ابتللتِ كثيراً . . .

– لقد جلبت معي الكتب والمنشورات . . .

فصاحت الأم في لهفة :

– هاتيها ! هاتيها !

حلت الفتاة أزرار معطفها بسرعة وهزّت جسمها بقوة فاذا النشرات تسّاقط على الأرض كما تتساقط الأوراق عن أشجارها ، فتسرع الأم في جمعها ضاحكة طروباً :

– لقد كنت أتساءل من اين جئت بهذه السمنة كلها حالما رايتك . . . ظننتك تزوجت ، وتنتظرين الآن وليداً . يا إلهي ! ما اكثر ما حملتِ ! هل قطعت الطريق بأسرها مشياً على قدميك ؟

فقالت ساشنكا :

– نعم !

وعادت ، كعهد الأم بها أبداً ، باسقة القامة ناحلة العود . ولكن بيلاجيا لحظت في خديها ضموراً زاد في اتساع عينيها ، وان ثمة دوائر سوداً تحيط بهما من الأسفل ، فهتفت وهي تزفر وتهزّ رأسها في اسى :

– وكيف تفعلين هذا ، وانت في اشد الحاجة الى الراحة بعد خروجك من السجن ؟

فقالت الفتاة المرتعشة الأوصال :

– هكذا اقتضى الأمر ! هاتي حدثيني عن بافل ميخائيلوفيتش . اكان شديد الاضطراب حينما أخذوه ؟

لم تنظر ساشنكا الى الأم عندما طرحت هذا السؤال ، بل حنت رأسها ، وراحت تصفّف شعرها بأصابع مرتجفة .

قالت الأم :

– لم يضطرب كثيراً ، فهو ليس من الذين يخونهم جلدُهم .

فسألت الفتاة في صوت مخفوض :

– أهو قوي الصحة ؟

– لم يمرض قط في حياته ! ولكنك ترتجفين بكليتك . لحظة واقدم لك قدحاً من الشاي مع قليل من مربّى توت العليق .

– ذلك لطف عظيم منك ، لكنه سيزعجك كثيراً . . . فالوقت جدّ متاخر . دعيني أهيئْ ذلك بنفسي . . .

فأجابت الأم في لهجة عتاب ، وهي تضرم النار في السماور :

– اأتركك تفعلين وانت على هذا الاعياء ؟

دلفت ساشا بدورها إلى المطبخ ، واقتعدت دكة هناك ، وقد وضعت يديها خلف رأسها . قالت :

– ينهك السجن قوى الانسان . آه من ذلك العطل الملعون ! ليس شيء أسوأ منه أبداً ! عندما تعلمين أن هنالك كثيراً من العمل ، ومع ذلك فانت تجلسين كالحيوانات في اقفاصها . . .

فسألت الأم :

– ومن سيكافئكم من أجل هذا كله ؟

ثم ردّت على سؤالها بنفسها ، وهي تتنهد :

– لا أحد إلاّ اللّه ! ولكني أعتقد أنك لا تؤمنين به انت ايضاً .

فأجابت الفتاة في اقتضاب ، وهي تهزّ رأسها نفياً :

– كلا !

فقالت الأم في اندفاع غير متوقع :

– لست أصدقكم !

وأضافت في إقناع عميق راسخ ، وهي تمسح غبار الفحم عن أصابعها بمئزرها :

– أنتم لا تفهمون ايمانكم نفسه ! كيف يمكن أن تعيشوا مثل هذه الحياة إن كنتم لا تؤمنون بالله ؟

وفجأة ، علا ضجيج أقدام في الرواق الخارجي وصدى غمغمة خافتة ، فأجفلت الأم ، وهبّت الفتاة على قدميها بسرعة وهمست :

– لا تفتحي الباب ! إذا كانوا من الشرطة فانكريني ! . . . لقد أخطأت المنزل واغمي عليّ على وصيد الباب ، وأنت خلعت عني ثيابي ووجدت المنشورات . هل فهمت ؟

فأسرّت الأم ، وقد تأثرت حتى أعماق قلبها :

– أيتها العزيزة المسكينة ! ولمَ يجب أن أقول هذا ؟

نبرت الفتاة ، وهي تصيخ السمع عند الباب :

– انتظري لحظة ، فقد يكون ييجور . . .

كان هو حقاً ، مبلل الثياب حتى الجسد ، لاهثاً ، تعباً حتى الاجهاد . قال :

– آه ! أرى أنك أطلقتِ العنان للسماور ! ليس هنالك ما هو أفضل من السماور في الحياة ، يا أماه ! وأنتِ وصلت هنا ، يا ساشنكا ؟

استمرّ يتكلم دون انقطاع ، وهو يخلع معطفه الثقيل في بطء ، ويملأ المطبخ الصغير بصدى تنفسه الأجش :

– هذه فتاة أثارت السلطات ، يا أماه ! فإذا أهانها السجان أعلنت الاضراب عن الطعام حتى يعتذر . لقد ظلت طوال ثمانية أيام دون أن تأكل ، فأوشكت على مغادرة الحياة نتيجةً لذلك . ما رأيك في هذا ؟ ليس سيئاً ، أليس كذلك ؟ هل رأيت في حياتك مثل بطني ؟

أمسك بيديه القصيرتين بطنه المنتفخ بشكل غريب ، ومرق إلى الغرفة الأخرى وهو لا ينقطع عن الحديث حتى أغلق الباب خلفه .

سألت الأم في دهشة :

– أرفضتِ الطعام حقاً طوال ثمانية أيام ؟

فأجابت ساشا ، وهي ترتعش برداً :

– كان يجب أن أفعل شيئاً لأجبره على الاعتذار !

أثار عناد الفتاة وثبات جأشها في نفس الأم ظلاً من اللوم والعتاب . فكرت : «تلك هي حقيقتها إذن !»

واستفهمت بعد برهة :

– وماذا لو متّ ؟

فقالت الفتاة في صوت خافت :

– لم يكن لي في ذلك حيلة ! ولكنه اعتذر ، على المرء أن لا يغتفر الأذى .

فزمزمت الأم في تماهل :

– كـ . . . ذا ! أما نحن النساء فنتعرض للأذى طوال حياتنا . . .

وقال ييجور ، وهو يفتح الباب :

– حسناً ، لقد تخلصت من حملي ! هل جُهّز السماور ؟ إسمحي لي بإحضاره . . .

حمل السماور الى الغرفة المجاورة وهو يقول :

– كان أبي العزيز يشرب ما لا يقل عن عشرين قدحاً من الشاي يومياً ، وبفضل ذلك عاش في سلام وصحة جيدة حتى الثالثة والسبعين ، ووزنه يتجاوز المائة كيلوغرام وهو يخدم قندلفتاً في قرية فوسكريسنسكويه . . .

فهتفت الأم :

– هل أنت ابن الأب إيفان ؟

– هو كذلك ، ولكن من أين لك المعرفة بسيدي المحترم ؟

– أنا من قرية فوسكريسنسكويه ، أنا الأخرى !

– من مسقط راسي إذن ؟ وابنة من تكونين ؟

– ابنة جيرانكم ، آل سيريجين .

– إبنة الأعرج نيل ؟ اعرفه جيداً ، فلقد سنحت لي الفرصة السعيدة أكثر من مرة بالتمتع بشده أذنيّ . . .

وقفا تجاه بعضهما بعضاً يضحكان ويتطارحان آلاف الأسئلة . القت ساشنكا نظرة إليهما مبتسمة ، وهي تصب الماء الغالي في ابريق الشاي . ولكن رنين الأقداح نبّه الأم أخيراً الى واجباتها :

– أوه ، أرجو المعذرة . لقد استرسلت في الثرثرة وغابت كل الأشياء عن بالي . . . حقاً ! ما أجمل أن يلقى المرء شخصاً آخر من مسقط رأسه . . .

– بل انا التي يجب ان أستميحك العذر لأني تصرفت

كما لو كنت في بيتي الخاص ! لكن الساعة تجاوزت العاشرة وما يزال أمامي طريق طويلة لا بدّ من عبورها . . .

فسألت الأم في دهشة :

– إلى أين تذهبين ؟ إلى المدينة ؟

– نعم .

– ولماذا تذهبين ؟ لقد هبط الليل ، والمطر ينهمر بشدة ، وانت منهكة القوى شديدة الاعياء ! إقضي الليل ههنا ! سينام يبجور ايفانوفيتش في المطبخ . وننام ، أنت وانا ، هنا معاً .

فقالت الفتاة بكل بساطة :

– كلا ، يجب أن اذهب !

وقال يبجور :

– لا بد ان تذهب الآنسة . انهم يعرفونها ههنا واذا شوهدت غداً في الشوارع ازداد الأمر سوءاً عليها !

– لكن كيف تذهب ؟ وحدها ؟

فقال يبجور ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– وحدها !

صبت الفتاة قدحاً من الشاي ، وتناولت قطعة من الخبز الأسود وذرّت عليها شيئاً من الملح ، وانثالت تأكل وهي تنظر الى الأم مفكرة متمعنة . قالت بيلاجيا :

– كيف تجرؤين على ذلك ؟ وناتاشا ايضاً ؟ انا لن أقدر على ذلك مطلقاً . . . لو كنتُ مكانك لما ذهبت إني أخاف !

فقال يبجور :

– وهي تخاف أيضاً ! أنت تخافين ، أليس كذلك ، يا ساشا ؟

فأجابت الفتاة :

– بالطبع أخاف !

وتطلعت الأم اليها والى ييجور ، وهتفت بصوت خفيض :

– يا لكم من قوم . . . متيني الأعواد !

عندما انتهت ساشنكا من احتساء قدح الشاي صافحت ييجور في صمت وعبرت إلى المطبخ ، فلحقت بها الأم تشيعها . قالت ساشنكا :

– اذا رايت بافل ميخائيلوفيتش بلّغيه أطيب تحياتي ! لا تنسي هذا ، ارجوك !

واستدارت على حين غرة ، بعد أن وضعت يدها على قبضة الباب ، وقالت في هدوء :

– هل استطيع ان اقبلك ؟

فعانقتها الأم في سكون وقبلتها بحرارة .

– شكراً لك !

قالت الفتاة هذا وهي تومئ براسها ، ثم اختفت .

عندما عادت الأم الى الغرفة أنفذت بصرها من خلال النافذة قلقة وجلى . كانت ندف رطبة من الثلج تنهمر في الظلمة البهيمة المخيمة .

سأل ييجور :

– هل تذكرين آل بروزوروف ؟

كان يجلس ، وقد بدّ بين ساقيه ، ونفخ على الشاي في قدحه ليبترد مثيراً ضوضاء صاخبة .

كان وجهه محمراً ، راضياً ، ندياً بما يتصبب عليه من عرق .

قالت الأم مفكرة ، وهي تتجه صوب المائدة :

– نعم ، أذكرهم !

وجلست ، وشرعت ترنو الى ييجور في أسى وقالت متماهلة :

– يا إلهي ! مسكينة ساشنكا ! كيف تصل الى المدينة ؟

– ستبلغها متهدمة القوى ، لا ريب في ذلك ! السجن أضناها . كانت في الماضي أقوى منها الآن . . لقد عاشت حياة رغيدة سهلة . . . يخيل اليّ أنها أضحت الآن مصابة في رئتيها . . .

فسألت الأم في رقة :

– من هي ؟

– إبنة احد ملاكي الأرض . وأبوها ، حسب أقوالها ، خنزير كبير . هل تعلمين ، يا أماه ، أنهما كانا ينويان الزواج ؟

– من هما ؟

– هي وبافل . . . لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، كما ترين بعينيك . . . عندما يكون هو طليقاً ، تكون هي في السجن ، والعكس بالعكس !

قالت الأم ، بعد برهة من الصمت :

– ما كنت أعلم ! بافل لا يتحدث عن نفسه أبداً . . .

عظم إشفاقها على الفتاة ، فنظرت الى ضيفها وقالت في استياء غير مقصود :

– لمَ لم ترافقها إلى بيتها ؟

فأجاب في هدوء :

– لا استطيع ذلك ، فلديّ كثير من المشاكل هنا في الضاحية . ولسوف اقضي النهار ، منذ الصباح الباكر ، متنقلاً من مكان لآخر . وهذا ليس بالأمر السهل لمصاب بعسر التنفس مثلي . . .

– إنها فتاة رائعة !

جهرت الأم بهذا ، وقد شغل بالها ما رواه لها ييجور توا ، وآلمها ان تعرف ذلك من غريب ولا تعرفه من ولدها مباشرة . . . فعبست ، وعقدت ما بين حاجبيها ، وضمت شفتيها بقوة وعنف .

وأومأ ييجور برأسه ، وأبان :

– وانها لكذلك حقاً ! لأرى أنك تأسفين من أجلها ، وانك تخطئين في ذلك ! سينهار قلبك اذا أخذت تحسين الأشفاق من اجلنا جميعاً ، نحن المتمردين . فالحقيقة ان احداً منا لا يتمتع بحياة سهلة . لقد عاد أحد رفاقي منذ مدة قريبة من المنفى ، وعندما بلغ نيجني نوفجورود كانت زوجته وابنه ينتظران في سمولنسك ، وعندما ذهب الى سمولنسك ، كانا قد أصبحا في سجن موسكو . لقد جاء دور زوجته الآن في الذهاب إلى سيبيريا . ولقد كانت لي ، انا أيضاً ، زوجة جميلة رائعة كما يهواها القلب . . . لكن اعواماً خمسة من مثل هذه الحياة أودت بها الى القبر .

أفرغ كأس الشاي دفعة واحدة في جوفه وتابع قصته . حدثها عن الأشهر التي قضاها في السجن ، وعن السنوات

التي سلخها في المنفى . حدثها عن مصائب مختلفة ، عن أساليب الضرب في السجن ، وعن الجوع في سيبيريا . وراحت تراقبه ، وتعجب لتلك البساطة الهادئة التي يروي بها سيرة حياته الطافحة عذاباً واضطهاداً . . .

– ولكن فلندخل الى صلب الموضوع الآن !

تبدلت لهجته ، واصبح وجهه أكثر رزانة ، وجَهَر يسألها كيف تنوي إدخال المطبوعات إلى المعمل ، حتى ذهلت لمعرفته التامة بكل التفصيلات ودقائق الأمور .

عندما انتهيا من هذا الموضوع جعلا يتذكران من جديد قريتهما . كان هو يتحدث مازحاً ، أما هي فتهيم متأملة خلال شعاب ماضيها ، فيُصوِّر لها انه يشبه ، الى حد بعيد ، مستنقعاً شبّت فيه بين أكوام التراب أشتال صغيرة من الحور الرجراج النحيل ترتجف فرَقاً وجزعاً، وأشجار الشوح والبتولا البيضاء التي تنمو ببطء شديد ، ثم تسقط وتذوب بعد خمس سنوات من العيش في هذه التربة المتعفنة . شهدت تلك الرؤيا فانبثق في صدرها اشفاق على شيء ما ، وظهر أمام عينيها من جديد شبح فتاة قاسية الملامح ، عنيدة القسمات ، تشقّ دربها خلال ندف الثلج الرطبة ، وحيدة ، متعبة . . . وان ابنها متوحد الآن في السجن . لعله لم ينم بعد ، بل يضطجع في تلك الساعة من الليل يفكر . . . لا يفكر فيها ، في أمه ، ولكن في شخص آخر أعزّ على قلبه . وتتالت أفكارها المؤلمة مثل سحب كثيفة سود تغمر روحها بالظلمة القاتمة . . .

قال ييجور باسماً :

– أنت متعبة ، يا أماه . هيا بنا إلى الفراش !

فتمنت له ليلة طيبة ، وحبَت الى المطبخ بحذر وقد أفعمت قلبها مرارة تحزّ في نفسها .

في اليوم التالي توجه بيجور إليها ، وهما على مائدة الافطار ، وأعلن :

– اذا القوا القبض عليك ، وسألوك من أين جئت بهذه النشرات الهرطوقية ، فماذا أنت قائلة لهم ؟

– سأقول : ذلك ليس من شأنكم !

– أخاف الا يوافقوك في هذا ! فهم واثقون الثقة كلها ان ذلك العمل من شأنهم وحدهم ! وسيظلون يسألونك بقسوة زمناً طويلاً !

– ولكني لن أخبرهم شيئاً !

– إذن ، يزجون بك في السجن !

قالت ، وهي تتنهد :

– وما اهمية ذلك ؟ اني لأشكر الله إذن ، إذ أصلح لهذا على الأقل ! ومن يحتاج اليّ ؟ لا أحد البتة ! وهم لن يعذبوني . يقال إن . . .

غمغم بيجور ، وهو يرنو إليها بانتباه :

– ويّ ! كلا ، لن يعذبوك . لكن القوم الصالحين الطيبين يجب أن يوفروا أنفسهم . . .

فأجابت الأم ضاحكة ضحكة قصيرة :

– هذا ما لستم قادرين على تعليمه !

فطفق بيجور يجوس الغرفة صامتاً أخرس ، ومن ثم اتجه نحوها ، وعالنها :

– ذلك شاق جداً ، يا أماه ، وأنا أعرف ثقل وقعه عليك !

فردّت ، وهي تحرك يدها :

– إنه شاق على الجميع ، ولعله أسهل على الذين يفهمون .. . ولقد بدأت أفهم ، شيئاً فشيئاً ، ما يسعى اليه أفضل الناس . . .

فقال في صرامة :

– ما دمت فهمت ذلك ، فالجميع في حاجة اليك ، أيتها الأم . الجميع !

فشخصت إليه وابتسمت .

استعدت ، حوالي منتصف النهار ، للانطلاق إلى المعمل وهي تحشو نفسها بالنشرات في عناية ودقة ، بحيث طقطق بيجور بلسانه مغتبطاً راضياً ، وهو يفحصها ويقول :

– «زرغوت !» ، كما يقول سائر الألمان الطيبين عندما يُفرغون برميلاً كاملاً من الجعة . المطبوعات لم تبدل منك شيئاً أيتها الأم – فما زلت المرأة ذاتها ، متوسطة العمر ، طويلة ، تميل إلى البدانة . فلتباركك الآلهة العديدة لبدايتك هذه !

لم تمرّ نصف ساعة حتى كانت الأم تقف أمام باب المعمل ، في هدوء ، وثقة تامة بالنفس ، منحنية تحت عبء ما تحمل من سلال . وكان ثمة حارسان يتحريان بأيديهما الخشنة كل شخص يدلف إلى الساحة ، فيكافئهما ضحاياهما بالشتائم والسباب ، ويطلق الحارسان ألسنتهما بالسخرية منهم . وكان شرطي ورجل آخر طويل الساقين ، أحمر الوجه ،

ذو عينين سريعتي الحركة ، يعتصمان باحدى الزوايا . نقلت الأم حملها من كتف الى أخرى ، وهي تراقب ذلك الطويل الساقين من تحت حاجبيها ، فقد عرفت فيه واشياً .

قال أحد العمال ، وهو طويل القوام أجعد الشعر ، وقبعته عالقة بمؤخرة راسه ، مخاطباً الحارسين اللذين يتحسسان ثيابه :

– يحسن بكما ، أيها الشيطانان ، أن تفتشا رؤوسنا لا جيوبنا !

فاجاب احدهما :

– ليس في راسك سوى القمل . . .

– إذن ابحثا عنه !

فحدجه الواشي بنظرة خاطفة ، وبصق في ازدراء .

قالت الأم :

– افسحا لي طريق المرور . . . الا تريان أن ظهري يكاد ينقصف تحت مثل هذا الحمل الثقيل ؟

فصاح الحارس حانقاً :

– إمضي ، إمضي ! أكثرتِ في الثرثرة أنت أيضاً !

لما بلغت الأم مكانها أنزلت السلال الى الارض ، ومسحت العرق عن وجهها ، وتطلعت حولها .

أسرع اليها الأخوان الميكانيكيان جوسيف في الحال . سأل فاسيلي ، البكر ، وقد قطّب وجهه :

– ألديك فطائر ؟

– سأحضر شيئاً منها في الغداة !

كانت هذه كلمة السرّ . فأشرق وجه الأخوين . لم يتماسك ايفان نفسه فانفجر قائلاً :

– آه ، يا للفرحة . . .

قرفص فاسيلي يلقي نظرة إلى السلة ، وفي تلك اللحظة اتخذت رزمة من المنشورات طريقها إلى صدره . قال في صوت عال :

– ولمَ نذهب الى البيت ، يا إيفان ؟ سنشتري غداءنا منها !

واختفت بسرعة رزمة أخرى في قمة جزمته :

– فلنشجّع هذه البائعة الجديدة . . .

فوافق إيفان ضاحكاً :

– هذا صحيح !

ألقت الأم نظرها ، محترسة ، على ما حولها وصاحت :

– حساء كرنب ! شربة معكرونة ساخنة !

وراحت تخرج المنشورات رزمة رزمة ، وتناولها بسرعة إلى الأخوين . وكلما دست في أيديهما رزمة ، ومض أمامها وجه الضابط الأصفر كلهيب عود كبريت مشتعل في غرفة مظلمة ، فقالت في نفسها متوجهة اليه في شماتة :

«اليك ! خذ هذا ، أيها الرجل العزيز !»

ثم تقول ، وهي تناول الأخوين رزمة أخرى :

«وهذه أيضاً !»

تدفّق العمال يأتون اليها ، وقصعاتهم في أيديهم ؛ وكلما اقترب احدهم راح إيفان جوسيف يضحك بصوت مرتفع ،

فتمتنع الأم في هدوء عن إعطاء المنشورات ، وتلتفت إلى حسائها وشربتها .

وضحك الأخوان قائلين :

– إنك لبارعة ، يا بيلاجيا نيلوفنا !

فقال وقاد عابساً وقد إقترب منها :

– إنها الحاجة التي دفعتها الى ذلك ، فلقد جرّوا كاسب خبزها بعيداً عنها ، أولئك الأوباش ! والآن ، أعطيني شربة معكرونة بثلاثة كوبيكات . لا باس ، أيتها الأم ، فلسوف تدبرين أمرك بطريقة ما .

فأجابت ، وهي تبتسم :

– شكراً لك على هذه الكلمات اللطيفة !

فغمغم ، وهو يبتعد :

– إن قول بعض الكلمات اللطيفة لا يكلّف كثيراً . . .

وعادت الأم تصيح :

– حساء حار ! شربة ساخنة ! . .

وشرعت تفكر وتفكر كيف تتمكن من إخبار ولدها عن تجربتها الاولى في حمل المنشورات ، ووجه الضابط الغاضب ، الأصفر المشدوه ، يتراءى من خلف أفكارها . كان شارباه الأسودان يرقصان باضطراب ، وأسنانه المنطبقة تلتمع بياضاً من تحت شفته العليا المتقلصة . فاضت السعادة في صدرها تشدو كالعصفور ، فحركت حاجبيها في مكر ، واستمرت تمجمج في نفسها ، وهي تتابع عملها بعناية :

«اليك هذه أيضاً ! . .»

١٦

في تلك العشية ، فيما هي تتناول الشاي ، طرق سمعها وقع حوافر حصان تحطم الوحل المتجمد ، وصوت مألوف لديها . فاستوت على قدميها ، واندفعت عبر المطبخ – متهافتة على الباب . وتردّد صدى خطوات سريعة عند مدخل البيت ، فاظلم كل شيء في عينيها ، وأسرعت تدفع الباب بقدمها وتستند واهنة القوى على صفحته .

وجاء الصوت المألوف هاتفاً :

– ليلتك سعيدة ، يا أميمة !

واحاطت ذراعان طويلتان نحيلتان بكتفيها ، وعانقتاها بحرارة .

حزّ في قلبها شعور بخيبة الأمل والفرح لرؤية أندريه . وذاب الاحساسان في انفعال واحد ، عظيم ، مرهق ، اكتسحها في موجة عاتية دافئة ، ورفعها عالياً حتى سقطت ووجهها على صدر الأوكراني . فضمها إليه بذراعين مرتجفتين ، بينما طفقت الأم تبكي في هدوء وسكينة . وراح يمسح على شعرها ويقول ملاطفاً :

– لا تبكي ، يا أميمة ، ولا ترهقي قلبك ! أقسم لك بشرفي انهم سيفرجون عنه سريعاً ! فهم لا يستطيعون إثبات شيء ضده – والرفاق جميعاً يعتصمون بالصمت كالسمك المسلوق . . .

اقتاد الأم ، وذراعه ملتفة حول كتفيها ، إلى الغرفة الأخرى . فالتصقت به بشدة ، تشرب بتعطش وجشع كل

كلمة من كلماته ، وهي تمسح الدموع من عينيها بحركات سريعة تشبه حركات سنجاب صغير .

– بافل يقرئك تحياته . هو على احسن ما يتمنى المرء من السعادة والسرور . والازدحام شديد هناك ! لقد القوا القبض على اكثر من مائة شاب – وهم شباب من المدينة ومن المصنع – واخذوا يزجون بهم ، كل ثلاثة او اربعة ، في زنزانة واحدة . إن مديري السجن رجال طيبون ، وهم متخمون من كل ذلك العمل الذي يرهقهم به اولئك الشرطة الملاعين ! ليس المديرون افظاظاً ، فهم يقولون دائماً : «احتفظوا بهدوئكم ، أيها السادة ، كي لا تسببوا المتاعب لنا !» وهكذا يسير كل شيء على ما يرام . والشبان يتحادثون سوية ، ويتبادلون الكتب ، ويتشاركون في الطعام . إنه سجن بديع – قديم وسخ ، ولكنه خفيف الوطأة على المرء . وان المساجين المجرمين طيبون ايضاً ، وهم يسدون لنا مساعدات كثيرة . لقد أخلي سبيلي ، وسبيل بوكين ، واربعة آخرين . واني لعلى يقين من ان دور بافل سيحين سريعاً ، اما فيزوفشيكوف فسيكون ترتيبه الأخير – هم حانقون عليه لفظاظته المتواصلة معهم ، ورجال الدرك لا يستطيعون تحمل رؤيته ! وسيقدمونه الى المحاكمة او يجلدونه في يوم من الأيام ! أما بافل فيقول له دون انقطاع : «كفّ عن ذلك ، يا نيقولاي ! فشتائمك لن تفيد شيئاً في إصلاحهم !» ولكن نيقولاي يصيح : «سوف أسحقهم بقدميّ كما أسحق الحشرة الدنيئة !» اما بافل فيتصرّف بصورة

رائعة – في ثبات وصلابة . إني على يقين من أنهم سيطلقونه سريعاً . . .

فرددت الأم متعزية ، وهي تبتسم في لطف :

– سريعاً ! أنا متأكدة أن ذلك سيكون سريعاً !

– عظيم انك متأكدة من ذلك ! ما قولك في أن تصبي لي من الشاي قدحاً ، وتحدثيني عن امورك هذه الأيام ؟

كان يرنو إليها باسماً ، بلطف ورقة ، ووميض حب يشع من عينيه اللتين خيم عليهما ظل من الكآبة .

صعّدت الأم زفرة عميقة ، وهي تدرس تقاطيع وجهه النحيل ، المكسوّ بأدغال سوداء من الشعر بصورة تبعث على الضحك .

– إني مغرمة بك ، يا أندريوشا !

فاجاب ، متأرجحاً الى الأمام والخلف على كرسيه :

– ان النزر القليل يكفي لأن يجعل مني رجلاً سعيداً . انا اعرف انك مغرمة بي . إن لك لقلباً كبيراً يتسع لمحبة البشر جميعاً !

فقالت في إلحاح :

– ولكنني احبك حباً خاصاً ! ولو ان لك اماً لحسدها جميع الناس على مثل هذا الابن الرائع . . .

فهزّ الأوكراني رأسه ، وحكّه بشدة بكلتا يديه .

وجاء صوته ضعيفاً بطيئاً :

– إن لي أماً في مكان ما . . .

فهتفت الأم في حمية :

– اتدري ما صنعت اليوم ؟

راحت تروي له في حماسة وحميّة كيف حملت المنشورات الى المعمل ، وهي تنمق وصفها قليلاً ، تفيض فرحاً وحماسة .

فتح عينيه بادئ الأمر دهشة ؛ ثم انفجر ضاحكاً ، وحرّك قدميه ، وضرب على راسه بأصابعه ، وصاح والفرح يغمر قلبه :

— اوْ هوْ ! هذه ليست توافه ! هذا شيء عظيم ! افلن يكون بافل مسروراً ؟ هذا رائع ، يا اميمة ! رائع بالنسبة لبافل ، وللآخرين جميعاً !

وراح جسده يهتز الى الأمام والخلف . وطفق يفرقع بأصابعه ، ويصفر متحمساً ، ويتالق فرحاً ، باعثاً في قلب الأم ترجيعاً شديداً غير منقوص .

قالت ، وكان قلبها فتح ليتدفق منه تيار الكلمات الذي اندفع يتناثر ويتلألأ في بهجة هادئة . :

— إيه ، ايها الحبيب المبارك اندريوشا ! عندما افكر في حياتي الخاصة . . . آه ، ايها السيد اليسوع ! لماذا عشت حياتي ؟ لأعمل . .. واجلد . . . ولا ارى احداً سوى وجه زوجي . . ولا اعرف سوى الخوف والهلع ! لم ألحظ كيف شبّ بافل ونما . ولم اعرف ، طيلة حياة زوجي ، إن كنت احب ابني ام لا ! لقد كانت افكاري وسائر رغباتي منصرفة لأمر واحد : ان اغذي واسمّن بالطعام الجيد ذلك الوحش الذي يخصني ، وافعل ما يسرُّه ويبهج قلبه دون تباطؤ او تاخير ، كيلا يغضب ويهدد منذراً بضربي . وكنت اتمنى ان يشفق عليّ مرة واحدة ، ولكني لا اذكر انه فعل ذلك ابداً . لقد

اعتاد ان يضربني وكأنه لا يضرب زوجته ، بل يضرب هؤلاء الذين يريد الانتقام منهم . لقد عشت على هذا المنوال طوال عشرين سنة ولم اعد اذكر ابداً كيف كانت الحياة قبل أن اتزوج . وعندما احاول أن أذكر ذلك الماضي أصبح كالعمياء ، ولا أستطيع رؤية اي شيء على الاطلاق ! لقد كان ييجور إيفانوفيتش هنا — وكلانا من القرية ذاتها — وحدثني عن امور عدة ، اما أنا . . . فقد رحت أتذكر الناس وأتذكر البيوت ، ولكني لم استطع ان أتذكر كيف كانوا يعيشون ، وماذا كانوا يقولون ، وماذا حدث لكل واحد منهم ! واني لأتذكر حريقاً ، لا بل حريقين . يخيل اليّ ان كل شيء طُرد من نفسي طرداً وان روحي اغلقت عليها المنافذ فاصبحت صماء عمياء . . .

واخذت تتنفس بصعوبة كالسمكة حُرمت من الماء . ثم تابعت في صوت خافت ، وقد مالت بكل جسدها إلى الأمام :

— ومات زوجي فالتفتُّ الى ابني ، ولكنه انصرف عني إلى هذا العمل . . . وكان ذلك قاسياً بالنسبة إليّ ، ولقد اشفقت عليه هو ايضاً . . . كيف أستطيع الاستمرار في الحياة اذا أصابه حدث ما ؟ لكم خفت وارتعشت . . . كان قلبي ينفجر انفجاراً كلما فكرت فيما قد يحدث له . . .

وصمتت لحظة ، ثم اضافت وهي تومئ براسها إيماءة ذات مغزى :

— إنه ليس حباً خالصاً ، حبنا النسائي ! إننا نحب ما نحتاجه من أجل مصلحتنا الخاصة . ولكني عندما أنظر إليك تتالم هكذا من أجل أمك — ما هي بالنسبة إليك ؟

وسائر هؤلاء الناس الذين يتعذبون هكذا من أجل الشعب كله ، ويذهبون إلى السجن وإلى سيبيريا . . . ويموتون . . .وفتيات يمشين ، وحدهن ، في الليل مسافات شاسعة ، يغصن في الوحل ، ولا يأبهن بالأمطار والثلوج ، يمشين سبعة فراسخ من المدينة حتى بيتنا هذا ! من يرغمهم على ذلك ؟ ولماذا يفعلونه ؟ لأن في قلبهم حباً كبيراً طاهراً ! ولأنهم يملكون الايمان ، الأيمان العميق الراسخ ، يا اندريوشا ! أما انا . . انا لا أستطيع ان أحب هكذا ! انا أحب ما يخصني فقط ، ما هو قريب مني !

فقال الأوكراني ، وقد أشاح بوجهه ، وراح يفرك رأسه وخديه وعينيه بشدة كما هي عادته :

– أجل . إنك تقدرين ! كل إنسان يحبّ ما هو قريب منه . والقلب الكبير يجعل الأمور البعيدة جداً قريباً أيضاً ! إنك تستطيعين فعل أشياء عظيمة جداً – لأنك تملكين في نفسك حباً أمومياً كبيراً . . .

فقالت بصوت خافت :

– فليساعدني اللّه على ذلك ! إني أشعر أن هذه طريق جيدة في الحياة ! إني أحبك الآن ، يا أندريه – ولربما أحبك أكثر من باشا أيضاً . فهو منطوٍ على نفسه كثيراً . . . أنظر مثلاً ، لقد كان يريد الزواج من ساشنكا ولكنه لم يقل كلمة واحدة لي ، أنا أمه . . .

فاعترض الأوكراني قائلاً :

– هذا ليس صحيحاً ! أنا متأكد من عدم صحته . إنه

يحبها ، وهي تحبه . . . هذا صحيح ، لكنهما لن يتزوجا إطلاقاً ! قد ترغب هي في ذلك ، أما هو فلا يريده أبداً . . .

فقالت الأم بصوت خافت ، وهي تشخص متفكرة حزينة الى وجه الأوكراني :

– تلك هي حقيقة الأمر إذن . . . تلك هي الحكاية . . . الناس يرفضون حتى سعادتهم . . .

فجاء صوت الأوكراني عذباً ناعماً :

– إن بافل شخص نادر ، شخص إرادته فولاذية . . .

فتابعت الأم متفكرة :

– وهو الآن قابع في السجن ! إنه لأمر مخيف . . . لكنه ليس مخيفاً مثله فيما مضى ! لقد اختلفت الحياة ، ومخاوفي اختلفت أيضاً . أنا الآن أخاف من أجل الجميع . ولقد اختلف قلبي أيضاً لأن نفسي فتحت عين قلبي ، فهو ينظر إلى العالم ويحس الكآبة والفرح في الوقت ذاته . ثمة كثير من الأشياء لا أفهمها ، والأكثر إيلاماً منها أنكم لا تؤمنون بالرب الإله ! ولكن ، ما أقدر أن أفعل في هذا المضمار ؟ إني أرى أنكم جميعاً طيبون حقاً وصدقاً ، ولقد وطنتم النفس على حياة عسيرة شاقة في سبيل الشعب ، حياة صعبة في سبيل الحقيقة . وأنا الآن أفهم حقيقتكم : ما دام هناك أغنياء ، فإن عامة الشعب سيظلون عاجزين عن تحصيل أي شيء كان . . . فلا فرح ، ولا عدالة ، ولا أي شيء على الاطلاق ! والآن ، إذ أعيش بينكم ، أفكر أحياناً في الماضي ليلاً ، أفكر في قواي الفتية المسحوقة تحت الأقدام ، وقلبي الفتي المسحوق أيضاً تحت وطأة قبضة قاسية ، فيأخذني الاشفاق على نفسي وتثور

المرارة في قلبي ! ولكنني ارى العيش ايسر عليّ الآن . وإني أستطيع ان ارى نفسي شيئاً فشيئاً وأنا . .

فنهض الأوكراني واقفاً ، طويلاً ، ناحلاً ، مفكراً . وطفق يمشي في الغرفة جاهداً الا يثير اي ضوضاء على الإطلاق . وهتف في صوت خافت :

– إنك تعبرين عن أشياء بصورة رائعة ، بصورة رائعة جداً ! لقد كان يعيش في كيرش يهودي شاب يقرض الشعر ، ولقد كتب ذات يوم هذه الكلمات :

واولئك الأبرياء الذين يقتلون غدراً
ستبعثهم إلى الحياة ، يوماً ما ، قوة الحقيقة ! . .

ولقد اغتاله ، بدوره ، البوليس في كيرش ، إنما هذا ليس بذي بال . لقد فهم الحقيقة وزرع بذورها بين الناس . إنك ، أنت أيضاً ، واحدة من أولئك الأبرياء الذين يقتلون غدراً . . .

وعادت الأم تقول :

– اما انا الآن فإني اتكلم ، واسمع كلماتي الخاصة واكاد لا اصدق اذني – إني لم افكر ، طوال حياتي ، إلا في شيء واحد : كيف اتخلص من كل نهار جديد ، كيف اقضيه بعيدة عن الناس بحيث لا يمسني احد منهم . اما الآن ، فإني اطفح بالتفكير في الآخرين . وربما لا افهم قضيتكم تماماً ، لكنكم جميعاً اعزاء عليّ . واني لأتألم من اجلكم

جميعاً ، واريدكم دون استثناء ان تكونوا سعداء . وخاصة انت ، يا أندريوشا !

فاقترب منها ، وقال :

– شكراً لك !

أخذ يدها بين يديه وضغط عليها بشدة وهزها ثم استدار جانباً في سرعة . واخذت الأم ، مثقلة بانفعالاتها وعواطفها ، تغسل الأقداح في صمت وهدوء وبطء ، وهي تحتضن الفرح الهادئ الذي يملأ قلبها .

قال لها الأوكراني ، وهو يذرع أرض المطبخ جيئة وروحة :

– يجب ان تظهري بعض العطف لفيزوفشيكوف ، يا اميمة ! إن اباه في السجن ، ذلك العجوز الحقير العديم النفع . وكلما وقعت عينا نيقولاي عليه من النافذة ، راح يلعنه ويشتمه . وان هذا الأمر سيئ جداً ! نيقولاي لطيف في الأصل .. . وهو يحب الكلاب والفئران وكل انواع الحيوانات ، ولكنه يبغض الناس ! اترين اين يمكن ان يبلغ الأمر بالإنسان ؟

قالت الأم متفكرة :

– لقد ضاعت اخبار امه . . . وابوه لص سكير . .

عندما غادرها أندريه إلى فراشه رسمت ، سراً ، إشارة الصليب عليه ثم سالته في صوت خافت ، بعد مضي نصف ساعة تقريباً :

– اأنت نائم ، يا أندريوشا ؟

– كلا ، لماذا ؟

– طابت ليلتك !
فقال في لهجة امتنان :
– شكراً لك ، يا اميمة !

١٧

حينما بلغت بيلاجيا في اليوم التالي بوابة المعمل اوقفها الحراس بفظاظة وامروها بوضع سلالها ارضاً لتفتيشها ؛ فقالت معترضة في هدوء ، بينما راحت ايديهم تتحسس ثيابها في قسوة :

– ولكن كل شيء سيبرد !

فقال احد الحراس في نبرة خشنة :

– إخرسي !

وقال حارس آخر واثقاً ، وهو يدفعها في كتفها بلطف :

– قلت لكم إنهم القوا بها من فوق السور !

وعندما اصبحت داخل الفناء ، كان العجوز سيزوف اول من جاء إليها . قال في هدوء ، وهو يختلس النظر حوله :

– ابلغك الخبر ، يا اماه ؟

– اي خبر ؟

– اوراقهم ! لقد عادت الى الظهور مجدداً تنتشر في كل مكان كما ينتشر الملح في الخبز . . . إن التحريات والاعتقالات لم تجدهم فتيلاً ! لقد القوا بابن اخي مازين في السجن . . . لماذا ؟ ولقد ساقوا ابنك ايضاً . اما الآن فالجميع يرون ان ذلك لم يكن من صنع ايديهم !

امسك بلحيته في قبضة يده . ونظر اليها ، ثم قال مبتعداً :

– لمَ لا تاتين لزيارتي ؟ لا ريب انك تشعرين بالوحشة وحدك . . .

شكرته ، وراحت تنادي على بضائعها ، وهي تراقب الضوضاء غير العادية التي تسيطر على المصنع . كان سائر العمال في هياج مستمر ، يجتمعون ثم يفترقون ، وهم يتراكضون من بناء الى آخر . واحست الأم شيئاً جريئاً منعشاً في الجو المشحون بالهباب والدخان . كانت الحماسة تتجلى في عبارات التشجيع او ملحوظات التهكم التي يتبادلها العمال بين الحين والحين ، والكهول منهم يبتسمون ابتسامات مختصرة سريعة ، والرؤساء يروحون ويغدون والقلق بادٍ على وجوههم ، ورجال الشرطة يتراكضون ، فإذا وقعت انظار جماعات العمال عليها تفرقوا متماهلين او توقفوا عن الكلام بكل بساطة ، وهم يثبتون انظارهم ، بصمت ، في الوجوه الثائرة الغاضبة .

وكان العمال يبدون على جانب عظيم من النظافة ، وكأنهم اغتسلوا جميعاً لتوّهم . ظهر البكر جوسيف بقامته الطويلة وسط العمال ، يخطو في اعقابه اخوه مترنحاً مقهقهاً. ومر من امامها فافيلوف متباطئاً وهو معلم إحدى ورشات النجارة ، واشعيا مراقب الدوام صغير القامة ، هزيل العود . وكان راس هذا الأخير مرفوعاً الى الأعلى ، وهو ينظر في وجه النجار العابس المتجمد ، ولحيته الليفية ترتجف وهو يقول مسرعاً :

– انظر ، يا إيفان إيفانوفيتش. إنهم يبتهجون لذلك ويضحكون ، وان كان يعني دمار الدولة كما اشار الى ذلك المدير المحترم . إن الأرض هنا لا تحتاج إلى اجتثاث الأعشاب الرديئة فحسب ، بل الى حراثة تقتلع منها كل الأشواك من جذورها . . .

وكان فافيلوف يسير ويداه خلف ظهره ، واصابعه منقبضة بشدة . قال في صوت مرتفع :

– اذهبوا واطبعوا ما تشاؤون ، يا ابناء الكلبة ، ولكن إياكم أن تمسوني بسوء !

وجاء فاسيلي جوسيف إلى الأم ، وقال لها :

– سأجرب غذاءك مرة ثانية ، يا أماه ، فطعامك لذيذ حقا !

ثم اضاف ، وهو يخفض صوته ويضيق فتحة عينيه :

– لقد أصبتم في النقطة المؤلمة تماماً ، يا أماه . . إنه لعمل عظيم !

فاومأت إليه براسها في عطف . كانت سعيدة لأن هذا الشاب ، وهو الذي يعتبرونه اكثر اهل الضاحية شراسة واذية ، يخاطبها بمثل هذا الاحترام عندما لم يكن أحد قريباً منهما . وكذلك كانت سعيدة بذلك الهياج في المعمل ، وهي لا تفتأ تفكر :

«لو لم أفعل أنا ذلك . . .»

وقف ثلاثة من العمال غير بعيد عنها . وسمعت أحدهم يقول في نبرة خافتة ولهجة حزينة متألمة :

– لم استطع ان أجده الآن . . .

فلاحظ احد رفيقيه :

– بودّي أن أسمع ماذا كُتِبَ فيه ! أنا لا أعرف القراءة لكن الواضح أن الرمي أصاب الهدف !

واختلس الثالث النظر فيما حواليه ، واقترح :

– فلنذهب إلى غرفة المرجل . . .

وتطلع جوسيف إلى الأم وغمز لها بعينيه قائلاً :

– اترين ما يجري ؟

قفلت بيلاجيا الى البيت راضية مرضية ، وتوجهت إلى اندريه قائلة :

– العمال يأسفون لأنهم لا يعرفون القراءة ! عندما كنت صبية كنت اعرف كيف اقرأ . اما الآن فنسيت . . .

فاقترح الأوكراني :

– ولماذا لا تتعلمين ؟

– في مثل عمري ؟ . . لكي أجعل الناس يسخرون مني ؟ . . .

فتناول اندريه عن الرف كتاباً ، واشار الى احد حروف الغلاف براس السكين :

– ما هذا ؟

– راء .

وضحكت الأم .

– وهذا ؟

– الف . . .

كانت مضطربة خجلى من نفسها ، يُصَوَّرُ لها ان عيني اندريه تضحكان منها في الخفاء ، فتتجنب نظراته وتروغ

منها . لكن صوته هادئ لطيف ، ووجهه رزين لا أثر فيه للسخرية .

استفهمت ، وهي ترسل ضحكة قصيرة غير مقصودة :

– اتنوي حقاً أن تعلمني ، يا أندريوشا ؟

فاجاب :

– ولمَ لا ؟ ما دمت تعلّمت القراءة فيما مضى لن يكون ذلك شاقاً . واذا نجحنا فيها فزنا ، وإلا لن نخسر شيئاً .

– ولكنهم يقولون : لن تصيرنّ قديساً بمجرد الشخوص إلى الأيقونات .

فقال الأوكراني ، وهو يؤرجح راسه :

– آه . . . ثمة أقوال كثيرة ! ما رايك مثلاً في هذا : «كلما قلّت معرفتك طال رقادك» ؟ المعدة وحدها تستطيع التفكير على هذا الغرار . هم يسعون إلى إرهاق الروح بمثل هذه الأقوال ، حتى يسهل عليهم قيادها . ما هذا الحرف ؟

– لام !

– عظيم ! وهذا ؟

حملقت بعينيها ، وزوّت ما بين حاجبيها جاهدة أن تتذكر الأحرف المنسية ، غافلة عن كل شيء آخر . وسرعان ما ارهقت عيناها ، فذرفتا في البدء دموع الاجهاد ، ثم دموع اليأس . شهقت وقالت :

– اتعلّم القراءة ! في الأربعين من عمري ، وأبدا اتعلم احرف الهجاء !

فقال الأوكراني في عذوبة بالغة :

– لا تبكي ! انت لم تستطيعي اختيار حياتك ، ولكنك

تدركين على الأقل مبلغ ما كانت عليه من فساد ! إن آلاف الناس قادرون على العيش أفضل مما يعيشون لو أرادوا ذلك ، ولكنهم يستمرون يعيشون كالحيوانات ، لا بل يرضون بذلك أيضاً . اية حسنة في أن الإنسان يعمل ويأكل اليوم ، ويعمل ويأكل غداً ، وهكذا ايام حياته . . . يقضيها في العمل والأكل ، وهويتدبر امره أثناء ذلك كي ينجب اولاداً يتسلى بهم حتى يبدأوا يطلبون الكثير من الطعام . وعندئذ يغضب ، ويروح يلعنهم : هيا ، عجلوا واكبروا أيها الخنازير ، فقد آن الوقت كي تجدوا لكم عملاً ! وانه ليودُّ ان يجعل من أولاده حيوانات أليفة ، ولكنهم يبدأون العمل في سبيل بطونهم الخاصة ، وهم يقضون حياتهم دون سرور في النفس او بهجة في القلب . الناس الذين يستحقون لقب الإنسان هم أولئك الذين ينذرون أنفسهم وحياتهم من أجل تحطيم القيود التي تغلُّ عقل الإنسان . ولقد بدأت أنت أيضاً ، حسب طاقتك وامكانياتك ، تساهمين في هذا العمل .

فقالت وهي تصعد زفرة :

– انا ؟ وماذا أستطيع ان أفعل ؟

– لماذا تقولين ذلك ؟ التعلم أشبه بالمطر ، كل قطرة تسقي البذور . وعندما تبدأين القراءة . . .

واغرق في الضحك ، ثم نهض وشرع يجوس أرض الغرفة بخطواته :

– يجب ان تتعلمي بكل تأكيد ، ولسوف يعود بافل إلى البيت في القريب العاجل ، واذا بك . . . يا للّه !

فقالت الأم :

– آه ، يا أندريوشا ! كل شيء سهل بسيط عندما يكون المرء شاباً . اما فيما بعد فالهموم كثيرة ، والقوى قليلة ، وليس من ذهن على الاطلاق . . .

١٨

في تلك العشية ، بعد ان غادر الاوكراني المنزل ، اشعلت الأم مصباحاً وشرعت تخيط بعض الجوارب جالسة عند المائدة . وسرعان ما نهضت ، وسعت على غير هدى عبر الغرفة ، ودلفت إلى المطبخ ، واغلقت الباب بالمزلاج ، ثم عادت وحاجباها يتراقصان في عصبية ظاهرة . وبعد ان اسدلت الستائر على النافذتين تناولت كتاباً من الرف وعادت فجلست الى المائدة . وتختلس النظر فيما حولها قبل ان تكبّ على الكتاب ، وتأخذ شفتاها تتحركان بلفظ الأحرف . كانت تجفل لدى كل صدى يرتفع من الشارع ، فتستر الكتاب بيدها وترهف سمعها ، ثم تعود إلى همسها . وهي تفتح عينيها وتغلقهما دون انقطاع :

– لام . . . باء . . .

قرع الباب ، فهبت الأم على قدميها ، والقت بالكتاب في مكانه على الرف ، وسألت في لهفة وجزع :

– من الطارق ؟

– أنا !

دخل ريبين ،وهو يمسح لحيته في رزانة ، وقال :

– لم تسألي عن الطارق من قبل ! وحدكِ ؟ ظننت ان

الاوكراني لا بدّ ان يكون هنا . لقد رأيته اليوم ، ويبدو ان السجن لم يؤذِه قط .

جلس ، وقال للأم :

– فلنتحدث قليلاً . . .

ملأتها نظرته الغامضة بجزع مبهم لم تدركْه ، وقد بدا يقول في صوته الأجش :

– كل شيء يكلف مالاً ! الولادة تكلف مالاً ، والموت يكلف مالاً ، والكتب والمنشورات تكلف مالاً أيضاً . هل تعلمين من أين يأتي المال الذي ينفق على هذه الكتب ؟

فقالت الأم في صوت خافت ، وهي تحسّ أن الامور ليست على ما يُرام :

– كلا ، لا أعلم !

– وانا لا أعلم أيضاً ! والسؤال الثاني – من يكتبها ؟

– اولئك الذين تعلموا في الكتب . . .

فقال ريبين ، وقد احمرّ وجهه الملتحي :

– تعنين الأسياد ! وبكلام آخر ، فإن الأسياد يكتبون الكتب ويوزعونها . ولكن الكتب موجهة ضد الأسياد . والآن ، جربي أن توضحي لي ما معنى ذلك ! ولماذا ينفقون المال كي يثيروا ضدهم عامة الناس ؟ إيه ؟

فاطلقت الأم صرخة رعب ، وطرفت بعينيها :

– وماذا ترى أنت ؟

فقال ريبين ، متململاً على مقعده في حركة خرقاء ، وقد صار اشبه ما يكون بالدب .

– آها ! ها انت ترتجفين . وانا ايضاً – حالما مرت هذه

الفكرة في خاطري اقشعرَّ لها بدني كله ،

– هل اكتشفت شيئاً ؟

– خُدعنا ! انني أشعر أننا خُدعنا . لا وقائع لدي ، ولكنني احس ان ثمة خديعة في الأمر . تلك هي القضية ! الاسياد يتقولون علينا . وانا إنسان يريد أن يعرف الحقيقة . لقد عرفت الحقيقة الآن . ولن أسير مع الأسياد بعد اليوم ابداً ، فسوف يطرحون بي ارضاً عندما يجدون ذلك ملائماً لهم ، ويسيرون فوق عظامي كما لو كنت جسراً . . .

اعتصرت كلماته الحادة قلب الأم ، فكأنها به أُخِذَتْ بين فكيّ كماشة.

صاحت في ألم :

– يا يسوع الحبيب ! ايمكن ان باشا لم يفهم ؟ وكل اولئك الذين . . .

مثلت امامها وجوه ييجور ، ونيقولاي ايفانوفيتش ، وساشنكا ،هذه الوجوه الرزينة الطافحة شرفاً وإخلاصاً . وثار قلبها احتجاجاً . فقالت وهي تهزُّ راسها نفياً :

– لا ، لا ! لا استطيع أن اصدق ذلك . . . إنهم أناس يملكون وجداناً .

فسال ريبين متفكراً :

– من تعنين؟

– جميعهم ! حتى آخر من رايت منهم !

فاطرق ريبين ، وقال :

– لست تنظرين حيث يجب النظر ، يا أماه ! ارسلي بصرك إلى أبعد كثيراً ! إن اولئك الذين اقتربوا منّا – لعلهم

هم أنفسهم لا يدرون شيئاً . إنهم . . . يملكون الايمان . . . يجب عليهم ان يفعلوا ما يفعلون ! ولكن ربما كان يقف . . . وراءهم . . . اناس لا يهتمون الا بمصلحتهم الخاصة . إن الإنسان لا يعمل ضد نفسه من أجل لا شيء . . .

ثم اضاف ، في اقتناع الفلاح الذي ينوء بعبء شكوك اجيال طويلة :

– إن شيئاً صالحاً لن يخرج من الأسياد قط !

وسألت الأم ، وقد تسلط الشك عليها مرة اخرى :

– وماذا تفكر أن تعمل ؟

– أنا ؟

شخص ريبين إليها ، وصمت ثم ردد :

– كلما ابتعدنا عن الأسياد كان ذلك أفضل ، تلك هي القضية !

ومرة أخرى إعتصم بالصمت ووجهه عابس متجهم ثم قال :

– كنت اريد أن التحق بالفتيان ، واسير جنباً الى جنب وإياهم . إني صالح لمثل هذه الامور ، وأعرف ما اقول للناس . اما الآن فإني ذاهب ، فقد فقدت الإيمان ، ولم يبق أمامي سوى الذهاب .

اطرق براسه ، وغرق في لجة من الافكار :

– سوف اذهب وحيداً ، خلال القرى والأرياف ، استنهض عامة الناس . فقد آن لهم أن يأخذوا الاشياء بين أيديهم . وإذا فهموا مرة ، فلسوف يجدون طريقهم الخاصة . وستكون مهمتي أن أساعدهم على الفهم . إن أملهم الوحيد

إنما هو هم أنفسهم . . . فملكيتهم الوحيدة هي عقولهـم ، تلك هي القضية !

بدأت تشفق على هذا الرجل وتخاف من أجله . واضحى ، هو الذي كان دائماً مثاراً لنفورها ، عزيزاً عليها الآن لسبب لم تدر له تعليلاً . فقالت في رقة :

– ولكنهم سيقبضون عليك . . .

فحدجها ريبين بنظرة وقال في هدوء :

– سوف يوقفونني ، ثم يطلقون سراحي فأبدأ كل شيء من جديد . . .

– إن الفلاحين أنفسهم سيسلمونك . . . وسيلقون بك في السجن . . .

– سأبقى فيه ما شاءوا ، ثم اخرج ، وأبدأ من جديد . أما الفلاحون فسوف يسلمونني مرة ، ومرتين ، ثـم مرة ثالثة ، وعندئذ يدركون ان الإصغاء إلى ما أقول لهم أفضل مما يفعلون . ولسوف أقول : لا تصدقوني . . . إستمعوا إليّ فقط . واذا استمعوا إليّ مرة فسوف يصدقون !

كان يتكلم ببطء شديد ،وكأنه يزن كل كلمة قبل أن يلفظها .

– تلقنت أموراً كثيرة في المدة الأخيرة وتعلمت شيئاً أو شيئين . . .

فقالت ، وهي تهزّ رأسها في أسى :

– ستهلك ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش !

فتفرّس فيها ، متسائلاً متحفزاً ، بعينيه السوداوين العميقتين . ومال جسده المتين إلى الأمام ، وأطبقت يداه على

مسند المقعد ، وبدا وجهه الذي لوّحته الشمس شاحباً في إطار لحيته السوداء :

– أتذكرين ما قال المسيح عن حبة القمح ؟ لا بدّ لها أن تموت كي تولد مجدداً . . ولكن الموت لن ينزل بساحتي قريباً ، فأنا عجوز داهية !

وتململ في مقعده ، ثم نهض متثاقلاً :

– سأذهب إلى الحانة ، وأجلس بعض الوقت مع روادها . يبدو أن الأوكراني لن يعود سريعاً . هل عاد إلى العمل القديم ؟

فأجابت الأم مبتسمة :

– نعم !

– حسناً ! حدثيه عني . . .

سارا متماهلين الى المطهى ، وقد تلاصق كتفاهما ، وراحا يتبادلان كلمات مقتضبة دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر .

– حسناً ، إلى اللقاء !

– إلى اللقاء ! متى تستقيل من العمل ؟

– لقد استقلت .

– ومتى تسافر ؟

– غداً ، في الصباح الباكر ! إلى اللقاء !

انحنى ، وخرج من الباب مكرهاً في حركة خرقاء . . .

ظلت الأم برهة تصغي إلى خطواته الثقيلة وإلى الشكوك المستيقظة في صدرها ، ثم استدارت في هدوء ، ودلفت إلى الغرفة الثانية ورفعت الستائر عن النافذة . كانت الظلمة

تنبسط دون حراك فيما وراء الزجاج . فكّرت : «– إني أحيا في الظلام ابداً !»

احست الأسف لذلك الفلاح المنقبض النفس ، القوي البنية ، العريض المنكبين .

عاد اندريه مشرق الوجه منشرح الصدر ، وهتف عندما حدثته بأمر ريبين :

– فلينطلق ، وليطوّف عبر القرى ينادي بالعدالة ويستنهض الشعب . يصعب عليه كثيراً أن يسير معنا . راسه ممتلئ بآراء الفلاحين . . . وليس فيه موضع لآرائنا . . .

فقالت الأم في حذر : – لقد تحدث عن الأسياد – وفي حديثه شيء من الحقيقة ! انتبهوا الاّ يخدعوكم !

فضحك الأوكراني ، وقال :

– اتشكين ؟ . آه ، يا اُميمة ، المال المال ! لو كنا نملك مالاً فقط ! إننا ما نزال نعيش على نفقة الآخرين . فنيقولاي إيفانوفيتش مثلاً يتناول خمسة وسبعين روبلاً في الشهر ، وهو يعطينا خمسين منها ، وكذلك الأمر مع الآخرين . وفي بعض الأحيان يرسل إلينا طلاب الجامعات ، الذين يكادون يموتون جوعاً ، بعض الهبات التي جمعوها كوبيكاً كوبيكاً . ولا ريب أن هناك مختلف الأنواع من الأسياد ، بعضهم يتركوننا ، وبعضهم يخدعوننا ، ولكن أفضلهم يربطون مصيرهم بمصيرنا . . .

وضرب يداً بيد ، وتابع في لهفة :

– إن عيدنا الكبير لا يبرح أبعد مسافة مما يستطيع

النسر أن يطير . ومع ذلك نحتفل بعيد أول أيار . ولسوف يكون احتفالاً رائعاً !

بعثرت حماسته مختلف الشكوك التي زرعها ريبين . كان يسير ذهاباً واياباً في الغرفة ، يداعب شعره باحدى يديه ، ويشخص إلى الأرض مفكراً :

– إن قلبي ليطفح بالاحساسات احياناً – ما أروع ذلك ! ويخيل إليّ اني ، ايان ذهبت ، كل إنسان رفيق لي – إنهم جميعاً يلتهبون باللهيب ذاته . كلهم طيّبون ، لطيفون ، مرحون . . . وليس من حاجة للكلام كي يتفاهموا . يعيشون مثل جوقة كبيرة ، يغني كل قلب فيها لحنه الخاص . وكل الألحان أشبه بتيارات تنصب في نهر واحد ، والنهر يتدفق ، واسعاً حراً طليقاً ، في بحر الحياة الجديدة المشرق المبتهج .

كانت الأم تحاول الا تأتي نأمة تقطع عليه أفكاره ، وتعترض حديثه . كانت تصغي إليه دائماً بانتباه أكثر منها إلى اي شخص آخر ، فهو يتحدث ببساطة أكثر من الباقين ، فتذهب كلماته إلى القلب باستقامة نافذة . ولم يكن بافل يتكلم ابداً عن رؤاه في المستقبل ، أما الاوكراني فكان يبدو انه يعيش جزء من قلبه على الدوام في ذلك المستقبل ! كانت احاديثه تروي كل الفرح الذي سيهبط على شعوب الأرض قاطبة . وكان هذا ، في نظر الأم ، ما يعطي لحياة إبنها وبقية رفاقه وعملهم معنى ومغزى .

تابع الأوكراني ، وهو يهز رأسه :

– ثم استردّ شعوري على حين غرة ، وانظر حولي فإذا

الأشياء كلها باردة وسخة ، وإذا الناس كلهــم متعبون ساخطون . . .

واضاف في كآبة عظيمة :

– يجب الا اضع ايماني في الناس : هذا يؤلم ويؤذي ، وانا أعلم ذلك ، ولكن يجب ان اخاف منهم ، لا بـل ان . . . ابغضهم أيضاً ! إن لكل إنسان جانبين في ذاته . وانـا اود فقط ان احبه ، ولكن كيف استطيع ذلك ؟ كيف يمكـن ان اصفح عن شخص هاجمني كالوحش المفترس ، وضرب صفحاً عن نفسي الحية ، وسحق مظهر الانسان المتجلّي فيّ ؟ إنـي لا استطيع غفران هذا ، لا لأنه يتصل بي – فانا استطيع ان اتحمل كل شيء – ولكن لاني لا استطيع ان اترك الطغـاة يعتقدون بموافقتي واستسلامي . إني لا استطيع ان اسمح لهم باستعمال ظهري كي يتعلموا كيف يجلدون الآخرين .

كانت عيناه تلتهبان بشعلة باردة ، ورأسه منحنياً في عناد وحديثه اكثر حزماً منه في اي وقت مضى .

– انا لا املك الحق في غفران اي شرٍ كان وإن لـم يؤذني . فانا لست الوحيد على هذه الأرض ! فقـد أصفـح اليوم عن إهانة يوجهها أحدهم لي ، وربما ضحكت منها لأنهـا من التفاهة بمكان – ولكنه غداً قد يجلد شخصاً سواي بعد ان جرب قوته فيّ . إني لا استطيع ان انظر إلى الناس سواء ، بل يجب ان انتقي وأختار على مهل : هذا يصلح لـي ، وهذا لا يصلح ! كل هذا صحيح ، ولكنه لا يعزي كثيراً !

ولسبب ما فكرت الأم في ساشكنا ، ثـم في الضابط . وقالت ، وهي تتنهد :

– اي ثمر يمكـن ان تنتظر من زهر لم ينضج بعد ؟

فهتف الأوكراني :

– تلك هي المشكلة كلها !

– نعم !

ثارت في ذاكرتها صورة زوجها ثقيلة ، كئيبة ، كصخرة كبيرة علاها الوحل والطحلب . وتخيلت كيف تصبح الأمور لو تزوج الأوكراني ناتاشا ، وإبنها ساشنكا .

قال الأوكراني في لهفة ، وهو يعود إلى موضوعه :

– ولِمَ تكون الأشياء هكذا ؟ ذلك واضح وضوح الأنف في وجهك . سبب ذلك كله أن الناس لا يقفون على مستوى واحد . فلنضعهم في صف واحد إذن ، ولنقسم بينهم كل مـا انتجه الفكر ، وما صنعته اليد ! فلنحرر الناس من عبودية الخوف ، والحسد ، وأثر الجشع ، والبلاهة والجهل !

ولقد تبادلا ، فيما بعد ، الكثير من مثل هذه الأحاديث .

قَبِلَ ناخودكا في المعمل من جديد ، فراح يعطي الأم كل اجوره التي تقبلتها منه ببساطة ، وكأنها تأخذها من بافل نفسه .

كان اندريه يقول لها احياناً ، وعيناه تشيعان بابتسامة لطيفة :

– ما رايك ان تقرأ شيئاً ، يا أميمة ؟

رفضت بلطف ولكن بحزم . . كانت تلك الابتسامـة تؤذيها .

فتفكر في نفسها في شيء من الغضب : «مـا دمت تعتبر ذلك هزلاً ، فما معنى الازعاج ؟»

ولكنها تطلب منه ، أكثر فأكثر ، أن يشرح لها بعض الكلمات الأدبية ،وهي تتطلع جانباً عندما تسأله ، متظاهرة بعدم المبالاة . أدرك أنها تدرس في الخفاء . فاقلع تقديراً لما تعانيه من الحياء عن سؤالها القراءة معه .

قالت له ذات يوم :

– إن عينيّ تزدادان ضعفاً ، يا أندريوشا ، وأنــا في حاجة إلى نظارات .

– هذا أمر يسهل تدبيره ! ولسوف أصحبك يوم الأحد إلى طبيب في المدينة فتحصلين على حاجتك . . .

١٩

طلبت السماح لها برؤية بافل ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان رئيس الدرك ، وهو رجل عجوز أشيب الشعر ، متورد الخدين ، كبير الأنف ، يردها خائبة في لطف ورفق :

– يجب أن تنتظري إسبوعاً آخر على الأقل ،أيتها الأم ! بعد إسبوع سوف نرى . . . أما الآن فذلك مستحيل . . .

كان ممتلئ الجسم ، مستديره ، يذكرها بخوخة ناضجـة قطفت منذ زمن بعيد ، حتى اكتست بعفن وبري ناعم . وكانت تجده ، أبداً ، يحفر في أسنانه البيض الصغيرة بعود أصفر اللون حاد الطرف ، تبتسم عيناه الخضراوان الصغيرتان في لطف ،وهو يخاطبها على الدوام بصوت متودّد بشوش .

كانت تقول للأوكراني متفكرة :

– إنه أديب كثيراً ، يبتسم بصورة مستمرة . . .

فيجيب الأوكراني :

– أوه ، نعم ! هُمْ ، جميعاً ، لطيفون جداً ، متأدبون ، يبتسمون أبداً . ويقال لهم : ها هو ذا شاب ذكيّ شريف وجدناه خطراً علينا ، فاشنقوه ! فيبتسمون ويشنقونه . وبعد إنتهاء ذلك – يستمرون في الابتسام .

– إن الأمر يختلف تماماً مع ذلك الذي قام بالتفتيش هنا ! لتستطيع أن ترى ، للوهلة الأولى ، أي خنزيـــر كان . . .

– ليس بينهم كائن بشري – ليسوا سوى مطارق يدقون الشعب بها ، وآلات ينحتون بها أمثالنا كي يتصرفوا بنـا ، كما يشاؤون بسهولة ويسر . وهم أنفسهم جُعِلوا على صورة تلائم الرؤساء، تماماً بحيث يفعلون كل ما يؤمرون به دونما تفكير على الإطلاق ، ودون أن يسألوا عن أسبابه . أبداً .

اذنوا لها أخيراً برؤيته ، فوجدت نفسها ، ذات يوم أحد ، جالسة بتواضع في إحدى زوايا مكتب السجن . وكان هناك عدد آخر من الأشخاص في الغرفة الصغيرة ، والوسخة ، المنخفضة السقف ، ينتظرون السماح لهم بزيارة المسجونين . وكان من الواضح أنها ليست المرة الأولى التي يزورون فيها السجن ، فقد كانوا متعارفين ، ينسجون حديثاً هادئاً ، متمهلاً ، لزجاً ، يشبه نسيج العنكبوت .

قالت إمرأة بدينة لها وجه منتفخ ، وقد وضعت حقيبة سفر على ركبتيها :

– هل بلغكم الخبر ؟ لقد كان أستاذ الترتيــل في

الكاتدرائية ، هذا الصباح ، يقتلع إذن احد صبيان الجوقة في صلاة قداس الصباح الأول . . .

فأجاب شيخ يرتدي ثياب ضابط متقاعد بعد أن سعل في صوت عال :

– إنهم لمشاكسون هؤلاء الصبيان المرتلون !

وكان ثمة رجل صغير الجثة ، أصلع الرأس ، ذو ساقين قصيرتين ، وذراعين طويلتين ، وذقن مدببة ، يغدو في المكتب ويجيء مضطرب الأعصاب ، وهو يلقي بملاحظاته دون انقطاع في صوت متحشرج خشن :

– الأسعار في صعود مستمر ، وهذا ما يجعل الناس خبثاء . الرطل من الصنف الثاني من لحم البقر يكلف اربعة عشر كوبيكاً . والخبز ارتفع حتى اصبح يساوي ، من جديد ، كوبيكين ونصف الكوبيك . . .

كان المساجين ، من وقت لآخر ، يلجون إلى المكتب مرتدين ثياباً رمادية متشابهة ، واحذية ضخمة جلدية ، فتطرف عيونهم حالما يدلفون إلى الغرفة الباهتة النور . وكان احدهم مقيد الساقين بسلسلة حديدية ضخمة .

كان الهدوء الغريب والبساطة المزعجة يخيمان على كل ما حولها . وكان يبدو ان هؤلاء القوم إعتادوا هذا الوضع منذ أمد بعيد ، وقنعوا بنصيبهم المقدر واستكانوا إليه . وكان بعضهم مساجين ، والبعض يقفون للحراسة بكسل وفتور عظيمين ؛ والبعض الآخر يأتون بانتظام وضجر لزيارة مساجينهم . وخفق قلب الأم في فارغ الصبر راحت تتلفت في حيرة حواليها ، مشدوهة من بساطة كل ما يحيط بها .

كانت تجلس إلى جوارها إمرأة صغيرة عجوز ، ذات وجه اجعد الخدين ، وعينين فتيتين . وكانت تتطاول برقبتها الناحلة لتستمع إلى ما يدور حولها من حديث ، وتشخص إلى كل إنسان ونظرة جريئة تطلُّ من عينيها .

استوضحتها بيلاجيا في لطف :

– من لك هنا ؟

فاجابت العجوز بصوتٍ عالٍ بسرعة :

– ولدي . طالب في الجامعة . وانت ؟

– ولدي أيضاً . عامل .

– ما إسمه ؟

– فلاسوف .

– لم أسمع به . أمضى عليه زمن طويل هنا ؟

– سبعة أسابيع . . .

فقالت العجوز ، وفي نبرات صوتها خيلاء ، وتكبّر لم يخفيا على بيلاجيا :

– أما ولدي فقد قضى عشرة أشهر حتى الآن !

فدمدم العجوز الأصلع :

– نعم ، نعم ! لم يعد ثمة صبر – عيل صبر الجميع ، فهم يصيحون عالياً . والأسعار ما زالت ترتفع ، وقيمة الناس تهبط بصورة مطردة مع ارتفاعها . وليس من يرفع صوته فيضع لذلك حداً .

فقال الضابط :

– أنت محق ! لقد طفح الكيل ! وحان الوقت كي يقول أحدهم بصوت جهوري قوي : « صه » فيصمت الجميع .

هذا ما نحن إليه في حاجة . صوت قوي حازم . . .

إنضم الجميع إلى الحديث الذي حمي وطيسه وكثرت حيويته عن ذي قبل ، ونشط كل منهم يريد إبداء رأيه في الحياة ، ولكن في صوت خافت . وتبينت الأم ان كل ما يقولون غريب عن افكارها ، فأحاديث البيت تختلف كل الاختلاف عن هذه – إنها أوضح وأبسط ، وأعلى نبرة أيضاً .

نادى بإسمها أخيراً سجّان سمين ذو لحية مربعة حمراء ، وتفحصها من ذؤابة رأسها حتى أخمص قدميها ، وقال :

– اتبعيني . . .

ومضى وهو يظلع . واحست الأم في الطريق رغبة تحدوها إلى دفعه في ظهره حتى يحث الخطو . كان بافل واقفاً في غرفة صغيرة يبتسم لها ماداً إحدى يديه ، فتناولتها الأم ، واطلقت ضحكة قصيرة ، وعيناها تطرفان بشدة بالغة . قالت ، وقد خانتها الكلمات :

– مرحباً . . . مرحباً . . .

فقال بافل ، وهو يمسح على يدها :

– هدئي روعك ، يا أماه !

– حسناً ، حسناً .

فقال السجان ، متنهداً :

– إليك أمك !

وأضاف ، وقد اطلق من فمه تثاؤباً طويلاً :

– لكن يحسن ان تقفا حتى تكون بينكما مسافة كافية . . .

سألها بافل عن صحتها ، وعن أمور البيت . . . وكانت

هي تتوقع أسئلة أخرى مختلفة ، فراحت تفتش عنها ، عبثاً ، في عيني ولدها . كان هادئاً كعادته على الدوام ، وإن ازداد شحوبه قليلاً وبدت عيناه وكأنهما اتسعتا وكبرتا .

قالت :

– ساشنكا ترسل تحيتها !

فاضطرب جفناه وارتعشا ؛ ورقّت ملامحه ؛ وارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة ؛ فاستشعرت الأم غصة مرّة تتدفق بحدة في قلبها .

سألت ، مغتاظة كلمى :

– متى سيطلقون سراحك ؟ ولِمَ ألقوا القبض عليك واحتجزوك ؟ تلك المنشورات عاودت ظهورها مرة ثانية في المعمل . . .

فالتمعت عينا بافل سروراً .

استفهم بسرعة :

– أصحيح هذا ؟

فقال السجان بصوت وسنان :

– التحدث عن مثل هذه الأمور ممنوع ! تستطيعان التحدث عن الأمور العائلية فقط . . .

فاحتجت الأم بقولها :

– أوليست هذه أموراً عائلية ؟

فأجاب الحارس في عدم مبالاة :

– لا أستطيع الجواب عن هذا . وإنما – ذلك ممنوع .

فقال بافل :

– حسناً ، حدثيني عن أمور البيت . ماذا تعملين فيه ؟

فأجابت ، وهي تحس في نفسها حماسة فتية :

– لقد كنت احمل إلى المصنع كل تلك الأشياء . . .

وامسكت عن الكلام ، ثم تابعت وهي تبتسم :

– الحساء ، العصيدة ، وكل الزاد الذي تقوم ماريـا بطهوه . . . واشياء أخرى ايضاً . .

ادرك بافل ما تقصد إليه ، فشق بإحدى يديه شعره بينا تقلصت عضلات وجهه من جرّاء عاطفة مكبوتة من الضحك . قال في صوت حنون لم تسمعه منه أبداً فيما مضى :

– إنه لأمر رائع ان تجدي شيئاً يشغلك . . . وهكذا لا تستوحشين !

فأعلنت في شيء من الخيلاء :

– عندما بدأت تلك المنشورات تظهر ، راحوا يتحرونني بدوري !

فقال السجان مغتاظاً :

– عدنا إلى ذلك الموضوع ؟ قلت لكما إنه ممنوع ! إنهم يسجنون المرء كي لا يعرف ماذا يجري في الخارج ، ومع ذلك فانتِ تثرثرين هنا ! لقد آن الوقت كي تفهمي ان الممنوع ممنوع .

قال بافل :

– كفى ، يا أماه ! إن ماتفي إيفانوفيتش رجل رائع جداً ولا معنى لإثارة غضبه . نحن صديقان حميمان ، وأرادت المصادفة المحضة ان يكون السجان الذي سيحضر زيارتك اليوم ، فالعادة ان يحضرها مساعد المدير .

قال السجان ، متطلعاً إلى الساعة : – انتهى الوقت !

وقال بافل : – شكراً ، يا أماه الحبيبة ! لا تقلقي ، فلسوف يُطلقون سراحي سريعاً . . .

عانقها بحرارة وقبّلها ، فبكت سروراً وتأثراً .

– هيا بنا !

قال السجان هذا ، ثم غمغم وهو يقودها في طريق العودة : – لا تبكي ، سوف يتركونه عن قريب ، سيتركونهم جميعاً . . . فالازدحام شديد هنا . . .

عندما بلغت الدار قالت للأوكراني عن كل شيء ، وهي تبتسم بإشراق وحاجباها يرتفعان ويهبطان فرحاً وغبطة :

– اخبرته ذلك بأسلوب بارع حقاً ، ولقد فهم !

واضافت ، وهي تزفر في كآبة :

– لقد فهم من دون ريب ، وإلا ما تدفق حناناً حتى هذه الدرجة . فهو لم يكُ كذلك أبداً !

فقال الأوكراني ضاحكاً :

– ما أحيلاك ! الناس يطلبون أبداً أشياء عديدة ، أما الأم فكل ما تبتغيه هو الحنان . . .

فهتفت مشدوهة بغتة :

– أوه ! كلا ، يا أندريوشا ! كان يجب أن ترى أولئك الناس ، وكيف ألِفوا ذلك الواقع ! لقد انتزعوا منهم أبناءهم وألقوا بهم في فحمة السجن ، ومع ذلك فهم يتصرفون كأن شيئاً لم يحدث ابداً – يأتون إلى هناك ، ويقعدون ، وينتظرون ، ويتكلمون عن الأخبار . إذا كان المثقفون يألفون

الأمر هكذا فماذا يُنتظر إذن من الناس الجاهلين ؟
فأجاب الأوكراني وهو يبتسم ابتسامته المعهودة :
– ذلك واضح الوضوح كله . فالقانون ، على أية حال ، اخف وطأة عليهم منه علينا نحن ؛ ولذا فهم يحتاجون الى القانون اكثر من حاجتنا إليه ؛ فإذا اصابهم بلطمة على راسهم مرة ، كشّروا بعض الوقت ، ثم تناسوا كل شيء . فاخفُّ عليك دائماً تحمل اذى أهلك وخاصتك من تحمل أذى البعداء . . .

٢٠

ذات مساء بينا الأم جالسة إلى الطاولة تحوك بعض الجوارب ، والأوكراني يقرأ لها عن ثورة العبيد في روما القديمة ، قرع الباب قرعاً شديداً . وعندما فتح الأوكراني دخل فيزوفشيكوف يتأبط حزمة صغيرة ، وقبعته عالقة بمؤخرة راسه ، وساقاه ملطختان بالوحل حتى الركبتين .
قال في لكنة غريبة : – كنت ماراً بكما ، فرأيت النور فدخلت أحييكما . لقد خرجت من السجن توّاً !
وتناول يد بيلاجيا ، وهزها بحرارة ، واردف يقول :
– بافل يبعث إليك تحيّاته . . .
جلس متململاً ، وأجال في الغرفة نظرة فاحصة حزينة . لم تكن الأم تحبه . فهي تجد شيئاً مخيفاً مروّعاً يطل من راسه الحليق المربّع وعينيه الصغيرتين . غير انها كانت سعيدة هذه الليلة بلقائه . راحت تبتسم في ودّ وحنان ، وهي تقول له في لهفة :

– لكم اصبحت نحيلاً ! هلاّ صببتَ له قدحاً من الشاي ، يا أندريوشا ؟
فصاح الأوكراني من المطبخ :
– انا اهيئُ السماور !
– حسناً ، وكيف هو بافل ؟ اأخلوا سبيل غيرك ؟
فاطرق نيقولاي براسه :
– بافل ينتظر في صبر ! لقد اخلوا سبيلي وحدي !
ورفع عينيه إلى وجه الأم ، وقال ببطء من بين أسنانه المنطبقة :
– لقد صحت بهم : إني نلت الكفاية ، ونفد صبري ، فاطلقوا سراحي ! وإلا قتلت أحدكم وانتحرت فأخلوا سبيلي .
– آه !
قالت الأم ذلك وهي تبتعد عنه . وعندما التقت عيناها نظرته القاسية غضت طرفها بالرغم منها .
صاح الأوكراني من المطبخ :
– كيف حال فيدور مازين ؟ أما يزال يقرض الشعر ؟
فردّ نيقولاي ، وهو يهز رأسه :
– نعم ، وهذا ما لا أفهمه ! ماذا يظنّ نفسه ؟ عندليب ؟ ضعه في قفص ، وهو يأخذ يغني . ولكن ثمة شيئاً واحداً أفهمه تماماً . . . وهو اني لا أريد الذهاب إلى البيت . . .
وقالت الأم متفكرة :
– ماذا تجد في البيت ؟ منزل خاوٍ ، ولا نار في الموقد ، وكل شيء بارد . . .
لم يقل شيئاً ، بل أطبق جفنيه ، وتناول من جيبه علبة

لفائف أشعل واحدة منها متماهلاً ، وراح يلاحق بنظراته دخانها الرمادي وهو يتلاشى ، تعلو وجهه سيماء الكآبة والغم .

– نعم ، لا ريب أن كل شيء بارد . صراصير متجمدة على الأرض ، وفئران متجمدة أيضاً .

صمت لحظة ، ثم سأل في صوت أجش دون أن يطلع إلى الأم :

– هلاّ سمحت لي بقضاء الليل ههنا ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

فأسرعت تجيب :

– بالطبع ، وبكل طيبة خاطر ! .

وأحست شيئاً من الضيق في حضرته .

– في هذه الأيام أصبح الشبان يخجلون من آبائهم . . .

فسألت الأم ، وقد انتفضت :

– ماذا ؟

حدجها بنظره ، وأغلق عينيه بحيث اتخذ وجهه المجدور مظهراً يوحي بأن صاحبه ضرير فاقد البصر ، ثم ردّد متنهداً تنهداً صاخباً :

– قلت إن الفتيان أصبحوا يخجلون من آبائهم ! لن يخجل بافل منك أبداً . أما أنا فأخجل من والدي العجوز ولن أضع رجلي في بيته ثانية أبداً . ليس لي أب ، ولا بيت أيضاً ! ولو لم أكن تحت مراقبة الشرطة لذهبت إلى سيبيريا ، وسأحرر الناس في المنفى هناك – أساعدهم على الفرار . . .

أدركت الأم بقلبها الحساس أن هذا الصبي يتألم ، لكن ألمه لم يثر فيها عطفاً وحناناً .

قالت ، كي لا تسيء إليه بالامتناع عن الكلام :

– إن كنت تشعر بذلك حقاً ، فأنت تفعل حسناً بالذهاب !

وجاء أندريه من المطبخ ضاحكاً :

– ماذا تنادي به ؟

فأعلنت الأم ، وهي تنهض :

– سأمضي لأهيئ بعض الطعام . . .

وأعلن نيقولاي بغتة ، بعد أن تفرس في الأوكراني برهة من الزمن :

– يخيل إليّ أن بعض الناس يستحقون القتل !

فاستفسر الأوكراني :

– يا للّه ! ولِمَ ؟

– للتخلص منهم . . .

وقف الأوكراني ، طويل القامة نحيل القوام ، يتأرجح على عقبيه في وسط الغرفة ويداه في الجيبين ، ويتطلع إلى نيقولاي الذي جلس على مقعده لاصقاً به ، غارقاً في عجاج من دخان التبغ ، وقد بدت على وجهه الشاحب لطخات حمر قانية .

وقال نيقولاي :

– سوف أدق عنق أشعيا خوربوف . سوف ترى كيف أفعل ذلك !

– ولِمَ ؟

فقال فيزوفشيكوف ، وهو ينظر إلى أندريه بجفاء ونفور :

– إنه جاسوس وواشٍ ، وهو الذي دمّر والدي . . . يريد أن يجعل منه مخبراً عند الشرطة .

فصاح الأوكراني :

– إذن فهذه المشكلة ! ولكن ليس سوى الأحمق يستطيع أن يلومك على هذا . . .

فقال فيزوفشيكوف في عناد :

– الأذكياء والحمقى سواء ! فأنت وبافل مثلاً كلاكما ذكي . ولكن هل انا في نظركما مثل فيودور مازين او صموئيلوف ، او مثل احدكما في نظر الآخر ؟ لا تكذب ، فأنا لن اصدقك على اية حال . إنكم جميعاً تدفعونني جانباً – وتضعونني في مكان بعيد عنكم .

فقال الأوكراني في لطف وعذوبة ، وهو يجلس الى جانبه :

– انت مريض النفس ، يا نيقولاي !

– انا مريض النفس ، حسناً . لكن نفوسكم مريضة ايضاً . انتم تحسبون أن ما يمرضكم أسمى مما يمرضني . كلنا يعامل بعضنا بعضاً بنذالة . هذا جلّ ما أستطيع ان أقول . ما عندك أنت ؟ هيا هاته .

ثبّت عينيه القاسيتين في وجه أندريه ، وراح ينتظر الجواب منطبق الفكين . ولم تتبدل ملامح وجهه المبقع ، ولكن شفتيه أخذتا ترتعشان كأن شيئاً مرّاً حرقهما .

قال الأوكراني ، وهو يقابل نظرة العداوة في عيني فيزوفشيكوف بابتسامة عينيه الزرقاوين الدافئة :

– لن أقول شيئاً ، فأنا أعلم أن النقاش مع فتى تدمى كل الجروح في قلبه لا يُنتج إلا الأذية وحدها . أعلم ذلك ، يا أخي !

فغمغم فيزوفشيكوف ، وهو يغضُّ طرفه :

– لا تستطيع أن تناقشني – أنا لا أعلم كيف !

فتابع الأوكراني :

– يخيل إليّ أن كلاً منا سلك يوماً طريقه الشائكة ، وأن كلاً منا زمجر مثلك في ساعاته السود المظلمة . . .

فقال فيزوفشيكوف في بطء :

– ليس هناك ما تقوله لي ! فروحي تعوي كالذئب الكاسر !

– لست اريد أن أقول لك شيئاً على الإطلاق ! انني اعرف فقط أن ذلك سيمضي . . . وربما لن يمضي كلهُ ، ولكنه سيمضي على أية حال !

وارسل ضحكة قصيرة ، ثم استرسل وهو يربت على كتف نيقولاي :

– هذا مرض طفولي كالحصبة ، يصاب به كل منا يوماً ما – والأقوياء تكون إصابتهم خفيفة ، أما الضعفاء فإصابتهم شديدة . إنه يرمي بنا ارضاً ويقعدنا في ذات اللحظة التي نسير فيها في طريق العثور على ذواتنا قبل ان تكمل نظرتنا عن الحياة . او ينضج إدراكنا لموضعنا فيها . ويخيل إليك عندئذ أنك أطيب قطعة حلوى في الوجود ، وأن كل إنسان يريد أن ينال منك كسرة . ولكنك لاتلبث قليلاً حتى تجد ان للباقين في صدورهم نفساً لا تقل طيبة عن نفسك ، الأمر الذي يسهل الأمور كثيراً . وعندئذ تخجل قليلاً لأنك تسلقت إلى برج الاجراس بجرسك التافه العاجز عن رفع صوته في رنين الاجراس الشامل . ولكنك تكتشف فيما بعد أن جرسك ينسجم تماماً مع جوقة الأجراس ويزيدها روعة ، وإن كانت النواقيس

الكبيرة تغرقه في رنينها ، ان كان وحيداً ، كما تغرق الذبابة في إناء من الزيت . هل تفهم ما أحاول ان أقول ؟

فقال نيقولاي ، وهو يهز رأسه :

– ربما أفهم ولكني لا . . . أصدق .

فهب الأوكراني واقفاً وهو يضحك ، وأخذ يمشي روحة رجعة في ضوضاء وحمية :

– وانا أيضاً لم أصدق في الماضي ، أيهـا المتحجر الرأس !

فسأل فيزوفشيكوف ضاحكاً باكتئـاب ، وهو ينظر إلى الأوكراني :

– ولِمَ تدعوني متحجر الرأس ؟

– لأن تلك هي حقيقتك .

وفجأة أخذ نيقولاي يزمجر ضاحكاً ملء شدقيه ، فسأل الأوكراني مشدوهاً ، وهو يقف تجاهه :

– ماذا دهاك ؟

اجابه نيقولاي ورأسه يتمايل :

– لقد كنت افكر – كم يجب ان يكون المرء أحمق كي يجرح إحساساتك !

فهزّ الأوكراني كتفيه :

– وكيف يمكن لأي شخص ان يجرح إحساساتي ؟

فقال فيزوفشيكوف مبتسماً بجذل :

– لست أدري ، ولكني أعني فقط أن المرء سيشعر بالنقمة على نفسه إذا آذاك مرة .

فضحك الأوكراني :

– تلك هي فكرتك إذن !

وصاحت الأم من المطبخ :

– أندريوشا !

فغادر أندريه الغرفة .

بعد أن أصبح فيزوفشيكوف وحيداً تطلع حوله ، ومدّ رجلاً حُبست في حذاء ضخم ، وتفحصها بعناية شديدة ، وراح يتحسس بطة ساقه . ورفع يده يتمعن في راحتها الثخينة ، وفي ظهر اصابعها القصيرة المكسوة بشعر أصفر اللـون . وأخيراً نهض وهو يلوح بيده .

عندما رجع أندريه بالسماور ، كان نيقولاي يقف مقابل المرآة . قال في ابتسامة ملتوية وهو يهز رأسه :

– لم أرَ وجهي منذ زمن طويل . إنه قبيح !

فسأل أندريه ، وهو ينظر إليه في فضول :

– وما الذي يجعلك تفكر في مظهرك ؟

قال نيقولاي متماهلاً .

– تقول ساشنكا إن الوجه يعكس النفس !

فصاح الأوكراني :

– هراء ! إن لها أنفاً أشبه بصنارة الصيـد ، وعظام وجنتيها كحد السكين ، ولكن نفسها أشبه بالكوكب المضيء .

فحدق نيقولاي فيه وابتسم .

وجلس ثلاثتهم يحتسون الشاي .

تناول فيزوفشيكوف قطعة كبيرة من البطاطا وذر الملـح بكثافة على كسرة من الخبز ، وابتدأ يمضغ في هدوء وتمهـل كالثور العجوز .

سأل ، ممتلىء الشدقين طعاماً :

– كيف حال الأمور ههنا ؟

عندما قدم له اندريه تقريراً مرحاً عن انتعاش دعايتهم في المعمل ، امتقع لونه مرة اخرى وتجهم وقال :

– سيتطلب ذلك وقتاً طويلاً جداً . . . يجب ان نعمل بسرعة اكبر . . .

فنظرت إليه الأم ، واختلج في صدرهـا شعور بالعداء نحوه .

وقال اندريه :

– ليست الحياة حصاناً يساق بالسوط !

فهزّ نيقولاي راسه في عناد ، وقال :

– هذا يطول بنا جداً ، ولست استطيع ان انتظر هكذا ! ماذا يجب ان افعل ؟

وندت عنه إشارة يأس وهو ينظر إلى الأوكراني انتظاراً للجواب فقال اندريه وهو يطرق براسه :

– علينا جميعاً ان ندرس ونعلّم الآخرين ، ذلك مـا ينبغي ان نفعل !

فسأل فيزوفشيكوف :

– ومتى ابتدأنا القتال ؟

فضحك الأوكراني ضحكة قصيرة ، واجاب :

– لست ادري متى ابتدأنا القتال ، ولكني اعلم انهم سيغلبوننا مرات عديدة كثيرة قبل ان ننتصر عليهم ! ويبدو لي ، حسب نظرتي للأمور ، انه ينبغي ان نسلح رؤوسنا قبل ان نسلح ايدينا . . .

استدار نيقولاي إلى الطعام من جديد ، اما الأم فراحت تسترق نظرة شزراء إلى وجهه العريض وهي تحاول ان تكشف هناك شيئاً يصالحها مع ذلك الجسد الثقيل المربع البنيان .

لاقت اخيراً النظرة الشائكة في عينيـــه الصغيرتين فراح حاجباها يرتجفان في وجل . اما اندريه فقد "فقد" هدوءه ، وعلى حين غرة ، اضحى كثير الاضطراب والتململ ، وانطلق يضحك ويتكلم دون حساب ، ثم توقف عن الحديث بغتة ، دون ان يكمل الجملة التي بدأها ، وراح يصفر لحنه المعتاد .

احست الأم انها تفهم ما الذي يقلقه . اما نيقولاي فجلس صامتاً ، يردُّ على اقوال الأوكراني بأجوبة مقتضبة باديـــة الامتعاض .

اصبحت الغرفة الصغيرة ثقيلة الوطأة على الأم واندريه معاً ، وراح كل منهما ، بدوره ، يرمق الضيف بنظرات خاطفة سريعة .

نهض نيقولاي اخيراً ، وقال :

– اظن اني سأذهب إلى الفراش . لقد لبثت جالســـاً طويلاً في ذلك السجن ، ثم اطلقوا سراحي على حين فجأة ودون انتظار ، فخرجت حراً طليقاً ، وانا متعب الآن .

وظل يتململ في المطبخ فترة من الزمن في فراشه ، ثم تلاشت ضوضاؤه تماماً وكأن الموت نزل بساحته . فأصاخت الأم بسمعها الى السكون برهة وهمست في اذن اندريه :

– لقد اكتسب افكاراً مخيفة . . .

فوافق الأوكراني ، وهو يهزُّ رأسه :

– نعم ، وإنه لإنسان صعب معقد ! ولكن هذه الحالة

ستزول ! لقد كنت هكذا انا أيضاً في فترة من الزمن . إن النار ترسل الكثير من الهباب والدخان قبل أن تلتهب مضطرمة في قلبك . إذهبي إلى الفراش يا أُميمة ، فانا اريد أن أقرأ قليلاً .

سعت إلى إحدى الزوايا حيث كان سرير وراء ستائر مصنوعة من القطن . وظل أندريه طويلاً يسمع حفيف تنهداتها وصلواتها الدافئ . يقلب صفحات كتابه في عجلة وهو يحك جبينه منفعلاً أو يفتل شاربيه بين أصابعه الطويلة ، ويحرك قدميه دون انقطاع . وكانت الساعة تدق في انتظام ، والريح لا تني عن الأنين وراء النافذة .

وجاء صوت الأم الناعم يقول :

– آه ، يا إلهي ! هؤلاء البشر في العالم ، كل منهم يتألم على طريقته الخاصة ! أين هم السعداء بينهم ؟

فأجاب الأوكراني :

– إن ثمة أناساً سعداء يا أُميمة ، وعما قريب سيكون عددهم عظيماً . . عظيماً جداً !

٢١

تدفقت الحياة في سرعة تتلاحق أيامها متباينة مفعمة بالحوادث ، وكل منها يحمل إلى الوجود شيئاً جديداً غير معهود ، فلا يثير ذلك جزع الأم وقلقها أبداً . كانَ يفِدُ على بيتها ، أكثر فأكثر ، أناس مجهولون يأتون في العشية . ويتحدثون إلى أندريه طويلاً بأصوات قلقة خافتة ، ثم يرفعون

ياقات معاطفهم ، ويجرون قبعاتهم حتى تستر كل جباههم ، ويختفون في الظلمة في حذر ودون اى ضوضاء . وكانت تدرك ذلك الانفعال المكبوت الذي يحسه كل منهم ، فهم جميعاً ، فيما يبدو ، يريدون أن يضحكوا أو يغنوا ، فلا يجدون لذلك متسعاً من الوقت لأنهم أبداً يحثون الخطا إلى مكان ما . وكان بعضهم وقورين أبداً ، وساخرين ؛ وبعضهم الآخر مرحين على الدوام يشعون فتوة وشباباً ؛ وفئة ثالثة أيضاً أفرادها هادئون غارقون في التفكير دون انقطاع . ولكن الجميع يتحلون ، في نظر الأم ، بذلك العزم الواثق بذاته . وكانت وجوههم جميعاً ، وإن يكون لكل منها مظهره الفردي الخاص المتميز ، تذوب في وجه واحد ، نحيل هادئ ، طافح بالحزم ، ذي عينين عميقتين صافيتين سوداوين تطل منهما نظرة لطيفة وصارمة في الوقت ذاته ، مثل نظرة المسيح على طريق عيماس .

وكانت الأم تُحصي عددهم ، وهي تجمع في ذهنها حشداً كبيراً حول بافل يختبئ هذا في وسطه عن عين العدو .

وفي ذات يوم قدمت من المدينة فتاة متوقدة الذكاء ، مجعدة الشعر ، تحمل طرداً إلى أندريه ، وبينما هي تغادر الدار استدارت نحو الأم وفي عينيها المرحتين بريق شديد اللمعان ، وقالت :

– إلى اللقاء ، يا رفيقة !

فأجابت الأم ، وهي تكبح ابتسامة هجمت على شفتيها :

– إلى اللقاء !

بعد أن شيعت الفتاة ذهبت إلى النافذة وراحت تراقب ، وهي تضحك ، رفيقتها هذه تقطع الشارع في خطوات صغيرة

سريعة ، خفيفة كالفراشة ، ممتلئة حيوية كوردة ربيعيـــة . غمغمت :

– يا رفيقة ! اوه يا عزيزتــــي ! فليهب لك الله رفيقاً حقيقياً يرافقك طوال الحياة !

كانت تميز في كل أولئك الناس الذين يأتون من المدينة شيئاً طفولياً ، فتبتسم في تعطف وتسامح . ولكنها تتأثر ، وفي نفسها مزيج من الدهشة والفرح والحبور ، بإيمانهم المتجلي لها ثباته ورسوخه أكثر فأكثر على مرّ الأيام وكرّها . وكانت احلامهم عن انتصار العدالة تداعب قلبها وتبثّ فيه الحرارة والسعادة ، فتتنهد مصغيةً إليهم في كآبة لا تدرك لها كنهاً . ولكنها تتأثر ، بصورة خاصة ، ببساطتهم التامة ، وبتلــك اللامبالاة الرائعة تجاه هنائهم الخاص .

ولقد أصبحت تفهم الكثير مما يقولون عن الحياة ، فتحس انهم اكتشفوا منبع الآلام الانسانيـــة الحقيقي ، فاعتادت ان توافق على افكارهم . ولكنها لم تكن تثق ، في أعماق نفسها ، بأنهم قادرون على تحويل مجرى الحياة على طريقتهم الخاصة او انهم سيصيرون إلى ما يكفيهـــم من القدرة على ضمّ العمّال إليهم . إن كل إنسان يهتم بإملاء معدته في هذا اليوم ذاته ، وليس ثمة من يرضى بتأجيل ذلك إلى الغد . قليلون هم أولئك الذين يرضون عبور تلك الطريق الطويلة العسيرة ، وقليلة هي الأعين التي تستطيع إدراك هذه الرؤياء الأسطورية عـــن مملكة الأخوة الإنسانية التي لا مفرّ من بلوغها في نهايـــة الطريق . ولذلــك بدا لها كل هؤلاء الناس الطيبين أطفالاً

بالرغم من لحاهم ووجوههم الناضجـــــة التي أذواها التعب المرهق احياناً .

وكانت تفكر ، وهي تهزّ رأسهـــا : «آه ، يا أحبائي الاعزاء !»

ولكنهم الآن يحيون جميعاً حياة رائعة رزينة عاقلة . إنهم يتكلمون عن عمل الخير ، ولا يُعفون لنفسهم من جهد يبذلونه كي يعلّموا الآخرين ما سبق لهم أن حازوا معرفته ووعوها . واستطاعت أن تدرك كيف يمكن للمرء أن يحب مثل هذه الحياة بالرغم من اخطارها ، فراحت تحدّ بصرها متنهدة إلى شريط ماضيها الأسود الضيق ، فينمو فيها شيئاً فشيئاً إدراك هادئ لأهميتها ، هي أيضاً ، في هذه الحياة الجديدة . فيما مضى لم تحسّ أبداً ان ثمة إنساناً يحتاج إليها ، أما الآن فهي ترى بوضوح ان الكثيرين في أشدّ حاجة إليها . وكان هذا شيئاً جديداً مفرحاً جعلها ترفع رأسها في فخر . . .

كانت تحمل المنشورات إلى المعمل بصورة منتظمة ، تجد في ذلك واجباً عليهـــا يجب أداؤه . واعتاد رجال الشرطـــة والتحري رؤيتها ، فكفوا عن إعارتها أدنى انتباه . وكثيراً ما فتشوها ، لكن دائمـــاً في اليوم التالي لظهور المنشورات في المصنع . وإذا لم تكُ تحمل شيئاً على كتفها فهي تجهد ان تثير انتباه الحرس ورجال الشرطة حتى يمسكوا بها ويفتشوها ، بينما تذهب في مناقشتهم شوطاً طويلاً ، تفصح عن امتعاضها ، واعتبار ذلك إهانة موجهة إلى كرامتها ، فإذا ثبتت براءتهـــا انطلقت فخوراً معجبة ببراعتها تيّاهة بذكائها . تلك كانت لعبة تتمتع بها وتلقى فيها اللذة كل اللذة .

لم يُقبل فيزوفشيكوف في المعمل مرة أخرى ، فوجد عملاً لدى تاجر خشب ارسله يبيع جذوع الاشجار وحطب الوقود والألواح الخشبية . وكانت الأم تراه وحمله الثقيل ، كل يوم تقريباً : فيبدو لها اولاً جوادان هزيلان أسودان عجوزان ترتجف اطرافهما من عناء الجهد الذي يبذلان ، ويهتز راساهما في ضجر وكلل ، بينما تطرف عيونهما المعذبة المرهقة ، ثم يأتي بعدهما جذع طويل رطب أو كومة من الألواح تتلاطم في ضجيج هائل ، وإلى جانبها يتدحرج نيقولاي ممسكاً بالأعنة في تراخٍ بين يديه وسخاً ، رثَّ الثياب ، ثقيل الحذائين ، دفع قبعته حتى مؤخرة راسه ، غليظ السحنة مثل أرومة مقتلعة من الأرض . وكان هو الآخر يؤرجح راسه وهو يسير ، وقد اطرق بعينيه إلى الأرض . وجواداه يتعثران دون رادعٍ بالعربات والمارة طوال الطريق ، فيوجه هؤلاء إلى نيقولاي صيحات قاسية حادة أو شتائم غاضبة تحاصره مثل سرب من الزنابير الثائرة ، فلا يجيب ، ولا يرفع راسه ، بل يرسل من بين اسنانه صفيراً حاداً عالياً ، ويغمغم متوجهاً الى الجوادين :

– هيا ! هيا !

وكل مرة يدعو اندريه رفاقه فيها لقراءة العدد الأخير من صحيفة اجنبية ، أو كتيباً حديثاً ، كان نيقولاي يأتي ايضاً وينزوي في إحدى الزوايا منصتاً ، في صمت ، ساعة أو ساعتين . وبعد القراءة يدخل الفتيان في نقاش حامٍ طويل لا يساهم فيه فيزوفشيكوف أبداً ، بل يبقى بعد انصراف الجميع ، ويتحدث إلى أندريه وحده . كان يقول متجهماً :

– مَنْ مِنَ الناس يستحق اللوم أكثر من غيره ؟

فيجيب الأوكراني مازحاً :

– أكثر الناس ملامة هو أول من قال : هذا ملكي ! ولقد مات هذا الشخص قبل ألف من السنوات أو يزيد ، ولذا فليس في سخطنا عليه معنى أو جدوى .

ولكن امارات القلق تبدو في عينيه .

– ما رايك في الاغنياء ، وأولئك الذين يحمونهم ويذودون عنهم ؟

كان الأوكراني يعبث بشعره ، ويشد شاربيه ، وهو ينتقي كلمات بسيطة يتحدث بها عن الحياة وعن البشر . وكان يتضح من حديثه دائماً ان سائر الناس ملومون على السواء ، الأمر الذي لم يكن يقنع نيقولاي أو يرضيه ، فيضغط على شفتيه الممتلئتين ويهز راسه نفياً ويغمغم بأن الأمر ليس كما أعلن صاحبه مطلقاً . ويستاذن أخيراً ، وينصرف مستاء ممتعضاً .

جهر ذات يوم :

– كلا . ينبغي أن يكون هنالك أناس مسؤولون عن هذه الأمور كلها ، وإنهم لموجودون هنا أيضاً ! لقد اخبرتك ان علينا قلبَ حياتنا باجمعها راساً على عقب ، مثل حقل من الأشواك الضارة وذلك دون أدنى أثر للرحمة !

فعلّقت الأم على كلامه :

– هذا ما قاله عنكم مرة أشعيا ، مراقب الدوام !

فسأل فيزوفشيكوف بعد برهة وجيزة من الصمت :

– أشعيا ؟

– نعم . إنه إنسان وضيع ، يراقب جميع الناس ولا

يكفُّ عن إلقاء الأسئلــــة . ولقد شرع يأتي الى شارعنـــا ويتلصّص من نوافذنا . . .

فردد نيقولاي :

– يتلصّص من النوافذ ؟

كانت الأم قد لجأت إلى الفراش بحيث لا تستطيع رؤية وجهه ، بيد انها ادركت خطأها فيما صرحت بـه من تسرُّع الأوكراني بالتعليق على ذلك قائلاً :

– فليأتِ ويتلصص إن كان يملك كثيراً من الفراغ . . .

أما نيقولاي فهتف في صوت أجش :

– إنتظر ! إنه واحد من الذين يتحملون المسؤولية !

فسأل الأوكراني متسرعاً :

– وما هو ذنبه ؟ الأنه غبي أبله ؟

فخرج فيزوفشيكوف دون أن يجيب .

شرع الأوكراني يتمشى في الغرفة على مُهْلتِه متعباً جاراً ساقيه الطويلتين العنكبوتيتين في هدوء وسكينة . وكان قد خلع حذاءيه كعادته ابداً كيلا يُحدث ضوضاء تزعج بيلاجيا . ولكنها لم تكن نائمة ، بل قالت في قلق بعد ذهاب نيقولاي :

– إني خائفة منه !

فهمهم الأوكراني متماهلاً :

– هم . . . م ، نعم ! وإنه لجادٌّ كل الجد فيما يذهب إليه . لا تذكري اشعيا امامه بعـــد الآن ابداً ، يا أُميمة . اشعيا ذلك جاسوس حقاً وفعلاً .

– لا غرابة في هذا . فأحد اقربائه دركي !

وتابع أندريه وفي نبراته رعشات من قلق :

– سيضربه نيقولاي على ما اعتقد ! أترين هذه المشاعر التي غذاها أولئك السادة القائمون على السلطة في قلوب عامة الناس ؟ ماذا سيحدث عندما يدرك الناس ، أمثال نيقولاي ، انهم خدعوا ، ولم يعد لهم في قوس الصبر منزع ؟ لسوف يلطخون وجه السماء بالدماء ويغرقون الأرض بها إغراقاً . . .

فهتفت الأم في صوت خفيض :

– ذلك مخيف ، يا أندريوشا !

فصمت أندريه لحظة ، ثم قال :

– حسناً ، من يلاعب القط يجب أن يتحمـــل وخزات مخالبه ! لكن كل قطرة من دماء هؤلاء غُسلتْ سلفاً في بحار دموع ذرفها عامة الناس بسببهم . . .

واغرق بعد ذلك في ضحك خافت ، واضاف :

– ذلك عدل . . . عدل لا يريح الضمير كثيراً !

٢٢

آبت الأم من الحانوت ذات أحد ، وما ان فتحت الباب حتى وقفت على العتبة دون حراك ، وقد اجتاح الفرح سائر أعضائها مثل مطر الصيف الدافئ . كان صوت بافل الواضح . . يرتفع من الغرفة الداخلية .

صاح الأوكراني :

– ها هي ذي !

ورأت الأم بافل يستدير في سرعة واندفاع ، ويشرق وجهه بنور طافح بالوعود الجمة لها .

قالت متلعثمة :

– ها هو ذا . . . في البيت اخيراً !

وجلست ذاهلة لعودته غير المنتظرة .

انحنى بوجهه الشاحب عليها ، وقد التمع بعض الندى في زاوية عينيه ، فيما ارتجفت شفتاه . . . لم يقل شيئاً طوال هنيهات ، بينا امه تتفرس فيه في سكون ايضاً .

تركهما الأوكراني وخرج إلى الفناء ، وهو يصفر لحناً ناعماً مطرقاً رأسه .

قال بافل بصوت عميق خفيض ، وهو يشدُّ على يدها باصابعه المرتجفة :

– شكراً ، يا أماه ! شكراً لك يا حبيبتي !

اخذت تمسح على رأس ابنها ، وقد طغى عليها الفرح لرؤية ذلك التعبير في وجهه ، وسماع تلك النغمة في صوته ، وراحت تحاول ان تهدئ من خفقان قلبها الشديد . قالت في همس :

– يا إلهي ، ولِمَ ؟

فتثنى يقول :

– من أجل مساعدتك في عملنا العظيم ! شكراً لك ! إنها لسعادة نادرة عندما يستطيع المرء ان يقول إنه وامه روحان منسجمان !

اعتصمت بالصمت ، وهي تعبُّ في شراهة من كلماته

بجوارح متفتحة ؛ معجبة بهذا الابن الذي يقف امامها ، طيب القلب ، عزيزاً محبوباً حتى الدرجة القصوى .

– كنت ارى مبلغ صعوبة ذلك بالنسبة إليك ، يا أماه ، واتخيل ما فيه من أمور لم يحبها قلبك . وكنت اظنك لن تتصالحي معنا ابداً ، وان افكارنا لن تصبح افكاراً لك ، بل إنك ستستمرين على تحملنا في سكون كما تحملت الأمور طوال حياتك . وكان ذلك صعباً بالنسبة إليَّ !

فقالت :

– ساعدني اندريوشا على فهم كثير من الأمور !

فضحك بافل ، واعلن :

– لقد حدثني عنك !

– ويبجور كذلك ، فكلانا من القرية نفسها . لا بل إن اندريوشا اراد تعليمي القراءة . . .

– وكنت انت خجلى ، فاخذت تدرسين وحدك في الخفاء ؟

فهتفت في ارتباك :

– وهكذا فقد لاحظ !

وقالت لبافل ، وهي متعبة من تخمة الغبطة من قلبها :

– فلندَعْه . لقد خرج عامداً كيلا يضايقنا . ليس له أم . . .

فصاح بافل ، وهو يفتح الباب :

– اندريه ! اين انت ؟

– ها انذا ، كنت اريد ان اقتطع بعض الحطب .

– تعال هنا !

لم يأتِ راساً . عندما دخل المطبخ أخيراً شرع يتحدث كمَنْ يهتم بقضايا البيت :

– لا بدَّ أن نطلب من نيقولاي تامين بعض الحطب لنا ، فلم يبق الكثير منه . لكن انظري إلى فتاك بافل هذا ، يا أميمة . يبدو انهم يسمّنون المتمردين بدلاً من أن يعاقبوهم . . .

ضحكت الأم ولم تقلْ شيئاً . كانت ما تزال نشوى بالفرح وقلبها يخفق في بهجة وحلاوة ، في حين أثار شيء ما في نفسها إحساساً بالحذر والحيطة جعلها تتمنى رؤية بافل يستعيد هدوءه المعتاد . كان كل شيء رائعاً جداً ، وهي تود أن تحتفظ في قلبها إلى الأبد بهذه السعادة الكبيرة الأولى في حياتها ، قوية حية مثلما الآن . وأسرعت ، خشية أن تتلاشى ، تضعها في القفص كهاوي عصافير إذ يمسك ، على غير انتظار ، نموذجاً نادراً من الطيور .

قالت بعجلة :

– فلنتناول الغداء ، فلست أعتقد أنك طعمت شيئاً ، يا باشا .

– كلا ، فقد أخبرني السجان البارحة أنهم قرروا إطلاق سراحي ، فلم تكن لي الرغبة اليوم ان آكل أو أشرب شيئاً .

وتابع بعد برهة :

– كان سيزوف العجوز اول من صادفت في الضاحية . اجتاز الشارع حين رآني كي يرحب بي ، فاوصيته ان يكون اكثر روية وحذراً . ذلك أفضل – فأنا شخص خطر في هذه

الأيام ، تراقبني عيون الشرطة في كل مكان – فقال : «هذا لا يهمني» . وكان يجب ان تسمعا كيف راح يسألني عن إبن اخيه . قال : «هل يتصرف فيدور كما يجب ؟» فقلت : «وكيف يمكن ان يتصرف المرء جيداً عندما يكون في السجن ؟» . فقال : «حسناً ، ولكنه لم يشِ بأحد من رفاقه مثلاً» . وعندما قلت له إن فيدور شاب عظيم – شريف وذكي – مشّط لحيته ونبر مفتخراً : «ليس ثمة أنذال بيننا ، نحن آل سيزوف !»

فقال الأوكراني ، وهو يهزُّ رأسه :

– إن للرجل العجوز عقلاً يدرك الأمور ، فلقد تحادثت وإياه طويلاً . هو رجل طيب . هل سيطلقون سراح فيدور عن قريب ؟

– أعتقد انهم سيطلقون سراح الجميع ، فليس لديهم دليل ضدهم على الاطلاق باستثناء ما رواه أشعيا العجوز . ترى ما الذي قاله ؟

كانت الأم تروح وتغدو وعيناها معلقتان بولدها ، واندريه يقف عند النافذة ويداه خلف ظهره ، يصغي إلى ما يقول بافل الذي يجوس الغرفة ذهاباً وإياباً . كان قد أطلق لحيته ، فنمت على خديه حلقات صغيرة من الشعر الأسود الناعم المجعد الكث تليّن من قساوة ملامحه قليلاً وتخفف لون وجهه الاسمر .

قالت الأم ، وهي تحمل الحساء :

– هيا اجلسا !

حدثه أندريه ، أثناء الطعام ، عن ريبين . فهتف بافل في أسف عندما أنهى الأوكراني حديثه :

– لوكنت حراً لما تركته يذهب ! ماذا أخذ معه ؟ لا شيء سوى راس مشوش وسخط عظيم .

فقال الأوكراني ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– حسناً ، عندما يبلغ المرء سن الأربعين ، وقد قضى جلّ هذا الزمن يصارع الريبة في نفسه ، فلن يكون من السهل إقناعه ابداً . . .

وابتدأت احدى تلك المناقشات التي كانت أكثر كلماتها عسيرة على فهم الأم . انتهى الغداء ، ولكنهما استمرا يتراشقان سيلاً من الكلمات الرنانة وغير المفهومة . ومن وقت لآخر يتكلمان ببساطة ، فيقول بافل في حزم :

– يجب علينا أن نتقدم باستمرار دون أن ننحرف جانباً خطوة واحدة !

– ونصطدم بعشرات الملايين من الناس الذين سيعتبروننا أعداء لهم . . .

فهمت الأم ، وهي تستمع إلى نقاشهما ، ان بافل لا يحب الفلاحين ، بينما يقف الأوكراني إلى جانبهم ، جاهداً ان يبرهن ان من حق الفلاح أيضاً الاطلاع على الحقيقة . ولقد فهمت الأم اندريه بصورة أوضح ، وخيل إليها انه اقرب إلى الحقيقة ، لكن أعصابها كانت تتوتر ، كلما قال اندريه لبافل شيئاً ، تنتظر منقطعة الأنفاس جواب ابنها لتتأكد من أن الأوكراني لم يجرح شعوره . ولكنهما استمرا يتناوبان الصياح دون أن تثور ثائرتهما .

وكانت الأم تتوجه أحياناً إلى ابنها ، وتقول :

– هل الأمر كذلك حقاً ، يا بافل ؟

فيجيب مبتسماً :

– انه كذلك !

وقال الأوكراني في سخرية حلوة :

– آه ، ايها الرجل الطيب . لقد تناولت طعاماً ولكنك لم تمضغه جيداً . . وانْ كان هناك شيء منه عالق في حلقك ، فمن الأفضل أن تزدرد ما يدفعه !

فقال بافل :

– دع الهزل عنك الآن .

– اني لجادّ كما لو كنت في مأتم !

فضحكت الأم في رقة ، وهزّت رأسها . . .

٢٣

جاء الربيع وذابت الثلوج ، فكشفت عن الأوحال والاوساخ تحتها . وازداد الطين بروزاً يوماً بعد يوم ، حتى بدت الضاحية جميعها رثة ، قذرة ، مرتدية الأسمال البالية . وكانت المياه تتساقط طوال النهار من السطوح ، وأبخرة كثيفة تتصاعد كالدخان من جدران المنازل الرمادية . وكانت مياه السطوح تتجمد فى العشية وتتدلى قطعاً طويلة بيضاء في كل مكان ترسل لمعانا ضئيلاً تكاد العين لا تميزه . وأصبحت الشمس اكثر ظهوراً من ذي قبل . وكان في استطاعة المرء الاستماع إلى خرير الجداول وهي تترقرق في المستنقع القريب .

كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق للاحتفال بأول أيار ، فوزعت في المعمل والضاحية بأسرها منشورات توضح

معنى هذا العيد ، فإذا الفتيان الذين لم يتأثروا قبلاً بالدعاية يقولون وهم يقرأونها :

– ينبغي أن نقوم بهذا !

وكان فيزوفشيكوف يقول ، وهو يبتسم ابتسامة عابسة :

– لقد حان الوقت ! كفانا نلعب لعبة الاستغماية !

وكان فيودور مازين بادي الفـرح ، يشبـه القُبَّرة السجينـة ، وقد أصبح شديـد النحول ، عصبي الحديث والحركات معاً . وكان ياكوف سوموف الصامت يرافقه أبداً ، وهو صبي يعمل في المدينة ، يتجاوز وقاره حداثة سنه . وكان صمونيلوف – الذي بدا شعره وقـد ازداد حمرة خلال مدة حبسه – وفاسيلي جوسيف وبوكين ودراجونـوف وآخرون أيضاً ، يصرون على أن تكون المظاهرة مسلحة ؛ أما بافـل والأوكراني وسوموف وآخرون فلم يوافقوا على ذلك الرأي .

وقد أحاط ييجور نقاشهم مزاحاً . كان كعادته متعباً ، منقطع الأنفاس ، يرشح عرقاً . قال ، وهو يشير إلى حذائيه البالين الرطبين :

– أيها الرفاق إن الجهود التي نبذلها في سبيل تبديـل النظام الاجتماعي القائم لعظيمة في الحقيقة . لكن لا بدّ ، كي نيسّر لها سبيل النجاح ، من أن أشتري لنفسي زوجاً جديداً من الأحذية ! وكذلك فإن جزمتي المطاطية بلغت حالة مـن الاهتراء تتحدى كل إصلاح والرطوبة تنفذ إلى قدميّ كـل يوم . وأنـا لا أرغب استقراراً في أحشاء الأرض حتى يحين الوقت الذي نفضح فيه ، بصورة علنية صارمـة ، النظام العتيق . وعلى هذا الأساس ، فأنا أرفض اقتراح الرفيـق

صمونيلوف الرامي إلى القيام بمظاهرة مسلحة ، مستبدلاً إياه باقتراحي الخاص بأن أتسلح بزوج جديد من الأحذية ، لأني على يقين تام راسخ بكون مثل هذا التدبير أكثر فائدة في تقريب انتصار الاشتراكية من أي اصطدام مسلح واسع النطاق !

وراح يروي لهم ، بتلك الكلمات الزاهية ، كيف يناضل الشعب في البلدان الأخرى من أجل تحسين ظروف حياتـه . كانت الأم تهوى الإصغاء إلى أحاديثه التي تترك فيها شعوراً غريباً ، فيخيل اليها أن أكثر أعداء الشعب ضراوة ، أولئك الذين يخدعونه كثيراً ويقسون عليه بصورة وحشية ، هم رجال قصار القامة ، ضخام الأبدان ، حمر الوجوه ، لصوص وقساة وأشرار جشعون ، إذا ثقلت وطأة القيصر عليهم حرضوا عامة الشعب عليه ، فإذا قلب هؤلاء القيصر استولى أولئك الرجال الصغار على السلطة بأساليب خداعة ، وطردوا الشعب وفرّقوه الى جحوره ، وضربوا المئـات والألوف إذا أبدى مقاومة .

في ذات يوم جمعت الأم شجاعتها ووصفت لييجور الصورة التي رسمتها أحاديثه في مخيلتها ، وسألته وهي تضحك في اضطراب واستحياء :

– أليست الأمور هكذا ، يا ييجور إيفانوفيتش ؟

فاغرق في الضحك طويلاً وقد رفع عينيه إلى الأعلى ، وراح يفرك صدره كي يلتقط أنفاسه المنقطعة :

– الأمر كذلك حقاً يا أماه ! لقد أمسكت ثور التاريخ بقرنيه ! إن شيئاً من الزينة منسوج على قعر الصورة الاصفر ،

ولكن الحقائق جميعها هي في مواضعها الخاصة ! ان هؤلاء الرجال الصغار البدينين هم بالضبط اكبر الخطاة وأسمن الحشرات التي تمتص دماء الشعب . وإن الفرنسيين لعلى حق عندما يسمونهم بورجوازيين . . . تذكري هذا جيداً ، يا أماه . . . بور – جوازيين . بور" قاحل" هم لا يرتوي غليله أبداً ، يتناولون نصيبهم من الذين يستطيعون الاستفادة من جهلهم ، ويروحون يمتصون دماءهم . . .

– اتعني الأغنياء ؟

– بالضبط ! وتلك هي مصيبتهم ، فانت إذا رحت تضيفين النحاس إلى طعام الطفل الصغير ، تدخل ذلك في نمو عظامه وجعله قميئاً ، اما إذا سممتِ إنساناً بالذهب فإن نفسه هي التي تصبح صغيرة ، وضيعة ، مجردة عن الحياة مثل إحدى الدمى المصنوعة من المطاط التي يشتريها الأولاد بخمسة كوبيكات . . .

وفي ذات يوم ، وكانوا يتحدثون عن ييجور ، قال بافل :

– الواقع ، يا اندريه ، ان الناس الذين يكثرون من المزاح هم الذين يتألمون اكثر من سواهم . . .

فسكت الأوكراني قليلاً قبل ان يجيب ، وهو يزر عينيه :

– لو كنت محقاً لوجب ان نتوقع إذن أن تموت روسيا كلها من الضحك . . .

عادت ناتاشا إلى الظهور من جديد – كانت في السجن هي أيضاً في مدينة اخرى ، ولكن التجربة فيما يبدو لم تبدل فيها شيئاً على الإطلاق . وقد لاحظت الأم أن الأوكراني يصبح

اكثر حيوية في حضورها ، فيمزح ويسخر من الجميع حتى يجعلها تضحك في سرور وغبطة . ولكنها لا تكاد تمضي حتى يشرع يصفر اغنيته الحزينة المعهودة ، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً ، ويجرّ قدميه في ضجر واجهاد .

وكثيراً ما كانت ساشا تاتي برهة قصيرة جداً ، عابسة ابداً ، وفي عجلة من امرها على الدوام . وقد أضحت ، لسببٍ ما ، اكثر جفاء منها قبلاً .

وذات مرة ، عندما رافقها بافل إلى الباب يشيعها ، ونسي ان يغلقه خلفهما ، استطاعت الأم ان تسمع حديثهما المتدفق في سرعة ولهفة .

قالت الفتاة في صوت خفيض :

– هل ستحمل الراية ؟

– نعم .

– اهذا امر مقرر ؟

– نعم ، فذاك من حقي .

– إلى السجن مرة ثانية إذن ؟

فلم يحر بافل جواباً .

– الا تستطيع . . .

ولكنها لم تكمل حديثها .

– ماذا ؟

– أن تترك سواك يفعل ذلك ؟

فقال في صوت عال : – كلا !

– فكر في ذلك جيداً ، فانت ذو نفوذ كبير هنا ، والجميع يحبونك ! انت وناخودكا اكثر الجميع شعبية ، وكم من خير

عميم تستطيع ان تفعل ههنا ! أما حمل الراية . . . فسوف يرسلونك من أجله بعيداً . . . بعيداً جداً . . . ولزمن طويل جداً !

وخيل الى الأم انها تميّز في صوت الفتاة انفعالات الخوف واللهفة المعهودة إليها ، فسقطت كلمات ساشا على قلبها مثل قطرات من الماء المثلج .

قال بافل :

– كلا . . . قررت ذلك ، ولن يثنيني شيء عن عزمي .

– ولو سألتك ، انا ، ذلك ؟

أصبح صوت بافل ، بغتة ، سريعاً قاسياً :

– ليس من شانك أن تتكلمي هكذا ، ليس لك الحق فيه !

فقالت خافتة الصوت :

– أنا كائن بشري !

فأجاب بمثل صوتها الخافت ، لكن كمن يغصُّ بدموعه :

– كائن بشري رائع ، كائن عزيز عليّ جداً ، وهذا هو السبب . . . هذا هو السبب . . . ينبغي الا تقولي مثل هذه الأشياء . . .

فقالت الفتاة :

– الى اللقاء !

ادركت الأم ، من صدى وقع اقدامها ، انها تكاد تركض . وانطلق بافل وراءها في الفناء .

انقبض قلب الأم خوفاً وجزعاً . إنها لم تفهم موضوع حديثهما ، ولكنها احست ان بلية كبيرة تنتظرها .

«ترى ، ماذا ينوي أن يفعل ؟»

عاد بافل يرافقه أندريه . كان الاوكراني يقول ، وهو يهزُّ رأسه :

– أواه ! يا لأشعيا هذا ! ما عسانا فاعلون معه ؟

فقال بافل عابساً :

– الأفضل أن ننذره بالاقلاع عن هذه النوايا !

فسألت الأم ، مطرقة برأسها :

– بافل ، ماذا تنوي أن تفعل ؟

– متى ؟ الآن ؟

– في الأول . . . في الأول من أيار .

فهتف بافل ، مخفضاً صوته :

– آه ! سوف أحمل رايتنا . . . في طليعة المظاهرة . واعتقد أنهم سيلقون بي من جديد في السجن بسبب ذلك .

احست الأم وخزاً في عينيها ، واصبح فمها جافاً كل الجفاف ، فأخذ بافل بيدها ومسح عليها برفق ، قائلاً :

– ينبغي عليّ ذلك . جربي أن تفهمي ، يا أماه !

فأجابته ، وهي ترفع رأسها ببطء :

– أنا لم أقل شيئاً !

ولكنها اطرقت رأسها من جديد عندما التقت عيناها ما في عينيه من بريق عنيد .

تنهد بافل وأفلت يدها .

قال في لهجة عتاب :

– يجب أن يبعث ذلك الغبطة في قلبك بدلاً من أن

يحزنك . متى يصبح لدينا أمهات يرسلن أبناءهن إلى الموت وهنّ يبتسمن ؟

فغمغم الأوكراني :

– وَيْ ! وَيْ ! لقد استبدّ صبينا برأيه ، وراح يشمخ بأنفه في الهواء !

وانبرت الأم تقول :

– انا لم أقل شيئاً ، ولست ابغي الوقوف في طريقك ، وإن يكن ذلك قاسياً عليّ . . . إذ لست أستطيع الامتناع عن ان أكون أماً ! . .

فابتعد عنها ، وأحست طعن كلماته الجارحة :

– إن ثمة حباً يمنع المرء أن يحيا كما يودّ ويتمنى . . .

فقالت الأم بسرعة ، مرتعشة خوفاً من أن يقول شيئاً آخر يجرح قلبها :

– لا ، يا باشا ، لا تقل هذا ! إني أفهم — لست تستطيع أن تفعل شيئاً آخر . . . من أجل رفاقك . . .

– كلا ، بل من أجلي أنا .

ظهر اندريه في مدخل الباب الذي كان واطئاً جداً بالنسبة إليه حتى اضطر إلى ثني ركبتيه بصورة غريبة ، واتكأ بإحدى كتفيه على مصراع الباب ، وألقى برأسه والكتف الأخرى إلى الأمام .

قال بنغمة خاصة ، وعيناه الجاحظتان مثبتتان بوجه بافل في تجهم :

– إنك لتحسن صنيعاً إذا امتنعتَ عن هذا الكلام ، أيها السيد الشهم !

كان أشبه بحرباء في شق صخري .

وكانت الأم على وشك الانفجار باكية . غمغمت فجأة ، مسرعة إلى خارج الغرفة حتى لا يراها ابنها تبكي :

– يا إلهي ! نسيت أن . . .

عندما أصبحت خارج الأبواب تكومت في إحدى زوايا الدهليز ، واطلقت العنان لدموع صامتة مؤلمة فكأن دم قلبها يسيل مع عبراتها .

سمعت من خلال الباب نصف المغلق صوتيهما الخافتين يتجادلان .

قال الأوكراني :

– ماذا دهاك ؟ أتتلذذ بتعذيبها ؟

فصاح بافل :

– ليس من حقك أن تخاطبني هكذا !

– اكون صديقاً رائعاً إذن لو التزمت جانب الصمت والهدوء ، وانا اراك على جنون وسخف . ما الذي يدعوك إلى التفوّه بذلك ؟ الا تفهم شيئاً ؟

– يجب أن تكون راسخ القدم ، لا تخاف أن تقول «نعم» او «لا» .

– لأمك ؟

– للجميع ! لست أريد حباً او صداقة يعترضان سبيلي او يثقلان على ظهري . . .

– يا لك من بطل مغوار ! كفاك تبجحاً . . . قل ذلك لساشنكا . فهي التي عليك ان تقول لها كل هذه الاشياء . . .

– لقد فعلتُ ! . .

– فعلتَ ؟ أنت تكذب ! لقد خاطبتها بلطف ، خاطبتها بودّ وتحبب . اعرف ذلك ، بالرغم من انني لم اسمعك أبداً ! ولكنك تلعب دور البطل العظيم مع امك . . . إن كل خيلائك ، لو تدري ، لا تساوي الا كوبيكا !

مسحت بيلاجيا الدموع عن خديها بسرعة ، وذهبت تفتح الباب وتدلف إلى المطبخ خوفاً من ان يقول الأوكراني شيئاً قاسياً لابنها .

قالت في صوت مرتفع يرتعش جزعاً وحزناً :

– بر – رر . . . ما أبرد الطقس ! يكاد المرء لا يصدق أنه الربيع . . .

وجعلت تنقل الأشياء ، دون غاية ، من مكان إلى آخر ، ساعية الى إغراق الصوتين في الغرفة المجاورة .

راحت تقول في نبرة أكثر ارتفاعاً :

– لقد تبدل كل شيء ، فأصبح الناس أكثر حرارة والطقس أكثر برودة . لقد كانت الحرارة ترتفع في مثل هذه الأيام ، فتشرق الشمس ، وتصحو السماء . . .

وانقطع الصوتان ، فوقفت تصيخ السمع في وسط المطبخ .

قال الأوكراني وقد أخفت صوته :

– اسمعت هذا ؟ آن لك ان تفهم ! يا للشيطان ! إنها لأكبر قلباً منك . . .

وسألت مرتجفة الصوت :

– ما رايكما في قليل من الشاي ؟

وانثالت تضيف ، كي تفسر سبب ارتعاشها :

– يا إلهي ! لقد تجمدت !

ذهب بافل إليها ببطء ، مطرق الرأس ، تحوم على شفتيه ابتسامة مذنبة .

قال بصوت خفيض :

– اصفحي عني ، يا أماه ! فأنا لمّا أزل غراً . . . احمق . . .

فصاحت شقية الفؤاد ، وهي تدفن رأسه في صدرها :

– دعني وحدي . ولا تزدْ شيئاً ! الله يعلم ان حياتك ملك لك تتصرف بها كما تشاء ! ولكن . . . دع قلبي وحيداً ! كيف يمكن الأمّ الا تحبّ ؟ إن حقها أن تفعل . . . انا احبكم جميعاً ، وجميعكم أعزاء على قلبي ، وجميعكم تستحقون المحبة والحنان ! من يشفق عليكم إن لم أفعل انا ؟ انت تذهب في المقدمة . . . والآخرون خلفك . . . لقد هجرتم كل شيء ... آه ، يا باشا !

كانت افكار كبيرة ملتهبة تخفق في صدرها وتتدفق ، وسرور مفجع يمزق قلبها فلا تجد الكلمات كي تعبر عنه ، فتروح في عذاب صمتها الجبري تنظر إلى فتاها بعينين تطفحان ألماً حاداً عنيفاً . . .

اطرق رأسه وغمغم :

– حسناً ، يا أمّ ، اصفحي عني ! إنني أفهم ذلك الآن !

ثم اضاف بعد ان القى نظرة اليها خطفاً :

– لن أنساه أبداً ! اقسم اني لن انساه !

واستدار عنها مبتسماً سعيداً ، وفي الوقت نفسه مرتبكاً خجلان .

تركته وطفقت من باب الغرفة الثانية ، وقالت في نغمة طلب لطيف :

– اندريوشا ، لا تَقْسُ عليه ! إنك بالطبع تكبره سناً . . .

فصاح اندريه بصوت غريب ومضحك ، وظهره إليها ، دون ان يتلفت :

– افٍ ! بل ساقسو عليه ، ولسوف اضربه ايضاً !

فذهبت إليه متماهلة ومدّت له يدها :

– يا لك من إنسان طيب . . .

فاستدار الأوكراني ، ومضى عنها إلى المطبخ ، ويداه خلف ظهره ، مطاطأ الرأس كالثور . ودفّ إليها صوته يقول في نغمة سخرية عابسة :

– اغرب عن وجهي ، يا بافل ، قبل أن اقطع راسك ! إني أمزح فقط يا أُميمة ، فلا تخافي ! ساهيئ السماور ، اتوافقين ؟ يا للفحم الرائع الذي نملك . . . يعصر ماء !

وسكت . حين دخلت الأم إلى المطبخ وجدته جالساً على الأرض ينفخ في السماور . قال ، دون ان يرفع راسه :

– لا تخافي ، فلن أمسّه بسوء ! فانا رقيق مثل اللفت المطبوخ ! وانا – هيْ ، انت هناك ، أيها البطل ، لا تسمع – وانا في الحقيقة مغرم به جداً ، ولكني لا أحبُّ تلك الصديرية التي يرتديها ! إنه يملك صديرية جديدة ويظن انها جميلة جداً . فيروح يتخطر منتفخ البطن ، يقتحم كل إنسان في طريقه وهو يقول : انظروا فقط ما أجمل الصديرية التي أملكُ ! إن الصديرية لجيدة ، ولكن ما معنى اقتحام الناس ؟

هناك ازدحام واقتحام الناس لا يفعل الا ان يزيده .

قال بافل ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– إلى مَ ستستمر على هذا ؟ لقد غلبتني هذه المرة . . . وكفاية !

فتطلع إليه الأوكراني ، وساقاه تحيطان بالسماور ، من حيث يجلس على الأرض . كانت الأم تقف في مدخل الباب ، تشخص في حنان وحزن إلى مؤخرة راسه المدّورة ورقبته الطويلة المنحنية ، فالتوى إلى الوراء مستنداً على ذراعيه ، ونظر إلى الأم والابن معاً .

قال في رقة ، وعيناه المحمرتان قليلاً تطرفان :

– ما أطيبكما ، أنتما الاثنان !

فانحنى بافل وأمسك بيده .

قال الأوكراني بصوت عميق :

– لا تشدّني ، وإلا رميتني . . .

فسالت الأم في كآبة :

– مِمَّ تخجلان ؟ هيا قبّلا بعضكما بعضاً ، وتعانقا باقصى ما تستطيعان من قوة . . .

فاستوضح بافل :

– ما رايكَ ؟

فقال الأوكراني ، وهو ينهض :

– تعالَ !

تعانقا بشدة ، وتجمدا لحظةً ، فهما جسدان بروح واحدة تضطرم بالصداقة في حرارة . وانهمرت الدموع على وجنتي

الأم ، بَيْدَ أنها كانت – هذه المرة – دموع السعادة . قالت في خجل ، وهي تكفكف دموعها :

– نحن ، معشر النساء ، نحب أن نبكي عندما نكون سعيدات ، وان نبكي عندما نكون تعيسات ! . .

ودفع الأوكراني بافل عنه بلطف ، وقال وهو يمسح عينيه ايضاً :

– كفي ! عندما تُذبح العجول فلا بدَّ من شوائها . الا لعن الله فحمكما هذا ! فلقد نفخت فيه كثيراً حتى امتلأت عيناي منه ، ودمعتا . . .

فقال بافل في رقة ، وهو يجلس مطاطئاً راسه قرب النافذة :

– ليس في مثل هذه الدموع ما يدعو إلى الخجل . . .

دنت أمه منه وجلست إلى جانبه . كان قلبها مفعماً بشجاعة جديدة هدات من روعها ، وبعثت في نفسها الرضى بالرغم من كآبتها .

قال الأوكراني ، وهو يذهب إلى الغرفة :

– سأقوم انا بترتيب الآنية . لا تنهضي ، يا أُميمة . فمن الأفضل أن تستريحي قليلاً ، بعد أن خضّوا قلبك بكل هذا العنف .

وجاءهما صدى صوته الغنيّ يدفدف من الخارج :

– لقد تذوقنا قليلاً من حياة رائعة قبل هنيهة . . . قليلاً من حياة إنسانية دافئة !

فنبر بافل ، وهو يحدج أمه بنظراته :

– بلى !

فقالت الأم :

– لقد بدّل ذلك كل شيء . تبدلت آلامنا ، وتبدلت افراحنا . . .

فعقّب الأوكراني :

– وذلك ما ينبغي أن يكون ، لأن قلباً جديداً قد ولد ، يا أُميمتي . إن قلباً جديداً بُعث إلى الحياة . والإنسان يسير قدماً إلى الأمام ، وهو يضيء كل شيء بنور العقل ، ويصيح وهو يدبُّ في طريقه : هاي ! يا شعوب جميع البلدان اتحدوا في عائلة واحدة ! فتردُّ القلوب على ندائه فتضمُّ اصواتها إليه ، وتصبح قلباً واحداً كبيراً يشبه في قوته ودويه ناقوساً من الفضة . . .

فضمت الأم شفتيها بشدة لتحول دون ارتعاشهما ، واحكمت إطباق عينيها لتمنعهما من سحّ الدموع .

رفع بافل ذراعه كمن يود الكلام ، فجرته الأم بيده الاخرى وهمست :

– لا تقاطعه . . .

وجاء الأوكراني ووقف عند العتبة :

– اود ان اقول لكما . . . سوف تجتاح الناس آلام عظيمة ، وسيراق فيما بعد كثير من الدماء ؛ ولكن كلَّ آلامي ودمائي رخيصة بالنسبة لما أحمل في صدري وعقلي . . إنني غني كالنجمة بكل ما تشع من اضواء . . وانا أستطيع تحمل كل شيء ، ومواجهة كل شيء ، لأني أحمل في داخلي فرحاً عظيماً

لا يستطيع اي شيء او اي إنسان ان يدمّره قط ، وفي هذا الفرح تقوم قوتي !

ظلوا يحتسون الشاي حتى منتصف الليل ، ويتحدثون بوداعة عن الحياة ، والبشر ، والمستقبل .

وكلما اتضحت فكرة للأم ، ذهبت تبحث متنهدة في ماضيها عن بعض ذكرى قاسية محزنة تجعل منها أساساً تبني الفكرة عليه .

ذابت مخاوفها في تيار حديثهم الدافىء ، واحست مرة أخرى ذلك الاحساس الذي جرّبته قبل زمن طويل ، يوم قال لها والدها بجفاء :

— عبثاً تكشرين وتتكبرين ! هناك أحمق يريد ان يتزوّجك ، فهيا ، تقدمي واستفيدي من الفرصة ، فكل النسوة يتزوجن ويلدن أولاداً لا يحملون سوى المتاعب والقلق . من تحسبين نفسك ؟

خيل إليها بعد هذه الكلمات أنها ترى درباً لا مفرّ منها تمتد أمام عينيها ، وتدور عبثاً حول قفر معتم مجدب ، وقد ملأت حتمية المسير على تلك الدرب صدرها سلاماً أعمى . وهكذا كانت الحال الآن . بيد أنها استمرت تهمس في اذن شخص مجهول في داخلها ، متوقعة على الدوام حدوث حزن جديد :

«تعال ، خذ هذا !»

خفف ذلك عن قلبها الموجَع الذي يدوّي في صدرها مثل وتر مشدود .

لكن أملاً ضعيفاً مستمراً راح يعتلج في نفسها المنفعلة

بحزن الانتظار ، الأمل بأنهم لن ينتزعوا كل شيء منها ، لن ينتزعوا آخر ما تملك ، ولسوف يبقى لها شيء ما بكل تأكيد . . .

٢٤

في بكرة أحد الأيام ، إثر خروج بافل وأندريه في طريقهما إلى العمل ، قرعت كورزونوفا النافذة في سرعة ، وصاحت متلهوجة :

— لقد قتلوا أشعيا ! فهيا بنا نرى . . .

اجفلت الأم ، وومضَ في ذهنها مثل شرارة اسم القاتل .

استفهمت ، وهي تلقي وشاحاً على كتفيها :

— من فعل ذلك ؟

— إنه لم ينتظر هناك بجانب أشعيا ! لقد صرعه وولى هارباً !

وقالت ، وهما تهبطان الشارع :

— سيعاودون التحري والبحث من جديد ، وسيحاولون اكتشاف هوية القاتل . لمن حسن الحظ أن رِجْليك كانا في الدار البارحة ، وأنا شاهدة على ذلك . كنت في طريقي إلى داري بعد منتصف الليل ، فتطلّعت من نافذتك — كنتم جميعاً جالسين حول المنضدة . . .

سألت الأم ، والرعب بادٍ عليها :

— ماذا تعنين ، يا ماريا ؟ أيمكن لأي إنسان أن يرتاب فيهما ؟

فقالت كورزونوفا في قناعة :

– حسناً ، من قتلــه إذن ؟ لا بدّ أن يكون متصلاً بفتياتكم ! والجميع يعرفون أنه كان يتجسّس عليهم . . .

فوقفت الأم لاهثة ، وهي تضغط يدها على صدرها .

– ماذا دهاك ؟ لا تخافي – لقد نال نصيبه المحتوم . اسرعي ، وإلا اخذوه قبل أن نراه ! . .

كانت شكوك الأم في فيزوفشيكوف اشبه بيدٍ ثقيلــة تمسك بها وتجعلها تترنح في مشيتها . فكرت في لامبالاة :

«يا لله ! لقد تجاوز الحدود !»

كان حشد من الناس قد تجمهر قرب انقاض منزل محترق غير بعيد عن المعمل وهم يدوون مثــل الزنابير ، ويمتهنون بأقدامهم الأنقاض المتفحمة فيثيرون عجاجاً من الرماد والتراب . وكان ثمة نساء كثيرات ، وعدد اكبر ايضاً من الأولاد الصغار ، والبائعين ، وخدم المقهى ، والشرطة ، يرافقهم الدركي بتلين ، وهو رجل عجوز طويل القامة ، ذو لحيــة شديدة البياض كالفضة ، وصدر مكسو بأوسمة عديدة .

وكان أشعيــا مطروحاً على الأرض في نصف استلقاء ، يستند ظهره إلى ارومة متفحمة ، ورأسه العاري يميل على كتفه اليمنى . وكانت يده اليمنى مختفية في جيب سرواله ، بينما اطبقت اصابع اليد اليسرى على التربة اللينة .

تطلعت الأم إلى وجهه . كانت عينه الواحدة تشخص في بلاهة إلى قبعته المرتمية بين ساقيه المنفرجتين ، وفكه يتدلى قليلاً فينفرج فمه نصف انفراجة وكأنه مدهوش من أمر ما ، ولحيته الحمراء منحرفة إلى أحد الجانبين دون سبب معقول .

وكان جسده الناحل ، برأسه المدبب ووجهه المتعظم المغطى بالنمش ، قد اصبح في انقباضة الموت اصغر منه في اي وقت آخر . رسمت الأم إشارة الصليب وصعّدت زفرة عميقة . لقد كان يثير نفورها حياً ، اما الآن فهي لا تحسُّ تجاهه سوى شفقة هادئة ليس غير .

ولاحظ بعض الواقفين في صوت مخفوض :

– ليس هناك قطرة من دم ابداً ، لا ريب أنهم ضربوه بقبضة اليد . . .

فقال آخر في لهجة تشفٍ وانتقام :

– خرس لسانه الثرثار إلى الأبد . . .

فانتفض الدركي ، وشقّ له طريقاً بين جموع النساء ، ثم قال مهدداً :

– من قال هذا ؟

انفرط عقد الناس امامه ، لا بل هرب بعضهم ايضاً ، بينما اطلق أحد الواقفين ضحكة شريرة طويلة .

وقفلت الأم إلى الدار .

قالت في نفسها :

«إن أحداً لا يرثي له !»

صوّر لها انها ترى امامها شبح نيقولاي الكثيف يتطلع إليها بعينيه القاسيتين ، الباردتين المتضيقتين ، وذراعــه اليمنى تتأرجح فكأن شيئاً اصابها في تلك البرهة وآذاها . . .

ولم يكد ابنها واندريــه يؤمــان الدار للغداء ، حتى سألتهما عن الحادث :

– هل اوقف احد . . . بتهمة قتله ؟

فأجاب الأوكراني :

– لم يبلغنا شيء من هذا القبيل !

وأدركت أن كليهما حزين منقبض النفس .

استفهمت في صوت لطيف :

– هل أتى أحد على ذكر نيقولاي ؟

فأجاب الابن :

– كلا .

كانت عيناه القاسيتان معلقتين على وجهها وصوتـــه راسخ .

– مما لا شك فيه أنهم لا يرتابون فيه . فهو متغيب عن الضاحية ، غادرها البارحة ظهراً في اتجاه النهر ولم يَعُدْ بعد . لقد سألت عنه . . .

فتنفست الأم الصعداء ، وقالت :

– الحمد لله ! الحمد لله !

واختلس الأوكراني النظر إليها ، وأطرق برأسه .

قالت الأم في بطء وتفكر :

– لقد كان يضطجع ووجهه يوحي بأنه لا يفهم شيئاً من كل ما حدث له . ولم يرثِ له أحد على الاطلاق ، أو يوجه له كلمة لطيفة يشيّعه بها . كان يلوح صغيراً جداً تافهاً كل التفاهة ، وكأنه شيء ضئيل بُتر عن أصله وسقط أرضاً حيث ترك مطروحاً في مكانه . . .

أثناء الغداء ألقى بافل ملعقته على المائدة بغتة ، وصاح :

– هذا يتجاوز إدراكي !

فسأل الأوكراني :

– ماذا ؟

– إننا نقتل الماشية كي نحصل على الطعام ، وهذا وحده أمر سيىء . ومن الواضح أنه ينبغي على المرء قتل الحيوانات المفترسة إذا أصبحت خطرة ! وأنا شخصياً على استعداد لأن أقتل كائناً انسانياً إذا انقلب وحشاً مفترساً بالنسبة لأشباهه البشر . أما أن يقتل المرء مثـــل هذا النموذج الحقير المثير للاشمئزاز . . . من يقوى على رفع يده في سبيل ذلك ؟

فهزّ الأوكراني كتفيه ، وقال :

– لقد كان أكثر ضرراً وأذية من أي حيوان مفترس . إننا نقتل البعوض لأنه يمتص قليلاً من دمنا فقط !

– هذا صحيح كثيراً ، ولكني لست أعنيه ، بل أعني أن الأمر يبعث على النفور والاشمئزاز !

فأجاب أندريه ، وهو يهزّ كتفيه مرة أخرى :

– لا حيلة في ذلك !

فسأل بافل بعد برهة طويلة من الصمت ، وهو يفكر في شيء ما :

– أتستطيع أنت أن تقتل مثل هذا المخلوق ؟

فثبت الأوكراني فيه عينيه الواسعتين ، ثم اختلس من الأم نظرة خاطفة ، وقال أخيراً بكآبة وحزم في الوقت ذاته :

– في سبيل رفاقي وفي سبيل قضيتنا أستطيع أن أفعل كل شيء ! أستطيع أن أقتل . . . حتى ابني نفسه . . .

فهتفت الأم في همس مخفوت :

– أوه ! أندريوشا !

فابتسم :

– لا حيلة في ذلك ، يا أماه ! هي الحياة هكذا . . .

وقال بافل متماهلاً :

– إنك لعلى حق ، هي الحياة هكذا . . .

وعلى حين غرة ، هبّ أندريه واقفاً في حالة من الهياج الشديد وكأن شيئاً تصدع في داخله ، وصاح وهو يحرك ذراعيه :

– ما عسانا نفعل ؟ إننا مجبورون على بغض الناس كي نعجل بالزمن الذي لا نستطيع فيه إلا الاعجاب بهم . إننا مرغمون على القضاء على كل من يقف في طريق الحياة ، كل من يبيع الشعب لقاء المال كي يشتري لنفسه العزّ أو الراحة والرفاهية . وإذا كان ثمة يهوذا يعترض سبيل الناس الشرفاء ، وينتظر اية فرصة كي يخونهم ، فإني أكون انا ايضاً يهوذا آخر إذا لم اقض عليه ! تقولان إني لا أملك الحق في ذلك ؟ وكن اسيادنا اولئك . . . ألديهم الحق في الاحتفاظ بجنودهم وجلاديهم ، بدور بغائهم وسجونهم ، بمنافيهم وكل الوسائل الأخرى اللعينة التي يصونون بها راحتهم وامنهم ؟ اهي خطيئتي إذا جُبرت احياناً على اخذ سوطهم بيدي ؟ حسناً ، لسوف آخذه ، دون أن تطرف عيني أبداً . وإذا كانوا يقتلوننا بالعشرات والمئات ، فإني أملك الحق في أن ارفع ذراعي ، واتركها تهوي على رأس واحد منهم ، على الرأس البغيض الذي اقترب مني اكثر من غيره ، وراح يضرُ بقضية حياتي اكثر من الباقين . هي الحياة هكذا ، ولكنني ضد مثل هذه الحياة ، ولا اريد مثل هذه الحياة . أنا أعلم أنه لن ينتج عن دمائهم شيء أبداً . . . إنه دوم مجدب لا يثمر

مطلقاً ! إن دمنا يعطي مولداً للحقيقة عندما ينسكب كوابل المطر على الأرض ، أما دماؤهم المتعفنة فتُمتص دون أن تترك اثراً ، انا اعلم هذا ! . . ولكني أتحمل تبعة خطيئتي هذه . . . وإني سأُقتل إذا رأيت أن لا مندوحة عن ذلك ! ولا تنسيا اني أتكلم عن نفسي فقط . وأن خطيئتي ستموت معي ، ولن تلوّث المستقبل بأقل لطخة . . . إنها لن تلوث اي إنسان سواي . اي نفس أبداً !

كان يمشي في الغرفة جيئة وغدوة ، يلوّح بيديه كأنه ينتزع شيئاً ويلقي به بعيداً . . . ينتزعه من ذات نفسه . وراحت الأم تراقبه في ألم وجزع ، وهي تحسُ شيئاً تحطم في داخله ، وتحس انه يتألم كثيراً بسبب ذلك . لقد غادرتها الآن افكار الجريمة المظلمة الخطرة – فإذا كان فيزوفشيكوف لم يرتكبها فليس احد من أصدقاء بافل الآخرين بقادر على ذلك . وجلس بافل مطرق الرأس يصغي إلى وابل الكلمات العنيف الدائب الذي ينهمر من الأوكراني كالسيل المدرار :

–انت مضطر في بعض الأحيان إلى أن تحارب نفسك كي تستمرّ على السير قدماً . ينبغي أن تكون قادراً على إعطاء كل شيء . . . قلبك بأسره . وإنه لأمر سهل أن تهب حياتك فتموت من أجل القضية . . . ولكن عليك أن تعطي أكثر من ذلك أيضاً . . . ما هو أعزُ من حياتك نفسها . وعندما تعطي ذلك تعرف كيف تنمو الحقيقة التي تناضل من أجلها قوة وبأساً . . . تلك الحقيقة التي هي أعزُ شيء في العالم على قلبك !

وتوقف في وسط الغرفة ، شاحب الوجه مغمض العينين

تصف إغماضة ، مرفوع الذراع في وعد مهيب :

– انا اعلم ان يوماً سياتي يعجب الناس فيه بعضهم ببعض ، فيضحى كل واحد منهم كوكباً بالنسبة للآخرين ! ويومذاك تكون الأرض آهلة بالبشر الأحرار ، العظماء في حريتهم ، وستصبح قلوب الجميع مفتوحة ، ويكون كل قلب طاهراً من ادران الحسد والغيرة ، بريئاً من الخبث . وعندئذ تتحول الحياة إلى خدمة «الانسان» الذي سترتفع صورته حتى السماء ، لأن سائر القمم سهلة المرتقى على الإنسان الحر وعندئذ يعيش الناس في الحقيقة والحرية ، يسعون وراء الجمال وحده ، وسيكون اخيارهم اولئك الذين تملك قلوبهم قوة اعظم تضم إليها العالم كله وتحبه ، اولئك الذين هم اكثر حرية لأن فيهم يقوم الجمال الأعظم ! عندئذ تكون الحياة الجديدة عظيمة ، وعظماء البشر الذين سيحيونها . . .

سكت برهة ، ثم استقام واضاف في صوت آتٍ من اعماق روحه :

– وفي سبيل تلك الحياة . . . انا مستعد لكل شيء . . .

ومرت رعشة على وجهه ، وانهمرت دموع كثيرة ثقيلة فوق خديه .

رفع بافل راسه ، شاحب الوجه ، ينظر إليه متسع العينين ؛ وهبّت الأم عن مقعدها وقد ثار في قلبها قلق غريب مظلم ، راح يعظم وينمو باستمرار .

سال بافل في همس خافت :

– ما بالك ، يا اندريه ؟

فهز الأوكراني راسه ، وتعالى بجسده حتى اقصى ما يستطيع ، وتفرس في الأم بنظرات مستقيمة :

– لقد رايت . . . انا اعرف . . .

فاندفعت إلى الأمام وامسكت بيديه ، فجرب ان يحرر اليمنى من قبضتها ، بيد انها تعلقت بها بكل قواها وهي تقول همساً منفعلاً :

– صه ! اواه ، يا عزيزي ، يا صغيري العزيز . . .

فغمغم الأوكراني في نبرة جشاء :

– انتظري لحظة ، وساروي لك كيف كان ذلك . . .

فهمست ، وهي ترمقه من خلال دموعها :

– كلا ، لا تفعل ، يا اندريوشا . . .

دنا منه بافل متماهلاً شاحب الوجه ، رطب العينين ايضاً . قال بصوت خفيض ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– امي تخاف ان تكون انت القاتل . . .

– لست . . . بخائفة ! انا لا اصدق ذلك ! ولن اصدقه وإن رايته بامّ عينيّ !

فقال الأوكراني ، وهو يلوي راسه ويحاول من جديد ان يحرر يده :

– انتظري لحظة . . . لم اكن انا ، إنما كان في مقدوري ان احول دونه . . .

فقال بافل :

– اخرس ، يا اندريه !

وامسك يد صديقه بإحدى يديه ، ووضع اليد الثانية على كتفه ، وكانه يريد ان يهدئ ارتعاش ذلك الجسد

المديد . لكن أندريه التفت إليـه ، وقال متكسر الصوت خافته :

– انت تعلم ، يا بافل ، أني لم اطلب ذلك ولا كنت اريده ، ولكن إليك كيف جرى : عندما مضيت انت في طريقك ولبثت انا مع دراجونوف في زاوية الشارع ، وجاء اشعيا ووقف قريباً منا يراقبنا ويضحك ضحكة قصيرة ، فقال دراجونوف : «انظر إليه ، لقد ظل يتبعني طوال الليل ، وسوف أضربه» . ثم اتخذ سمت بيته كما توهمت ؛ عندئذ تقدم اشعيا مني . . .

وارسل الأوكراني نفساً عميقاً :

– لست اعرف إنساناً اهانني كما فعل ذلك الكلب عندئذ .

جرّته الام في سكون نحو المنضدة واجبرته على الجلوس ، ثم جلست إلى جانبه وكتفاهما متلامستان ، فيما ظلّ بافل واقفاً ، بائساً معذباً ، يعبث بلحيته .

– قال لي إنهم يعرفون كل اسمائنا ، وإننا جميعاً مسجلون في قوائم الدرك ، وإننا سنُعتقل بالضبط قبل احتفالنا بأول ايار . ولم أحر جواباً . بل ضحكت منه وانا اغلي . وافور . وانهمر يقول إني شاب ذكي ، وإني أخطئ في اختيار تلك الطريق ، وإنه من الافضل أن . . .

وسكت ، وراح يمسح وجهه بيده اليسرى ، وفي عينيه بريق جاف .

قال بافل :

– اني أفهم !

– إنه من الأفضل ان أخدم القانون !

ولوّح الأوكراني بيده وهزّ قبضته ، وغمغم من خلال اسنانه المنطبقة :

– القانون – لعن الله روحه ! كان الأفضل أن يصفعني على وجهي – إذن كان ذلك أيسر لي ، وله أيضاً . لقد طفح الكيل بالنسبة إليّ وقتما بصق في قلبي بصقته المنتنة تلك .

وانتزع أندريه يده من يد بافل بحركة عنيفة مضطربة ، واسترسل يقول في صوت خفيض يطفح نفوراً :

– صفعته ومضيت . ثم سمعت دراجونوف يقول ورائي في صوت خافت : «لقد امسكتُ بك أخيراً» . لا ريب أنه كان ينتظر عند زاوية الطريق .

وصمت الأوكراني برهة ، ثم عاد يقول :

– ولم التفت . . . رغم من إحساسي أنه . . . وسمعت اللطمة . . . ولكني تابعت طريقي هادئاً وكأنني دست على ضفدعة حقيرة . وجاؤوا يصيحون اثناء العمل : «لقد قتلوا اشعيا» . لم أصدق ذلك ، بيد أن ذراعي جعلت تؤلمني حتى شعرت ان يدي تزعجني . لم تؤلمني بالضبط ، بل أحسست بها قصرت . . .

والقى على يده نظرة خاطفة :

– أعتقد أني لن أستطيع ، طوال حياتي ، غسل هذه اللطخة . . .

فقالت الأم في صوت مهموس :

– الشيء المهم هو أن قلبك طاهر ، يا عزيزي !

فقال الأوكراني في عزم :

– لست ألوم نفسي من أجل ذلك – أوه كلا ! ولكن هذا يثير الاشمئزاز ، ولم تكن بي حاجة لأن أندسّ فيه .

وقال بافل ، وهو يهزُّ كتفيه :

– إني لا افهمك ! فانت لم ترتكب الجريمة ، ولكنك لو فعلت . . .

– إسمع ، يا اخي . هبْ انك عرفت ان جريمة قتل سترتكب ولم تفعل شيئاً للحيلولة دونها . . .

فاصرّ بافل يقول :

– إني لا افهم . على الاطلاق . . .

فكر برهة ثم اضاف :

– او لعلي افهم ، ولكني لا احسُّ ذلك .

دوّت الصفارة ، فاصاخ الأوكراني السمع إلى النداء العاتي وهو يميل راسه إلى جانب ، ثم تململ على كرسيه ، وزمزم :

– لن اعود إلى العمل . . .

فتاثره بافل :

– ولا انا ايضاً .

وقال الأوكراني ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– انا ذاهب إلى الحمام !

وبدأ يجمع ثيابه في صمت وبسرعة ، وغادر الدار محطم النفس .

شيّعته الأم بنظرة إشفاق ، وقالت بعد خروجه :

– قل ما بدا لك أن تقول يا بافل ، فانا اعلم ان قتل

الإنسان خطيئة ، ولكني لا اعتبر احداً مذنباً على الاطلاق . وإني ارثي لأشعيا ، فقد كان رجلاً متداعياً منحلاً . عندما نظرت اليه اليوم تذكرت كيف هدّد وتوعد بشنقك ، لكن ذلك لم يدفعني إلى الحقد عليه أو الفرح لموته . لقد رثيت له بكل بساطة . وانا الآن . . . إني لا أحسُّ حتى الاشفاق . . .

امسكت عن الكلام برهة واستغرقت في التفكير قبل أن تضيف ، وعلى شفتيها ابتسامة دهشة وعجب :

– يا إلهي ! هل سمعت ما اقول ، يا باشا ؟

لم يسمع ذلك فيما يبدو لأنه اجاب مكتئباً ، وهو يذرع الغرفة رائحاً غادياً :

– تلك هي الحياة ! ارايت إليهم كيف اثاروا الناس ضد بعضهم بعضاً ؟ ها انت تضربين شخصاً دون أن تريدي ذلك . ومن هو الذي تضربين ؟ مخلوق مسكين لا يملك من الحقوق اكثر مما تملكين .لابل إنه اكثر بؤساً منك في هذا المضمار ، لأنه احمق غبي . الشرطة والدرك والجواسيس جميعاً أعداء لنا ، ولكنهم جميعاً اناس مثلنا ، امتصّت دماؤهم كما امتصت دماؤنا ، وجرِّدوا من كل صفة إنسانية مثلما جردنا نحن ايضاً . حالتنا وحالتهم ، في كل شيء ، سواء . لكنهم اثاروا فئة ضد أخرى ، واعموا بصائرهم بالخوف والجهل والهراء ، واوثقوا ايديهم وارجلهم ، وراحوا يضطهدونهم ويمتصون دماءهم ويدفعونهم لأن يضربوا ويسحقوا بعضهم بعضاً . لقد أحالوا الناس بنادق وهراوات وحجارة وقالوا : هذه هي الدولة .

واقترب من امه ، وتابع :

– ذلك إجرام ، يا اماه ! إنه أبشع قتل لملايين الناس ! إنه مجزرة النفوس الإنسانية . . . هل تفهمين ؟ إنهم قتلة النفوس ! هل تدركين الفارق بينهم وبيننا ؟ انه يضرب شخصاً ما ، وهذا مخجل مؤلم مقرف قبل كل شيء . اما هم فيقتلون الوف الناس بهدوء دون رحمة او تانيب من ضميرهم ، لا بل في فرح ورضىً ايضاً ! إن ما يدفعهم الى اضطهاد الناس حتى الموت هو الاحتفاظ بفضتهم وذهبهم واوراقهم المالية الحقيرة وكل ذلك المتاع البائس الذي يمكنهم به الاحتفاظ بالسلطة على الناس . فكري في ذلك جيداً . . . إنهم لا يدافعون عن حيواتهم عندما يقتلون الناس ويشوّهون أرواحهم . . . ليس في سبيل ذواتهم ، بل في سبيل ممتلكاتهم يفعلون ذلك . إنهم لا يدافعون عما في داخلهم ، بل عما في الخارج منهم . . .

واخذ يديها بين يديه وانحنى عليهما يضغطهما بين أصابعه ، وهو يقول :

– إن كنت تدركين ما في ذلك من قرف ، ما فيه من نتانة مخجلة ، فستفهمين الحقيقة التي من أجلها نناضل ، وسوف ترين ما أروعها واعظمها !

نهضت الأم شديدة الانفعال ، تملؤها الرغبة في أن تذيب قلبها مع قلب ابنها في شعلة براقة واحدة .

غمغمت لاهثة الانفاس :

– تمهّل قليلاً ، يا بافل ، تمهل قليلاً ! إني أستطيع ان أحس ذلك – تمهل قليلاً !

٢٥

دنا شخص من الباب الخارجي مثيراً ضوضاء صاخبة ، فاجفل كلاهما وحدّق أحدهما في الآخر .

فتح الباب في بطء ، ومنه دلف ريبين . قال ، وهو يرفع راسه مبتسماً :

– ها انا ذا ! إن توما المرتاب ، وفياً لعهده ، يسافر هنا وهنالك ، ويدسّ انفه في كل مكان !

كان يرتدي معطفاً من جلد الخراف ملطخاً بالقطران ، ينتعل حذاء مصنوعاً من الياف البتولا ويغطي رأسه بقبعة شعثاء ، وقد علّق في حزامه زوجاً من القفازات السوداء .

– كيف حالكما ؟ وهكذا إذن أطلقوا سراحك ، يا بافل ؟ كيف انت ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

وعرّى اسنانه البيض في ابتسامة عريضة ، وقد أصبح صوته اكثر لطفاً ، ووجهه اكثر اكتساء بلحيته الثقيلة .

كانت الأم سعيدة برؤيته ، فذهبت إليه وتناولت يده الكبيرة المسودّة . قالت ، وهي تاخذ نفساً عميقاً من رائحة القطران الصحية الحادة :

– يا إلهي ! كم أنا سعيدة برؤيتك !

وقال بافل مبتسماً ، وهو ينظر إلى ريبين :

– إليك هذا الفلاح !

فخلع الضيف ثيابه عنه ببطء ، وهو يقول :

– حسناً ، فإني أصير فلاحاً من جديد . أنتم تصبحون مثل السادة اكثر فاكثر ، بينما أسير انا في الاتجاه المعاكس !

وطفق يتمشى في الغرفة يراقبها باهتمام وهو يصلح من شأن قميصه القطني المتعدد الألوان .

– لا جديد هنا سوى الكتب . حسناً ، حدثاني عن كل شيء !

جلس وقد بدّ ساقيه ، وامسك ركبتيه بكلتا يديه يتفحص وجه بافل بعينيه السوداوين ، ويبتسم في انتظار الجواب .

قال بافل :

– كل شيء رائع هنا !

فضحك ريبين ، وقال مازحاً :

– إننا نحرث ونبذر ونراقب الزرع كيف ينمو ، ثم نحصد قمحنا ونطحنه وننام بقية السنة مرتاحي البال . . . هكذا تجري الأمور ، أليس كذلك ، يا صديقي ؟

فسأل بافل ، وهو يجلس قبالته :

– حدثنا كيف تسير بك الأمور ، يا ميخائيل إيفانوفيتش ؟

– إنها تسير على ما يرام . أنا أعيش في ييجلدييفو – هل سمعت عنها قط ؟ ييجلدييفو – هي قرية جميلة ، تقيم سوقين في العام ولا يزيد عدد سكانها عن الألفين ، وهم إلى ذلك معشر خبيث . لا يملكون أرضاً بل يضطرون إلى استئجارها . . . ويا لها من أرض فقيرة ! لقد استأجرني أحد الاغنياء هناك – والمكان مليء بهم مثل امتلاء الجثة بالديدان ، وأنا احرق الفحم واصنع منه القطران ولا اكسب إلا ربع ما كنت اكسب هنا والاقي من العناء ضعفين . تلك هي القضية ! نحن سبعة نعمل من اجله ، ذلك الغني ، والجميع شبان

طيبون ، في ميعة العمر ، وكلهم أبناء القرية ما عداي ؛ وسائرنا نعرف كيف نقرأ ونكتب . وإن أحدهم ، ويدعى ييفيم ، فتى كثير الهيجان حتى لا أدرك ما أفعل به .

وسأل بافل في لهفة :

– وكيف تعمل معهم ، أتخوض نقاشاً وإياهم ؟

– اني لا احتفظ بلساني مقيداً . وقد أخذت معي كل منشوراتكم ، أربعة وثلاثين منشوراً . ولكني أستعين بالتوراة في اغلب الأحايين . ثمة أشياء كثيرة يستطيع المرء أن يستخرجها من التوراة ، وهي كتاب ثخين الحجم ، ورسمي أيضاً ، قام بطبعه المجمع المقدس . إنك تستطيع أن تمنحه ثقتك ، ذلك الكتاب !

ضحك ضحكة قصيرة ، وهو يغمز بافل بعينه . . .

– سوى أن هذا لا يكفي على أية حال . لقد جئت أطلب كتباً منك . ونحن اثنان . . . إذ أن ييفيم ذلك يقف في صفي . لقد أرسلونا بحمل من القطران ، فاكتسبنا الفرصة وقمنا بدورة صغيرة ، وها نحن هنا ! أعطني الكتب قبل أن يأتي ييفيم هذا . . . فليس من المستحسن أن يعرف أشياء كثيرة . . .

نظرت الأم الى ريبين وخيل إليها أن شيئاً آخر فيه ، إلى جانب ثيابه ، قد تبدل . فحركاته أصبحت أقل ثقلاً وهيبة ، ونظرته تبدو أكثر مكراً ودهاء ، وعيناه أقل صراحة مما كانتا عليه .

قال بافل :

– أماه ، هلّا ذهبت لإحضار الكتب ؟ القوم هناك يعرفون

ايا منها ، قولي لهم إنها ستوجه إلى الريف .
فقالت الأم :
– حسناً ، ساذهب حالما يغلي السماور !
وضحك ريبين ، وقال :
– وانت أيضاً تشتركين في هذا العمل ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟ حسناً ، ثمة عدد كبير يريدون كتباً ، وهذا من عمل الأستاذ المحلي . يقال إنه شاب طيب ، رغم انحداره من الاكليروس . وهناك أيضاً معلمة تبعد عنا حوالي سبعة فراسخ . ولكنهما لا يقرآن الكتب الممنوعة ، يخافان لان عملهما عمل رسمي . اما انا فلي حاجة إلى الكتب الممنوعة ، كتب فيها بعض الفلفل اللاذع ، وسأوزعها سراً كأنني اعمل باسمهما . . . فإذا وقع عليها مفتش البوليس او الكاهن لم يتهما بها احداً سوى المعلمين . اما انا فابقى جانباً لوقت معين .
وكشّر مبتسماً راضياً عن دهائه ومكره .
وفكرت الأم :
«آها ! إنك تشبه الدب في مظهرك ، ولكنك ثعلب في حقيقتك . . .»
وسأل بافل :
– إذا اشتبهوا في ان المعلمين ينشران مطبوعات غير مشروعة ، افلن يلقوا بهما في السجن ؟
– بكل تأكيد ، وماذا في ذلك ؟
– ولكن المذنب هو انت . . . لا هما . . . فانت إذن من يجب ان تذهب إلى السجن . . .

فابتسم ريبين ، وقال وهو يضرب ركبتيه بيديه :
– انت غريب الأطوار حقاً ! إن احداً لن يشتبه بي . الفلاحون لا يصلحون لمثل هذه الأمور . الكتب من شأن الأسياد وحدهم ، والأسياد هم المسؤولون عنها . . .
واحست الأم ان بافل لم يفهم ريبين ، إذ لمحته يضيّق عينيه مما يدل على غضبه . قالت في حذر ورقة :
– إن ميخائيلو إيفانوفيتش يريد إنجاز العمل بنفسه ، ولكنه يريد الآخرين على تحمّل المسؤولية . . .
فقال ريبين ، وهو يمشط لحيته :
– ذلك صحيح ، في الوقت الحاضر على الأقل .
وقال بافل في جفوة :
– اماه ! لو ان احداً من فتياننا ، اندريه مثلاً ، اختبأ وراء ظهري وهو يفعل شيئاً يلقون بي من أجله في السجن ، فماذا يكون شعورك ؟
فاجفلت الأم ، ونظرت اليه في ذهول ، وسألت وهي تهز راسها :
– كيف يستطيع المرء خداع رفيقه على هذا الشكل ؟
فجمجم ريبين متشدقاً :
– آه ! لقد فهمتك ، يا بافل !
استدار نحو الأم ، وهو يطرف بباصرتيه في خُيَلاء وعجرفة :
– هذه قضية دقيقة جداً ، يا أماه !
وعاد يلتفت إلى بافل من جديد ، وهو يقول في لهجة واعظة :

– افكارك لمـــا تنضج ، يا اخي ! ليس للشرف مكان عندما تتعلق الأمور بالعمل السري غير المشروع . . . أحكم على ذلك بنفسك . إن أول شخص يُلقى به في السجن هو ذلك الذي وُجد الكتاب معه ، لا المعلم . . . هذا اولاً . ثم إن المعلمين ، وإن كانا يوزعان كتبـاً مسموحاً بهـا ليس غير . . . فإن الأفكار التي يذيعانها هي نفسها – والكلمات وحدها تختلف . . . إنها أقل صدقاً وحقيقة . هذا ثانياً . وبكلمة مختصرة ، هما يتوخيان نفس الغاية التي اتوخاهـا انا ، إلا انهما يسلكان سبيلاً ملتوياً بينما اذهب أنـا في الطريق القويمة . ونحن جميعاً ، في نظر الرؤساء نستحق اللوم الشديد . أليس كذلك ؟ والأمر الثالث هو أني لا أعبأ بهما أبداً ، يا اخي ! ان فرق المشاة لن تصادق الخيالة . ولعلي لا افعل الشيء ذاته مع فلاح أبداً . اما هما – فإن احدهما ابن كاهن ، والثانية ابنة ملاك أرض – فماذا يدعوهمـا إلى تحريض الشعب ؟ لا يهمنـي ، أنـا الفلاح ، أن اقرأ افكارهما . فانا اعرف ما أفعل ، وليست عندي أية فكرة عما يسعيان ، همـا ، وراءه . لقد ظل الأسياد آلاف السنين في اماكنهم الخاصة يسلخون الجلد عن ظهور الفلاحين ، أما الآن فهم يستيقظون بغتة ويشرعون يرفعون العصابات عن عيون الفلاحين بذات أيديهـم . وأنا لست مـن الذين يؤمنون بأقاصيص الجنيات . ولكن هذا كلـه يشبـه إحدى هذه الاقاصيص الى درجـة بعيدة . فبيني وبين أسيادك هؤلاء مسافة شاسعة . ذلك أشبه ما يكون بحالك عندمـا تجتاز الحقول في الشتاء . إنك ترى ، على حين غرة ، شيئاً يندفـع

عبر الطريق إلى الأمام منك . ما هو ؟ ذئب أم ثعلب أم مجرد كلب ليس غير ؟ لست تقدر أن تعين هويته ، فهـو بعيد عنك كل البعد .

واختلست الأم النظر إلى ابنها . كان يبدو شقياً بائساً . برقت عينا ريبين بنور وهو يراقب بافل راضياً عن نفسه ، ويمشط لحيته بأصابعه في عصبية ظاهرة . تابـع حديثه قائلاً :

– ليس لي الوقت لتبادل المجاملات ، فالحياة شاقة . وعصبة من الكلاب ليست بقطيع من الغنم . . . فكل كلب يعوي على طريقته الخاصة . . .

وقالت الأم ، ممعنة التفكير في وجوه مألوفة لديها :

– لكن ثمة اسياداً يلقون الموت فى سبيل عامة الناس ، ويقضون سنيّ حياتهم في السجون . . .

– هؤلاء من طبقة خاصة إذن ويستحقـون الاحترام والتقدير . الفلاح يثري فيرتفع إلى طبقة الأسياد ، والسيـد يفتقر فينزل إلى مصاف الفلاحين . وإذا كانت اليد قصيرة ، فالقلب طيب بكل تأكيد . أتذكر ، يا بافل ، يوم أوضحت لي ذات مرة كيف يقرّر أسلوب المرء في الحياة طريقتـه في التفكير ؟ إذا العامل قال : نعم ، قال مديـره : لا ! وإذا العامل قال : لا ، قال مديره : نعم ، وفقا لطبعه . وهنـاك ذات الفرق بين الفلاح والملاّك ، فإن معدة السيد تصاب بسوء الهضم إذا وجد الفلاح يحصل على كفايته من الطعام . وطبيعي ان يكون لكل طبقة أنذالها ، وأنا لا أدافع عن سائر الفلاحين دون استثناء . . .

ونهض على قدميه ، قوياً ، قاتماً ، ممتقع الوجه ، وراحت لحيته ترتعش وكأن أسنانه تصطك دون ضوضاء ؛ وتابع في صوت أقل خفوتاً منه قبلاً :

– لقد همت على وجهي من مصنع إلى مصنع طوال خمسة اعوام ، فنسيت كيف تكون حياة القرية . وعندما عدت إليها والقيت عليها نظرة ، ادركت اني لا استطيع ان اعيش هكذا أبداً ! هل تفهم ؟ إني لا استطيع ذلك ! عندما يعيش المرء ههنا فهو يعجز عن رؤية الشر هناك . وهناك يخيم الجوع على الناس وكأنه ظل لهم ، وليس من امل في الحصول على الخبز ، ليس من امل مطلقاً ! الجوع يبتلع ارواحهم ويشوه الوجوه البشرية منهم . إنهم لا يعيشون ، أولئك الناس ؛ إنهم يتفسخون فقط وسط حاجة لا يوجد سبيل الى الخلاص منها . . . بينما تقف السلطات لهم بالمرصاد كالغربان لتمنعهم من وضع ايديهم على قطعة زائدة من هذا الشيء أو ذاك ، فإذا فعلوا اختطفوها منهم واعطوهم بدلها لطمة على الوجه . . .

وجال ريبين بنظراته فيما حوله ، ثم مال نحو بافل مستنداً بيده على المائدة ، وتابع :

– لقد تقززت نفسي عندما رأيت تلك الحياة من جديد ، وفكرت انني لن أستطيع لها احتمالاً ، ثم قلت في نفسي : كلا ، ينبغي لك الا تنهزم ، بل أن تبقى وتقاوم ! لعلك لا تستطيع أن تعطيهم خبزاً ، ولكنك تستطيع أن تجهز طبخة جيدة . اني اطبخها بالتأكيد ! وقلبي يحترق بالحقد على الناس والاشفاق عليهم . وهذا الحقد وهذا الاشفاق ما يزالان

هناك ، يحفران في قلبي وكأنهما مدية مدببة .

واقترب من بافل ببطء ، والعرق يتصبب على جبينه ، والقى بيده المرتجفة على كتفه قائلاً :

– اني بحاجة إلى معونتك ! اعطني كتباً من ذلك النوع الذي يذهب بنوم الانسان طوال ليال عديدة إذا قرأها مرة . إننا بحاجة لأن نضع قنفذاً في قحفهم ، قنفذاً أشواكه حادة ! قل لأولئك في المدينة الذين يكتبون لكم أن يكتبوا شيئاً للقرية أيضاً ! فليكتبوا حتى يصبح للأحرف ضجيج ، وحتى يذهب الناس إلى حتفهم في سبيل القضية !

ورفع ذراعه وراح يقول بصوت اجش ، وهو يلفظ كل كلمة على حدة ، وبصورة شديدة الوضوح :

– الموت سيسحق الموت ، وبكلام آخر : مُتْ كي يُبعث الشعب . وليمت الألوف منا كي يبعثوا ملايين الناس في العالم كله ، تلك هي القضية ! الموت امر سهل . . . في سبيل قضية الانبعاث ، في سبيل قضية الشعب القائم من الموت !

حملت الأم السماور وبدأت تختلس النظر إلى ريبين ، شاعرة بالانسحاق تحت ثقل كلماته وعنفها . ثمة شيء فيه يذكّرها بزوجها . لقد كشّر زوجها عن أسنانه بذات الطريقة ، وهزّ ذراعيه بذات الأسلوب وهو يطوي أكمام قميصه ، ولقد كان يملؤه ذات الغضب الهلع – كان غضبه هلِعاً لا يجد له تعبيراً ، فيما هذا الرجل يعطي لمشاعره تعبيراً واضحاً ، وهذا ما يجعله اقل إرهاباً .

قال بافل ، وهو يهز رأسه :

– يجب ان نحقق ذلك ! أعطنا المعلومات ، ونحن نصدر صحيفة خاصة بكم . . .

ابتسمت الأم وهي تنظر إلى ولدها ، ثم ارتدت ثيابها ، صامتة لا تنبس ببنت شفة ، وبرحت الدار .

صاح ريبين :

– حسناً ، سنزوّد كم بكل شيء ! اكتبوا ببساطة كي يستطيع ، حتى العجول ، ان يفهموا أيضاً !

وفتح باب المطهى ، ومرق منه شخص ما .

قال ريبين ، وهو ينظر إلى المطهى :

– هذا ييفيم ! تعال هنا ، يا ييفيم . ها هو ذا – ييفيم – أما هذا فيدعى بافل ، ولقد حدثتك عنه .

وقف تجاه بافل فتى طويل القامة ، أشقر الشعر ، عريض الوجه ، رمادي العينين ، يتوشح معطفاً قصيراً من فرو الغنم ويمسك قبعته بيديه ، وراح يتطلع إلى بافل من تحت حاجبيه المنخفضين . كان مظهره يوحي بأنه شديد البأس صنديدي القوة .

قال في صوت فظ أبح :

– مرحباً !

صافح بافل ، ثم ارسل كلتا يديه في شعره الأملس ، وجال بعدئذ في الغرفة حتى إذا وقع بصره على الكتب مال يتجه نحوها في تمهل وروية .

قال ريبين ، وهو يغمز بافل بطرف عينه :

– لقد وجدها !

15*

فاستدار ييفيم وحملق فيه ، وبدأ يتفحص الكتب . هتف :

– ما أكثر ما عندك للقراءة ! لا ريبة أنك لا تلقى متسعاً من الوقت لذلك . لو كنت تعيش في القرية لوجدت فراغاً أكبر للقراءة . . .

واستفهم بافل :

– ولكن رغبة أقل ؟

فأجاب الفتى ، وهو يداعب ذقنه :

– ولِمَ ؟ بل رغبة عظيمة ايضاً ! لقد بدأ الناس يحتون ادمغتهم . «جيولوجيا» . ما معنى هذا ؟

فاوضح بافل له ذلك .

قال الفتى ، وهو يردُّ الكتاب إلى مكانه على الرف :

– نحن لسنا في حاجة إلى هذا !

وقال ريبين ، متنهداً بصوت مسموع :

– الفلاح لا يعبأ بأصل الأرض ومنشئها ، وإنما تقسيمها يثير اهتمامه قبل كل شيء ، وكيف سرقها الملاكون منه . وسواء لديه إن كانت تدور حول نفسها او كانت ثابتة ، بل فلتثبت تحت أقدامه ما دامت تعطيه قمحاً وخبزاً ، ولتسمرّ في السماء إذا أعطته الجودار !

وقرأ ييفيم :

– «تاريخ العبودية» . أهو يبحث عنا ؟

فأجاب بافل ، وهو يناوله كتاباً آخر :

– هذا يتحدث عن نظام العبودية في روسيا !

اخذ ييفيم الكتاب ، وقلّبه بين يديه ، ثم قال في هدوء وهو يضعه جانباً :

– هذه امور تتعلق بالماضي !

سأله بافل :

– هل تملك ارضاً خاصة بك ؟

– بكل تأكيد ! اخواي وانا نملك اربعة هكتارات من الأرض ، رمل كلها ، تصلح لتنظيف النحاس ولا تفيد شيئاً للزراعة !

وتابع بعد برهة من الصمت :

– ولقد تركت الأرض ، فما الفائدة منها ؟ إنها لا تطعمك ، بل تربطك بها . ومنذ اربع سنوات وانا أعمل في مزارع الآخرين ، وسأقوم بخدمتي العسكرية في الخريف المقبل . والعم ميخائيلو يقول الا أتقدم إليها ، ويقول إنهم يرسلون الجنود ليجلدوا الشعب في هذه الأيام . ولكني اعتقد إنني سأذهب ، فالجنود كانوا يضربون الشعب أيام ستيبان رازين وبوغاتشيوف أيضاً ، ولقد آن الأوان كي نبدّل الأمور . ما رأيك ؟

وجّه إلى بافل هذا السؤال وهو يحدجه بنظرات مستفسرة ، فأجاب بافل مبتسماً :

– بلى ، لقد حلّ الأوان ، لكن ذلك ليس بالأمر السهل ! يجب ان تعلم ماذا تقول للجنود وكيف تقوله . . .

فقال ييفيم :

– سنتعلم !

فلاحظ بافل ، وهو يرمق ييفيم بنظرة فضولية :

– وإذا اكتشفت السلطات ذلك ، فسوف يرمونك بالرصاص !

فوافق الفتى في هدوء ، وهو يعود إلى استكشاف الكتب :

– لست انتظر منها هذه الرحمة !

وقال ريبين :

– إشرب الشاي ، يا ييفيم ، فلا مناصَ من الذهاب عما قريب !

– حسناً ! هل الثورة . . . عصيان ؟

ودخل أندريه ، احمر الوجه ، ساخن الجسد بعد الحمام ، وتعلو وجهه مسحة كئيبة اسوانة . صافح ييفيم في صمت ، ثم جلس إلى جانب ريبين وأرسل ضحكة قصيرة وهو يتفحصه .

سأل ريبين ، وقد ضربه على ركبته :

–ما بالك ؟ لمَ هذا الاكتئاب ؟

فأجاب الأوكراني :

– لا شيء على التعيين .

واستفهم ييفيم ، مشيراً برأسه إلى أندريه :

– أهو عامل أيضاً ؟

فردّ أندريه :

– نعم ، ولمَ السؤال ؟

فقال ريبين موضحاً :

– إنه لم يرَ من قبل عاملاً في مصنع قط . وهو يجد هؤلاء العمال ذوي شأن خاص . . .

واستعلم بافل :

– باي معنى ؟

فاعلن ييفيم مجيباً ، بعد أن درس اندريه ملياً :

– عظامكم مستدقة ، اما عظام الفلاح فاكثر استدارة . . .

واضاف ريبين :

– إن الفلاح يقف بثبات اكبر ! إنه يحسُّ الأرض تحت قدميه ، وإن لم تكن ملكه . إنه يحسّها . . . الأرض ! أما عامل المصنع فاشبه بالعصفور – لا يملك موطناً ولا بيتاً – هو اليوم ههنا ، أما في الغد فيذهب إلى مكان آخر ! والمرأة نفسها لاتتمكن من ضبطه في بقعة واحدة ، فلا تكاد الأمور تسوء حتى يُودّعها . . . وينطلق سعياً وراء ما هو افضل . أما الفلاح فيريد ان يجعل الأمور افضل حوله دون ان يبرح مكانه . هذه هي امك عادت !

وسأل ييفيم مقترباً من بافل :

– اتريد إعارتي كتاباً من كتبك هذه ؟

فجهر الآخر بطيبة خاطر :

– بكل تاكيد !

فالتمعت عينا الفتى في لهفة وإشراق ، واسرع يؤكد لبافل :

– سوف اردّه لك ! إن رفاقنا ينقلون القطران دائماً إلى هذه الجهات ، وسوف يحملونه إليك .

قال ريبين ، بعد ان لبس فروته وحزمها جيداً :

– آن لنا ان نذهب !

وهتف ييفيم ، وهو يشير إلى الكتب ويبتسم ابتسامة عريضة :

– انظر ، لقد اصبح لديّ ما اقرأ !

بعد ذهابهما استدار بافل نحو اندريه في انفعال وهياج ، وهتف :

– ما رايك في هذين العفريتين ؟

فقال الأوكراني متماهلاً :

– هِمْ . . . . مْ مْ . مثل سحابتين تحملان العاصفة . . .

وقالت الأم :

– ميخائيلو ؟ لكأنه لم يعمل في مصنع قط – فلاح حقيقي ، ومخيف جداً !

وقال بافل لأندريه ، الذي جلس عند المنضدة وراح يحملق في قدح الشاي بين يديه عابساً :

– يؤسفني جداً انك لم تكن هنا منذ البدء ، إذن لألقيت نظرة على ما يجري في قلبه – فانت تتكلم ابداً عن القلب البشري ! لقد اطلق ريبين ههنا كثيراً من البخار حتى طرحني ارضاً وسحقني سحقاً ، ولم اجد كلمة واحدة اردُّ بها عليه . . . ما اقل إيمانه بالكائنات البشرية ، وما ارخصها في نظره ! إن امي لعلى حق . . . إن قوة مخوفة تملك هذا الرجل !

فاجاب الأوكراني في كآبة :

– ارى ذلك ! لقد افسدوا الناس ! ويوم تثور الجماهير ستقلب كل شيء وتحطمه ! إنهم يريدون الأرض العارية ،

وعارية سوف يجعلونها . إنهم سيدمرون كل شيء على الإطلاق !

كان يتكلم في رويّة ، يتضح من حديثه بجلاء أن فكره مشغول بشيء آخر . واقتربت الأم منه ولمسته في حنان قائلة :

– هدّئ من روعك ، يا اندريوشا ، واستعدْ صوابك !

فأجاب في هدوء وعطف كبيرين :

– ورويدك لحظة ، يا اميمتي !

ثارت حمياه على حين غرة ، فضرب المائدة بقبضة يده صائحاً :

– ذلك صحيح ، يا بافل . الفلاح سيجرّد وجه الأرض آونة ينهض على قدميه ، ولسوف يحرق كل شيء ويذروه في الهواء ، كما يحدث عقيب الطاعون ، حتى يحيل رماداً كل آثار الاذى الذي تحمّل وقاسى . . .

فلاحظ بافل بصوت خافت :

– وعندئذ يقف في طريقنا .

– يعود إلينا كيلا نسمح بحدوث ذلك ، يعود الأمر إلينا كي نلجم انطلاقه ! نحن أقرب إليه من اي كائن آخر . . . ولسوف يثق بنا ويقفو خطانا !

قال بافل :

– لقد طلب ريبين أن نصدر صحيفة خاصة بالريف !

– هذا هو المطلوب حقاً !

فقال بافل ، وهو يطلق ضحكة قصيرة :

– لمما يؤسف له اني لم اتناقش وإياه في هذه القضية !

فاعلن الأوكراني في هدوء ، وهو يرسل أصابعه بين خصل شعره :

– لم يزل لدينا الوقت الكافي لذلك . ما عليك إلا متابعة العزف على مزمارك ، حتى ترقص الحانك اولئك الذين لم تغرس اقدامهم في الأرض . لقد كان ريبين على حق عندما قال إننا لا نحسّ الأرض تحت اقدامنا ، ويجب الا نفعل لأن مهمتنا نهزّها هزاً قوياً شديداً . ولسوف نهزّها مرة فيفقد الناس مواقع اقدامهم . . . ثم نهزها مرة ثانية وثالثة !

فقالت الأم ضاحكة :

– كل الأمور بسيطة جداً بالنسبة إليك ، يا اندريوشا .

فقال الأوكراني :

– بكل تأكيد ، بسيطة مثل الحياة ذاتها .

واضاف بعد عدة دقائق :

– إني خارج إلى نزهة في الحقول . . .

فنبرت الأم تحذّره :

– بعد الحمام ؟ الريح تعصف شديدة ، وسيصيبك برد !

فأجاب :

– إني لفي مسيس حاجة إلى بعض ابتراد لافكاري !

وقال بافل في عطف :

– احترس من البرد . ليفضل أن تغفو قليلاً .

– كلا ، بل سأذهب .

ارتدى ثيابه ، وخرج دون أن يقول شيئاً . . .

قالت الأم ، وهي تتنهد :

– إنه يتألم كثيراً مما حدث !

– إني لسعيد إذ اصبحت أكثر حدباً عليه منذ حدوث ذلك .

– أحقاً ؟ لم ألحظ هذا . لقد أصبح عزيزاً جداً عليَّ حتى لا أدري كيف اعبّر عن حبي .

فجهر بافل في لطف ورقة :

– إن لك قلباً لطيفاً ، يا أماه !

– ليتني استطيع ان اساعدك – واساعد أصدقاءك أيضاً – ولو قليلاً . . . بل ليتني اعلم كيف افعل ذلك .

– لا تقلقي ، سوف تتعلمين !

فقالت ، وهي ترسل ضحكة قصيرة خافتة :

– آه ، لو كنت أتعلم فقط . . . كيف لا اقلق .

– حسناً ، يا أماه ، الأفضل ان ندع هذا الحديث . ولكن تذكري شيئاً واحداً . . . وهو اني ممتن لك كثيراً . . . كثيراً جداً !

فهرولت إلى المطبخ حتى لا تربكه دموعها .

كان الوقت متاخراً جداً عندما رجع الأوكراني متعباً منهكاً ، فذهب إلى الفراش راساً وهو يقول :

– من المؤكد اني مشيت حوالي عشرة فراسخ . . .

فسأله بافل :

– اخفف عنك ذلك ؟

– صمتاً ، فإني اريد ان انام .

لم يفه بعد ذلك ببنت شفة .

جاء فيزوفشيكوف بعد برهة قصيرة ، رثّ الثياب ، وسخاً ، متبرماً كعادته ابداً ، واستوضح بافل وهو يمشي في الغرفة روحة وجيئة بخطوات خرقاء :

– هل تعلم من قتل اشعيا ؟

فأجاب بافل باقتضاب :

– كلا .

– لقد وُجِدَ شخص لم يقرف من ارتكاب ذلك . لقد كنت انا ، شخصياً ، على استعداد للاجهاز عليه ، وكان يجب ان افعل هذا . . . كنت اليق الجميع به .

فقال بافل بلهجة ودية :

– دع عنك هذا الحديث ، يا نيقولاي !

واضافت الأم في حنان :

– كفاك مثل هذا الكلام ! انت تزمجر مثل الأسد وقلبك ممتلىء رقة وعذوبة ، فلمَ ذلك ؟

كانت سعيدة برؤية نيقولاي في تلك اللحظة ، بل بدا لها وجهه المجدور جذاباً لطيفاً .

قال نيقولاي ، وهو يهزّ كتفيه :

– لست أصلح كثيراً إلا لمثل هذه الأمور . إني أُفكر دون انقطاع . . . اين هو مكاني ؟ ليس لي مكان ! أحتاج إلى الحديث مع الناس ، وانا لا ادري كيف أفعل ذلك . إني افهم كل شيء . . . وارى سائر الشرور التي قاسى منها البشر .

ولكني لا استطيع ان اعبر عن مشاعري في كلمات . لـــي روح خرساء . . .

عبر الغرفة حتى محاذاة بافل ، واطرق بعينيـــــه إلى الأرض ، وراح يقول بنغمة صبيانية تختلف الاختلاف كلـه عن لهجته المعتادة ، وهو لا يبرح ينقر عــلى المائـدة بأصابعه :

– اعطوني عملاً ثقيلاً اقوم به ، ايها الاخوان ، فأنـا لا اقوى على الاستمرار في العيش هكذا دون جدوى . انتم جميعاً منهمكون في قضيتكم ، وانا ارى كيف تتطور ، ولكـن اقف في معزل ناء عنها لا افعل إلا نقل الجذوع والاخشاب . هذا لا يمنح المرء شيئاً يعيش من اجله . اعطوني عمـلاً شاقاً أنهض به .

فتناول بافل يده ، وشدّه إليه قائلاً :

– حسناً !

وجاء صوت الأوكراني من وراء الستار :

– ساعلمـك ان تصفّ الأحرف في مطبعتنـا ، يـــا نيقولاي . . . ما رايك في هذا ؟

فذهب نيقولاي إليه ، وقال :

– إذا علّمتني ، قدّمت لك سكيني . . . هديـــة .

فصاح الأوكراني :

– إلى الجحيم أنت وسكينك !

وانفجر ضحكا على حين غرة .

فالحّ نيقولاي قائلاً :

– إنها سكين جيدة !

وانثال بافل يضحك بدوره ، فوقف نيقولاي في وسط الغرفة وقال :

– أتضحكان مني ؟

فاجاب الأوكراني ، وهو يقفز من سريره :

– بالطبع . استمعا إليّ ، هيا بنا ننطلق في نزهـــة إلى الحقول . القمر رائع هذه الليلة . . . أفلا تريدان ذلك ؟

فثنّى بافل :

– إني أوافق .

واعلن نيقولاي :

– وانا ايضاً ، فإنـــي احب سماع ضحكــــة الأوكراني . . .

فقال الأوكراني ، وهو يبتسم :

– وانا أحب رؤيتك تعدني بالهدايا .

وذهب إلى المطبخ يرتدي ثيابه ، فقالت له الأم في تذمر ظاهر :

– إلبس ثياباً دافئة . . .

عندما خرج ثلاثتهم راحت تراقبهم من وراء النافذة ، ثم نظرت إلى الأيقونات وغمغمت :

– ايها الرب العزيز ، إرفق بهم . . . واعنهم !

٢٦

كرّت الأيام مسرعة حتى لم تترك للأم فرصة للتفكير في عيد أيار ، ولكنها كانت تحسُّ ، حين تستلقي ليلاً في سريرها

مجهدة من اعمال النهار الصاخبة المزعجة ، ألماً ينيد على قلبها ، فتعمل جهدها مفكرة :

«لو يأتي ذلك قريباً . . .»

وعند بلجة الفجر كانت صفارة المصنع تدوى ، فيتناول ابنها واندريه طعام الفطور سريعاً ثم يغادرانها بعد ان يعهدا إليها بتنفيذ العديد من المهمات .

وينقضي النهار بطوله وهي تروح تغدو في ارجاء الدار كعصفور حبيس في قفص ، تهيئ الغداء ، وتغلي الغراء ، وتحضر الحبر البنفسجي ، وتستقبل اناساً مجهولين يسلمونها رسائل موجهة إلى بافل ، ثم يختفون بعد ان يتركوها مصابة بعدوى انفعالهم وحماستهم .

في كل ليلة تقريباً ، كانت نداءات موجهة للعمال تدعوهم للاشتراك في احتفال أول أيار تلصق على الجدران والاسيجة ، بل وابواب مركز الشرطة ، وتثبت وجودها يومياً في المعمل ، فإذا حلّ الصباح كان بعض رجال الشرطة يتجولون عبر الضاحية يصبّون الشتائم وينتزعون تلك النداءات ؛ ولكن منشورات جديدة كانت تُبعثر في الشوارع ، عند الظهيرة ، تحت اقدام المارة .

وقدم من المدينة بعض رجال التحري ، فاستقروا في زوايا الشوارع يتفحصون وجوه العمال الذاهبين إلى بيوتهم والغادين منها بمرح خلال فرصة الغداء . وكانت جموع الناس تتمتع بما ترى من عجز الشرطة في تدارك الحالة ، بل كان الشيوخ من العمال يبتسمون بدورهم وهم يقولون بعضهم لبعض :

ـ الا انظروا إلى ما يصنعون !

وكانت جماعات من العمال تشاهد في كل مكان وهي تناقش النداء في حماسة . إن الحياة لتصخب وتجيش ، وتصبح أبعث على الاهتمام عند الجميع في هذا الربيع ، لانها تحمل اليهم دافعاً جديداً يتدفق بين جنباتهم . ولقد وجد بعض هؤلاء في ذلك ذريعة جديدة للغضب والنقمة ، فإذا هم يكيلون الشتائم للمتمردين بصوت عالٍ رنان ؛ واحس آخرون أملاً غامضاً وجزعاً في الوقت ذاته ؛ فيما البعض الآخر ، وهم الأقلية ، يتمتعون بلذة فائقة إذ يدركون انهم تلك القوة التى تحفز الناس .

وكان بافل واندريه لا يكادان يذوقان للنوم طعماً ، فهما يأتيان البيت عند الفجر ، شاحبين متعبين بُحّ صوتاهما . وكانت الأم تعلم انهما يعقدان الاجتماعات في الغابة والمستنقع كما تعلم أيضاً أن كتائب من فرسان الشرطة تراقب ليلاً المنطقة المحيطة بالضاحية ، وأن رجال التحري ينبثون في كل مكان ويضبطون العمال المنفردين ويفتشونهم ، ويفرّقون اية جماعة من الناس يقعون عليها ويعتقلون البعض من حين لآخر . وأدركت أن ابنها واندريه معرضان باستمرار لخطر الاعتقال ، فتمنت لهما ذلك واثقة انه يكون النصيب الأفضل .

ولسبب ما أسدل الستار على مقتل مراقب الدوام ، فبعد ان تابعت الشرطة المحلية تحقيقا خلال يومين ، واستجوبت عشرة من الناس ، لم تلبث أن فقدت اهتمامها بالجريمة واهملتها .

وقد عبّرت ماريا كورزونوفا ، في حديث لها مع الأم ، عن راي الشرطة في الموضوع ، إذ كانت طيبة العلاقات معهم مثلها مع سائر الناس . قالت :

– من الصعب معرفة القاتل ، إذ صادف اشعيا حوالي مائة شخص ذلك الصباح ، ومن بينهم تسعون على الاقل يتمنون قتله من صميم قلوبهم . منذ سبع سنوات وهو يسيئ إلى الجميع على السواء . . .

تغير الأوكراني بشكل جلي ظاهر ، فنحل وجهه ، وترهل جفناه حتى غطيا نصفياً عينيه الجاحظتين ، وبدت خطوط رفيعة تمتد من خيشوميه حتى زاويتي فمه . اصبح اقل كلاماً عن الأمور المعتادة ، وإن تضاعفت لحظات هيجانه وحماسته حيث يبعث في المستمعين إليه رؤاه عن مستقبل مشرق يظفر العقل فيه وتنتصر الحرية .

وحين مات الحديث عن مقتل اشعيا ، قال وابتسامة اشمئزاز ارتسمت على شفتيه :

– انهم لا يهتمون بالشعب ، ولا بأولئك الذين كانوا يطلقونهم كالكلاب في أعقابنا . وهم لا يأسفون لخسارتهم يهوذا خدمهم باخلاص . . . بل يأسفون على ثلاثين قطعة من الفضة ليس غير . . .

قال بافل في حزم :

– كفى حديثاً عن هذا الموضوع يا أندريه !

فعقبت الأم بقولها :

– لقد تفتت الجذع المتعفن لدى اللمسة الأولى . . .

فأجاب الأوكراني مكتئباً :

– حقٌ ما تقولين ، ولكنه لا يعزي !

وامسى يردد هذه الكلمات كثيراً ، فإذا تفوه بها اتسعت الكلمات حتى أصبحت تعميماً موجعاً شديد المرارة .

. . . واخيراً جاء اليوم المرتقب بفارغ الصبر . . أول ايار .

دوّت صفارة المعمل بعنف وتسلط كعادتها ذلك الصباح ، فهبت الأم من فراشها ، ولم يغمض لها جفن طوال الليل ، واضرمت النار في السماور الذي هيأته منذ العشية ، وهمّت أن تقرع باب غرفة الشابين كعادتها ، لكنها فضلت الا تفعل ، فجلست إلى النافذة وقد اعتمدت وجهها على يدها وكان اضراسها تؤلمها ألماً شديداً .

وسبح عبر السماء الزرقاء الشاحبة عنقود من السحب الوردية والبيض مثل سرب من طيور كبيرة أرعبتها صفارة المعمل ، فراحت الأم تراقبها وتصغي إلى أفكارها الخاصة في الوقت ذاته . كان رأسها ثقيلاً جداً وعيناها جافتين ملتهبتين من عناء هذه الليلة ، ومع ذلك فإن هدوءاً غريباً يملأ نفسها ، وقلبها يخفق في انتظام وسكينة ، وذهنها يعمل جاهداً في افكار بسيطة عادية :

«لقد بكّرت في إشعال السماور – وسوف يتبخر الماء بأسره . . . إنهما مجهدان منهوكا القوى ، فليناما قسطاً أوفر من الراحة هذا الصباح . . .»

وأطل شعاع وليد من الشمس يمرح من خلال النافذة ، فمدّت له يدها ، حتى إذا جاء يستريح بدفء على جلدها مسحت عليه بيدها الأخرى وشفتاها تفتران عن ابتسامة لطيفة

متأملة . ثم نهضت ونزعت عن السماور مدخنته ، ومن بعدُ اغتسلت وهي تجهـــد ألا تثير ضوضاء، وشرعت تصلي وهي ترســـم إشارة الصليب دون انقطاع ، وتحرك شفتيهـــا في سكون . وبرق وجهها بضوء لامع ، بينما حاجبها الأيمن يرتفع تارة ببطء ، ويتداعى أخرى في وهن . . .

وجاء الصفير الثاني أقل ارتفاعاً وتسلطاً ، يتماوج في لحنه الكثيف الرطب ارتعاش ضئيل ، فيخيّل للأم أن دويّه دام مدة أطول من المعتاد .

وارتفع من الغرفة الثانيـــة صوت الأوكراني العميـــق الواضح :

– أسمعت هذا ، يا بافل ؟

وتردد حفيف قدمين حافيتين لامسا الارضية ، ووصل الى سمعها تثاؤب متطاول . . .

صاحت الأم :

– السماور جاهز !

فاجاب بافل مسروراً :

– اننا ناهضان في الحال !

وقال الأوكراني :

– الشمس تشرق ، وفي السماء سحب تسبح . إننا لا نحتاج اليوم الى السحب . . .

ودلف إلى المطبخ مشعث الشعر ، منتفخ الوجه نعاساً ، لكنه مبتهج النفس مرح الفؤاد . قال :

– أسعدتِ صباحاً ، يا أُميمة ! كيف كان رقادك ؟

فزرفت الأم إليه ، وقالت خافتة الصوت :

– إمشِ إلى جانبه ، يا أندريوشا !

فقال الأوكراني همساً :

– بكل تأكيد ! تستطيعين التأكد ، يا أُميمة ، من أننا سنمشي جنباً إلى جنب ما دمنا معاً .

وسأل بافل :

– بماذا تتهامسان ، أنتما الاثنان ؟

– لا شيء على التعيين ، يا باشا .

وأجاب الأوكراني ، وهو يهمُّ بالاغتسال في الدهليز :

– إنها تنصحني بغسل وجهي جيداً لأن الفتيات سيتطلعن إليّ هذا النهار !

وانشد بافل بصوت خافت :

– «انهضوا إلى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا !»

ازداد الجو نوراً مع تقدم النهار ، بينما هبّت الريح تطرد السحب بعيداً . وهزّت الأم رأسها وهي تهيىء مائدة الإفطار ، وتفكر في مبلغ الغرابة التي تحوط هذا كله : ها هما يضحكان ههنا ويتراشقان بالملائح في حين لا يدري أحد ماذا يقبع لهما في الانتظار بعد قليل . وإنها لتشعر ، هي الأخرى ، بالهدوء نوعاً ما ، لا بل بالغبطة أيضاً .

قضيا على الطعام زمنـــاً طويلاً يحاولان تخفيف حـــدة الانتظار . وكان بافل ، كعادته ، يحرك السكر في كأسه ببطء واعتناء بالغين ، ويذرّ الملح بصورة منتظمـــة على الخبز المفضل لديه ، الا وهو قشره . أما الأوكراني فكـــان يحرك قدميه تحت المائدة دون انقطاع ، وهو لا يجد أبداً لقدميه وضعاً مريحاً – يراقب شعاعاً شمسيـــاً يعكســـه الشاي

المتراقص في قدحه على الجدار والسقف . قال :

– عندما كنت صبياً في العاشرة من عمري خامرتني رغبة ملحّة في التقاط الشمس بكأسي ، فاخذت قدحاً واطبقت على بقعة من الشمس على الجدار – فإذا القدح يتحطم . وقد جرحت يدي وجُلِدتُ بالاضافة ايضاً . وبعد ان جُلدت خرجت إلى الفناء فوقع بصري على الشمس في بركة موحلة ، فاقبلت عليها ادوسها بقدميّ بكل ما فيّ من قوى . وواضح ان ثيابي كلها تلطخت ، الأمر الذي استأهلت من اجله الجلد مرة ثانية . . . ما عساني ان افعل ؟ أمدّ لها لساني وأصيح فيها : ذلك لم يؤذني ، أيتها الشيطانة الحمراء الرأس ، ذلك لم يؤذني . وقد كان في ذلك بعض المواساة لي .

وضحك بافل ، وسأل :

– ولماذا اسميتها حمراء الرأس ؟

– كان يقطن في الشارع ، مقابل دارنا ، حداد أحمر الوجه واللحية ، وكان فتى رقيق القلب عذب النفس ، فلاح لي ان الشمس تشبهه . . .

ولم تعد الأم تطيق مزيداً ، فقالت :

– لمَ لا تتحدثان عما ستقومان به اليوم ؟

فقال الأوكراني في لطف :

– الحديث عما سبق واتخذ قرار بشأنه يزيد الأمور اختلاطاً ليس غير ! وإذا حدث واعتقلونا جميعاً ، يا أُميمة ، فسيأتي نيقولاي إيفانوفيتش ويحدثك بما ينبغي ان تفعلي .

فقالت الأم ، وهي تتنهد :

– حسناً .

وقال بافل حالماً :

– ما علينا لو خرجنا من البيت ؟

فأجاب أندريه :

– الأفضل ان نبقى في الدار الآن . لمَ نلفت أنظار الشرطة قبل الأوان ؟ إنهم يعرفونك جيداً من دون ذلك !

وجاء فيودور مازين يعدو ، مشرق الوجه ، ملتهب الخدين ، فحطمت حماسته المرحة عناء انتظارهما . قال :

– لقد بدأت الامور تسير ، والناس جميعاً في هياج ، يخرجون إلى الشوارع بوجوه كالحة . وإن فيزوفشيكوف وفاسيا جوسيف وصموئيلوف يخطبون عند بوابات المعمل ، وقد عاد كثير من العمال إلى دورهم . هيا بنا ، لقد حان الوقت للذهاب ، وقاربت الساعة العاشرة !

وقال بافل في حزم :

– إني ذاهب .

وقال فيودور :

– سترون كيف أن سائر العمال سيُضربون بعد الغداء .

وذهب يعدو .

قالت الأم في هدوء :

– إنه يلهب مثل شمعة في مهب الريح !

نهضت وهبّتْ إلى المطهى لتبدل ثيابها .

– إلى أين الذهاب ، يا أُميمة ؟

فأجابت :

– معكما !

فشدّ أندريه على شاربه وتطلع إلى بافل ، فأرسل الأخير أصابعه بسرعة في شعره وذهب إليها :

— لن أقول لك شيئاً ، يا أماه ، وأنت . . . لا تقولي لي شيئاً . . . هل اتفقنا ؟

فغمغمت :

— اتفقنا ، اتفقنا ، وليبارككما الله !

٢٧

عندما أصبحت خارج الدار ، وسمعت إلى لغط الأصوات المتحفز المنتظر يرتفع في الهواء ، ورأت تجمهرات الناس عند البوابات وفي نوافذ الدور يتطلعون جميعاً إلى ابنها وأندريه بأعين مستقرئة ، انهمرت لطخ خضر تارة ورمادية تارة أخرى تتراقص أمام عينيها .

وكان الناس يبادلونهما التحية ، فيكمن في الكلمات هذه المرة معنى خاص . وطرق سمعها نتف من الملحوظات المقتضبة التي يتبادلونها بأصوات خافتة :

— ها هما القائدان !

— إننا لا نعلم من هم القادة . . .

— إنني لم أعْنِ ضرراً أو إساءة على الإطلاق !

وصاح صوت متهدج في فناء أحد البيوت :

— الشرطة ستعتقلهم ، فينتهي أمرهم !

— لقد اعتقلوهم مرة !

وقفز من إحدى النوافذ إلى الشارع عويل امرأة مذعورة :

— إنتبه لما تقول ! فأنت لست عزباً مثلهم . . . بل رب عائلة !

مروا أمام دار زوسيموف ، وهو رجل فقد إحدى رجليه ويتقاضى من المصنع مرتباً شهرياً تعويضاً عن آفته التي أصيب بها أثناء العمل ، فإذا هو يمدّ رأسه من إحدى النوافذ ويصيح :

— بافل ، سوف يحطمون رأسك يا وغد ، وبذلك تنال ما تستحق !

فارتعدت فرائص الأم وجمدت في مكانها وقد اندلع في نفسها غضب حاد ، وتطلعت إلى وجه الأعرج السمين المتورم ، فأخفى هذا رأسه سريعاً وهو يرسل شتائم مقذعة . . . لكن الأم حثّت الخطوَ حتى لحقت بابنها ، ومشت في أعقابه جاهدة الا تتأخر عنه .

كان يبدو على بافل وأندريه أنهما لا يلاحظان شيئاً مما يجري حولهما ، ولا يستمعان ضروب الملاحظات التي يرميها الناس عند مرورهما . كانا يسيران في هدوء ودون تسرّع ، ولم يتوقفا إلا مرة واحدة ، عندما التقيا بميرونوف ، وهو رجل متوسط العمر ، متواضع ، يحترمه الجميع لأسلوبه المستقيم في الحياة وسيرته الطيبة . سأله بافل :

— وأنت أيضاً لم تذهب إلى العمل ، يا دانيلو إيفانوفيتش ؟

— زوجتي تنتظر مولوداً . هذا اليوم يحمل القلق والمخاوف !

وتطلع بثبات إلى رفيقيه ، وهو يسأل بصوت خافت :

– يقولون إنكم تنوون إزعاج المدير هذا اليوم . . . فتحطمون بعض النوافذ ، أصحيح هذا ؟

فهتف بافل :

– نحن لسنا سكارى !

وقال الأوكراني :

– نحن ننوي السير عبر الشارع بأعلامنا بكل بساطة ، وإنشاد بعض الأغاني ! إستمع إلى أغانينا ، فهي تعبير عن ايماننا !

فقال ميرونوف مفكراً :

– اعرف ايمانكم من قبل ، ولقد قرأت منشوراتكم .

ثم صاح ، وهو يبتسم للأم بعينيه الذكيتين :

– آه ، يا بيلاجيا نيلوفنا ، أتنضمين إلى العصيان ؟

– لا بدّ لي أن أسير مع العدالة ، ولو مرة واحدة ، قبل أن أموت !

فقال ميرونوف :

– عظيم !يبدو أنهم مصيبون عندما قالوا إنك أنت حملت المنشورات إلى المعمل !

فاستجلى بافل :

– من يقول هذا ؟

– هُم ! هذا ما يقولون . حسناً ، إلى اللقاء . تصرفوا برزانة ودون وجل !

ابتسمت الأم بهدوء ودعة . كان يسعدها أن يقال عنها مثل هذه الأقوال . وقال بافل ، ضاحكاً :

– ستجدين نفسك في السجن يوماً ما ، يا أماه !

استمرت الشمس تتسلق السماء وتسكب دفأها في طراوة اليوم الربيعي المنعشة . وكانت الغيوم تحبو متباطئة وقد ازدادت ظلالها ضياء وشفوفاً . وراحت تدبُّ في هدوء على طول الشارع وفوق سطوح المنازل ، وتظلل الجموع وكأنها تريد أن تطهر الضاحية وتنظفها ، فتغسل الغبار والأوسخة عن الجدران والسطوح ، وتمحو الملل والكرب عن وجوه الناس المتعبة . وأضحى كل شيء أكثر بهجة ومرحاً ، فالأصوات تتردد أكثر ارتفاعاً ورنيناً ، تغرق في لجتها جلبة الآلات ، وزفرات المعمل البعيد .

مرة أخرى راحت الكلمات تتطاير وتدبُّ حول أذني الأم منبعثة من النوافذ والباحات ، بذيئة مضطربة تارة ، حزينة أو مرحة تارة أخرى . فتتلهف الأم كي تنقضها بالحجة الدامغة ، أو توضح الأمور لاولئك الذين يتفوهون بها وتعبّر عن امتنانها لمن يستحقون منهم الشكر والامتنان ، تتلهف بصورة عامة كي تشترك في حياة ذلك اليوم الغريب المتباينة الصاخبة .

كان حشد من الناس يبلغون المائة عدّاً قد تجمهروا عند زاوية زقاق جانبي ضيق يرتفع من بينهم صوت فيزوفشيكوف قائلاً :

– إنهم يستنزفون الدماء منا كما يمتصون العصير من الفاكهة !

كانت كلماته تتساقط بعنف وقوة على رؤوس الناس المحتشدين حوله .

وارتفعت ، في الوقت ذاته ، عدة أصوات قاسية تقول :

– هذا صحيح !

وقال الأوكراني :

– الفتى يبذل كل جهده ، واعتقد اني ساذهب لمساعدته !

وقبل ان يتمكن بافل من اعتراض سبيله ، كان جسده المديد المرن قد اندس في الحشد كالمبزل في غطاء الزجاجة الفليني ، وهتف بصوته الثري الرنان :

– أيها الرفاق ، يقولون إن شعوباً مختلفة تقطن الأرض – يهوداً وجرماناً ، إنكليزاً وتتاراً . ولكني لا أصدق ذلك ! هناك شعبان فقط ، شعبان لا يتوافقان – الغني والفقير ! الناس يختلفون في لباسهم وفي لغتهم ، لكن انظروا كيف يعامل الغني الفرنسي او الانكليزي او الألماني الشعب العامل ، لتتحققوا انهم جميعاً ، بالنسبة إلينا نحن العمال ، اوغاد سفلة ، الا حلت عليهم لعنة الله !

وضحك شخص بين الحشد .

– وإذا نظرتم من جهة اخرى وجدتم العمال الفرنسيين والتتريين والأتراك يعيشون ذات حياة الكلاب التي نعيشها نحن العمال الروسيين !

وازداد عدد الناس الذين يتدفقون من الشارع الرئيسي ، يمطون اعناقهم ويتطاولون على رؤوس اصابعهم دون ان يتفوهوا بكلمة على الإطلاق .

ورفع اندريه صوته قائلاً :

– إن العمال في الخارج فهموا هذه الحقيقة البسيطة . واليوم ، في الأول من أيار . .

– الشرطة !

اندفع اربعة من فرسان الشرطة في الزقاق الجانبي متجهين إلى الحشد مباشرة وهم يلوّحون بسياطهم ويصرخون :

– تفرّقوا !

عبس الناس وهم يفسحون ، باضطرار ، الطريق أمام الجياد المنطلقة ، وتسلق بعضهم فوق الأسوار .

وصاح صوت في جرأة تحدٍ :

– هذه الخنازير على ظهور الجياد تأتينا مزمجرة : افسحوا الطريق فنحن قادة عظام !

ظل الأوكراني وحيداً واقفاً في وسط الشارع وقد اقبل عليه جوادان يهزان راسيهما بقوة ، فوثب جانباً يفسح لهما سبيلاً . عندئذ أمسكت الأم به من يده وجرّته وراءها وهي تتمتم :

– وعدتَ ان تظل إلى جانب بافل ، وهذا انت هنا تفتش وحدك عن المتاعب !

فقال الأوكراني مبتسماً :

– الف معذرة !

سيطر على بيلاجيا تعب مؤلم ينذر بالسوء هبّ من اعماقها وبلغ راسها فجعله يسبح في دوار شديد ، وراح يتناوبها إحساس بالفرح والكآبة ، فتشتاق ان تسمع صفير الغداء يدوي معلناً انتصاف النهار .

بلغوا أخيراً الساحة الكبرى ، حيث تقوم الكنيسة . كان يحتشد وراء سياجها ما يقرب من خمسمائة شخص من الشباب المرحين والأطفال الصغار ، بعضهم وقوف وبعضهم جلوس يتزاحمون في هرج ومرج ، ويتطاولون برؤوسهم في قلق ، ويتطلعون بعيداً وهم ينتظرون بفارغ الصبر شيئاً ما . وكان الجو مشحوناً بالانفعال والهياج ، وبعض الناس يبدون كأنهم لا يدركون ماذا يفعلون ، والآخرون يتخذون مظهر الشجاعة والاستخفاف . وكانت أصوات النساء المكتومة ترتفع فى خفوت ، فيستدير الرجال عنهن في ضجر . وفي حين لآخر تعلو بعض الشتائم الخافتة ، فتحوم فوق الجمهور المتباين المغمور بهزيم ثقيل من العداوة والنفور .

صاحت امرأة بصوت رقيق مرتعش :

– ميتيا ، إشفق على نفسك !

فجاء الجواب بفظاظة :

– دعيني لشأني !

ورنّ صوت سيزوف القاسي هادئاً مقنعاً :

– كلا ، لا نريد أن ننفضّ من حول الفتيان ، فهم أكثر منا إدراكاً وشجاعة أيضاً . من هبّ يدافع عن مصالحنا في قضية كوبيك المستنقع ؟ هم وحدهم ، وهذا ما يجب الا تنساه . ولقد ألقي بهم في السجن من أجل ذلك ، بينما أفاد جميعنا من جرّاء موقفهم !

دوّت الصفارة ، فابتلعت أصوات الناس في هديرها الأسود ، وارسلت في الحشد موجة من الارتعاش الشديد . وانتفض الذين كانوا يجلسون وقوفاً ، وخيم الصمت لحظة على الجميع وقد وقفوا على أهبة الاستعداد ، شاحبة وجوه عدد غفير منهم .

وارتفع صوت بافل القوي الرنان :

– أيها الرفاق !

ولفحت غشاوة حارة عيني الأم ، وفجأة احست جسدها قوياً فاسرعت بحركة وحيدة سريعة تتخذ مكانها خلف ابنها . واستدار الجميع نحو بافل وأحاطوا به مثل بُرادةَ الحديد وهي تنجذب نحو المغناطيس .

تطلعت الأم إلى وجه فتاها تلاحظ عينيه الفخورتين الجريئتين ، الملتهبتين بنار متأرثة عظيمة :

– أيها الرفاق ، لقد قررنا أن نعلن اليوم للملأ ، في صراحة تامة ، عن هويتنا ؛ وأن نرفع اليوم رايتنا ، راية العقل والعدالة والحرية !

واندفعت في الفضاء عصاً بيضاء طويلة انتصبت هنيهة ثم هوت وغابت بين الجماهير ، فشطرتها وتوارت بينها برهة وجيزة قبل ان ترفرف راية الشعب العامل الحمراء ، كأجنحة طائر قرمزي كبير ، فوق الرؤوس المرتفعة والوجوه الناظرة إلى العلاء .

رفع بافل ذراعه ، فخفقت الراية ، واندفعت عشرات الأيدي تمسك الخشب الأبيض الناعم ، وكانت يد الأم في عدادها .

هتف بافل بأعلى صوته :

– عاش الشعب العامل !

فزمجرت مئات الأصوات ترجيع هتافه .

– عاش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي ، حزبنا أيها الرفاق ، وينبوع أفكارنا !

وثارت حميّا الجماهير ، فاندفع الذين أدركوا معنى الراية يشقون طريقهم نحوها . وسرعان ما كان مازين وصمونيلوف والأخوان جوسيف يقفون إلى جانب بافل .

وشقّ نيقولاي طريقه ، منخفض الرأس ، خلال الحشد ، فيما أحست الأم بفتيان ملتمعي العيون لا تعرفهم يدفعونها جانباً في انطلاقهم نحو الراية . . .

صاح بافل :

– عاش عمال العالم !

فتلقى الجواب صيحة عميقة خرجت من آلاف الحناجر ترنّ في فرح وقوة ، وتلهب في النفس الحماسة والتأثر .

امسكت الأم بيد نيقولاي وشخص آخر ، وهي تغصّ بالعبرات . ولكنها لم تبكِ . . وراحت ركبتاها ترتجفان ، وهي تغمغم من خلال شفتين مرتعشتين :

– يا أعزائي . . .

وانتشرت على وجه نيقولاي المجدور ابتسامة عريضة ، وطفق يتمتم بشيء ما ناظراً إلى الراية ، مادّاً يده في اتجاهها . وعلى حين غرة ، ألقى بيده هذه على عنق الأم ، واندفع يقبّلها ، وهو يضحك أثناء ذلك .

قال الأوكراني ، مقاطعاً زمجرة الحشد ، بلكنة حديثه الأوكراني الرخيمة العذبة :

– أيها الرفاق ! لقد بدأنا مسيرة مظفرة باسم إله جديد ،إله النور والعقل ، إله المحبة والحقيقة . إن هدفنا

الأخير لبعيد جداً ، اما إكليل الشوك ففي متناول اليد . فان فقد أحد الأيمان بانتصار الحقيقة ، إن فقد أحد الشجاعة على إعطاء حياته إلى الحقيقة ، إن ارتاب أحدٌ بقواه الخاصة وانتابه الخوف من العذاب ، فليخرج من صفوفنا إذن ، وليقف جانباً ! نحن نتوجه إلى أولئك الذين يؤمنون بانتصارنا من دون سواهم ، وأولئك الذين لم يدركوا رؤيانا عن المستقبل لا يملكون المسير معنا ، لأنهم لن يدركوا سوى الحزن والكآبة وحدهما . انضموا إلى الصفوف ، أيها الرفاق ! عاش عيد الانسانية الحرة ! عاش أول أيار !

وازداد الحشد تكاثفا فرفع بافل الراية عالياً وسار بها إلى الامام ، فانبسطت وراحت تخفق مغمورة بأشعة الشمس ، فكانت تشبه ابتسامة عريضة لطيفة . .

وشرع فيدور مازين يُنشد بصوته الرنان :

فلنتخلص من العالم القديم إلى الأبد . . .

فانضمت إليه عشرات الأصوات في قوة ولهفة :

ولننفض غباره عن اقدامنا ! . .

كانت الأم تسير وراء مازين ، وابتسامة سعيدة تمرح على شفتيها ، وعيناها تسعيان – من وراء رأس فيدور – نحو الراية ونحو فتاها . كان كل ما يحيط بها وجوهاً فرحة وعيوناً براقة . بينما ولدها واندريه يسيران في المقدمة فتستطيع

ان تسمع إلى كليهما ينشدان ، وصوت أندريه الجهوري الرنان يذوب مع صوت بافل الخفيض العميق :

إنهضوا إلى النضال يا أيها العمال ، انهضوا انهضوا ،
يا أيها الجياع ، وثوروا ! . .

وهرع عدد كبير من الناس لملاقاة الراية الحمراء عدْواً ، وهم يصيحون أثناء ركضهم ، فينضمون إلى السائرين ، وتندغم هتافاتهم مع أصداء النشيد – ذلك النشيد الذي كانوا يغنّون بأصوات مكتومة في المنزل ، والذي يتعالى الآن في الشارع بقوة عنيفة لا تعبأ بالعقبات . كان يتردد بجرأة لا يكبح لها جماح ، يدعو الناس إلى الطريق الطويلة المؤدية نحو المستقبل ، معلناً لهم في الوقت نفسه – بكل صراحة – مبلغ ما ستكون عليه هذه الطريق من صعوبة وعناء . كان لهيب النشيد الهادىء يحرق سائر فحوم الماضي السود ، ويذيب كل ما ألف الناس من إحساسات تقليدية ، ويحيل الخوف من كل جديد في الحياة هباءً منثوراً . . .

وتارجح إلى جانب الأم وجه شخص مذعور ، لكنه سعيد مغتبط ، فيما هتف صوت مرتجف مجهش في البكاء :

– ميتيا ، إلى أين أنت ذاهب ؟

فقالت الأم ، دون أن تتوقف عن المسير :

– دعيه يذهب ، لا تقلقي من أجله ! لقد كنت أخاف مثلك في البدء – إن ولدي هناك في المقدمة – وهو الذي يحمل الراية !

وارتفع صوت يقول :

– إلى أين أنتم ذاهبون ، أيها المجانين ؟ إن الجنود ينتظرون غير بعيد هناك !

وفجأة أمسكت المرأة الناحلة الطويلة يد الأم بيدها الجافة ، وصاحت :

– أواه ! اسمعي اليهم كيف ينشدون ! يا إلهي ، وميتيا ينشد بينهم أيضاً . . .

فحثتها الأم بقولها :

– لا تجزعي ! فهذا عمل مقدس . . . فكري ، أكان ثمة مسيح لو لم يلقَ الناس حتفهم من أجله ؟

ولمعت تلك الفكرة بغتة خلال ذهنها ، وأذهلتها بحقيقتها الواضحة البسيطة ! رفعت نظرها نحو وجه المرأة التي لم تفلت بعد يدها ، وعادت تقول وشفتاها تفتران عن ابتسامة دهشة وعجب :

– لو لم يمت الناس من أجل المسيح ، من أجل الرب ، لماكان ثمة مسيح أبداً !

وظهر سيزوف إلى جانبها . قال ، وقد رفع قبعته وراح يلوح بها في الهواء في توافق مع إيقاع النشيد :

– إنهم يعملون على المكشوف هذا النهار ، أليس كذلك ؟ وينشدون اغنية ، ويا لها اغنية ، يا أماه ! ما رايك ؟

القيصر في حاجة إلى الجنود لحروبه ،
فارسلوا إليه أبناءكم إذن . . .

قال سيزوف :

– إنهم لا يخافون شيئاً ! وابني المسكين ينام في لحده . . .

راح قلب الأم يخفق بشدة حتى اضطرت إلى التباطؤ عن الآخرين . وسرعان ما دُفعت جانباً ، وألقيت على أحد الأسوار . بينما الناس يتدفقون أمامها مثل موجة شاسعة الابعاد . كان ثمة عدد لا يحصى منهم ، فامتلأت جوانحها غبطة وسعادة .

انهضوا إلى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا !

كان يتراءى ان بوقاً ضخماً من النحاس يصبُّ ذلك النشيد في الهواء صباً فيوقظ الناس ، ويبعث في بعضهم استعداداً للقتال ، وفي الآخرين فضولاً وتشوقاً لاهبين ، وتوقعاً سعيداً غامضاً لحَدثٍ جديد . كان يوقظ هنا آمالاً مترددة ، ويفتح هنالك سبيلاً واسعاً لما تراكم من الغضب خلال السنين . وكانت الأنظار جميعها تتطلع إلى حيث ترفرف الراية الحمراء يخفق بها النسيم العليل ويلهو .

زمجر صوت يلتهب حماسة :

– ها هم يسيرون ! ما أروعكم ، أيها الفتيان !

واذ كان صاحب الهتاف يجيش بإحساس عظيم جداً يصعب التعبير عنه بالكلمات العادية ، فقد طفق يعبِّر عنه بالشتائم المغلَّظة . ولكن حقداً أعمى أيضاً ، حقد العبودية

المظلم ، راح يفحُّ كالأفعى التي أزعجها ضياء الشمس ، ويتلوَّى في كلمات دنيئة شريرة . . .

صاح بعضهم بصوت ابح ، من نافذة احد المنازل ، وهو يهزُّ قبضته في الفضاء :

– يا للهراطقة !

وقرع سمع الأم صوت صارخ ظل يتردد في أذنيها تردداً حاداً :

– يثورون ضد جلالة الامبراطور ، ضد جلالة القيصر ؟ ينظمون عصياناً ؟

كانت تلمح ، في نظرات خاطفة ، وجوهاً مضطربة تتلاحق أمامها ، ورجالاً ونساءً ينصبون في حشد متزايد الكثافة باستمرار كحمم بركان ثائر ، يجرهم النشيد الى الأمام دائماً ، فكان هذا النشيد يجرف كل شيء من أمامه ويجلو الطريق بقوة انطلاقه العاتية . وتصورت وجه ابنها دون أن تراه ، وهي تتطلع الى الراية الحمراء المرفرفة في المقدمة . وتخيلت جبينه البرونزي ، وعينيه اللامعتين ، وقد برقت جميعاً بنار الايمان اللاهبة .

وجدت نفسها أخيراً في مؤخرة الموكب ، بين أناس يسيرون على مهل ، ويتطلعون في لامبالاة المتفرجين الذين يدركون نهاية القصة فلا تثير فضولهم . كانوا يتكلمون بصوت غير عالٍ ، وبقناعة تامة مطلقة :

– ثمة ثلة من الجند تتواجد بالقرب من المدرسة ، وثلة اخرى بالقرب من المعمل . . .

– لقد جاء الحاكم . . .

– حقاً ؟

– لقد رأيته بأمّ عينيّ ، وصل قبل برهة وجيزة !

– لا ريب انهم طفقوا يرهبوننا . الا تصوروا – الجنود والحاكم . . .

وارسل المتكلم بعض الشتائم المرحة .

وقالت الأم في نفسها :

– يا لكم من نفوس طيبة !

لكن الكلمات التي سمعتها ترددت ميتة باردة ، فاستحثت خطاها بغية الابتعاد عن هؤلاء القوم ، فلم يصعب عليها تجاوزهم ، لشدة تماهلهم وتكاسلهم في المسير .

وفجاة ، تراجع الموكب الى الخلف وهو يرسل زمجرة خافتة متوعدة ، وكأن مقدمته اصطدمت بشيء ما . وارتعش النشيد قليلاً ، كي يعود فيتصاعد أكثر ارتفاعاً وأسرع نغماً منه قبلاً . ثم عادت الموجة الرنانة فخبت من جديد ، وسكتت الأصوات الواحد تلو الآخر عن الانشاد ، وارتفعت هتافات متفرقة هنا وهناك تحاول أن تردّ إلى النشيد عظمته السابقة ، وأن تستمرّ فيه قدماً :

إنهضوا إلى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا انهضوا ،
يا أيها الجياع ، وثوروا ! . . .

ولكن هذا النداء كان ينقصه الارادة المشتركة ، والأيمان المتراص . وكانت الأصوات فيه مشوبة بالقلق .

لم تعد الأم ترى شيئاً ، ولا استطاعت أن تعرف ما

أصاب الموكب في صفوفه الأمامية ، فراحت تدفع المشاة جانباً ذات اليمين وذات اليسار ، وتشقّ طريقها قدماً إلى الأمام ؛ فلا تفتأ تصطدم ، في تقدمها ، بقوم يتراجعون ، وقد عبس بعضهم وطأطأ الرؤوس ، وراح بعضهم الآخر يبتسم ابتسامة الفشل والهزيمة ، وفريق ثالث يصفر ساخرا هازئا . شرعت تتفرس في وجوههم بحزن ، وعيناها مليئتان بالاستفهام ، والرجاء ، والدعاء . . .

وارتفع صوت بافل يقول :

– يا أيها الرفاق ، ان الجنود أناس مثلنا ، ولن يمسونا بسوء . ولمَ يفعلون ذلك ؟ لأننا ننادي بحقيقة تنطبق على الجميع دون تفريق ؟ إنهم يحتاجون إليها مثل حاجتنا ، ولعلهم لم يدركوها بعد . ولكن الزمن الذى ينضمون فيه إلى صفوفنا تحت راية الحرية ، بدلاً من أن يقاومونا تحت راية القتل والسرقة ، هذا الزمن ليس ببعيد . وينبغي لنا ، كي نعجّل في إدراكهم لهذه الحقيقة ، أن نتابع مسيرنا إلى الأمام ، أيها الرفاق ، دائماً إلى الأمام !

كان صوت بافل يتردد في ثبات وعزم ، وكلماته ترن حادة واضحة ، ومع ذلك انفرط عقد الحشد . واخذ الناس ، الواحد تلو الآخر ، يتركون الصفوف ويتجهون إلى البيوت أو يستندون إلى الأسوار . واتخذ الموكب الآن شكل الإسفين وبافل في رأسه . ترفرف الراية الحمراء بتألق فوق رأسه ، راية الشعب العامل . أو لعل الموكب كان يشبه بالأحرى طيراً أسود منشور الجناحين يتهيأ للطيران . وكان بافل يمثل منقار ذلك الطير .

رات الأم ، في نهاية الشارع ، جداراً رمادياً رتيباً مؤلفاً من أناس لا وجوه لهم يسدون المنفذ إلى الساحة العامة ، ينِدُّ عن كتف كل واحد منهم لمعان حربة رقيقة باردة . وكان ذلك السور الصامت العديم الحركة ينفث ريحاً باردة تغمر العمال وترسل في قلب الأم قشعريرة عنيفة .

شقت طريقها بين الحشد ساعية إلى بلوغ الراية ، والالتحاق بالقوم الذين تعرفهم ، والذين اختلطوا بقوم آخرين لا تعرفهم وكأنهم ينتظرون العون منهم ، فإذا هي تلتصق برجل أعور ، طويل القامة ، حليق الذقن ، التفت نحوها نصف التفاتة ينظر إليها من طرف عينه ، ثم قال :

– ماذا تريدين ؟ من أنت ؟

فقالت ، وهي تحسُّ رجفاناً في ركبتها ، وعجز عن ضبط شفتها السفلى :

– إني أم بافل فلاسوف !

فأبانَ الرجل الأعور :

– آه !

هتف بافل :

– أيها الرفاق ، يجب أن نستمر على التقدم إلى الأمام طوال حياتنا ، وليس هناكِ اي اتجاهٍ آخر امامنا !

أضحى الجو هادئاً متحفزاً ، وارتفعت الراية عالياً في الهواء ، وترنحت لحظة قصيرة ، ثم خفقت فوق رؤوس القوم

وهي تنطلق بثبات واستقامة نحو جدار الجنود الرمادي ، فارتجفت الأم وأغمضت عينيها وهي ترسل أنيناً عالياً . . . إن اربعة اشخاص ليس غير ، هم بافل واندريه وصمونيلوف ومازين ، قد انفصلوا عن الحشد المتجمهر .

واخترق الهواء، صوت مازين الواضح رناناً هادئاً :

لقد سقطتم ضحايا نبيلة . . .

فارتفع الجواب ، مثل زفرة عميقة من عدة أصوات خافتة ، وكأنه أنين ثقيل :

في هذا القتال الرهيب . . .

وتقدم الأربعة في خطوات موزونة مع لحن النشيد الجديد يطفح عزماً .

وتدحرج صوت فيودور مثل شريط لامع :

لقد أعطيتم كل ما تملكون . . .

فانضمت اليه أصوات رفاقه في البيت التالي :

في سبيل الحرية . . .

فصاح احدهم في وقاحة وخبث من جانب :

– آه ، انهم ينشدون مرثاة ، أبناء الكلاب هؤلاء !

فهتف صوت غاضب :

– لتضربوه !

ضغطت الأم يدها على صدرها وتطلعت حولها . فوجدت الجماهير التي كانت تغمر الشارع بأسره قبل قليل ، قد ثبتت في مراكزها الآن مترددة تراقب الأربعة وهم يتقدمون برايتهم ، فلا يلحق بهم إلا بضع عشرات من الناس فقط ، يتخلف واحد منهم في خطوه ، فكأن بلاط الشارع يلتهب ويحرق نعال أحذيتهم .

ولسوف يوضع للعنف حد . . .

تنبأ النشيد بذلك على لسان فيودور ، فردّ عليه جوق من الأصوات القوية العنيفة يقول في لهجة وعيد :

وسينهض الشعب من غفوته ! . .

لكن همساً حذراً كان يمتزج بالنشيد :

– القائد يتأهب لإصدار أوامره . . .

وفي اللحظة نفسها ، علا صراخ حاد في المقدمة يأمر :

– خفضوا البنادق !

فخفضت الحراب في موجة واحدة واستقبلت الراية بابتسامة فولاذية ماكرة :

– إلى الأمام سِرْ !

فقال الرجل الأعور ، وهو يدسّ يديه في جيبيه ويمضي بخطا واسعة إلى جانب الطريق :

– ها هم انطلقوا !

وراحت الأم تراقب ما يجرى امام عينيها دون أن يرتعش لها جفن .

لقد انتشرت موجة الجنود الرمادية على عرض الشارع كله ، وطفقت تتقدم في حزم بارد ، يلتمع المشط الفضي في مقدمتها . واخذت الأم بخطوات سريعة قليلة تقترب من ابنها ، فرات أندريه يتقدم إلى الأمام منه يحميه بجسده المديد . بيد أن بافل صاح به في حدة وقسوة بالغتين :

– عُدْ الى مكانك ، أيها الرفيق .

كان أندريه يُنشد وقد ألقى رأسه إلى الخلف ، ووضع يديه خلف ظهره ، فدفعه بافل بكتفه ، وصاح مرة أخرى :

– عُدْ الى مكانك ، فليس لك الحقّ في أن تفعل هذا . يجب أن تكون الراية في الطليعة !

وصاح ضابط قصير بصوت حاد ، وهو يلوّح بسيفه :

– تفرّقوا !

كان يسير وهو يرفع قدميه عالياً ، دون أن يثني ركبتيه ، ضارباً الأرض بعنف وقسوة بنعْلي حذائه . ولفت أنظارَ الأم لمعانُ هذا الحذاء .

وكان رجل طويل ، حليق الراس ، رمادي الشارب الكث ، يسير إلى جانبه في تثاقل ، متأخراً عنه قليلاً ، يرتدي معطفاً رمادياً طويلاً أحمر البطانة ، وسروالاً عريضاً يمتد على جانبيه شريط أصفر . كان يتقدم ويداه خلف ظهره ، مثل الأوكراني تماماً ، وعيناه مثبتتان في بافل ، وحاجباه الاشيبان الكثيفان مرتفعان في تقطيبة استياء .

استطاعت نظرة الأم ان تستوعب كل ما تراه عيناها . أما صدرها فقد امتلأ بصيحة عالية تهدّد ، في كل زفير ، أن تفلت منجرة بكل قوة وعنف . . . وكانت تلك الصيحة تضيّق الخناق عليها فتضغط على صدرها بشدة لتردّها وتمنعها من الانطلاق . وراح الناس يتدافعونها فتتمايل يمنة ويسرة وهي تتقدم دون تفكير ، بل دون وعي تقريباً . واحسّت الحشد يهزل من ورائها دون انقطاع ، فكأنما تلك الموجة الباردة الزاحفة لملاقاته تبعثره وتكنسه .

تقدمت الجماعة ذات الراية الحمراء إلى الأمام قدُماً فيما الموجة الصلبة المصنوعة من القوم الرماديين تقترب كذلك باستمرار حتى استطاعت الأم رؤية وجهها ، هذا الوجه المشوه الذي تهشم إلى شريط وسخ اصفر اللون ينتشر على عرض الشارع كله ، تنفّطه هنا وهناك اعين متباينة الألوان . وإلى الأمام منهم كانت اسنان الفولاذ الرهيبة تلتمع ، وهي مصوبة نحو صدور المشاة تقطعهم الواحدة في إثر الآخر حتى قبل ان تمسهم ، فتفرّق الجماهير بذلك وتشتتها .

وسمعت الأم اناساً يتراكضون خلفها ، واصواتاً مضطربة تصيح :

– تفرقوا ، ايها الفتيان . . .

– اهرب ، يا فلاسوف ! .

– عُدْ ، يا بافل !

وقال فيزوفشيكوف في كآبة :

– انزل الراية ، يا بافل ، اعطني إياها وسأخفيها !

امسك بالعصا . فاضطربت الراية ومالت إلى الخلف قليلاً .

زعق بافل :

– اتركها !

فردّ نيقولاي يده إلى الخلف وكان لهيباً محرقاً أصابها . ومات النشيد ، وتوقف القوم عن المسير وقد احاطوا بافل بطوق كثيف ، بَيْدَ انه شقّ طريقه من جديد قدُماً . وعلى حين غرة ، ساد صمت مطبق فكأنه وقع من علٍ ولفّ الجميع في سحابة شفافة غير منظورة .

كان ثمة عشرون رجلاً تقريباً – لا اكثر يحتفون بالراية ، قد ثبتوا في مراكزهم في عزم وتصميم . وجذبت الأم إليهم يدفعها ما يعمّر قلبها من قلق عارم وتستحثها رغبة غامضة في ان تقول لهم شيئاً ما . . .

قال الرجل العجوز الطويل بصوت هادئ ، مشيراً الى الراية :

– ايها الملازم ، خُذْ هذا الشيء منه !

فركض الملازم القصير إلى بافل وأمسك بالعصا ، زاعقاً :

– أعطني هذه !

فقال بافل في صوت مرتفع :

– إرفع يديك عنها !

اضطربت الراية ، برّاقة ، في الفضاء ؛ وتمايلت ذات اليمين وذات اليسار ، ثم عادت فارتفعت مستقيمة من جديد ، بينا قفز الملازم القصير الى الوراء بعنف ثم وقع أرضاً ،

وركض نيقولاي امام الأم بسرعة ، على غير عادته ، وهو يهزّ قبضته .

صاح الرجل العجوز ، وهو يضرب الأرض بقدمه :

– القوا القبض عليهم !

فركض عدة جنود الى الأمام ، ولوّح أحدهم بعقب بندقية . . . فترنحت الراية ، وسقطت الى الأمام ، واختفت في كتلة الجنود الرمادية .

هتف بعضهم في مرارة :

– آه !

واطلقت الأم عويل حيوان جريح ، فجاء صوت بافل الواضح من بين الجنود يردّ عليها :

– إلى اللقاء ، يا أماه ! الى اللقاء ، يا حبيبتي . . .

وانبثقت في خاطر الأم فكرتان : «انه لا يزال حياً ، وهو يذكرني !»

– إلى اللقاء ، يا أُميمتي !

فتطاولت الأم على رؤوس اصابعها كي تلمحهما مرة أخيرة ، فرأت من فوق رؤوس الجنود وجه أندريه . كان يبتسم وينحني لها .

صاحت :

– آه ، يا عزيزيّ . . . أندريوشا . . . باشا . . .

فهتف بعضهم من بين الجنود :

– إلى اللقاء ، أيها الرفاق !

فأجابه صدى متعدد الموجات ، انطلق من النوافذ ، ومن مكان إلى الأعلى منها ، ومن السطوح ذاتها .

٢٩

دفعها بعضهم في صدرها ، فتبينت من خلال السحابة التي تغشي عينيها وجه الضابط القصير الأحمر المنتفخ . كان يقف أمامها ويصيح :

– هيّا تواري ، يا امرأة !

فغمرته بنظراتها ، وبصرت بعصا الراية محطمة عند قدميه وقد علقت بإحدى نهايتها قطعة من القماش الأحمر ، فانحنت مسرعة وتناولتها . لكن الضابط انتزعها من يدها ورماها جانبا وهو يزمجر ويضرب الأرض بقدميه :

– إذهبي ، أقول لك !

فارتفع من بين الجنود إنشاد مجلجل :

انهضوا إلى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا . . .

فترنح كل شيء ، وسبح وارتجف ، وامتلأ الجو بزمجرة متوعدة أشبه بطنين الأسلاك البرقية ، واندفع الضابط هادراً في غضب :

– كفوا عن الإنشاد . . . أيها الرقيب كريتوف . . .

واندفعت الأم ، مترنحة ، إلى حيث ألقى بقطعة الراية والتقطتها من جديد .

– سُدّ لهم حلوقهم الفاجرة !

اختلطت الأغنية ، وارتعشت ، ثم تقطعت وتلاشت . . .

وامسك بعضهم بالأم من كتفها ودار بها ثم راح يدفعها في ظهرها ، قائلاً :

- إمضي ، إمضي .

وزعق الضابط :

- هيا ، اتركوا الشارع !

التقت الأم ، على بعد عشر خطوات ، حشداً آخر من الناس . كانوا يرسلون الصياح ، والشتائم ، والصفير ، وهم يعودون ادراجهم متماهلين عبر الشارع ويختفون في باحات المنازل .

صاح جندي شاب مرسل الشاربين في اذن الأم تقريباً ، وهو يدفعها جانباً نحو الرصيف :

- هيا تحركي ، أيتها الشيطانة . . .

سارت الأم وهي تعتمد عصا الراية مسترخية الركبتين ، وتتمسك بيدها الأخرى بالأسوار وجدران الدور حتى لا تسقط ارضاً . واستمر الناس يتراجعون إلى الأمام منها ، والجنود يسيرون إلى جانبها وإلى الوراء منها ، وهم يصيحون دون انقطاع :

- إمضي ، إمضي . . .

تركت الجنود يتجاوزونها ، ثم توقفت والقت حواليها نظرة فاحصة . كان أفراد آخرون من الجنود يقفون في صف واحد في نهاية الشارع يسدون مدخل الساحة الكبيرة المقفرة ، وإلى الأمام كانت الأجساد الرمادية تتقدم ببطء مقتربة من الناس المتقهقرين . . .

اشتاقت أن تعود على أعقابها ، لكنها شرعت مرة أخرى دون وعي منها أو إرادة ، تسير قدماً حتى بلغت زقاقاً جانبياً ضيقاً خالياً ، فانعطفت فيه .

وقفت فيه مرة أخرى ، وصعّدت زفرة عميقة ، واصاخت بسمعها . كانت همهمة حشد من الناس تبلغ أذنيها ، آتية من مكان ما ، هناك ، غير بعيد عنها .

وانطلقت من جديد ، تتوكأ على العصا دائماً ، متصببة عرقاً على حين غرة يرتجف حاجباها ، وتتحرك شفتاها وتضطرب يداها في حركات متناسقة ، بينما كلمات ملتهبة تومض كلمعان البرق خلال ذهنها ، وهي تنمو حجماً باستمرار حتى اندلعت في لهيب رغبة جموح عاتية تطلب البوح بتلك الكلمات ، والهتاف بها عالياً ، على رؤوس الأشهاد . . .

انعطف الزقاق الجانبي ، بغتة إلى اليسار . . . وعند الزاوية بصرت الأم بجمع غفير من الناس .

قال بعضهم في صوت مرتفع قوي النبرات :

- المرء لا يتقدم لملاقاة صف من الحراب من أجل التسلية وحدها ، أيها الإخوان !

- يا إلهي ! ارأيتموهم والحالة هذه ! كانت الحراب تتجه نحوهم مباشرة . وهم يقفون هناك ، أيها الإخوان ، ولا اثر للخوف في قلوبهم . . .

- ياله من بافل !

- والأوكراني ؟

- يداه وراء ظهره ، وهو يبتسم طوال الوقت ، ذلك الشيطان !

صاحت الأم ، وهي تشقّ طريقها إلى وسطهم :

- أيها الأعزاء ! أيها الناس !

فتنحىء الناس ، في احترام ، يوسعون لها الطريــق .

وضحك احدهم وقال :

– انظروا ، لقد اخذت الراية ، إن الراية بين يديها !

فنبر صوت في جفوة :

– صمتاً !

فتحت الأم ذراعيها واسعتين ، وراحت تقول :

– إسمعوا ، محبة بالمسيح ! انتم جميعاً أيهـا الناس الأعزاء ، افتحوا عيونكم جيداً وانظروا دون ذعر إلى ما حدث اليوم . إن اولادنا ، فلذات اكبادنا ، خرجوا إلى العالم باسم العدالة – العدالــة لسائر الناس ! خرجوا في سبيلهــم جميعاً . . . وفي سبيل اولادكـم ولقد حملوا هذا الصليب سعياً وراء ايام اكثر إشراقاً . إنهم يريدون حياة اخرى – الحياة في الحقيقة والعدالة ، وإنه الخير العميم للشعب بأسره ما يطلبون !

كان قلبها يتارث في صدرها ، وحنجرتها ملتهبة جادة . وفي اعماق اعماقها كانت كلمات جديدة تولد ، كلمات حب يضمُّ كل شيء في احضانه ويغمر سائر الكائنات ، فتلذع لسانها لذعاً تضطره إلى النطق في حرية وقوة تعبير تتضاعفان باستمرار .

استطاعت ان تراهم ينصتون جميعاً في صمت وهدوء ، ادركت ان هؤلاء المتجمهرين حولهـا يفكرون ، فولدت في داخلها رغبة اضحت الآن تعيها بكل وضوح ، رغبة تناديها أن تحثهم وتدفعهم نحو ابنها واندريه وسائر اولئـك الفتيان الذين تركوهم وحدهم وسط الجنود وقفلوا راجعين .

استرسلت تقول في قوة وعذوبة ، وهي تتفرس في الوجوه العابسة المنتبهة المحتفة بها :

– إن ابناءنا خرجوا قدماً إلى العالم يبحثون عن الفرح ويفتشون . وفي سبيل الجميع خرجوا ، وفي سبيل حقيقـة المسيح ايضاً . إنهم يسيرون ضد كل شيء يخنقنا به أشرار هذا العالم الكاذبون الجشعون ، ويقيدون أيدينا ويضغطون علينا . . . ايها القوم الأعزاء ، إن ابناءنا نهضوا في سبيل الشعب كله ، في سبيل العالم أجمع ، في سبيل العمال حيثما وجدوا . لا تتركوهـم ، لاتنكروهم ، لا تتركوا أبناءكم على الطريق وحيدين منفرديـن . ارحموا أنفسكم ، وثقـوا وآمنوا بقلوب أبنائكم الذين اعطوا الحقيقـة مولداً ، هذه الحقيقة التي يضحون بحياتهم في سبيلها بكل طيبة خاطر . . . آمنوا بهم !

وتكسّر صوتها ، وترنحت خائرة القوى ، إلا أن بعضهم اسرع يمسك بها ويسندها . . .

صاح احدهم في صوت منفعل أجش :

– هذا صوت الله يتكلم ، أيها القوم الطيبون ، إنه صوت الله فاسمعوا !

وقال آخر في لطف وحنان :

– انظروا كيف تعذّب نفسها !

فأجاب آخر لائماً :

– إنها لا تعذب نفسها ، بل تقصد افهامنا . يا لنا من اغبياء ! سعيها ان ندرك !

وصاحت امرأة في صوت مرتفع يرتعش :

– أيها المسيحيون المؤمنون ، إن ولدى ميتياً . . . روح طاهرة نقية . ماذا ارتكب من شر ؟ لقد لحق برفاقه ، هم الذين يحبهم . . . إنها تقول الحقيقة . . . لماذا يجب أن نتخلى عن ابنائنا ؟ ما هو الاذى الذي الحقوه بنا ؟

طفقت الأم ترتجف حين سمعت هذه الكلمات ، وراحت تبكي في هدوء وسكينة .

قال سيزوف بصوت مرتفع :

– إمضي إلى البيت ، يا بيلاجيا نيلوفنا ! إذهبي ايتها الأم ، لقد تعبتِ اليوم !

كان محياه شاحباً ولحيته مشعثة مرتجفة . انتصب فجاة ، وقطّب جبينه ، والقى حواليه نظرة صارمة ، ثم قال في لهجة واضحة :

– إنكم تعرفون جميعاً كيف قُتل ابني ماتفي في المعمل . ولكنه لو كان حياً ، لأرسلته بنفسي وراء هؤلاء الآخرين ، وقلت له بنفسي إذن : إذهب انت الآخر يا ماتفي ، فهذه هي الطريق الحقة الوحيدة ، الطريق الشريفة الوحيدة !

جنح الى الصمت فجاة ، فاضبّ الباقون جميعاً وفي سيمائهم كآبة ، يعتصرهم شيء جديد جبار لم يعودوا يخافون منه ابداً . . . وهزّ سيزوف قبضته في الهواء ، وتابع :

– إنه لشيخ عجوز هذا الذي يخاطبكم ، وأنتم جميعاً تعرفونني . إني اعيش على هذه الأرض منذ ثلاثة وخمسين عاماً ، واعمل هنا منذ تسعة وثلاثين . وفي هذا اليوم اعتقلوا ابن اخي مرة اخرى ، وهو فتى طيب ذكي . لقد كان ، هو

الآخر ، يسير في المقدمة إلى جانب فلاسوف ، وراء الراية تماماً . . .

وتراخى بحركة من يده ، ثم امسك بيد الأم وأضاف :

– إن ما قالت هذه المرأة هو الحقيقة بعينها . يريد ابناؤنا أن يعيشوا شرفاء ، بحسب العقل والمنطق . ومع ذلك تخلينا عنهم . لقد هربنا . هذا ما نفعل ! إمضي ، يا بيلاجيا نيلوفنا . . .

فاذاعت ، وهي تنظر حولها بعينين محمرتين من البكاء :

– ايها القوم الطيبون ، ان الحياة لأبنائنا ، والأرض لهم ايضاً !

فقال سيزوف ، وهو يناولها ما تبقى من الراية :

– امضي ، يا بيلاجيا نيلوفنا . خذي ، هذه عصاك .

اخذ الناس يراقبون الأم في ألم واحترام وهم يشيّعونها بدويّ من الملاحظات المشفقة . وشقّ سيزوف الطريق امامها في سكون ، والناس يتنحون لها جانباً دون أن ينطقوا بكلمة واحدة . . . ثم لحقوا بها بلا تسارع ، تجذبهم قوة غامضة على طوال الشارع ، وهم يتبادلون أثناء ذلك بعض الملاحظات المقتضبة بأصوات خافتة هامسة .

عندما بلغوا بوابة بيتها استدارت إليهم ، وانحنت وهي تعتمد على العصا ، ثم قالت بنغمة رقيقة تطفح امتناناً :

– شكراً لكم . . .

وإذ تذكرت مرة اخرى تلك الفكرة الجديدة ، الفكرة الجديدة التي خيل إليها انها ولدت في اعماق قلبها ، اضافت :

– ما وُجد الرب يسوعُ لو لم يقدّم البشر حياتهـم في سبيل مجده . . .

فنظر إليها الحشد في صمت .

انحنت مرة أخرى لهم ، ثم دلفت إلى دارهـا ، فخفض سيزوف راسه ولحق بها .

وبقي الناس حيناً عند البوابة يتحدثون .

ثم انصرفوا في خطوات بطيئة متثاقلة .

القسم الثاني

١

انقضت بقية النهار في ضباب كثيف من الذكريات ، وفي عناء مثقل أطبق على روحها وجسدها جميعاً . كانت بقعة رمادية تمثّل الضابط القصير تتراقص أمام عينيهـا ، وإلى جانبها يُضيء محيا بافل البرونزي ، وتبسم عينا أندريه الضاحكتان .

هامت على وجهها في أرجاء الغرفة ، تجلس إلى النافذة تارة تتطلع إلى الشارع ، ثم تنهض من جديد تجوس في الغرفـة معقودة الحاجبين ، تجفل وهي تتطلع هنا وهناك على غير هدى كأنها تبحث شاردة الذهن عن شيء ما . وأقبلت على الماء تعبُّ منه ، فلا يروي ظمأها ، ولا يُطفىء ذلك الأتون مـن الأذية واللهفة المُستعر في صدرها . لقـد فُلق اليوم إلى شطرين ، كان الشطر الأول منهما يملـك معنى ومحتوى ، ولكن كل المعنى تبخر من الشطر الثاني وتلاشى ، فإذا هي في فراغ يائس مؤلم يفغر الآن فاه أمامها ، ويبعث فيهـا هذا السؤال صارخاً دون أن يتلقى جواباً :

«ما العمل الآن ؟ . . .»

جاءت كورزونوفا ، فلوّحت بيديها وأكثرت من الصراخ ، وبكت واستغرقت في حماسة عظيمة ، وضربت الأرض بقدميها ، وتوعدت شخصاً ما ، وتعهـدت بأمور عديـدة ، وقدمت

الاقتراحات تترى ، غير أن شيئاً من هذا كله لم يحرّك في الأم ساكناً .

صاحت البائعة بصوتها الحاد :

– نعم . لقد وخزهم ذلك ،الناس ، أخيراً ، فهبوا جميعاً . لقد نهض المعمل غاضباً ، المعمل كلـه !

فقالت الأم في هدوء ، وهي تهزّ راسها :

– بلى !

كانت عيناها معلقتين بكل ما أصبح جزءاً من الماضي ، بسائر الأمور التي ذهبت مع بافل وأندريه وخلفتها وراءها . لم تستطع الى البكاء سبيلاً ، فقلبها انقبض واعتُصِر وجفّ تماماً . وكذلك يبست شفتاها ، ونأت الرطوبـة عن فمها ، وراحت يداها ترتجفان ، وقشعريرات صغيرة تتلاحق على طول ظهرها .

جاء الدرك ذلك المساء ، فاستقبلتهم دون دهشـة أو جزع . دخلوا المنزل في جلبة عظيمة ، تبدو عليهم علائم الغبطة والرضى ، ثم كشّر الضابط الأصفر الوجه عن أسنانه وعالنها :

– كيف حالك ؟ هذه المرة الثالثة التي نلتقي فيها ، إن لم اكُ مخطئاً . اليس كذلك ؟

فلزمت الصمت ، واكتفت بإمرار لسانهـا الجاف على شفتيها .

اكثر الضابط من الحديث في لهجة مَنْ يلقي المواعظ . وادركت الأم ان الحديث يروقه فيبتهج بسماع ما تنطق به شفتاه ، فلم تزعجها كلماته على الإطلاق ، لا بل لم تكن تبلغ

منها سمعاً ، اللهم إلا عندما قال : «انك ، أنت نفسـك ، مسؤولة يا أم ؛ لأنك لم تحسني تلقين ابنك الاحترام الواجب عليه تجاه الله والقيصر . . .» . فاجابته في صوت خافت ، من حيث كانت تقف قرب الباب ودون أن تنظر اليه :

– أبناؤنا هم قضاتنا ، ولسوف يدينوننا كما نستحق لاننا انفضضنا من حولهم وهم يسلكون مثـل هذه الدرب العسيرة .

فصاح الضابط :

– ماذا ؟ تكلمي بصوت أعلى !

فأجابت الأم ، وهي تتنهد :

– قلت إن أبناءنا هم قضاتنا .

فغمغم شيئاً في سرعة وغضب ، لكن إعصار كلماته أخطأ الأم ولم ينل منها مارباً .

استُدعيت ماريا كورزونوفا لتكون شاهدة على التفتيش ، فوقفت إلى جانب الأم دون أن تنظر إليهـا . كانت تنحني متعجلة ، كلما توجه الضابط إليها بسؤال ما ، وتردد على الدوام ذات الجواب بذات اللهجة الرتيبة :

– لا ادري يا صاحب السعادة ، فانـا امرأة جاهلـة اكسب خبزي بتجارتي ، وحمقـاء حتى لا أعرف شيئاً عـلى الاطلاق . . .

فيصيح الضابط بها في لهجة آمرة ، وشارباه يتحركان :

– امسكي لسانك عن الكلام !

فتنحني مرة أخرى ، حتى إذا أدار ظهره ، لوت له أنفها وهمست في أذن الأم :

- هذه من أجله !

عندما أُمرت أن تتحرى بيلاجيا راحت تطرف بعينيها ، وتشخص في ذهول الى الضابط وهي تقول في صوت مذعور :

- اواه ! ولكنني لا اعلم كيف اقوم بمثل هذا العمل ، يا صاحب السعادة !

فضرب الأرض بقدمه وصرخ في وجهها ، فاسبلت ماريا جفنيها وقالت للأم خافضة الصوت :

- الأفضل ان تفكي أزرارك ، يا بيلاجيا نيلوفنا . . .

اصطبغ وجهها باللون القرمزي ، وهي تتحسس بيديها ملابس الأم وتهمس :

- تفو . . . يا لهم من كلاب أوغاد !

فصاح الضابط ، وهو يختلس النظر إلى الزاوية حيث كانت تنجز المهمة الموكلة إليها :

- ماذا تقولين ؟

فتمتمت ماريا مذعورة الصوت :

- تلك أمور نسائية ، يا صاحب السعادة !

واخيراً امر الام ان توقّع الأوراق ، فخطت يدها غير المجرّبة هذه الكلمات بأحرف مطبعية عريضة لمّاعة :

«بيلاجيا فلاسوفا ، ارملة رجل عامل» .

فزمجر الضابط مكشراً :

- ما هذا الذي كتبتِ هنا ؟ لماذا كتبتِ هذا ؟

ثم اضاف ، وهو يرسل ضحكة ازدراء قصيرة :

- يا لكم من متوحشين . . .

ذهبوا ، فبقيت الأم قرب النافذة ، وذراعاها متصالبتان

فوق صدرها ، تشخص في المدى البعيد امامها دون ان تطرف عيناها ، ودون ان ترى شيئاً على الاطلاق ، وقد ارتفع حاجباها ، وانضمت شفتاها ، وانطبق فكاها بعزم وقوة حتى احسّت سريعاً الألم ينتابهما . وجفّ المصباح الزيتي ، فاخذت الفتيلة تنوص ، والشعلة تتضاءل مرسلة هسيسا خافتا ، فاطفاته الأم وبقيت في الظلمة الحالكة . كان صدرها يطفح بشوق لاهدف له ، يشدّد الخناق عليها حتى يمنع قلبها عن الخفقان . لبثت واقفة على قدميها مدة طويلة حتى آلمتها عيناها وقدماها معاً . عندئذ سمعت ماريا تردُ النافذة وتناديها في صراخ ثمل :

- انت نائمة ، يا بيلاجيا ؟ فنامي يا شهيدتي المنكودة الحظ !

فرقدت الأم دون ان تخلع ثيابها ، وما أسرع أن غرقت في نوم عميق غمرها مثل مياه بركة واسعة .

ورات ، فيما يرى النائم ، انها تجتاز هضبة رملية صفراء تقع وراء المستنقع ، على الطريق المؤدية الى المدينة . وكان بافل يقف على شفا جرف يستخرج بعضُ العمال الرمال منه ، وهو ينشد بصوت أندريه الهادئ الموسيقي :

انهضوا إلى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا . . .

أخذت تمرُّ من أمام الهضبة ، تتطلع إلى ابنها وهي تضغط جبينها بإحدى يديها . وكانت صورته تتجلى بوضوح وجلاء تامين على صفحة السماء الزرقاء ، وهي لا تجسر على

الدنوّ منه خجلاً لأنها كانت حاملاً ، كما أنها تحمل في ذات الوقت طفلاً بين ذراعيها . وتابعت المسير حتى بلغت حقلاً يلعب فيه بعض الأولاد بطابة كبيرة . كانوا كثرة ، وكانت الطابة حمراء اللون ، فراح الطفل بين ذراعيها يتطاول طلباً للكرة وقد اجهش باكياً فاعطته ثديها وعادت ادراجها . لكن ثمة جنوداً كانوا يحتلون الهضبة هذه المرة ، وقد صوبوا حرابهم نحوها ، فاسرعت تعدو نحو كنيسة تنهض في وسط إحدى الحقول ، كنيسة بيضاء ، أثرية ، ترتفع عالياً جداً في الجو وتبدو كأنها شُيِّدت من السحب وحدها . وكان الناس يقيمون فيها مأتماً ، والنعش كبيراً جداً ، أسود اللون ، مغلقاً بإحكام تام . وكان الكاهن والشماس يتجولان في أرجاء الكنيسة ، مرتديين ثياباً بيضاء ، وهما يرتلان :

هللويا ، المسيح قام . . .

انحنى الشماس مبتسماً لها وهو يهز المبخرة في يده . كان أحمر الشعر برّاقه ، ذا محيا مرح أشبه ما يكون بوجه صموئيلوف . وكانت اشعة عريضة من نور الشمس تسقط كأوشحة بيضاء من علٍ حيث الأبراج تضيع في السماء .

وفي كلا المنصّتين بعض الأطفال يرتلون بأصوات خافتة :

هللويا ، المسيح قام . . .

صاح الكاهن فجأة ، وهو يقف في وسط الكنيسة :

– ألقوا القبض عليهم !

اختفت ثيابه البيضاء ، وبدا شارب أشيب كثيف فوق شفته العليا ، فاطلق الجميع سيقانهم للريح ، بما فيهم الشماس الذي طرح المبخرة جانباً وولى الإدبار هارباً وقد امسك راسه بكلتا يديه على طريقة الأوكراني . والقت الأم طفلها عند أقدام القوم الهاربين ، لكنهم تجنبوه وهم يختلسون النظر باعين مذعورة الى جسده العاري ؛ فيما جثت هي على ركبتيها وراحت تصيح بهم :

– لا تتركوا الطفل ، خذوه معكم . . .

ورتل الأوكراني وهو يبتسم ، مخفياً يديه وراء ظهره :

هللويا ، المسيح قام . . .

فانحنت والتقطت الطفل ووضعته في عربة محملة بألواح من خشب ، يسير فيزوفشيكوف بتماهل إلى جانبها وهو يضحك ويقول :

– وهكذا أعطوني عملاً ثقيلاً . . .

كانت الطرقات وسخة موحلة ، ومن نوافذ البيوت يطلّ بعض الناس وهم يصيحون ، ويصفّرون ، ويلوّحون بأيديهم . وكان الطقس صافياً ، والشمس تشع ببهاء ، وليس من أثر للظل في أي مكان .

صاح الأوكراني :

– رتلي ، يا أُميمتي ! ما أروع الحياة !

وانطلق يرتل ، فيعلو صوته الرنان على سائر الأصداء .

وسارت الأم تتعقب خطواته . فتعثرت على حين غرة ، وسقطت في هاوية سحيقة لا قرار لها هبّ فراغها يتجه لملاقاتها وهو يزمجر مرسلاً صفيراً حاداً مرعباً . . .

استيقظت وهي ترتعش ، فكان يداً ثقيلة قاسية تقبض على قلبها ، وتتسلى باعتصاره في بطء وتماهل . كانت صفارة المعمل تدعو العمال في عنف وعناد ، فعرفت الأم في جؤارها النداء الثاني المعتاد . وكانت الكتب والملابس مبعثرة على ارض الغرفة ، والفوضى منتشرة في أرجائها ، والبلاط يحمل اثار احذية الدرك الموحلة .

نهضت ، وشرعت ترتب الغرفة دون ان تعبأ بغسل وجهها او تلاوة صلواتها . وقعت عيناها في المطبخ على العصا ، وقطعة القماش الأحمر ما برحت عالقة بها ، فالتقطتها وهمّت بإلقائها تحت الموقد ، ولكنها انتزعت منها وهي تتنهد بقايا القماش وطوتها بعناية وخبأتها في جيبها ، واخيرا كسرت العصا على ركبتها وطوّحت بها تحت المدفأة . ثم غسلت النوافذ والأرض بالماء البارد ، وحشّت النار في السماور ، وراحت ترتدي ثيابها . وعندما فرغت من ذلك جلست الى النافذة في المطبخ تواجه السؤال من جديد :

«ما العمل الآن ؟»

تذكرت أنها لم تتلُ بعد صلوات الصباح ، فنهضت واقتربت من الأيقونات ، وإذا هي تجلس من جديد بعد ان وقفت تجاهها بضع ثوان . . .لقد كان قلبها فارغاً .

كان سكون غريب حقاً يجثم في كل مكان ، فكان الناس الذين كانوا البارحة يزعقون بكل ذينك العنف والقوة في

الشوارع اختبأوا اليوم في بيوتهم يفكرون بهدوء في حوادث الأمس غير المعهودة .

وفجاة ، تذكرت مشهداً راته مرة في أيام صباها . . .

كان في الحديقة القديمة التي يملكها آل زوسايلوف حوض ماء كبير يغمره النيلوفر من سائر جهاته . ولقد لاحظت ذات يوم خريفي قاتم ، وهي تمرّ الى جانب ذلك الحوض ، قارباً يتهادى في وسطه تماماً . كان الحوض أسود هادئاً ، والقارب يبدو كأنه التصق بالمياه السود بحليتها الكئيبة المؤلفة من الأوراق الصفر . كانت رؤية هذا القارب الوحيد المجرّد عن المجاذيف ، الخالي من كل كائن حي ، المرتمي هناك دون حراك فوق منبسط المياه الأسوانة بين الأوراق الميتة ، يبعث في النفس حزناً عميقاً غامضاً مجهول المنشأ والسبب . لقد وقفت بيلاجيا طويلاً عند حافة الحوض ، تتساءل من عساه دفع بالقارب إلى وسط المياه ، وما هي بغيته من وراء ذلك .

وفي تلك العشية بلغها ان زوجة وكيل عمل في بيت زوسايلوف ، وهي امراة صغيرة ذات شعر أسود متمرد مشعث أبداً ، تمشي الأزَفَى دائماً في اضطراب ، اغرقت نفسها في الحوض ذلك الصباح .

مرّت الأم بيدها على وجهها وافكارها تسبح مرتعشة بين انطباعات الأمس المنصرم . غمرتها هذه الانطباعات واجتاحتها ، فقبعت مدة طويلة تحت تأثيرها وعيناها شاخصتان أمامها إلى كاس الشاي البارد ، بينما راحت تنمو في صدرها الرغبة في رؤية شخصٍ حكيمٍ بسيطٍ تتوجه إليه بالعديد من الأسئلة ليجيب عنها جميعاً .

زارها نيقولاي ايفانوفيتش بعد الغداء ، وكأنه يحقق امنيتها ومطالبها ، ومع ذلك امتلكها الجزع والقلق لدن رؤيته ، فاسرعت تقول في صوت خافت دون أن ترد تحيته :

– فيم مجيئك ؟ ذلك عمل أحمق ! سيقبضون عليك أنت الآخر بكل تأكيد إذا شاهدوك هنا . . .

شدّ على يدها بقوة وحرارة ، واصلح من وضع نظارتيه ، ثم انحنى عليها حتى صاقب وجهه وجهها وقال موضحاً ، والكلمات تنسال من فمه مسرعة :

– لقد اتفقنا ، بافل واندريه وانا ، ان آخذك الى المدينة في اليوم التالي اذا ألقى القبض عليهما .

كان صوته لطيفاً يطفح اهتماماً بها :

– هل تحرّوا البيت ؟

فهتفت :

– نعم ، لقد نبشوا كل شيء وتحروني أنا أيضاً دون خجل أو وجدان !

فسأل نيقولاي ، وهو يهزُّ كتفيه :

– ولِمَ يخجلون ؟

انهمر يشرح لها السبب في ضرورة انتقالها إلى المدينة ، فانصتت إلى صوته الرقيق الودود ، وابتسامة ضئيلة تتوانى على شفتيها . لم تدرك من حججه شيئاً ، غير أنها دهشت لتلك الثقة وذلك الأيمان الحنونين اللذين بعثهما في نفسها . قالت :

– إن كانت تلك مشيئة باشا ، وكنت لا اسبب لك أي إزعاج . . .

فقاطعها قائلاً :

– لا تقلقي أبداً ولا تهتمي بهذا ، فأنا أعيش وحيداً ، وليس من يزورني سوى أختي من وقت لآخر .

قالت :

– لست أريد التهام خبزك مقابل لا شيء .

فأجاب :

– في وسعنا إيجاد عمل لك ، إذا رغبت في ذلك !

كانت فكرة العمل عندها مرتبطة بصورة لا تنفصم عن ابنها واندريه وبقية رفاقهما ، فطفّت من نيقولاي أكثر من ذي قبل واستعلمت وهي تنظر إلى عينيه :

– أتستطيع ذلك حقاً ؟

– ليس في منزلي كثير من العمل ما دمت أعزب . . .

فهمست في صوتٍ خافت :

– لم أكن أعني هذا النوع من العمل . . .

وارسلت زفرة حرّى ، متألمة لأنه لم يفهمها ، فابتسم بعينيه القصيرتي الرؤية وقال متأملاً :

– إذا استطعت ، يوم ترين بافل خلال زيارتك للسجن ، ان تعرفي منه عنوان أولئك الفلاحين الذين طلبوا منا إصدار جريدة لهم . . .

فصاحت في بهجة :

– إني اعرفهم ، ولسوف أجدهم وافعل كل ما تريدون مني . ولن يرتاب أحد فقط في أني ازوّدهم بالمطبوعات غير المشروعة . بارك الله فيك ، أفلم أحمل المنشورات إلى قلب المعمل ؟

امتلكتها بغتة رغبة عنيفة في التطواف في أرجاء البلاد ،

تعبر الغابات وتجوب القرى ، وعلى ظهرها خرج ، وفي يدها عصا . قالت :

– ارجوك ان توكل إليّ هذه المهمة ، ياصديقي العزيز . سامضي إلى سائر الأماكن . سأجد طريقي في سائر الولايات ، وساكون صيفاً وشتاءً – حتى الممات – حاجّةً تضرب في طول الآفاق وعرضها . اهو نصيب سيئ بالنسبة إليّ ؟

اعتراها الغمُ اذ تصورت نفسها هائمة على وجهها شريدة دون ماوى ، تستجدي الناس باسم المسيح تحت نوافذ الأكواخ في القرى النائية .

اخذ نيقولاي بيدها في لطف ، وربت عليها براحته الدافئة ، ثم نظر إلى ساعته وقال :

– سنتحدث عن هذا فيما بعد !

فصاحت :

– يا صديقي الطيب ! اذا كان أبناؤنا ، فلذات اكبادنا ، يضحّون بحريتهم وحياتهم ، ويموتون دونما تفكير بانفسهم مطلقاً ، فماذا يُنتظر مني إذن ، أنا الأم ؟

علا الشحوب وجه نيقولاي ، وقال في صوت خفيض متفرساً في وجهها بانتباه حنون :

– إنها المرة الأولى ، لو تعلمين ، اسمع فيها مثل هذه الكلمات . . .

فاستفسرت ، وهي تهزّ راسها في اسىً ، وتلوّح بيديها في حركة عاجزة :

– ماذا أستطيع ان اقول ؟ لو كانت لديّ الكلمات فقط كي اتحدث عما يخفق في قلبي ، قلب الام . . .

هبَّت على قدميها ، ترفعها قوة عاتية تضجُ في صدرها ، وتجعل راسها يدوّم في تيار من الكلمات الثائرة :

– إذن لبكى الكثيرون منهم عندئذ . . . حتى أكثرهم صفاقة وشراً . . .

ونهض نيقولاي أيضاً ونظر إلى الساعة مرة أخرى .

– إذن اتفقنا ، وستنتقلين إلى بيتي في المدينة .

فاومأت بالايجاب .

واضاف نيقولاي في لطف :

– متى ؟ لا تتأخري بالانتقال ! في الحقيقة ساظل قلقاً من اجلك ما دمت باقية هنا .

فنظرت إليه في دهشة وذهول : من هي بالنسبة إليه ؟ ههنا يقف رجل في معطف اسود ، مطأطأ الراس ، مقوس الظهر ، قصير النظر ، يبتسم في حياء . . . إن مظهره ليناقض طبيعته . . .

سال ، وهو يغضّ طرفه :

– ألديك نقود ؟

– كلا !

فاسرع يدسّ يده في جيبه ، ويتناول منها حافظة نقوده ، ثم يدفع إليها يده ببعض النقود . قال :

– اليك هذا . ارجوك ان تقبليه . . .

فابتسمت الأم رغماً عنها ، وقالت وهي تهزّ راسها :

– إن كل شيء فيكم يختلف عنه في الآخرين ! وحتى النقود تبدو عديمة القيمة بالنسبة إليكم ! بعض الناس يبيعون حتى ارواحهم كي يحصلوا عليها ؛ اما انتم ، فكأنه لا

شيء عندكم . ولكنكم لا تحتفظون بها إلا لمساعدة الآخرين فقط . . .

فقهقه نيقولاي في عذوبة : – المال حاجة رديئة مقلقة ، أخذه مزعج كثيراً ، وكذلك إعطاؤه . . .

امسك بيدها ، وضغط عليها بشدة ، ثم عاد يقول :

– إنتقلي في اسرع وقت ممكن !

وخرج في هدوء كعادته على الدوام .

وبعد ان شيّعته ، راحت تفكر :

«يا له من رجل طيب ، ولكنه لم يرث لي . .»

لم تستطع ان تجزم إن كان ذلك اساء إليها ، أم انه ادهشها فقط .

٢

انتقلت الى بيته في اليوم الرابع لزيارته . عندما اجتازت العربة التي تقلها مع حقيبتيها الضاحية وبلغت الحقول الواقعة ماوراءها ، استدارت الأم تلقي نظرة أخيرة الى الوراء منها ، فادركت بغتة أنها تغادر إلى الأبد ذلك المكان حيث قضت اكثر مراحل حياتها صعوبة وظلاماً ، وبدات فيه مرحلة اخرى طافحة بافراح واتراح جديدة شرعت تلتهم الأيام سريعاً حتى لا يُشعر بمرورها .

كان المصنع ، بمداخنه المتعالية في الفضاء ، يستلقي على التربة المسودة بالهباب والدخان ، أشبه بعنكبوت ضخم الجثة ، أحمر اللون قانيه . ومن حوله تتأصص بيوت العمال

الوحيدة الطبقة ، غبراء اللون ، قزمة الجثة ، تحتشد على شفا المستنقع تماماً وهي تتراشق النظر ، من خلال نوافذها الصغيرة الكئيبة ، بصورة تبعث على الشفقة والرثاء . وإلى الأعلى منها كانت ترتفع الكنيسة ، حمراء مسودة كالمصنع ، لكن برج اجراسها ينخفض عن مداخنه فلا تستطيع ان تطاولها .

تنهّدت الام وغيّرت وضع ياقة بلوزتها اذ أحستها تضايقها وتُعيق تنفسها .

تمتم الحوذي ، وهو يهزّ اعنة الحصان : – هيا !

كان رجلاً صغيراً ، مقوّس الساقين ، غامض السن ، ذا شعر قليل باهت اللون نما على راسه ووجهه دون ترتيب ، وعينين غاض اللون منهما تماماً ، يسير إلى جانب العربة مترنحاً ، وكان من الواضح انه مبالٍ بهدف الرحلة كلها .

– هيا !

كان يزعق بهذه الكلمة ، بين الفينة والفينة ، بصوت عديم اللون ، وهو ينقل رفساً ، بصورة تبعث على الضحك ، ساقيه المعوجتين بحذائيهما الثقيلين المغمورين بالأوحال . وحملقت الأم في ما حولها . كانت الحقول فارغة ، مثل فراغ روحها تماماً . . .

كان الحصان يهزّ راسه بصورة رتيبة ، وهو يحرث في صعوبة بحوافره الرمل العميق المستدفئ بحرارة الشمس ؛ والرمال ترسل حفيفاً ؛ والعربة الكسيحة تبعث صريراً حاداً ، فتتعلق هذه الأصداء بالفضاء وراءها ممتزجة بالغبار المثار بعجلاتها . . .

كان نيقولاي ايفانوفيتش يعيش في شـــارع هادئ في ضاحية المدينـــة ، وقد استقرّ في بيت صغير اخضر اللون ملتصق بدارة قاتمة اللون ذات طابقين تكاد ان تتداعـى لقدمها . . . وكانت حديقـــة صغيرة تقوم امام هذا البيت ، بحيث كانت اغصان الليلك والاكاسيا ، والأوراق الفضيـة لأشجار فتية من الحور ، تُطلّ من خلال نوافذ غرف الشقة الثلاث . وكان كل شيء في الداخل نظيفاً ساكناً ، وظلال عذبة تلقي على الأرض رسوماً مرتجفة ، ورفوف الكتب تصطف على طول الجدران تحت صور أشخاص تطفح نظراتهم برزانة وجدّ عظيمين .

قاد نيقولاي الأم الى غرفة صغيرة تشرف إحدى نافذتيها على الحديقـة ، وتكشف الأخرى عن فناء تطاول فيه عشب غزير ، وقد امتلأت جدران هذه الغرفة برفوف الكتب أيضاً وكانت تقف عدة خزائن للكتب بالقرب منها ، ثم قال :

– هل تكونين مرتاحة ههنا ؟ – فأجابت :

– أفضّل الإقامة في المطبخ ، فهو نيّر ، ونظيف . . .

وتراءى لديها ان كلماتها ألقت الذعر في قلبه ، حتى إذا رضخت أخيراً لجهوده العنيدة الممتزجة في ذات الوقت بالارتباك والحياء – في إقناعها في العدول عن رأيها في العيش في المطبخ ، عاد التألق في الحال يُبرق في وجهه .

كانت الغرف الثلاث مليئة بجوّ خاص . ان المرء ليتنفس بسهولة وسرور ههنا ، ولكنه يتردد في الكلام بصوت مرتفع ، خوفاً ان يعكر صفو التأمل الخاشع الذي يستغرق فيه أولئك القوم الشاخصون إليه من أعلى الجدران بكل ذلك الانتباه المركز .

قالت الأم ، وهي تتحسس التراب في أحواض الورد على النوافذ :

– يجب ارواء هذه النباتات !

فقال صاحب الورد بلهجة المذنب :

– اواه ! نعم إني مغرم بها كثيراً . إنما لا أجد الوقت للاعتناء بها . . .

ولاحظت الأم ، وهي تراقبه ، أنه يسير في حذر وارتباك ، حتى في شقته الأنيقة المستوفية لسائر أسباب الراحة ، فكأن كل ما يكتنفه غريب عنه . وكان يدنو بوجهـه من سائر الأشياء المختلفة في الغرفة حتى يلاصقها ، وهو يصلح من وضع نظارتيه بأصابع يده اليمنى النحيلة ، وينظر مضيقاً عينيه ، وفي تساؤل أخرس ، إلى كل مـا يسترعي انتباه . واحياناً كان يأخذ الشيء بين يديـه ، ويرفعـه حتى يلامس وجهه ، ويروح يتحسسه بعينيه بكل عناية . وشخص للأم أنه ، مثلها ، دخـل الشقـة للمرة الأولى ، وأن كل شيء بالنسبة إليه ، كما هو بالنسبة إليها ، جديد غير مألوف ، الأمر الذي طمأنها سريعاً وأراق في فؤادها الراحة والحرية في بيتها الجديد . وراحت تخبّ في أعقاب نيقولاي ، وهي تلاحظ امكنة الأشياء ومواضعها ، وتسأله عن نظام حياته فيجيبها بلهجة المذنب الذي يعلم أنه لا يتصرف كمـا يجدر به أن يفعل ، ولكنه يدرك مع ذلك أنه لا يستطيع الى غير ذلـك سبيلاً .

سقت الورد ، ورتبت أوراق الموسيقى المبعثرة علـى البيان ، ثم قالت ، ملقية نظرة سريعة على السماور :

– إنه في حاجة إلى تنظيف . . .

فمرّ باصابعه على المعدن الوسخ ، ثم رفعه إلى أنفه يتفحصه في جد . فلم تستطع الأم إلا ان تبتسم في عطف .

وقتما سعت إلى فراشها تلك الليلة ، وطفقت تستعرض في ذاكرتها أحداث ذلك النهار ، رفعت راسها عن الوسادة ، وراحت تجيل النظر فيما حولها في دهشة . كانت تقضي الليل تحت سقف غريب للمرة الأولى في حياتها ، ومع ذلك فهي لا تحس أدنى ضيق أو قلق . وفكرت بنيقولاي في عطف وقد امتلات رغبة في أن تيسّر عليه الحياة ، وتبدي له من ضروب الحنان ما يضفي على وجوده الدفء والراحة . لقد تأثرت حتى أعماق قلبها من ارتباك مضيفها ، وعجزه المضحك ، وبعده عن مجرى حياة الناس المألوف ، وأخيراً من ذلك التعبير الحكيم الصبياني في عينيه الصافيتين . ثم رجع بها فكرها إلى فتاها ، فراحت حوادث أول أيار تتلاحق مرة أخرى أمام عينيها ، ولكنها ملحقة بأصداء جديدة ومجنّحة بمعنى جديد . إن ألم ذلك اليوم من نوع خاص ، مثله في ذلك مثل اليوم نفسه – إنه لا يسجد الهامة حتى الأرض كما تفعل لكمة عنيفة يدور الرأس لها ، بل يحزّ في القلب ويخزه بآلاف الإبر فيثير فيه غضباً هادئاً تنتصب به الهامة المنحنية .

«إن أبناءنا قد خرجوا قدماً إلى العالم» – راحت تفكر في ذلك ، منصتة إلى الأصداء غير المألوفة التي تبعثها المدينة ليلاً فتتسرب مع حفيف الأوراق في الحديقة من خلال النافذة المفتوحة . كانت تلك الأصداء تأتي من بعيد جداً ، متعبة باهتة ، ثم تموت برفق وهدوء داخل الغرفة .

وفي بكور الغداة نظّفت السماور وارّجت النار فيه وهيأت المائدة دونما إثارة ضوضاء . . ثم قصدت إلى المطبخ تنتظر يقظة نيقولاي . وأخيراً ظهر هذا الأخير وهو يسعل ، ممسكاً بنظارتيه في يده الواحدة ، وواضعاً يده الاخرى على حنجرته . وبعد أن تبادلا تحية الصباح حملت السماور إلى الغرفة المجاورة ، بينما راح نيقولاي يتمسّح بالماء وهو يصبّه رذاذاً على الأرض ويفلت من يده الصابون أو فرشاة الأسنان ، فيدمدم متأففاً من نفسه ساخطاً من خراقته .

قال لها أثناء الإفطار :

– عملي في إدارة الولاية كئيب للغاية ، فأنا أراقب فلاحينا وهم يفلسون . . .

واضاف ، وعلى شفتيه ابتسامة مذنبة :

– إن الجوع يقود فلاحينا إلى القبر في سن مبكرة ، واولادهم يولدون ضعفاء ثم يموتون كالذباب في الخريف . إننا نعرف هذا ، ونعرف أسبابه أيضاً ، لا بل نتناول أجوراً كي نراقب تلك العملية ، وهذا كل ما نفعل في الحقيقة . . .

فسألته :

– اانت طالب ؟

– كلا ، بل معلم مدرسة . أبي مدير معمل في فياتكا ، اما انا فاحترفت مهنة التدريس . ولقد رحت أعير الفلاحين في القرية كتباً ، الأمر الذي القوا بي في السجن من أجله . وبعد ذلك عملت مستخدماً في إحدى المكتبات ، ولكنهم أرسلوني إلى السجن مرة أخرى بسبب طيشي وعدم انتباهي ، ثم نفيت إلى ارخانجلسك وهناك أيضاً اثرت سخط الحاكم ، فاقصاني

إلى قرية صغيرة على شاطىء البحر الأبيض حيث عشت طوال خمس سنوات .

كان صوته يسبح بعذوبة وتناسق في الغرفة النيّرة ، المغمورة بأشعة الشمس . ولقد سمعت الأم حتى ذلك الحين كثيراً من امثال هذه القصة ، ولكنها لم تستطع أبداً أن تفهم سبباً لهدوء اولئك الذين يروونها ، فكأنهم يتحدثون عن أشياء محتومة لا سبيل إلى الفرار منها .

قال :

– ستأتي أختي هذا اليوم .

– اهي متزوجة ؟

– إنها أرملة . نفي زوجها إلى سيبيريا ، ولكنه هرب منها ، ومات قبل سنتين في اوروبا بداء السل . . .

– اهي اصغر منك سناً ؟

فأجاب :

– بل تكبرني بست سنوات ، وانا مدين لها بالشيء الكثير . انتظري حتى تسمعي عزفها على البيان . هذا البيان ملكها ، بل إن الكثير من هذه الأشياء تخصها على العموم ، اما الكتب فملكي . . .

– وأين تقطن ؟

فأجاب مبتسماً :

– ايان يحتاجون إلى شخص مقدام ، تكون هي هناك .

– اهي تشترك أيضا في . . . هذا العمل ؟

– بكل تأكيد !

وسرعان ما غادر الدار وذهب إلى ادارته ، فراحت الأم

تفكر في «هذا العمل» ، الذي يقوم به هؤلاء الأشخاص يوماً بعد يوم في هدوء وعناد لا يتزعزعان . إنهم يثيرون فيها الإحساس بتفاهتها ، فكأنها تجابه ، في ظلمة الليل الدامسة ، عظمة جبل هائل مهيب .

قدمت ، حوالي منتصف النهار ، امراة رشيقة العود ، طويلة القامة ، ترتدي ثوباً أسود . وعندما فتحت الأم الباب لها ، رمت حقيبتها الصغيرة الصفراء على الأرض ، وأسرعت تقبض على يد الأم وتقول :

– اعتقد انكِ ام بافل ميخائيلوفيتش ؟

فأجابت الأم ، مرتبكة تجاه ثيابها الثمينة :

– نعم .

فقالت المراة ، وهي تخلع قبعتها أمام المرآة :

– انت مثلما تخيلتك تماماً . كتب إليّ أخي يقول إنك ستأتين للسكن هنا . إني صديقة بافل ميخائيلوفيتش منذ زمن طويل ، ولقد حدثني عنك .

كان صوتها أجش وحديثها بطيئاً ، ولكن حركاتها سريعة قوية . وكانت الخطوط الصغيرة الناعمة المرتسمة على صدغيها ، والشعر الأبيض الملتمع فوق اطاري أذنيها الدقيقين ، تتباين بصورة جلية مع تلك الفتوة – والصفاء الباديتين في عينيها الكبيرتين الرماديتين الضاحكتين .

أعلنت :

– إني جائعة ، ونفسي تشتهي قدحاً من القهوة . . .

فردّت الأم مجيبةً :

– سأهيئه لك في الحال !

ثم سألت بصوت خافت ، وهي تتناول غلاية القهوة من خزانة الآنية :

– أحقاً أن بافل حدّثك عني ؟

– كثيراً . . .

وتناولت المرأة علبة دخان جلدية صغيرة من جيبها ، واشعلت دخينة منها .

سألت ، وهي تجوس الغرفة في غدوة ورواح :

– اأنت خائفة كثيراً من أجله ؟

فراحت الأم تراقب شعلة المصباح الكحولي الزرقاء، الصغيرة تحت غلاية القهوة وتبتسم ، وقد ابتلع الفرح كل الارتباك الذي شعرت به في حضور هذه المرأة . فكرت في وليجة نفسها :

«وهكذا حدثها عني ، ذلك الابن الحبيب !»

واستتلت في تماهل :

– بالطبع ، فذلك ليس أمراً سهلاً . . . ولكنه كان من قبل أشدّ إيلاماً ، اما الآن فإني أعلم على الأقل أنه ليس وحيداً . . .

سألت المرأة عن اسمها ، وهي تحدق في وجهها ، فاتاها الجواب :

– صوفيا .

فتمعنت بيلاجيا فيها ملياً . ثمة شيء فيها من الافراط فتفيض بالاندفاع والحيوية .

قالت صوفيا بلهجة التأكيد وهي تحتسي القهوة بسرعة :

– الأمر الرئيسي هو الا يطول بقاؤهم في السجن ، بل

ان يعجلوا بمحاكمتهم ما أمكن . ولسوف نمهد لبافل ميخائيلوفيتش سبيل الفرار فور وصوله إلى المنفى . إننا لفي حاجة ماسة إليه ههنا .

نظرت الأم إلى صوفيا في تردد . كانت تفتش عن شيء تضع فيه عقب دخينتها . وعندما سحقته اخيرا في تراب أحد احواض الورد قالت الأم بالرغم منها :

– هذا يضرّ الزهور ويتلفها !

فقالت صوفيا :

– ارجو المعذرة ، إن نيقولاي يقول لي ذلك دائماً .

واستردت العقب من الحوض ، ثم ألقت به من النافذة .

وفي ذات اللحظة أخذ الارتباك بمجامع الأم ، فنظرت إلى وجهها نظرة المذنبة :

– ارجو عفوك ، فانا لم افكر فيما قلت . كيف أجرؤ على تلقينك ما تفعلين ؟

فاجابت صوفيا ، وهي تهزّ كتفيها :

– ولِمَ لا ما دمتُ مهملة ؟ هل صارت القهوة ؟ شكراً لك . ولكن لِمَ لم تصبي إلا قدحاً واحداً ؟ أفلا تتناولين شيئاً بدورك ؟

وعلى حين غرة أمسكت الأم من كتفيها ، وجرتها إليها ، وقالت مشدوهة وهي تنظر عميقاً في عينيها :

– هل أنت خجلى ؟

فابتسمت الأم ، وقالت :

– اتسألينني هذا بعدما صدر مني عن الدخينة بكل

ذلك التسرّع ؟ – واضافت ، دون ان تحاول إخفاء دهشتها ، بلهجة فيها شيء من التساؤل :

– لقد جئت هذا المكان البارحة فقط ، وها أنا أتصرف وكانني في بيتي ، لا اخاف شيئاً ، واقول كل ما يعنّ على بالي . . .

فهتفت صوفيا :

– وذلك هو بالضبط ما يجب ان تفعليه ! . .

فتابعت الأم تقول :

– راسي يدور ويدور ، وانا كالغريبة عن ذاتي . كان ينقضي زمن طويل فيما مضى قبل ان اقول لأي امرئ شيئاً من صميم قلبي ، اما الآن فإن قلبي مفتوح على الدوام ، وانا اقول أشياء لم احلم بالتفوّه بها من قبل قط . . .

واشعلت صوفيا دخينة أخرى ، وصوبت بريق عينيها الرماديتين الناعمتين الى وجه الأم .

استوضحت الأم ، وهي تلقي عن قلبها عبء ذلك السؤال المقلق :

– قلت إنكم ستمهدون له سبيل الفرار ، ولكن كيف يعيش من بعدها . . . هارباً ؟

فاجابت صوفيا ، وهي تصبّ لنفسها قدحاً ثانياً من القهوة :

– ليس هذا بالأمر العسير . فلسوف يعيش مثلما يعيش عشرات سواه من الهاربين . . لقد التقيت للتو بواحد منهم ، وشيّعته . وهو رجل موقر جداً حكم عليه

بالنفي خمس سنوات ، ولكنه لم يقض هناك أكثر من ثلاثة أشهر ونصف شهر . . .

فحدجتها الأم بنظراتها بعض الوقت ، وابتسمت ، وهزت راسها وهي تقول في نبرة خافتة :

– يبدو كان أول أيار هذا فعل بي شيئاً ، فلا أستطيع ان اجد نفسي الضائعة ، وكانني اسير على طريقين مختلفين في الوقت ذاته . يخيل إليّ احياناً اني أفهم كل شيء ، ثم يضيع كل شيء في احايين اخرى في ضباب كثيف . انتِ مثلاً . . . امراة بنت اكابر وتشتركين في هذا العمل . . . وانت تعرفين بافل وتتحدثين خيراً عنه ، وإني لأشكرك من اجل هذا . . .

فضحكت صوفيا :

– انت التي تستاهلين الشكر .

فقالت الأم ، وهي تتنهد :

– وماذا فعلت أنا ؟ لست أنا التي علمته كل هذا .

سحقت صوفيا دخينتها في طبق قدح القهوة ، وهزّت راسها فسقط شعرها الذهبي على ظهرها في كتل كثيفة ، وقالت وهي تغادر الغرفة :

– آن لي ان اتخلص من هذه الثياب الفخمة كلها . . .

٣

رجع نيقولاي في العشية ، وفيما هم يتناولون طعام العشاء ، طفقت صوفيا تروي في مرح وحبور كيف التقت ذلك

الفار من المنفى وخباته ، وكيف انتابتها المخاوف من الجواسيس فراحت تجدهم في كل من تصادفه ، وكيف كان سلوك الهارب مثاراً للضحك . واكتشفت الأم في لهجتها شيئاً من التباهي والغرور ، فكأنها عامل يروي قصة عمل شاق انجزه على أكمل وجه - وهو سعيد بذلك .

هذه صوفيا ترتدي الآن فستاناً فضفاضاً خفيفاً رمادي اللون ، يُظهرها أطول قامة ، ويُضاعف من ظلمة عينيها ، ويزيد حركاتها تناسقاً وهدوءاً .

أعلن نيقولاي بعد العشاء :

- إن مهمة جديدة تنتظرك ، يا صوفيا . حدثتك أننا أخذنا على عاتقنا اصدار صحيفة خاصة بالفلاحين ، فإذا نحن نفقد ، بسبب الاعتقالات الأخيرة ، كل احتكاك بالرجال من الريف . وبيلاجيا نيلوفنا هي الشخص الوحيد القادر على مساعدتنا في العثور على الرجل الذي سيقوم بتوزيعها ، فعليك إذن ان تذهبي إلى الريف برفقتها ، وإنجاز ذلك في اقرب وقت ممكن .

فقالت صوفيا ، وهي لا تزال تدخن :

- حسناً ، سنذهب . . . ما رايك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

- انا موافقة . . .

- هل المسافة طويلة ؟

- حوالي الثمانين فرسخاً . . .

- عظيم ! . . . والآن اود ان اعزف قليلاً . أتؤمنين ، يا بيلاجيا نيلوفنا ، بقدرتك على احتمال عزفي بعض الوقت ؟

فاجابت الأم ، وهي تنسحب إلى زاوية الأريكة :

- لا تهتمي بي على الإطلاق . إفعلي ما يحلو لك ولا تأبهي لوجودي .

كانت ترى أن الأخ والأخت يتظاهران بأنهما لا يعيرانها انتباهاً ، ولكنهما في واقع الأمر يجرّانها دائماً ، في مهارة ، إلى الاشتراك في الحديث .

- أصغ ، يا نيقولاي . هذه قطعة من موسيقى غريغ ، لقد جلبتها اليوم معي . . . أغلق النوافذ .

فتحت كناشة الموسيقى وضربت المفاتيح في رقة بيدها اليسرى ، فتتالت الأوتار تغني في عمق وانسجام رائعين . ثم تلت الأصداء الأولى جملة أخرى من الأنغام ، وهبّ من تحت اصابع اليد اليمنى سرب شافّ من أصوات رنانة حلّقت في اضطراب وراحت ، تدوم وتخفق بجناحيها ، مثل جماعة من عصافير مذعورة ، فوق قعر الأصوات الخفيضة القاتم .

لم تحرك الموسيقى اية خالجة في نفس الأم لأول وهلة ، بل لم تكن تميّز في تيارها إلا تيهاً من الضجيج والأصوات . كانت أذنها عاجزة عن تمييز اللحن في بنية الأصوات المرتعشة المعقدة فإذا هي تحدّق ، حالمةً ، في نيقولاي القابع على الطرف الآخر من الأريكة طاوياً ساقيه تحته ، يشخص إلى صورة صوفيا الجانبية القاسية المتوجة بكتلة من الشعر المذهب . وكانت الشمس تضيء بشعاعها الدافئ رأس صوفيا واحدى كتفيها ، ثم تتزلق فوق صف المفاتيح لتداعب أصابعها وتلاطفها ، وتلاحق الأنغام يملأ جو الغرفة فيستيقظ قلب الأم لصوتها دون شعور واع منها .

ولسبب ما ، أفاق فجأة من هاوية ماضيها السحيق الـم

حاد طواه النسيان منذ زمن بعيد بعيد . ولكنه بُعث الآن إلى الحياة في وضوح مرير .

في ذات ليلة ، رجع زوجها الراحل إلى البيت متأخراً شديد السكر ، فامسك بها من ذراعها وجرّها من فراشها حتى اوقعها على الأرض ، ثم صاح بها وهو يرفسها في خاصرتها :

– هيا اخرجي من هنا ، أيتها الكلبة ! لقد مللت منك . . .

فاخذت متسارعة بين ذراعيها ابنها البالغ من العمر سنتين ، ورفعته امامها كالدرع ، وهي جاثية على الارض تدرأ عن نفسها لطمات زوجها ولكماته ، وبافل يبكي يتخبط في ذراعيها ، دافئاً ، عارياً ، مذعوراً . . .

زمجر ميخائيل : – اخرجي من هنا !

فقفزت على قدميها واندفعت إلى المطبخ حيث ألقت بلوزة على كتفيها ، ولفّت الطفل بوشاحها ، وخرجت إلى الشارع في صمت دون عبرة أو شكوى ، حافية القدمين ، لا يسترها إلا قميص النوم وتلك البلوزة . وكان ذلك في شهر أيار ، والليل عليل عنيف الريح ، وغبار الطريق يعلق بارداً بأخمص قدميها ويتغلغل بين أصابعها . وطفق الطفل بين ذراعيها يبكي ويتخبط ، فضمته إلى جسدها تحت البلوزة ، وهرعت عبر الشارع يلاحقها الخوف ، وهي تهدهد الطفل اثناء ذلك : – أو – أو ، أو – أو . . .

انبلج الفجر فداخلها الحياء والخوف من أن يراها بعض الناس هكذا نصف عارية . فاتجهت نحو المستنقع وجلست

على الأرض تحت أشجار الحور الصغيرة . جلست هناك زمناً طويلاً ، تحدق في الظلام بعينين متسعتين وهي لا تفتأ تهدهد في وجل الطفل النائم لتخفف من الألم المر الذى يحزّ في قلبها . . .

– او – أو ، او – او ، أو – أو !

بينما هي جالسة هناك حلّق طائر اسود صامتاً في الفضاء فوق رأسها وابتعد في طيران سريع . لقد أيقظها الطائر من همودها ودفعها إلى النهوض على قدميها ، فقفلت راجعة ، مرتجفة الأوصال من البرد ، نحو البيت حيث ينتظرها الخوف المألوف من الضرب والاهانة . . .

وتردّد رنين الوتر الأخير ، وتلاشت الموسيقى وهي ترسل زفيراً بارداً لامبالياً . . .

استدارت صوفيا نحو اخيها ، وسألته في هدوء :

– هل أحببتَ ذلك ؟

فاجاب ، وهو ينتفض كمن يَهَبُّ من النوم :

– كثيراً ، كثيراً جداً . . .

وارتجف في صدر الأم ذكراها وثنىّ ، بينما انبثقت إلى جانبه من مكان ما الفكرة التالية :

«أنت ترين هؤلاء يعيشون معاً عيشة مسالمة ودية ، لا يتخاصمون ولا يسكرون ، ولا يتقاتلون لدى تناول كل كسرة من الخبز . . . كما يفعل أولئك في تلك الحياة المظلمة الأخرى . . .»

تناولت صوفيا دخينة . دخّنت كثيراً ، بصورة متواصلة تقريباً . قالت :

– كانت هذه الموسيقى أحبّ قطعة إلى قلب كوستيا المرحوم !

وسحبت نفساً عميقاً بسرعة ، وضربت وتراً أرسل نغمة ناعمة مفعمة بالكآبة :

– كم كنت أحبّ ان أعزف له ! ولكم كان رقيق الإحساس ، تتجاوب نفسه مع كل الاشياء ، ويطفح قلبه أبداً . . .

وفكرت الأم :

«لا ريب أنها تتحدث عن زوجها ! وهي تبتسم مع ذلك . . .»

وتابعت صوفيا في صوت خافت ، وهي تصاحب أفكارها بالعزف الرقيق :

– ما أكثر ما اسعدني ! لكم كان يعرف كيف يعيش !

فوافق نيقولاي ، وهو يلمس لحيته :

– بلى ، كان روحاً تغني !

ألقت صوفيا بالدخينة التي أشعلتها لآونتها . واستدارت نحو الأم قائلة :

– آمل الا تكون ضوضائي ازعجتك .

فلم تستطع الأم اخفاء امتعاضها :

– لا تعيريني التفاتاً ، فأنا لا أفهم شيئاً في هذا الموضوع ، بل أجلس ههنا ، وأستمع اليك ، وأجترّ أفكاري الخاصة . . .

وقالت صوفيا :

– ولكنك قادرة على ان تفهمي ، فمن الضروري للمرأة

ان تفهم الموسيقى ، ولا سيما حين تكون حزينة . . .

وضربت المفاتيح بقوة ، فأرسل البيان صياحاً حاداً ، صياح إنسان تلقى أنباء رهيبة أصابته في صميم القلب فانتزعت منه هذه الصيحة المروعة التي ردّت عليها أصوات فتية مذعورة وثبت متسارعة مذهولة . ومرة أخرى ، ارتفعت صيحة عالية غاضبة أغرقت في ضجيجها كل شيء آخر . لا ريب ان كارثة كبرى وقعت . ولكنها تثير شعوراً إلى الغضب والنقمة اكثر منه إلى الشفقة والرثاء . وتلا ذلك صوت قوي لطيف ينشد لحناً جميلا بسيطاً يُقنع ويُغري في وقت واحد .

امتلأ قلب الأم رغبة ملحة في التفوّه بكلمات لطيفة توجهها إلى هذين الانسانين . كانت سكرى بالموسيقى ، فانشقت شفتاها عن ابتسامة عذبة ، مقتنعة بقدرتها على أن تكون عوناً للاخ والأخت جميعاً .

وصعّدت النظر فيما حولها . . . ماذا عساها تصنع ؟ وتسللت في هدوء إلى المطهى وصارت تجمر النار في السماور .

لكن ذلك لم يشبع لهفتها تجاههما . فقالت ، وهي تصبّ الشاي وترسل ضحكة مرتبكة ، وكأنها تعزّي قلبها بكلمات حنون موجهة الى نفسها مثلما هي موجهة اليهما :

– نحن أبناء تلك الحياة المظلمة نحسّ كل شيء ، لكنه يصعب علينا وضعه في كلمات فنخجل لكوننا ، كما تريان ، نفهم لكنّ نعجز عن التعبير عما نفهم . وكثيراً ما ننقم ، بدافع الضمير ، على ذات أفكارنا . إن الحياة لا تفتأ تنهال علينا

ضرباً ولكماً من كل جانب ، فنريد أن ننعم بشيء من الراحة ، فتأبى أفكارنا علينا هذا النعيم .

كان نيقولاي ينظف نظارته وقد أذن لها أحسن الأذن ، بينا فتحت صوفيا عينيها الكبيرتين تحملق في الأم ناسية أن تدخن لفافتها التي كادت أن تنطفئ . كانت ما تزال تجلس إلى البيان ، وقد استدارت نحوه نصف استدارة ، تداعب المفاتيح برقة من وقت لآخر بأصابع يدها اليمنى ، فتختلط الأنغام في عذوبة جمة مع الكلمات البسيطة المنطلقة من أعماق القلب المعبَّر بها في عجلة عن مشاعره وإحساساته .

– أستطيع الآن أن أقول شيئاً عن نفسي وعن الناس الآخرين ، فقد بدأت أفهم وأصبح في مقدوري أن أقارن بين الأشياء أيضاً . إن حياة الانسان سواء في وجودنا نحن والآخرين ، فليس لدينا شيء يستأهل المقارنة . أما الآن ، حين أعرف كيف يعيش بقية البشر ، وأتذكر كيف عشت أنا – فإن المرارة والآلام تتضاعف إذن .

وخفضت صوتها ، وتابعت :

– ربما لا أعبّر عن ذلك كما ينبغي ، وربما لا معنى في التصريح بذلك على الإطلاق ، فالكائنات التي مثلكم تعلم كل شيء . . .

غصّت كلماتها بالدموع ، وابتسمت عيناها وقد حملقت فيهما قائلة :

– أريد أن أفتح لكما قلبي حتى تعلما كم أتمنى الخير لكما !

فقال نيقولاي بصوت رقيق :

– اننا نعرف ذلك جيداً !

كانت عاجزة كل العجز عن إرضاء رغبتها ، فراحت تروي لهما مرة أخرى كل ما في حياتها من جديد ، وما تجده عظيم الأهمية فوق كل حدود . وشرعت تتحدث عن حياتها المريرة وعن عذابها الذي صبرت عليه ، تسرد ذلك كله دون غضب ، ولكن في ظل من الأسف الساخر . راحت تنشر شريط تلك الأيام الرمادية القاتمة التي تؤلف حياتها السابقة ، وتحصي ما أذاقها زوجها من لكمات ، متعجبة هي نفسها من تفاهة الدوافع التي كانت تقود إليها ، وفي الوقت ذاته من عجزها عن تفاديها . . .

كانا يصغيان إليها في صمت متأثرين بالمعنى العميق الكامن وراء هذه القصة البسيطة عن حياة كائن لم ترفعه نظرة الناس إليه عن مصاف الدوّاب ، فطفق هو يعتبر نفسه طويلاً ، في خضوع ودون أدنى تذمر على الاطلاق ، مثلما ينظرون إليه تماماً . وكان يبدو لهما أن آلاف الناس تنطق بلسانها . ان كل ما عاشته بسيط مألوف مثل حياة الأغلبية الساحقة من الناس على وجه هذه الأرض ، ولذلك تكسب قصتها معنى رمز عام شامل . وارتفق نيقولاي المائدة ، واعتمد رأسه بين يديه ، وقد أطمح بصره إليها يراقبها بلا حراك من وراء نظارتيه بعينين خزراوين . أما صوفيا فاعتمدت على ظهر مقعدها وهي ترتعش وتهزّ رأسها نفياً من حين لآخر ، يلوح وجهها وكأنه يزداد نحولاً وشحوباً . ولم تكن تدخن .

قالت في هدوء ، وهي تطرق برأسها :

– لقد اعتقدت مرة اني بائسة ، وخيل اليّ ان حياتي عبارة عن هذيان ليس غير . وكان ذلك عندما كنت في المنفى في مدينة صغيرة في إحدى الولايات البعيدة ، حيث لم يكن لديّ ما أفعل او أفكر فيه إلا شخصي وحده ، فرحت لذلك احصي كل مصائبي ما دمت لا اجد شيئاً افضل اصنعه : لقد تشاجرت مع والدي الذي أحبه ؛ وطُردت من المدرسة حيث جعلوا مني مثالاً مخجلاً ، وسجنت ؛ كما أن رفيقاً مقرباً إليّ خانني . ولقد اعتُقِلَ زوجي ، ثم كان السجن والمنفى مرة اخرى ، ومن بَعدُ وفاة زوجي . ولقد هُدهِد لي أني اكثر الكائنات في العالم بؤساً وشقاء . . ولكن سائر مصائبي ، مضروبة في عشرة امثالها ، لا تساوي شهراً واحداً من حياتك ، يا بيلاجيا نيلوفنا . . . لقد كانت حياتك عذاباً سرمدياً يتتابع سنة بعد سنة . . . من أين يستقي الناس تلك القوى كي يتحملوا هذا العذاب الأليم ؟

تجيب بيلاجيا ، وهي تتنهد :

– إنهم يعتادون عليه !

وقال نيقولاي مفكراً :

– يخيل إليّ اني أعرف الحياة كثيراً . عندما أطلع عليها عن كثب ، لا في كتاب ولا في انطباعاتي المختلفة الخاصة عنها ، بل حين تنتصب هي نفسها أمامي . . . إن ذلك لرهيب" إذن . وإن التفاصيل رهيبة كذلك ، وحتى التوافه أيضاً . . كل تلك اللحظات التي تنسج السنوات . . .

استمر الحديث واتسع يتناول كل مظاهر هذه الحياة

المظلمة . وراحت الأم تحفر عميقاً في ذكرياتها ، وهي تنبش سلسلة الامتهانات والاهانات اليومية التي جعلت من صباها خوفاً صامتاً دائماً . وقالت أخيراً :

– ولكن ما بالي اثرثر واثرثر ، في حين آن لكما أن تذهبا إلى الفراش . لن يستطيع المرء أبداً البَوحَ بكل ما عنده . . .

واستأذن الأخ والأخت منها في سكون فصوّر لها أن نيقولاي انحنى اكثر من المعتاد ، كما ضغط على يدها بقوة اكبر . اما صوفيا فرافقتها حتى غرفتها ، وهمست وهي تتركها عند الباب :

– نوماً هنيئاً . طابت ليلتك !

كان صوتها مفعماً بالحرارة ، وعيناها الرماديتان تداعبان وجه الأم في حلاوة . . .

تناولت الأم يد صوفيا وضغطت عليها بين كلتا يديها ، وقالت :

– شكراً لك ! . .

٤

بعد عدة ايام وقفت الأم وصوفيا أمام نيقولاي وهما ترتديان ثياب امرأتين فقيرتين من سكان المدن : فستانين قطنيين مهترئين وسترتين باليتين ، وعلى ظهر كلتيهما خرج ، وفي يديها عصا ثخينة . لقد بدت صوفيا في هذه الثياب أقصر من قامتها ، ووجهها الشاحب أكثر رزانة وجداً أيضاً .

ضغط نيقولاي يد أخته بشدة وهو يودّعها ، فلفت انتباه الأم مرة أخرى تلك البساطة الهادئة السائدة علاقاتهما . إنهما لا يتبادلان القبل ولا يتناديان بأسماء تحبّبٍ ، وان كانا أبداً يُعنيان كلٌ بأمر الآخر في كثير من العطف والودّ . أما حيث عاشت الأم فقد كان الناس يتبادلون القبل وعبارات الإكرام أبداً ، لكن يستمرون في الوقت ذاته يعضّون بعضهم بعضاً مثل الكلاب الجائعة .

خرجت المرأتان في صمت إلى شوارع المدينة ، ومنها إلى الحقول ، وهما تسيران كتفاً الى كتف على طول طريق متّسعة عريضة ، غير معبدة ، تمتد بين صفين من أشجار البتولا العجوز .

سألت الأم رفيقتها :

– أفلن تتعبي ؟

– أتظنين اني لم أمشِ كثيراً طوال حياتي ؟ ذلك مألوف لديّ . . .

وراحت صوفيا تتحدث في مرح عن نشاطها الثوري ، وكأنها تروي نزوات طفولتها . لقد عاشت بأسماء مختلفة وأوراق مزوّرة ؛ وكثيراً ما تنكرت كي تفلت من الجواسيس ؛ كما نقلت قناطير من الكتب غير المشروعة من مدينة لأخرى ؛ ونظمت هرب كثير من الرفاق من المنفى ؛ واجتازت بهم الحدود ورافقتهم إلى مدن أجنبية . أقامت مطبعة سرية في بيتها ، وعندما بلغ خبرها الدرك وجاؤوا يفتشون الدار ، استطاعت في لحظات معدودة قبل وصولهم أن تتنكر في زي خادمة وتولي الادبار ، ملتقية بزوارها عند بوابة

المنزل . كان ذلك في الشتاء ، والطقس شديد البرد ، ومع ذلك عبرت المدينة بأسرها في ثوب رقيق ، لا يسترها إلا وشاح من القطن ألقت به على رأسها ، وفي يدها إناء البترول فكأنها تريد أن تبتاع شيئاً منه . وفي مرة أخرى قدمت إلى مدينة غريبة تزور بعض الأصدقاء ، وبينا هي ترتقي السلم اكتشفت ان رجال الدرك يفتشون الجناح الذي تقصده . وكانت فرصة النكوص على أعقابها قد فاتت ، فلم تتوانَ عن قرع جرس الطابق السفلي في جرأة وزرع نفسها هناك ، بما لها وما عليها ، عند أولئك القوم المجهولين . ولقد قالت لهم ، بعد ان أوضحت حالتها بكل صراحة :

– إنكم تستطيعون تسليمي إلى الشرطة إن شئتم ، ولكني لا أستطيع أبداً ان أفكر أنكم فاعلون ذلك .

ذُعروا كثيراً حتى لم يغمض لهم جفن طوال الليل ، وهم ينتظرون بين لحظة واخرى أن يقرع بابهم . ولكنهم لم يسلموها ، وفي صباح الغداة ضحكوا وسخروا معها من رجال الدرك .

وفي مرة ثالثة أيضاً تنكرّت في زي راهبة ، وسافرت في ذات العربة وفي المقعد المجاور لمقعد الجاسوس الموكل إليه مراقبتها . لا بل إنه راح يروي لها متباهياً مزهواً كيف يتتبع آثار تلك المرأة بكل مهارة وحنكة وكيف أنه واثق من ركوبها في قاطرة من الدرجة الثانية في القطار ذاته . وكان يغادر مقعده في كل محطة ليبحث عنها ، ثم يقول للراهبة عندما يعود :

– إني لا أراها . فلا ريب أنها استسلمت للنوم .

إنهم يتعبون كثيراً هم أيضاً ، فحياتهم ليست أسهل من حياتنا على الاطلاق !

وضحكت الأم ، وهي تختلس النظر بحنانٍ إلى صوفيا التي تروي هذه الأقاصيص . كانت الفتاة تنتقل ، ممشوقة القد نحيلة القوام ، بخفة وثبات على رجليها الرشيقتين ، وفي مشيتها وفي حديثها ، وفي رنين صوتها المرح الأجش قليلاً ، وفي كل هيكلها المنتصب ، شيء جريء مقدام يطفح صحة روحية . كانت تنظر إلى كل الأشياء في فتوة ، وتجدُ ما يحمل لها السرور في كل ما تقع عليه عيناها . هتفت مرة ، وهي تشير إلى إحدى الأشجار :

– يا لها صنوبرة رائعة !

فتوقفت الأم ونظرت إلى حيث تشير . لم يكن في الصنوبرة شيء يميزها عن مثيلاتها مطلقاً .

ضحكت ، وهي ترى الريح تداعب خصلاً من الشعر الشائب فوق أذن الفتاة المرافقة لها . وقالت :

– نعم إنها لشجرة رائعة حقاً !

– قُبَّرة !

التمعت عينا صوفيا الرماديتان حناناً ، وخيّل إلى الام كما لو ان جسدها ينفصل عن الارض ويسبح نحو موسيقى القبّرة غير المنظورة ، المترددة في السماء الصافية . ومن حين لآخر ، كانت تنحني برشاقة لتلتقط زهرة برية تمسح أوراقها المرتعشة بأصابعها الرقيقة ، السريعة الحركة ، وهي تدندن لحناً فائق العذوبة .

كان هذا يجتذب الأم إلى الفتاة ذات العينين الرماديتين ،

وهي تسير إلى جانبها ، ساعية ألا تتأخر عنها . ولكن صوفيا تتحدث في قسوة وحدة في بعض الأحيان ، فترى الأم في ذلك افراطا ، وتفكر في قلق :

«ان ميخائيلو لن يحبها . . .»

ولكن صوفيا لا تلبث ، في اللحظة التالية ، ان تعود إلى الحديث في بساطة وحرارة ، فتنحو الأم بصرها إليها وتبتسم . تنهدت :

– يا لك فتاة في ريعان الصبا !

فهتفت صوفيا :

– إني بلغت الثانية والثلاثين !

فابتسمت بيلاجيا ، وقالت :

– ليس هذا ما أعني ! مظهرك يوحي أنك أكبر سناً أيضاً . ولكني عندما أصغي إليك ، وأنظر في عينيك ، تأخذني الدهشة دائماً . . . لتشبهين كل الشبه صبية صغيرة . لقد كانت حياتك صعبة قاسية مضطربة ، وخطرة أيضاً ومع ذلك فان قلبك يبتسم أبداً .

– إني لا احس بصعوبة الحياة ، أعتقد أنه ليس ثمة انسان حياته أفضل وأكثر متعة من حياتي . . . لسوف أناديك باسم أبيك . . . نيلوفنا . فاسم بيلاجيا لا يليق بك .

فقالت الأم مفكرة :

– ناديني كما تشائين ، كما تشائين ما دام ذلك يروقك . إني لا أفتأ أنظر إليك وأصغي بسمعي وأفكر . وإنه ليسعدني أنك وجدت السبيل الذي يقود إلى القلب

البشري ، فليس من يمتنع عن الاعتراف لك بكل ما يجري في باطنه دون وجل أو خلجة خوف مطلقاً . إنه يفتح لك قلبه من تلقاء نفسه . وإني أتأمل فيكم جميعاً ، فلا تفارقني هذه الفكرة لحظة : انهم سينتصرون أخيراً على الشر في الحياة ، لا بدّ انهم منتصرون !

فقالت صوفيا في صوت مرتفع ، وبلهجة مَنْ يثق بما يقول :

– إننا سننتصر لأننا متحدون مع العمال ! إن كل الامكانيات تكمن فيهم ، وكل شيء يمكن تحقيقه معهم ! ينبغي فقط ان نوقظ وعيهم حتى يشبوا أحراراً . .

أثارت كلماتها احساسات مختلفة في قلب الأم ، ولسبب لم تدرِ له كنهاً اشفقت على صوفيا ، وكان إشفاقها ودياً عطوفاً ، لا اثر للإساءة فيه . وودّت ان تسمعها تقول كلمات أخرى ، كلمات تكون أبسط مما قالته .

سالت في هدوء وكآبة :

– ومن سيكافئكم على جهودكم ؟

فاجابت صوفيا :

– لقد نلنا مكافأتنا !

وبدا للأم ان الكلمات ترنُّ في اعتزاز وفخر .

– لقد وجدنا طريقة في الحياة ترضينا . إننا نعيش بكل القوى الروحيّة التي فينا . . . ما عسانا نسأل الحياة غير هذا ؟

نظرت الأم إليها وأطرقت بناظريها . وفكرت مرة أخرى : «إن ميخائيلو لن يحبها . .»

كانتا تسيران بخفة ، ولكن دون عجلة ، تعبّان الهواء الرقيق ، فيؤتى للأم انها تذهب في حج إلى بعض الأمكنة المقدسة . وتذكرت الفرح الذي كان يملأ قلبها في طفولتها عندما كانت تغادر قريتها لتحضر بعض الخدمات الكنسية في بعض الأعياد في دير بعيد فيه أيقونة عجائبية .

وكانت صوفيا تُنشد في بعض الأحيان مقطوعات من الأغاني الجديدة عن السماء أو عن الحب بصوت ناعم حنون ، او تلقي بعض القصائد عن الحقول والغابات والفولغا ، فتستمع الأم اليها وتبتسم ، وهي تهزّ رأسها ، دون إرادة منها ، بصورة موزونة مع الشعر الذي تغمرها موسيقاه وتسحرها .

كان كل شيء في داخلها دافئاً ، هادئاً ، مستغرقاً في التفكير ، فكأنها في تلك الحديقة الصغيرة القديمة ، ذات أمسية من الصيف الجميل .

٥

بلغتا غايتهما في اليوم الثالث ، فتوجهت الأم بالسؤال إلى فلاح يعمل في الحقول تستفهم منه عن موقع معمل القطران ، وسرعان ما كانتا تنحدران على طول ممرّ مائل وعر أرومات الاشجار فيه أشبه بدرجات سلم حقيقي ، أفضى بهما إلى ساحة مستديرة تغصُّ بالفحم ونشارة الخشب ، وقد تلطخت في كل أرجائها بالقطران الكثيف .

قالت الأم ، وهي ترشق النظر فيما حولها بقلق :

– ها نحن أخيراً هنا !

وتبيَّنتا ، تجاه كوخ مبني من الخشب وأغصان الأشجار ، منضدة مصنوعة من ثلاثة ألواح من الخشب سُمِّرت إلى أوتاد طويلة غُرست عميقاً في الأرض ، وقد جلس إليهـا ريبين ، ملطخاً بالقطران من رأسه حتى قدميه ، محلول أزرار القميص ، بادي الصدر العاري ، برفقته ييفيم وشابان آخران يتناولون طعام الغداء . كان ريبين أول من لمح المراتين ، فاستكفَّ بيده وقبع ينتظر في سكون .

صاحت الأم به عن بعد :

– أسعدت نهاراً أيها الأخ ميخائيلو !

فنهض ، وقَحَم إليهما على مهلَته . وعندما عرف الأم توقف مبتسماً ، وهو يمشّط لحيته بيده السوداء . قالت الأم مقتربة منه :

– كنا في طريقنا إلى الحج ، فقلت في نفسي : فلنمرَّ من هنا كي ألقي السلام على أخي . هذه صديقتي واسمهـا أنّا . . .

حشَّفتْ عينيها ، فخوراً ببراعتها ، ترنو إلى وجه صوفيا الرزين الوقور .

قال ريبين وهو يصافحها وينحني لصوفيا ، مفترُّ الثغر عن ابتسامة كئيبة :

– نعِمتِ نهاراً ! لا تكذبي ، فلسنا في المدينة الآن ، وليس من حاجة إلى اختلاق الأكاذيب ههنا ! الجميـع ليسوا غرباء . . .

تفحّص ييفيم الزائرتين ملياً من حيث يجلس إلى الطاولة ،

وقال شيئاً لصاحبيه بصوت خفيض عميق . وعندما أطفَت المراتان من الطاولة نهض وانحنى لهما في صمت ، أما رفيقاه فظلا دون حراك وكأنهما لم يلحظا الضيفتين .

أعلن ريبين ، وهو يربت على كتف الأم في لطف :

– إننا نعيش ههنا كالرهبان ، وليس من يأتي لرؤيتنا أبداً . لقد ذهب المدير من القرية ، ودخلت زوجتـه إلى المستشفى ، وأنا وحدي أتحمل مسؤولية العمل . اجلسا . لا ريب أنكما بحاجة إلى الطعام . هلا أدركتهما بشيء من الحليب ، يا ييفيم !

ولج ييفيم الكوخ متمهلاً ، بينما تخلصت المسافرتان من حملهما . ونهض أحد الشابين يساعدهما ، وهو فتى نحيل العود طويل القامة ، في حين ظل رفيقه مربوع القامة أشعث الشعر ، مستنداً الى المنضدة بمرفقيه يراقبهما متأملاً ، وهو يحكّ رأسه ويدندن لحناً في الوقت ذاته .

كانت رائحة القطران الحادة ، الممتزجة برائحـة أوراق الشجر المتعفنة الخانقة ، تحاصر المراتين وتجعل رأسيهمـا يدوران .

قال ريبين ، مشيراً إلى الفتى الطويل :

– إنه يدعي ياكوف . أما الآخر فاغناطي . حسناً ، كيف حال ابنك ؟

فأجابت الأم ، وهي تتنهد :

– إنه في السجن !

فهتف ريبين :

– مرة أخرى ؟ لا ريب أن السجن راقه . .

كفّ اغناطي عن الغناء ، اما ياكوف فتناول العصا من يد الأم قائلاً :

– اجلسي ! . .

وقال ريبين ، موجهاً الكلام إلى صوفيا :

– ما بالك واقفة هكذا ؟ إجلسي !

جلست صوفيا على جذع شجرة تتفحص ريبين بإمعان . اتخذ ريبين مجلسه قبالة الأم ، وهزّ رأسه وقال :

– متى أوقفوه ؟ انت معدومة الحظ ، يا نيلوفنا !

فردّت :

– لا بأس في ذلك !

– لقد اعتدته ؟

– كلا ، لم اعتده . . . بل ارى جيداً انه لا حيلة لي فيه .

– ويْ ! حسناً ، هاتي حدثينا عن ذلك . . .

جاء يفيم بإبريق من الحليب ، وتناول قدحاً عن المائدة ، وغسله ، وملاه بالحليب ثم قدمه إلى صوفيا ، مرهفاً السمع اثناء ذلك إلى رواية الأم . كان حريصاً على الا يثير ضوضاء ، فيتحرك في هدوء ، وحذر فائقين . وعندما انتهت الأم من روايتها المقتضبة ساد الجميع صمت عميق لم يتبادلوا النظر اثناءه أبداً . كان اغناطي جالساً الى المنضدة يحكّ الواحها الخشبية بأظافره ، اما يفيم فوقف خلف ريبين مرتفقاً كتفه ، بينا استند ياكوف بظهره إلى جذع إحدى الاشجار متصلب الذراعين ، مطاطأ الرأس . وجثمت صوفيا في صمت تتفحص شزرا وجوه الفلاحين . . .

همهم ريبين في نغمة متثاقلة شرسة :

– همْ – مْ – مْ . . . هكذا إذن – على المكشوف !

وقال يفيم ، وعلى شفتيه ابتسامة مرّة :

– لو اننا نظمنا يوماً مظاهرة كهذه هنا ، لضرَبنا الفلاحون حتى الموت ! – فوافق اغناطي بحركة من رأسه :

– بكل تأكيد سوف يضربوننا . كلا ، سأذهب والتحق بأحد المصانع . فالأمور هناك أفضل بكثير . . .

وسأل ريبين :

– تقولين إنهم سيقدّمون بافل إلى المحكمة ؟ ما نوع الحكم الذي سيصدرونه عليه ؟ هل بلغك شيء عن هذا ؟

فأجابت في هدوء :

– الأشغال الشاقة ، أو النفي المؤبد في سيبيريا . . .

فاستدار إليها الفتيان الثلاثة في وقت واحد في حين خفّض ريبين رأسه واستوضح في نغمة متماهلة :

– أكان يعرف ما ينتظره عندما ارتكب فعلته ؟

فردّت صوفيا بصوت مرتفع :

– اجل ، كان يعرف !

فسكن الجميع حتى لا حراك بهم ، وكان فكرة واحدة باردة جمّدتهم .

وتابع ريبين في قسوة وخطورة :

– هكذا إذن . . . وانا اعتقد ايضاً انه كان يعرف ذلك . فهو انسان رزين ولا يقفز الا بعد أن يعرف ما ينتظره . هل سمعتم هذا ، أيها الفتيان ؟ لقد كان يعلم أنهم سيغمدون حرابهم في جسده ، أو يرسلون به إلى الاشغال الشاقة ،

ولكن هذا لم يوقفـــه . . . ولو ان أمه نفسها اعترضت سبيله ،لخطا من فوقها دون تردد . اما كان يفعل ذلك ، يا نيلوفنا ؟

فقالت الأم ، وهي ترتعش :

– بلى ، كان يفعل !

تنهدت بعمق ، وتطلعت حولها ، فربتت صوفيا بلطف على يدها ، بينما راحت تحدج ريبين بقسوة وقد تغضن جبينها .

قال ريبين في هدوء ، وهو يغمر الجميـــع بعينيـــه السوداوين :

– يا له من انسان !

مرة أخرى لاذ الأشخاص الستة بالصمت . كانت شعاعات رائعة من الشمس تتعلق في الفضاء، مثل أشرطة زاهية مذهبة ، وفي مكان ما ينعق غراب بشع الصوت . وراحت الأم تحمّج عينيها في الأشياء المحتفة بها ، وقد ازعجتهـــا ذكريات أول أيار ، واشتياقها إلى بافل واندريه معاً . وكانت براميـــل فارغة من القطران مبعثرة في الساحة الصغيرة ، مختلطة هنا وهناك بجذوع أشجار مشذبة مقطوعة عن ارومتها . فيما التفت حول الساحة أشجار السنديان والبتولا منتصبة دون حراك يوحّد الصمت بينها ، وهي تلقي على الأرض ظلالاً دافئـــة سوداء .

وعلى حين بغتة صدَر ياكوف عن الشجرة ، وخطا جانباً ثم توقف واستفسر في جفوة وبصوت مرتفع ، وهو يرمي رأسه إلى الخلف :

– أضدّ فتيان مثله سيرسلون بنا ، أنا ويفيم ؟

فاجاب ريبين :

– وضدّ من تظنهم سيرسلون بكما إذن ؟ إنهم يستعملون ذات ايدينا ليخنقونا بها . ذلك هو سر اللعبة كلها !

اعلن ييفيم في عناد وبصوت خفيض :

– ولكنني ساكون جندياً على أية حال !

وصاح اغناطي :

– ومن يمنعك عن ذلك ؟ هيا اذهب !

واضاف ، باعثاً ضحكة قصيرة وهو يحدّج ييفيم بعينيه :

– لكن اعمل على تسديد المرمى إلى رأسي تماماً عندما تطلق النار عليّ . . . لا تجعـــل مني مُقعداً ، بل اقتلني راساً ، بطلقة واحدة !

فردّ عليه ييفيم في حدة وجفوة :

– سمعت منك هذا قبلاً !

وقال ريبين ، وهو يتفحص وجوههم ويرفع يده متمهلاً :

– إنتظروا لحظة ، أيها الفتيان . هذه امرأة (واشار إلى الأم) ، لا ريب ان الأمر انتهى بالنسبة إلى ابنها . . .

فسالته الأم في ألم وهدوء :

– فيمَ تقول هذا ؟

فاجاب في وقار :

– ضروري ! ضروري ان شعرك لن يشيب عبثاً . هل تعتقدون أنهم قتلوها بما فعلوا بابنها ؟ نيلوفنا ، هل جئت بالمنشورات ؟

فحدجته الأم بنظرها ، ثم وافقت بعد صمت قصير :

– نعم . . .

فزمجر ريبين ، وهو يضرب المائدة براحة يده :

— هل رايتم ؟ لقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رايتها فيها . وإلا فما الذي جاء بكِ حتى هذا المكان ؟ هل أدركتم هذا ؟ لقد انتزعوا ابنها من بين الصفوف . . . فأخذت امه مكانه !

وارسل يميناً مغلظة ، وهو يهز قبضته في الفضاء مهدداً .

نظرت الأم في وجهه ، وقد ذعرت لصياحه هذا ، فألفته تبدل كثيراً : اصبح اكثر نحولاً ، واضحت لحيته شعثاء ، تبدو من تحتها عظام وجنتيه البارزة ، وقد ظهرت في بياض عينيه المزرق اوردة حمر دقيقة ، فكانه لم ينمْ منذ زمن طويل ، وانقرس انفه وتقوس فاضحى كمنقار عصفور مفترس . وكان قميصه المفتوح ، الأحمر اللون فيما سبق من الزمان والمشرّب الآن بالقطران الفاحم ، يكشف عن عظام ترقوتيه الناتئتين ، وشعر صدره الكثيف الأسود . وكان مظهره العام اكثر عبوساً واكتئاباً منه في اي وقت مضى ، وفي عينيه الملتهبتين تتاجج نار غضبى تضيء وجهه القاتم .

كانت صوفيا تجلس في صمت ، وازداد شحوبها ، معلقة انظارها ابداً بهؤلاء الفلاحين . اما اغناطي فيهزُّ راسه وقد زوّى ما بين عينيه ؛ بينا راح ياكوف ، وقد اتخذ مكانه من جديد بجانب الكوخ ، ينزع باصابعه القاتمة في عصبية بعض قشور الألواح القريبة منه ، ويفيم يتمشى في بطء جيئة وغدوة على طول المنضدة ، خلف ظهر الأم . واسترسل ريبين يقول :

— قبل فترة قصيرة دعاني مدير ناحيتنا إليه ، وقال لي : «ما هذا الذي ترويه للكاهن ، ايها الوغد ؟» . فقلت

له : «إني اكسب خبزي بعرق جبيني ، ولا أنال أحداً من الناس بأذى فلماذا تقول انني وغد ؟» . فأخذ يزعق في وجهي ، ولطمني على اسناني ، ثم ألقى بي في مخفر الشرطة طوال ثلاثة أيام . ولقد فكرت : «إذن فهكذا أنتم تخاطبون عامة الناس ، أليس كذلك ؟ إذن فلا تنتظر منا ان ننسى ذلك ، يا ايها الشيطان ! فإذا لم أثأر منك أنا ، فان سواي سيفعل ، ويثأر لإهانتي منك او من أولادك – لا تنسَ هذا ! لقد حرثتم صدور الناس بمخالبكم الفولاذية هنا ، وزرعتم الحقد هناك ، فلا تنتظروا إذن اية رحمة ، ايها الأبالسة» ! تلك هي القضية !

كان برمته يفيض بما يفور في صدره عن غيظ عنيف ، وفي صوته نبرات أثارت الذعر في قلب الأم .

وتابع في هدوء أعظم من ذي قبل :

— وما الذي قلته للكاهن ؟ كان يجلس إلى بعض الفلاحين يتحدث إليهم بعد ان قام بجولته المعتادة في القرية ، يتحدث إليهم قائلاً ما معناه إن عامة الناس قطيع من الغنم يحتاج أبداً إلى من يرعاه . حسناً ، لقد قلت له في مزاح : «إذا اقاموا الثعلب مرة رئيساً في الغابة ، فإن الأرياش هي التي ستطير بدل العصافير !» فألقى نظرة إلي شزراً ، وراح يعظ كيف ينبغي للناس ان يصبروا طويلاً ، وان يصلوا إلى الله كي يهب لهم القوة لتحمل مصائبهم بصبر . فقلت له عندئذ : الناس لا ينقطعون عن الصلاة في حالهم الحاضرة ، ولكن الله فيما يبدو مشغول جداً عن الاصغاء إليهم ما دام لا يستجيب لأية صلاة من صلواتهم . حسناً ، سألني عندئذ

عن الصلوات التي أتلوها ، فأجبته : صلاة واحدة لم تتبدل طوال حياتي ، مثلي في ذلك مثل عامة الناس . أيهـا الرب العزيز ، ارجو ان تعلمني كيف آكل الحجارة ، وكيف أبصق الواح الخشب ، وكيف أجر قطع القرميد إلى قصور الأسياد ! ولكنه لم يعطني الفرصة كي أنهي كلامي .

وانقطع ريبين بغتة عن حديثه ، وسأل صوفيا :

– أانتِ سيدة من عائلة النبلاء ؟

فسألت صوفيا بسرعة ، وهي تنتفض دهشة :

– لِمَ من عائلة النبلاء ؟

فقال ريبين ضاحكاً :

– لِمَ ؟ لأنك ولدت هكذا ! إنه نصيب كل انسان أن يكون ما وُلدَ . حسناً ، أتظنين انه في استطاعتك إخفـاء خطايا الأسياد تحت هذا الوشاح القطني الذي تغطين رأسك به ؟ إننا نعرف الكاهن ولو رأيناه محزومـاً في كيس من الخيش . أنت ترتعشين وتكشرين إذا وقع مرفقك على سائـل أهرق على المائدة . وإن ظهرك لكثير الاستقامة بالنسبة لامرأة عاملة . . .

فتدخّلت الأم في الموضوع ، وهي تخاف ان تؤذي كلماته القاسية وضحكه الساخر شعور صوفيا . قالت بسرعـة وفي نغمة صارمة :

– انها صديقتي ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش ، وامرأة طيبة رائعة . لقد شاب شعرها وهي تعمل في سبيل قضيتنا . إنك تذهب إلى أبعد مما ينبغي . . .

فاطلق ريبين زفرة عميقة ، وقال :

– ولكني لم أقل شيئاً يسيء إلى أي انسان كان !

فعقّبت صوفيا في جفاء بعد ان القت نظرة سريعة إليه :

– أظنك كنت تريد أن تقول لي شيئاً !

– أنا ؟ آه ، نعم ! لقد جاء إلى هنا ، قبل زمن غير بعيد ، رجل جديد هو ابن عم ياكوف . إنه مريض بالسل . هل أرسل في طلبه ؟

فجزمت صوفيا :

– بكل تأكيد !

فحدجها ريبين من خلال عينيه المتضيقتين ، ثم التفت إلى ييفيم قائلا في رنين خافت :

– إذهب واطلب إليه أن يأتينا هذا المساء .

فتناول ييفيم قبعته ، واختفى في الغابة متماهلاً دون ان يقول شيئاً أو ينظر إلى أحدٍ من الحاضرين . وأشار ريبين نحوه برأسه ، ثم أعلن بصوت خافت :

– إنه يتألم كثيراً هذه الأيام ! وسيُطلب قريباً مـع ياكوف إلى خدمة العلم . وياكوف لا يهتم بذلك ، بل يقول : «لست أستطيع الذهاب» . وذلك لا يستطيع الذهاب ايضاً ، ولكنه سيذهب مع ذلك . . . وهو يعتقد أن في مكنته تحريض الجنود . اما انا فاظن أن المرء لا يستطيع تحطيـم الجدار بضرب جبينه عليه . . . يكفي أن ينظر المرء إليهم . . . إذا وُضعت حربة في أيديهم مرة انطلقوا لا يلوون على أي شيء آخر . وقد تألم كثيراً بسبب من ذلك ، واغناطي هذا يضرب دائماً على ذات الوتر . هذا عبث كله !

فقال اغناطي مكتئباً ، من غير ان يتطلع إلى ريبين :

– بل على العكس ! إنهم سيطبخونه هناك ، لسوف يطلق الناس من اجلهم مثل الآخرين تماماً . . .

فأجاب ريبين متفكراً :

– لا اصدّق هذا وإن كان يَفْضُـل الا يذهب مطلقاً . ان روسيا بلد واسع – فاين يمكنهم العثور عليه ؟ عليه ان يحصّل جوازاً مزيفاً ثم يتنقل من قرية إلى أخرى . . .

فأفاض اغناطي ، وهو يلطم قدمه بقضيب رفيع :

– هذا ما سأفعل أنا ! فإذا أنت قررت أن تكافحهم مرة فلا بدّ لك من الذهاب قُدُماً باستمرار !

انقطع الحديث . كانت جموع النحـل والزنابير تحوم في الفضاء في انهماك واضطراب ، مالئة الهواء بدويّها المزعج . وكانت العصافير تزقزق ، واغنية بعيدة تنسرق عبر الحقول على غير هدى .

قال ريبين بعد صمت قصير :

– حسناً ، حان حين العودة إلى العمل . . لعلكمـا تودّان ان تنالا بعض الراحة . ثمة دكـة في الكوخ . إذهب واجمع بعض الأوراق الجافة ، يا ياكوف . . أما أنت ، يا اماه ، فاعطيني المنشورات . . .

شرعت الأم وصوفيا تحلاّن خرجيهما . قال ريبين مبتهجاً ، وهو ينحني فوق الخرجين :

– ما اكثر ما جلبتما ! اانت تشتركين في هذا العمل منذ زمن طويل ، يا . . . ما اسمك ؟

فاجابت صوفيا التي وجّه إليها السؤال الأخير :

– أنا إيفانوفا . اثنتا عشرة سنة . . لِمَ السؤال ؟

– لا شيء على التعيين . لا ريب أنك دخلت السجن ؟

– نعم . . .

فقالت الأم بلهجة عتاب وفي هدوء :

– هل ترى ؟ ولقد كنتَ قاسياً في كلامك بحضورها . . .

فغمغم بعد فترة صمت تناول خلالها رزمة من الكتب :

– لا تغضبي ! ان السادة والفلاحين يشبهـون القطران والماء ، لا يتمازجون !

فاعترضت صوفيا ، وهي ترسل ضحكة قصيرة :

– ولكني لست من الأسياد . أنا كائن بشري !

فردّ ريبين :

– ربما ! يقال ان الكلاب كانت ذئاباً فيما غبر من الزمن . أنا ذاهب أخبىء هذه الاشياء .

فاقترب منه اغناطي وياكوف وقد مدّا أيديهما . قال اغناطي :

– دعنا نطلع عليها !

فسأل ريبين صوفيا :

– أمحتوياتها واحدة ؟

– كلا ، بينها بعض الصحف . . .

– حقاً ؟

واسرع ثلاثتهم يدلفون إلى الكوخ . بينـا راحت الأم تشيّع ريبين بنظرها ، وهي تقول مفكرة متأملة :

– إن الفلاح يلتهب !

فردّت صوفيا ، بصوت خافت :

– اجل ، لم ارَ مثل وجهه من قبل – وجه شهيد . فلندخل نحن ايضاً . لفي نيّتي مراقبتهم . . .

فقالت الأم في وداعة ولطف :

– لا تغضبك قسوته . . .

فضحكت صوفيا ، وقالت :

– ما أطيبك ، يا نيلوفنا !

لما بلغتا العتبة رفع اغناطي راسه ، وجسَّهما بنظرة سريعة ، ثم ارسل اصابعه في شعره المجعد ، وانحنى فوق الصحيفة المنشورة على ركبتيه . كان ريبين يقف تحت شعاع من الشمس يتسلل من فرجة في السقف ، وهو يقرأ صحيفته على نوره ، ويحرك شفتيه اثناء ذلك . اما ياكوف فقد جثا امام الدكة مستنداً عليها بصدره وراح يقرأ هو الآخر .

عبرت الأم الكوخ إلى إحدى زواياه وجلست ، بينما وقفت صوفيا خلفها وقد وضعت إحدى يديها على كتفها تراقب الرجال في سكون .

قال ياكوف في هدوء ، دون أن يرفع راسه عن صحيفته :

– إنهم يشبعوننا شتماً ، نحن الفلاحين ، أيها العم ميخائيلو !

فارْعَفَ اليه ريبين ، وضحك ضحكة قصيرة قائلاً :

– ذلك لأنهم يحبوننا !

فنشق اغناطي الهواء عميقاً ، ورفع راسه ونبر مغمض العينين :

– الصحيفة تقول هنا : «لقد كفّ الفلاح عن أن يكون كائناً بشرياً» . بالطبع هذا ما حدث !

ومرّ على وجهه البسيط الصريح السيماء ظلُّ إهانة وإذلال .

– تعال وتسلق مكاني نفسه ، ايها الرجل الذكي ، وابقَ ههنا مدة ، ولسوف أرى ماذا تشبه عندئذ !

وقالت الأم لصوفيا في هدوء :

– ساضطجع قليلاً . فانا متعبة نوعاً ما ، هذه الرائحة تجعل راسي يدور . وأنت ؟

– لست اريد .

تمدّدت الأم على دكة في الزاوية وشرعت ثقلة الكرى تدبُّ في أجفانها . وجلست صوفيا إلى جانبها تراقب القرّاء ، وهي تطرد في رفق وحنان كل نحلة أو زنبور يقترب من وجه الأم فيعكّر صفوَ راحتها . ولاحظت الأم ، من خلال أهدابها المسبلة ، هذا الرفق ، وكانت راضية به .

زرفَ ريبين إليهما ، وقال في همس أجش :

– نائمة ؟

– نعم .

فوقف فترة يتطلع في وجه الأم في سكون ، ثم تنهد وقال في صوت خفيض :

– إنها الأولى ، كما أعتقد ، التي تبعت ابنها في هذه الطريق . انها الاولى !

– يجب الا نزعجها . هيا بنا . . .

– نعم . يجب أن نعود إلى العمل . وبودّي ان احادثك

قليلاً ، ولكن لا بدّ من تاجيل ذلك حتى المساء ! هيا بنا ، ايها الفتيان . . .

وخرج الثلاثة مخلفين صوفيا وراءهم عند الكوخ . وجعلت الأم تفكر :

«شكراً لله على انهم تصادقوا . . .»

واستغرقت في النوم ، ورائحة الغابات والقطران الحادة تملأ انفها .

٦

رجع العمال الأربعة مبتهجين بانصرام يوم العمل ، فأيقظت ضوضاء أصواتهم الأم التي خرجت من الكوخ تتثاءب وتبتسم ، وتلقي عليهم نظرة حنوناً وهي تقول :

– انتم هناك تعملون ، وأنا أنام ههنا مثل سيدة !

فاجاب ريبين :

– انت معذورة في هذا !

كان اكثر هدوءاً بعد ان بعثر الاجهاد انفعاله وهياجه .

تابع ريبين يقول :

– اغناطي ، ما رايك في قليل من الشاي ؟ نحن نتناوب الدور هنا ، واليوم دور اغناطـــي في الإشراف على الطعام والشراب !

وردّ اغناطي :

– لو وجدت من يبادلني نوبتي هذا اليوم !

شرع يجمع العيدان وبعض الأغصان اليابسة ليجمر بها ناراً ، واصغى السمع إلى الحديث .

فقال يفيم ، وهو يجلس إلى جانب صوفيا :

– إننا كلنا نهتم بالضيفتين !

وقال ياكوف في هدوء :

– سأساعدك يا أغناطي !

هدفَ إلى الكوخ ورجع برغيف من الخبز قطّعه اقساماً صغيرة وضعها على الطاولة .

قال يفيم :

– اصغوا ! اسمع صوت سعال . . .

فاصاخ ريبين بسمعه ، وهزّ راسه موافقاً :

– اجل ، انه ذاهب . . .

ثم التفت الى صوفيا موضحاً :

– هذا شاهد حي قادم . لو كان بوسعي لذهبت بـــه من مدينة لأخرى اعرضه في الساحات العامة حتى يتمكن الناس من سماعه ! انه ابداً يعزف على الوتر نفسه ، ولكن واجب كل إنسان ان يعيره أذنيه .

ازداد الظلام والسكون عمقاً ، ورقّت أصوات الرجـــال وعمرت عذوبة ، وراحت صوفيا والأم تراقبان هؤلاء الفلاحين : إنهم يتحركون في بطء وتثاقل ، وفي شيء من الحذر ايضاً . ويراقبونهما بدورهم ايضاً في اناة وانتباه .

وبرز من الغابة شخص طويل القامة ، محدوب الظهر ، يعتمد في مسيره المتمهل على عصاً غليظة ، ويتنفس بصعوبة جمة لم تخفَ على أحد من الحاضرين .

قال :

– ها أنذا !

وراح في نوبة عنيفة من السعال .

كان يرتدي معطفاً مهترئاً يبلغ عقبيه ، ومن تحت قبعته المستديرة المكرمشة تبدو خصل ناحلة من شعر أصفر مسبل تتدلى على صدغيه في إهمال وضعف . وكانت له لحية شقراء ووجهه الشاحب بارز الوجنتين ، فيما لا تبرح شفتاه منفرجتين أبداً ، وعيناه تبرقان في حمى شديـــدة وهما تغوصان في محجريهما الغائرين اللذين أشبهـــا كهفين قاتمين مغرقين في الظلمة . توجه إلى صوفيا قائلاً ، بعد أن قدمها ريبين إليه :

– بلغني أنك جلبت كتباً معك ؟

فأبانت :

– أجل .

– شكراً لك ، بالنيابة عن الشعب بأسره . . . إنه نفسه لا يستطيع إدراك الحقيقة بعد . أما أنا الذي أعرفها فأشكرك . . . بالنيابة عنه .

وتسارع تنفســـه ، وهو يختطف الهواء بجرعات صغيرة نهمة . كان صوته متكسراً متقطعاً ، وأصابعه الرقيقة تنزلق باستمرار على صدره بعصبيـــة ظاهرة وهو يحاول أن يزرّر معطفه .

قالت صوفيا :

– قدومك عبر الغاب في مثل هذه الساعة المتأخرة من المساء أمر لا يصلح لك ، فالأشجار المورقة تجعل الهواء رطباً ثقيلاً !

فأجاب لاهثاً منقطع الأنفاس :

– لم يعد شيء يصلح لي اليوم . الموت وحده يصلح لي الآن . . .

كان الإنصات إلى صوته يؤلم كثيراً ، ومجمل شخصه يثير في النفس تلك الشفقة الفائضة العديمة النفع ، المدركة عجزهـــا بحيث تبعث في الإنسان مزيجاً من الأسف والمرارة الشديدين . واقتعد القادم أحد البراميل ، وهو يطوي ركبتيه في حذر وحيطة كثيرين ، فكأنه يخاف أن تنكسر ؛ ثم شرع يمسح العرق عن جبهته . كان شعره جافاً عديم الحياة .

وحبجبت النار والتظت ، فاضطرب كـــل ما يحيط بها وترنح ، واندفعت الظلال التي لحسها اللهيب نحو الغابة في ذعر ، بينا لاح وجه أغناطي المستدير بوجنتيه البارزتين فوق النار برهة من الزمن . ثم خبا اللهب فانتشرت في الفضاء رائحة دخان حادة . ومن جديد ساد الظلام والسكون الساحة ، فكأنهما يتربصان لسماع كلمات الرجل المريض المبحوحة .

– أستطيع بَعْدُ أن أكون ذا نفع لعامـة الناس . . . كشاهد حي على جريمة عظمى – أنظروا إليّ ههنا . . . أموت في سن الثامنة والعشرين . . . قبل عشر سنوات كنت أرفع على كتفـــي دون أدنـــى عناء ما ينيف عن المائتين مـــن الكيلوغرامات . وكنت أفكر أني أستطيع بكل سهولة ، بتلك البنية المتينة التي أتمتع بها ، أن أعيش حتى السبعين . . . ولكني لم أعشْ أكثر مـــن عشر سنوات . . . والآن . . . إنها النهاية . لقد سرقني رؤسائي . . . سرقوا مني أربعين سنة من حياتي . . . أربعين سنة !

وقال ريبين بصوت اجش :

– تلك هي الأغنية التي يغنيها أبداً !

وتاججت النار مرة اخرى ، اكثر لمعاناً وقوة ؛ ومرة اخرى هربت الظلال إلى الغابة ، ثم اندفعت راجعة حتى اللهيب وشرعت ترتجف حولـه في رقص عدائي اخرس . وراحت العيدان الرطبة تئن وتصرصر ، واوراق الأشجار تخشخش ثائرة في تيار الهواء الدافئ . وتعانقت ألسنة مرحة من لهب احمر واصفر وهي تلعب في نشاط وحيوية ، وتبعثر باقات من الشرر إذ تندلع متطاولة في الفضاء الواسع . وحلقت ورقة متفحمة في الهواء ، وفي سماء الليل ابتسمت النجوم هاشة للشرر تناديه في إغراء ان يأتي إليها .

– ليست هي اغنيتي ، بل النشيد الذي يغنيه الوف البشر من غير ان يجول في إدراكهم اية امثولة عظيمة للشعب هي حيواتهم البائسة الشقية . كم من الناس الذين أقعدهم العمل وشوّههم يقضون جوعاً . . . دون ان يدري بموتهم . . .

وانطوى على نفسه ، مرتجفاً ، وقد انتابته نوبة عنيفة من السعال .

وضع ياكوف جردلاً من الكفاس * وجرزة من البصل الأخضر على المائدة ، وقال :

---

* مشروب غير مسكر مصنوع من الخبز الأسود الجاف . الناشر .

– تعال ههنا ، يا سافيلي ، لقد جئتك بقليل من الحليب . . .

فهزّ سافيلي راسه نفياً ، ولكن ياكوف اخذه من ذراعه ، وقاده حتى الطاولة .

قالت صوفيا لريبين بصوت خافت ولهجة عتاب :

– لماذا تأتون به إلى هنا ؟ قد يموت بين لحظة واخرى . . .

فاجاب ريبين موافقاً :

– أعلم هذا ، لكن فليتكلم ما استطاع إلى الكلام سبيلاً . لقد ذهبت حياته دون جدوى ، فليتحمّل بعض الوقت من اجل عامة الناس . وليس هذا بالشيء الكثير عليه ، تلك هي القضية .

فهتفت صوفيا :

– لكأنك تتلذذ بذلك !

فحدجها ريبين بنظره ، وقال في اكتئاب :

– إنهم سادتكم الذين يتلذذون بالإعجاب بيسوع المسيح عندما ينظرون إليه يتأوه على الصليب ويتعذّب . لكننا نريد ان نتلقى درساً من هذا الرجل ، ونريدكم ان تأخذوا درساً انتم ايضاً . . .

فرفعت الأم احد حاجبيها في قلق ، وقالت :

– يكفي هذا الآن !

ومرة اخرى ، عاد الرجل المريض يقول من حيث جلس إلى المائدة :

– لماذا يقتلون الناس بالعمل ؟ لماذا يسرقون الانسان

حياته ؟ إن مديرنا –لقد ضيعت حياتي في مصنع نيفدوف – إن مديرنا اهدى لأحدى المغنيات طستاً وإبريقاً من الذهب كي تغتسل بهما . لا بل اهدى لها قعّادة من الذهب تضعها تحت سريرها . قواي وحياتي ذهبت جميعاً في هذه القعّادة ! ذلك ما وهبت حياتي من أجله اذن ! إن رجلاً افناني في العمل حتى يستطيع تسلية عشيقته بدم حياتي ! ابتاع لها قعّادة من الذهب بدم حياتي !

وقال ييفيم باسماً في احتقار :

– لقد خُلق الانسان على صورة اللّه ومثاله ، وإليكم ما يفعلون به . . .

فزعق ريبين ، وهو يضرب المائدة براحة يده :

– ولكن يجب الا تصمت عن ذلك !

واضاف ياكوف في صوت خافت الجرس :

– يجب الا تتحمله خاضعاً !

وارسل اغناطي ضحكة قصيرة . ولاحظت الأم أن هؤلاء الفتيان الثلاثة يصيخون السمع إلى ريبين بانتباه عظيم كلما فتح فاه بالحديث ، يتلقفون الكلام منه في فضول النفوس الجائعة ولهفتها غير المرتوية . ولكن كلمات سافيلي حملت إلى وجوههم ابتسامة غريبة تحوي شيئا من السخرية والتهكم ، خالية من اية ذرة من الاشفاق والرثاء للرجل المريض .

همست الأم في صوت خافت ، وهي تنحني نحو صوفيا :

– اهي الحقيقة ما يقول ؟

فاجابت صوفيا في صوت مرتفع :

22*

– ذلك صحيح طبعاً ! لا بل إنهم كتبوا عن هذه الهدايا في الصحف ، لقد حدث هذا في موسكو . . .

وقال ريبين بصوت أجش :

– ولكن المجرم لم يُعاقَب ابداً . وكان يجب أن يُعاقَب ، كان يجب أن يُقاد إلى الساحة العامة ، أمام سائر الناس ، وان يُقطّع إرباً ثم يُطرح لحمه المتفسخ إلى الكلاب . إنه لقصاص عظيم ذلك الذي سينزله الشعب بهم عندما ينهض . سوف يُهرق الكثير من الدماء حتى يغسل الآلام التي عاناها . وتلك الدماء هي دماؤه نفسها ، قد امتُصّت من أوردته عينها ، فهي اذن تخصه .

وقال الرجل المريض :

– الطقس بارد !

فساعده ياكوف على النهوض والدنو من النار .

كانت النار تتأجج في تألق عظيم ، وظلال عديمة الهيئة ترتجف حولها ، تراقب في دهشة وذهول ألاعيب اللهيب المرح . واقتعد سافيلي أرومة قرب النار ، ومدّ يديه الجافتين الشفافتين نحو مصدر الحرارة . أشار ريبين إليه بحركة من راسه ، وتوجه إلى صوفيا قائلاً :

– إنه يجعل الأمور أوضح منها في الكتب ! عندما تقتل الآلة عاملاً او تنتزع إحدى ذراعيه يقولون إنها خطيئته هو . اما عندما يمتصون كل الدم من فتى في مقتبل العمر ، ثم يلقون به كالجيفة النتنة ، فذلك أمر لا تفسير له . أستطيع ان أفهم القتل المباشر ، ولكن تعذيب امرئ حتى الموت لمجرد ما في ذلك من تسلية ليس غير ، هذا ما لا أستطيع له فهماً .

لماذا هم يعذبون الشعب ؟ لماذا هم يعذبوننا جميعاً ؟ لمجرد ما في ذلك من تسلية لهم ، من أجل لذتهم الخاصة ، بحيث يمتعون أنفسهم على هذه الأرض ، وبحيث يستطيعون شراء ما يشاؤون بالدم البشرى ثمناً له . . . يشترون مغنيات ، وجياد السباق ، وسكاكين الفضة ، وصحون الذهب ، ودمى ثمينة من اجل اولادهم ، اما انت إشتغل ، إشتغل أكثر حتى أجمع مالاً من عنائك أبتاع به لعشيقتي قلادة من الذهب .

كانت الأم تستمع إليه بأذنيها وتراقب بعينيها ، وتلك الطريق اللامعة التي اختارها بافل ورفاقه تمتد من جديد أمام عينيها في ظلمة الليل الأدجن .

عندما انتهى العشاء اقتربوا جميعاً من النار يحتفون بها . كانت ألسنة اللهيب تلعق الخشب في شره عظيم ، وإلى الخلف منهم يرتفع ستار من الظلمة يكتنف الغابة والسماء معاً . وقعد الرجل المريض يشخص إلى النار بعينين واسعتين وهو يسعل دون انقطاع ، ويرتجف فكأن بقية الحياة فيه تناضل بفارغ الصبر كي تحرر نفسها من هذا الجسد الذي أرهقه المرض فناءً به . وكانت انعكاسات النار تتراقص على وجهه عاجزة عن احياء جلده الميت . عيناه وحدهما كانتا تلتمعان بنار تخبو وتموت .

انحنى ياكوف عليه ، وقال :

– ربما من الأفضل أن تدخل الكوخ ، يا سافيلي .

فاستفهم الرجل المريض ، وهو يبذل جهداً كبيراً :

– لِمَ ؟ لم يبقَ لي وقت طويل أتمتع فيه بصحبة الناس !

ونظر حواليه ، ثم قال بعد صمت قصير وارتسمت على شفتيه ابتسامة واهنة .

– ما احسن ان اكون معكم . عندما أنظر إليكم أفكر : لربما ستنتقمون لأولئك الذين سُرقوا ، ولأولئك الذين قتلوا في سبيل الجشع . . .

لم يجبه أحد ، وسرعان ما استغرق في النوم ، وقد مال رأسه في ضعف على صدره ، فنظر ريبين إليه ثم قال في هدوء :

– يأتي ، ويجلس هنا ويتكلم دائماً عن الشيء نفسه : الهزء من الكائن البشري . إن نفسه بأسرها طافحة بهذه القصة ، فكأنها ملصقة على عينيه فهو لا يرى شيئاً سواها على الاطلاق .

فقالت الأم متفكرة :

– وما عساه يرى سوى ذلك ؟ إذا كان آلاف الناس يقتلهم العمل يوماً بعد يوم حتى يستطيع مدراؤهم أن يبعثروا المال ذات اليمين وذات اليسار على سائر أنواع السخافات والهراء ، فما عساه يرى سوى ذلك ؟

وقال أغناطي بصوت خافت :

– الاستماع إليه مضجر . فأنت إذا وعيت قصته مرة استحال عليك نسيانها بعد ذلك ، وهو لا ينفك يعزف اللحن ذاته دون انقطاع !

فأجاب ريبين في اكتئاب :

– وفي هذا اللحن حُشر كل شيء بالنسبة إليه ، الحياة بأسرها . . . يجب أن نفهم ذلك ! لقد سمعت قصته عشرات

المرات ، ومع ذلك ما برحت أحياناً أرعى بعض الشكوك . ثمة لحظات في الحياة يرفض المرء فيها أن يصدق أن الإنسان خسيس أبله هكذا ، بل يحبُ سائر الناس ويشفق عليه ، الأغنياء والفقراء على حد سواء . . . فالغني أيضاً ضلَّ الدرب القويمة . تعمى عيون البعض من الجوع ، وعيون البعض الآخر تعمى من الذهب . وعندئذ يفكر : أواه ! أيها القوم الطيبون ، إخوتي ، هلا تتحركون وتفكرون بإخلاص ! تفكرون دون رأفة بأنفسكم !

عرَتْ الرجل المريض انتفاضة ، ففتح عينيه ، ثم استلقى على الأرض ، فنهض ياكوف دون ضوضاء ، ودلف إلى الكوخ ، ثم رجع بسترة من فرو الغنم ألقى به فوق ابن عمه ، وجلس من جديد إلى جانب صوفيا .

كان اللهيب ذو الوجه القرمزي والابتسامة المتحدية ينير الأجساد السود التي تحيط به ، وأصوات الناس تمتزج بلطف بطقطقة الأخشاب العذبة وهمس النيران الرقيق .

وشرعت صوفيا تتحدث عن نضال شعوب العالم في سبيل حقهم في الحياة ، وثورات فلاحي ألمانيا القديمة ، وكوارث الارلنديين ومصائبهم ، وبطولات العمال الفرنسيين العظيمة وانتصاراتهم في معاركهم العديدة من أجل الحرية . . .

راحت تلك الحوادث التي زعزعت عالم المتخمين والجشعين تبعث إلى الحياة في الغابة المكسوة برداء من المخمل الأسود يلقيه الليل على أكتافها ، وفي الساحة الصغيرة المحدودة بالأشجار ، المسقوفة بالسماء القاتمة ، المضاءة بلهب النار الضاحكة ، المحاطة بالظلال المدهوشة المعادية . وفي الوقت

ذاته راحت شعوب العالم تمرُّ مترادفة ، دامية أنهكتها المعارك ، وأسماء المناضلين من أجل الحرية والحقيقة تتردد الواحد تلو الآخر .

كان صوت صوفيا الأجش قليلاً يرنُّ في رقة ، مثل صوت يأتي من الماضي السحيق ، يوقظ الآمال ويوحي بالثقة .

وكان الرجال يصغون في سكون إلى قصة إخوانهم في الروح في البلدان الأخرى ؛ وبينما هم ينظرون في وجه المرأة النحيل الشاحب ، راحت القضية المقدسة لسائر شعوب الأرض ، قضية النضال الذي لا ينتهي من أجل الحرية ، تزداد أمام أعينهم وضوحاً ، وتصبح أقرب منالاً من مداركهم وأفهامهم . وكان كل من الموجودين يلقى مطامحه وأفكاره في ماض بعيد يغطيه ستار مظلم دامٍ ، ويلقاها عند شعوب بعيدة أخرى لم يسمع عنها شيئاً حتى ذلك الحين ، فيروح يسهم ، قلباً وفكراً ، في حياة العالم حيث يجد أصدقاء وحّدهم منذ زمن طويل العزم على تحقيق العدالة على الأرض ، موطدين ذلك العزم بما عانوا من آلام لا تقاس ولا تحصى ، وبما هدروا من دمائهم أنهاراً في سبيل تفتح حياة جديدة ، نيِّرة ، سعيدة . وكان الشعور بالقرابة الروحية مع سائر الناس يفيض وينمو ، وقلب جديد يولد على الأرض ، قلب يخفق بطموح ملتهب إلى معرفة كل شيء ، والاحاطة بكل شيء .

كانت صوفيا تقول في صوت مفعم بالثقة والأيمان :

— سوف يأتي ذلك اليوم الذي يرفع سائر شغيلة العالم فيه رأسهم بشموخ ويقولون في عزم وتصميم : لقد اكتفينا ! وإننا لنأبى المزيد من هذه الحياة الشائنة ! وعندئذ

تنهار تلك السلطة الوهمية التي يتمتع بها أولئك الذين ليسوا أقوياء إلا بنهمهم وجشعهم . وتهرب الأرض من تحت اقدامهم فلا يجدون بعد ذلك ما يتشبثون به . . .

وقال ريبين ، وهو يطرق براسه :

– لا مفرّ من هذا ! سيتغلب المرء على كل شيء وينتصر إذا كان لا يبخل بجهوده في هذا السبيل !

كانت الأم تنصت وقد ارتفع حاجبها الواحد عالياً وجمدت على شفتيها ابتسامة ذهول فرحة . كانت ترى أن كل ما بدا لها في صوفيا من حدة ونزق – كل ما كانت تعتبره غير ملائم لها – قد تلاشى الآن وذاب في سيل حديثها الملتهب السوي . وأبهجها سكون الليل ، وتلاعب النار ، ومحيا صوفيا ، وأكثر من كل شيء آخر ذلك الانتباه الفائق الذي يعيرها إياه الفلاحون . كانوا جموداً يبذلون قصارى جهدهم كيلا يعكروا مجرى روايتها الهادئ ، خائفين أن يقطعوا ذلك الخيط النير الذي يربطهم بالعالم كله ويوحدهم معه . وبين الحين والحين كان أحدهم يضع في حذر شديد حطبة في النار حتى إذا ارتفعت باقات الشرر والدخان أبعدها عن المرأتين بحركات سريعة من يده .

ومرة نهض ياكوف على قدميه ، ونبر في صوت خفيض :

– انتظروا لحظة . . .

هرول إلى الكوخ وعاد منه ببعض الثياب لف بها ، هو واغناطي ، أكتاف المرأتين واقدامهما في سكون . وعادت صوفيا تتحدث من جديد فترسم لوحة عن يوم النصر ، وتنفخ

في الحضور الثقة بقواهم ، وتوقظ فيهم شعوراً بوحدتهم مع سائر أولئك الذين يضحون بحياتهم في جهد ضائع يبذلونه في سبيل تسلية المتخمين الحمقى . ولم يضطرب قلب الأم لكلام صوفيا ، ولكن ذلك الشعور العميق الذي أثارته روايتها في نفوس الجميع ملأ قلبها في الوقت ذاته رضى وإخلاصاً لسائر أولئك الذين يخوضون غمار الأخطار ، واقفين حياتهم على إيصال منح المحبة والحقيقة والتفكير الشريف إلى الذين غللتهم أصفاد العمل الثقيلة .

كانت تفكر ، وهي تسبل جفنيها على عينيها :

«كن لهم عوناً ، يا ربّ !»

وعند الفجر ، لجأت صوفيا ، متعبة ، إلى الصمت وهي ترمق بابتسامة لطيفة ما يحيط بها من وجوه نيّرة ، غارقة في التفكير .

قالت الأم :

– آن لنا أن نرحل !

فرددت صوفيا في اعياء :

– نعم ، لقد آن لنا !

وصعّد واحد من الفتيان زفرة عالية ، بينما طفق ريبين يقول في عذوبة غير مالوفة عنده :

– من سوء الحظ أنكما ذاهبتان . أنت تتكلمين بصورة رائعة . وانه لأمر عظيم حقاً أن نجعل الناس يعون وحدتهم وقرابتهم . وعندما يعرف المرء أن ملايين الكائنات تريد نفس الشيء الذي يسعى من أجله ، فإن قلبه يزداد لطفاً ، وطيبة القلب قوة عظيمة !

فقال ييفيم وهو يطلق ضحكة قصيرة خافتة ثم نهض في عجلة وخفة :

– لو عاملتَ الناس في طيبة لانهالوا عليك بالمجرفة من وراء ظهرك ! ينبغي عليهما الرحيل أيها العم ميخائيلو ، قبل أن يراهما أحد . وما إن نوزع الكراسات حتى تقوم السلطة بالتحقيق : من أين جاء هذا ؟ ولسوف يوجد شخص ما يتذكر : شِبه : إن امرأتين مرّتا من هنا . . .

فقاطعه ريبين :

– حسناً ! شكراً أيتها الأم لهذا العناء ! إني أفكر طوال الوقت في بافل عندما أراك ، ما أروع ما فعلتِ إذ سرتِ في طريقه !

لانت طباعه الآن ورقّت ، فهو يبتسم ابتسامة عريضة دافئة . وكان الطقس آرزاً ، ومع ذلك فهو يقف هناك في قميصه ، مفتوح الياقة مكشوف الصدر . ورمقت الأم بنيته الضخمة ، ثم أسدت إليه النصح في ودٍّ وصداقة :

– يفضل أن ترتدي شيئاً ، فالطقس بارد !

فأجاب :

– الحرارة شديدة في داخلي !

كان الفتيان الثلاثة يتهامسون وهم وقوف قرب النار ، بينما المريض عند أقدامهم يرقد مغموراً بالسترات من فرو الغنم . وكانت السماء تشحب ، والظلال تذوب . وأوراق الشجر ترتجف في انتظار الشمس .

قال ريبين ، وهو يشدّ على يد صوفيا :

– حسناً ! وداعاً إذن ! كيف يمكن أن نلقاكِ في المدينة ؟

فأجابت الأم :

– ليس لك إلا البحث عني !

دنا الفتيان الثلاثة في تماهل من صوفيا يصافحونها ، الواحد تلو الآخر ، في لطف أخرق وسكون مُطبق . كان من الواضح أن كلاً منهم مفعم ، سراً ، بالامتنان والصداقة نحوها ، وأن ذلك الشعور يضايقهم بجدّته دون أدنى ارتياب . كانوا ينظرون إليها صامتين ، بأعين حنون أتعبها الأرق ، وهم يتأرجحون يمنة ويسرة ، يستندون إلى هذه القدم تارة ، وإلى القدم الثانية تارة أخرى .

سأل ياكوف :

– الا تشربان قليلاً من الحليب قبل أن ترحلا ؟

فقال ييفيم :

– ولكن ، هل يوجد شيء منه ؟

فأعلن أغناطي ، وهو يمسح بيده على شعره في ارتباك :

– كلا . . . لقد قلبت الوعاء فاندلق . . .

وابتسم ثلاثتهم .

كانوا يتكلمون عن الحليب ، ولكن الأم تشعر أنهم يفكرون في شيء آخر ، يتمنون لصوفيا ولها الخير العميم والحظ السعيد دون أن يعرفوا كيف يضعون أمانيهم في كلمات . ولقد أثر هذا في صوفيا بشكل جلي ، فأثار فيها شيئاً من الضيق ، وتواضعاً حياً لم يسمح لها أن تقول

شيئاً ، اللهم إلا هذه الكلمات الثلاث التي تُدت عنها بصوت ضعيف :

– شكراً ، أيها الرفاق !

وتراشق الفتيان النظر ، فكأن هذه الكلمات التي خاطبتهم بها دفعتهم بلطف .

وتردد سعال المريض الأجش ، في حين خبا ضياء الجمر في النار حتى تلاشى .

قال الفلاحون بصوت خافت :

– وداعاً !

وظلت هذه الكلمة الحزينة تتردد بعد ذلك في آذان المراتين زمناً طويلاً .

سلكتا ، في غسق الصباح ، دون تسرُع ، الطريق التي قدمتا منها تحفُ الأشجار بها ، والأم تقول وهي تسير في أعقاب صوفيا :

– لشدّ ما كان ذلك رائعاً ، وكأنه في حلم جميل ! الناس يريدون معرفة الحقيقة ، يريدون ذلك ، يا عزيزتي . . . وكل شيء يجرى أشبه بما في الكنيسة ، قبل قداس الصباح ، في يوم عيد عظيم . . إن الكاهن لم يأتِ بعد والجوّ لما يزل مظلماً ، والسكون يخيم على كل شيء حتى ليلقي الذعر في قلب الانسان ، وهؤلاء الناس بدأوا يتوافدون . . ههنا امرؤ يشعل شمعة أمام الأيقونة ، وهناك شمعة أخرى تضاء و . . . يطردون الظلمة شيئاً فشيئاً فتفسح المجال للنور في بيت الله .

فأجابت صوفيا في مرح :

– ما أصدق هذا ! اللهم إلا أن بيت الله ، ههنا ، هو الأرض بأسرها .

فرددت الأم ، وهي تهزُ رأسها متفكرة :

– الأرض بأسرها ، ذلك رائع جداً حتى ليصعب تصديقه . . . ولقد تكلمتِ جيداً يا عزيزتي ، جيداً جداً ؛ وأنا التي ظننت أنك لا تقعين منهم موقعاً مقبولاً . . .

لم تردّ صوفيا إلا بعد فترة ، وفي صوت خافت لا أثر للمرح فيه :

– ليصبح المرء ، معهم ، أكثر بساطة . . .

راحتا تتحدثان ، وهما تسيران ، عن ريبين ، والرجل المريض ، والفتيان الثلاثة الذين كانوا يُصغون بكل ذلك الانتباه ، والذين عبروا عن صداقتهم وامتنانهم في ضيق ، ولكن في وضوح كبير ، بكل تلك العناية الحريصة التي بذلوها نحو المراتين .

بلغتا أخيراً الحقول العارية . والشمس تشرق لملاقاتهما ، ناشرة في السماء ، وهي لما تزل غير مرئية ، مروحة شافة من الأشعة الزهرية ، وقطرات الندى تشع في العشب بآلاف الشرر العديد الألوان في فرحة ربيعية فتية .

استيقظت العصافير تحيي الصباح بزقزقتها المرحة ، وحلقت غربان ضخمة في الفضاء باعثة نعيقاً مزعجاً ، خافقة بأجنحتها في ثقل . وفي مكان ما كناريّ يصفرُ في قلق . وراح المدى يتكشف شيئاً فشيئاً يستقبل الشمس بالتخلص من ظلال الليل .

قالت الأم متفكرة :

– في بعض الأحيان يحدّثك إنسان يحدّثك ، ولكنك لا تفقهين لكلامه معنى حتى يقول لك أخيراً كلمة بسيطة ، كلمة بسيطة واحدة ، فإذا كل شيء يتضح على حين غرة ! ذلك مثل هذا الرجل المريض . لقد سمعتُ كثيراً ، وعرفت شخصياً كيف يرهقون العمال في المصانع وفي كل مكان ، ولكنني اعتدتُ هذا منذ كنتُ صغيرة فلم يعد يؤثر في كثيراً . ولكنه قال ، بغتة ، أشياء كثيرة الإذلال ، قذرة مثيرة للدرجة القصوى . . . يا يسوع الحبيب ! أيمكن أن يقضي الناس جلّ عمرهم في الشغل كي يستطيع أصحاب العمل أن يهزأوا منهم إلى هذا الحد ؟ هو أمر لن يجد له تبريراً أبداً !

واستقرت أفكار الأم عند القصة التي رواها سافيلي ، والتي ألقت لمعان بلاهتها ووقاحتها الكئيب على العديد من القصص التي عرفتها فيما خلا من الأيام ونسيتها .

– ليخال المرء أنهم أتخموا إلى درجة أمست كل الأشياء بعدها مملة بالنسبة اليهم . لقد كان هناك مدير ناحية 'يجبر' الفلاحين على تحية جواده حينما يخرج إلى النزهة في القرية ، ومن لا يفعل ذلك ألقى به في السجن . بربك ما حاجته إلى ذلك ؟ أنا لا أفهم هذا ، كلا لا أستطيع فهمه !

وراحت صوفيا تدندن في هدوء أغنية مرحة في مثل مرح الصباح المشرق . . .

٧

كانت حياة الأم تنساب في هدوء غريب حتى ليدهشها هذا الهدوء في بعض الأحيان . إن فتاها في السجن ، وهي تعرف أن عقاباً صارماً ينتظره . ولكن ذهنها يمتلىء غضبا ، كلما فكّرت فيه ، بصور أندريه ، وفيدور ، والعديد من الوجوه الأخرى . وكانت صورة بافل تنمو أمام عينيها حتى تضمّ سائر أولئك الذين يقاسمونه مصيره ، وتثير فيها حالة من التأمل تمنعها ، دون شعور منها ، عن تركيز أفكارها حول إبنها ، بل تروح تبعثرها في كل الاتجاهات على غير هدى . كانت هذه الأفكار تتباعد في شعاعات رقيقة غير متساوية تمسّ كل الأشياء ، ساعية لإنارة سائر الحوادث وجمعها كلّها في لوحة وحيدة . وكان هذا يمنعها عن تركيز ذهنها على شيء واحد ، ويلهيها عن شوقها إلى فتاها ومخاوفها من أجله .

وما أسرع أن رحلت صوفيا ثم ظهرت بعد خمسة أيام ، مرحة طروباً لتختفي مجدداً بعد ساعات قليلة ، فلا تعود إلا بعد أسبوعين ونيف . كان يخيل للأم إنها تذهب في الحياة بدوائر كبيرة كي تعبر في طريقها بيت أخيها فتملؤه حيوية وموسيقى .

وأصبحت هذه الموسيقى محببة لدى الأم ، فيؤتى لها عند سماعها أن موجات حارة تتدفق في صدرها ، بل في قلبها ، فيروح هذا القلب يخفق في نظم أكثر اتساقاً . وكانت أفكار حية مقدامة تولد فيها ، توقظها قوة الأصوات

فكأنها بذور تتفتح في أرض جيدة الحراثة سخية المـاء ، وتزدهر في كلمات خفيفة الظل ، جميلة الوقع .

وكان يصعب على الأم كثيراً اعتياد فوضى صوفيا التي ترمي حوائجها في كل الزوايا ، وتلقي بأعقاب الدخينات ورمادها في كل مكان . ولم تعتد إلا بصعوبة أعظم أيضاً طريقتها النزقة في الحديث ، المتناقضة للغاية مع رزانة نيقولاي وما في أحاديثه العذبة من وقار لا يتبدل . كانت صوفيا تبدو لها مراهقة تتلهف الى التظاهر بامراة بالغة ، فهي لا ترى الناس الا دُمى تثير الفضول . وكانت تتحدث كثيراً عن قداسة العمل ، فتزيد بإهمالها مشاغل الأم في حماقة كثيرة . وكانت تتكلم دائماً عن الحرية ، فترى الأم أنها ، في واقع الأمر ، تزعج كل من يحيط بها بحدتها ونزقها ومناقشاتها التي لا تنتهي . كانت طافحة بالمتناقضات ، فتعاملها الأم في حذر وتوتر ممزوج بانتباه يقظ ، ولكنه مجرّد عن تلك الحرارة في القلب التي يستدعيها نيقولاي على الدوام .

كان هذا الأخير مشغول البال دائماً ، يعيش يوماً بعد يوم نفس العيش الرتيب المنتظم ، فيتناول افطاره في الساعة الثامنة ، ويقرأ الصحف التي ينقل اخبارها إلى الام . وكانت الأم تدرك بكل وضوح ، لدى سماعها تلك الأخبار كيف تسحق آلة الحياة الثقيلة البشر دون رحمة أو شفقة لتجعل منهم فضة ومالاً . وكانت تحسُّ أن بين نيقولاي وأندريه مزايا مشتركة ، فهو كالأوكراني يتحدث عن الناس دون حقد ويعتبرهم جميعاً مسؤولين عن سوء تنظيم الحياة ولكن ايمانه بحياة جديدة مقبلة لم يكن ملتهباً نيراً كإيمان الأوكراني .

وكان يتكلم في هدوء ، بصوت قاضٍ مستقيم شريف صارم ، وابتسامة رثاء تعلو شفتيه أبداً ، حتى عندما يتحدث عن أمور عظيمة الرهبة ، ولكن عينيه تلتمعان ببريقٍ بارد قاسي اللمعان ، فتدرك الأم حين تراه أن هذا الرجل لن يصفح أي شيء عن أي إنسان ، وأنه لا يقوى على الصفح ، وتحسُّ أن تلك القسوة تصعب عليه فترثي له ، وهو الذي يزداد حبها له يوماً بعد يوم .

وفي التاسعة يمضي الى مكتبه ، فتُعنى الأم بترتيب الشقة ، وتهيئ الغداء ، وتغتسل وترتدي ثياباً نظيفة ، ثم تجلس في غرفتها تتفرج على الرسوم المنشورة في الكتب المختلفة . كانت قد تعلمت القراءة ولكن هذه القراءة تتطلب منها كثيراً من الانتباه ، فما أسرع أن تتعب وتصير الى عجز عن إدراك الصلة التي تربط بين الكلمات المتباينة . أما الرسوم فتبهجها بالمقابل ، فكأنها طفلة صغيرة ليس غير ، وتكشف لها عن عالم جديد رائع تستطيع فهمه واستيعابه ، لا بل تكاد تحسه أيضاً ، فتنهض أمام ناظريها مدن عظيمة ، وبنايات فائقة الجمال ، وآلات ، ومراكب ، وآثار ، وكل تلك الثروة العظيمة التي خلقتها أيدي البشر ، ثم سائر منتجات الطبيعة التي يذهل فكرها ويحتار تجاه تباينها واختلافها . إن الحياة تتسع أبداً أمام عينيها وتفتحهما على أشياء عظيمة رائعة كانت مجهولة منها حتى ذلك الحين ، وهي اكثر فأكثر تثير بكنوزها الغزيرة ، وجمالها اللامتناهي روح المرأة المستيقظة العطشى . كانت تحبُّ ، بصورة خاصة ، النظر في أطلس علم الحيوان الذي يوحي إليها ، بالرغم من كونه مطبوعاً

بلغة اجنبية ، بمفهوم أكثر حيوية عن ثراء الأرض وجمالها واتساعها اللامتناهي .

قالت لنيقولاي ذات يوم :

– ما أوسع هذه الأرض !

كانت تبتهج أكثر ما تبتهج بالحشرات ، والفراشات منها بصورة خاصة ، فتنظر مدهوشة في الرسوم التي تمثلها ، وتقول :

– ما اجملها ، يا نيقولاي ايفانوفيتش ، أليس كذلك ؟ كم يوجد من هذا الجمال الغالي في كل مكان خافياً عن عيوننا ، ماراً بنا دون ان نراه ! الناس يتسرعون أبداً دون ان يعرفوا شيئاً على الإطلاق عميٌ عن رؤية الاشياء التي تستحق إعجابهم ، يعوزهم لذلك الزمن والرغبة أيضاً . كم يستطيع الناس ان يحصلوا من الفرح لو عرفوا غنى الأرض ، وكم من الأشياء الرائعة تعيش على سطحها ، وهذه الأشياء جميعاً هي لسائر الناس ، وكلٌ هو للجميع على حد سواء . . . أليس كذلك ؟

فابتسم نيقولاي قائلاً :

– بالطبع هو كذلك !

ويحمل اليها كتباً أخرى مصورة .

كان كثيراً ما يستقبل عدداً من الضيوف في المساء ، ومن بينهم الكسي فاسيليفيتش ، وهو رجل جميل الطلعة ، شاحب الوجه ، أسود اللحية ، وقور ، كثير الانطواء على النفس ؛ وورومان بتروفيتش ، وهو شخص مبثر الوجه ، مستدير الرأس ، يطقطق بلسانه أبداً أسفاً على هذا الشيء

او ذاك ؛ وايفان دانيلوفيتش وهو رجل قصير القامة ، ضامر القد ، مذبب اللحية ، ذو صوت مرتفع سريع النبرات كثير الضوضاء ، حاد مثل المخرز ؛ ويبجور الذي لا ينقطع عن السخرية من نفسه ومن رفاقه ومن تلك العلة التي تتفاقم في صدره أبداً . وكان ثمة قوم آخرون أيضاً ، يأتون من مدن بعيدة ويتبادلون مع نيقولاي أحاديث طويلة هادئة موضوعها لا يتبدل قط : العمال في العالم أجمع . وكانوا يتناقشون ، وينفعلون ، ويلوّحون بأيديهم ، ويشربون كميات كبيرة من الشاي . وفي بعض الأحايين ، بينما هم يتجادلون ، كان نيقولاي يكتب نداءات يقرؤها بعد ذلك لرفاقه ، فينسخونها مباشرة بأحرف مطبعية بينما تجمع الأم – في عناية عظيمة – بقايا المسوّدات الممزقة وتحرقها .

كانت تتعجب دائماً ، وهي تصبّ لهم الشاي ، من تلك الحماسة المسيطرة على أحاديثهم عن مصير الشعب العامل وحياته وعن أفضل السبل وأسرعها في زرع أفكار الحقيقة بين الشغيلة ورفع معنوياتهم . وكثيراً ما كانوا يغضبون ويروحون يدافعون عن آراء مختلفة ، وهم يتبادلون تهماً حادة قاسية ، فيجرحون شعور بعضهم البعض كي يعودوا بعد قليل الى نقاشهم الحادّ يبدأونه من جديد .

وكانت الأم تشعر بأنها تعرف حياة العمال افضل من معرفتهم لها ، فيخيل اليها أنها ترى بوضوح أكبر فداحة الواجب الذي اخذوه على عاتقهم ، فتروح تشخص إليهم في شيء من التسامح وغير قليل من الأسف اللذين ينظر بهما امرؤ بالغ الى أطفال يلعبون لعبة الزوج والزوجة دون أن

يفهموا ما في تلك العلاقة من مرارة درامية . وكانت تقارن ، بالرغم منها ، بين أحاديثهم واحاديث أبنها وأندريه فتدرك فارقاً لم تفهمه بادئ الأمر . كان يخيل اليها احياناً أنهم يصيحون ههنا بصوت اشد ارتفاعاً منه في الضاحية العمالية ، فتفسر ذلك على النحو التالي :

«إنهم يعرفون اكثر ، ولذلك يتكلمون بصوت أعلى . . .»

وكثيراً ما كانت تخال أن هؤلاء الناس يستفزون بعضهم بعضاً عن قصد ، متعمدين ان يظهروا حماستهم . فكان كلاً منهم يريد ان يبرهن لرفاقه عن كون الحقيقة أقرب اليه وأعزّ على قلبه منها على قلوبهم ، بينما يغضب الآخرون ويسعون بدورهم كي يثبتوا أنهم أكثر قرباً من الحقيقة ، فيبدأون النقاش الحاد القاسي من جديد . كانت تخال ان كلاً منهم يتلهف إلى القفز مسافة أعلى من الباقين ، فيوقظ ذلك فيها كآبة قلقة ، فتروح تنظر إليهم بعينين متوسلتين ويرتفع احد حاجبيها ويهبط ، وهي تفكر في وليجة نفسها :

«لقد نسوا كل شيء عن باشا ورفاقه . . .»

كانت تستمع الى سائر مناقشاتهم بانتباه عظيم ، وان كانت لا تفهم منها شيئاً من دون ريب . ولكنها تسعى لإدراك المشاعر خلف الكلمات فتجد أن مفهوم الخير ، عندما يدور النقاش حوله في الضاحية العمالية ، كانَ يُقبل في مجموعه على اعتباره كُلاً واحداً لا يتجزأ ، بينما هو ههنا يقسم الى أجزاء صغيرة فيعود قليل النفع والقيمة . إن المشاعر هناك لأعمق وأقوى ، أما هنا فإن أفكاراً حادة تسيطر عليها وتحلل كل شيء . ههنا يكثرون من الحديث عن تهديم

العالم القديم ، أما هناك فيكثرون من الأحلام عن العالم الجديد ولذلك كانت كلمات فتاها وأندريه أعز عليها وادنى من فهمها وإدراكها . . .

ولاحظت أن نيقولاي ، كلما جاء احد العمال لمقابلته ، يصبح اكثر حرية وانطلاقاً معه . فيبدو على وجهه تعبير رقيق حلو ، ويروح يتحدث في لهجة غير مألوفة ، تلاحظ فيها شيئاً كثيراً اما من الفظاظة او من الاهمال . وعندئذ تفكر الأم :

«إنه يجرب التحدث بصورة يفهمونه معها !»

ولكن ذلك لم يرقها ، فقد رأت أن العامل كان بدوره ضيق الصدر فكان شيئاً في داخله يحزّ فيه ، فيعجز عن مخاطبة نيقولاي بتينك الحرية والطلاقة اللتين يتوجه بهما إليها ، هي المرأة العاملة . وذات مرة قالت لشاب جاء لمواجهة نيقولاي ، بعد ان خرج هذا من الغرفة :

— مِمَّ تخاف ؟ أنت لست طفلاً صغيراً يمتحن في المدرسة . . .

فافترت شفتا الشاب عن ابتسامة عريضة ، وقال :

— السرطان يحمرّ عندما يخرج من عنصره . . ليس هو على غرارنا في أية حال . . .

وكانت ساشنكا تأتي في بعض الاحيان ، فلا تلبث طويلاً أبداً ، بل تتحدث على الدوام بلهجة جد دون أن تضحك قط . وعندما تذهب تطرح على الأم ذات السؤال الذي لا يتبدل :

— كيف حال بافل ميخائيلوفيتش ؟

– إنه على احسن حال ، ومرح ابداً . شكراً لله .

فتقول الفتاة قبل أن تختفي :

– بلغيه تحياتي !

كانت الأم تشكو لها احياناً ذلك التاخير في محاكمة بافل ، فكانت ساشنكا تعبس ولا تقول شيئاً وان تروح اصابعها ترتعش في عصبية . وارادت الأم أن تقول لها :

«اعلم أنك تحبينه ، يا عزيزتي . . .»

لكن الشجاعة خانتها . كان وجه الفتاة القاسي ، وشفتاها المنضمتان أبداً ، ولهجتها الجافة ، تردّ كل انطلاق نحو العاطفة والحنان . وشدّت الأم متنهدة ، في سكون ، على اليد الممدودة إليها وفكرت :

«عزيزتي المسكينة . . .»

وجاءت ناتاشا في ذات يوم ، فابتهجت كثيراً برؤية الأم هناك وقبّلتها ، ثم اعلنت في صوت هادئ وبصورة غير منتظرة :

– لقد ماتت امي . ماتت تلك الحبيبة المسكينة ! . .

هزّت راسها ، وفركت عينيها بحركة سريعة ثم تابعت :

– ما آلم ذلك ! إنها لما تبلغ الخمسين . كان يمكن ان تعيش زمناً اطول ، ولكني بالمقابل لا أستطيع الامتناع عن التفكير بان الموت افضل من الحياة التي تعيشها من دون ريب . لقد كانت وحيدة على الدوام ، وليس من إنسان الى جانبها ، او امرئ يحتاج إليها ، مذعورة دائماً من صياح والدي . اتسمين هذا حياة ؟ إن الناس الآخرين يعيشون في

رجاء شيء افضل ، ولكن أمي لم يكن أمامها ما تأمل فيه إلا المزيد من الإهانات . . .

وقالت الأم بعد فترة تفكير :

– حق ما تقولين ، يا ناتاشا . الناس يعيشون في رجاء شيء افضل . فإن لم يكن ثمة ما يأملون به فاية حياة تلك التي يعيشون إذن ؟

وربتت بلطف على يد الفتاة ، واضافت :

– وهكذا أصبحت الآن وحيدة ؟

فأجابت ناتاشا في رقة :

– هو ما تقولين !

التزمت الأم بصمت قصير وقالت فجاة وهي تبتسم :

– لا باس في ذلك ! إن الناس الطيبين لا يعيشون وحدهم طويلاً ، بل هناك دائماً من يتعلق بأذيالهم . . .

٨

حصلت ناتاشا على وظيفة مدرّسة في قرية قريبة من مصنع للنسيج ، وبدأت الأم تزودها بكراسات غير مشروعة ومنشورات وصحف .

اصبح ذلك عملها ، فهي تتنكر كل شهر عدة مرات في ثياب راهبة ، او بائعة خردوات ، أو امراة ميسورة الحال ، او حاجّة تقية . . . ثم تضرب على وجهها عبر المقاطعة ، وعلى ظهرها كيس أو في يدها حقيبة . وكانت دائماً ، في القطر أو في المراكب ، في الفنادق او الحانات ، هي تلك

المرأة الهادئة البسيطة التي تتوجه بالكلمة الأولى الى الغرباء تجلب الانتباه إليها ، غير هيّابة ، بلطفها واجتماعيتها وتلك الثقة بالنفس التي يتحلى بها من خبر الحياة جيداً وعرك تجاربها .

كانت تحب التحدث الى الناس ، والسماع الى أقاصيصهم وشكاواهم وما يزعجهم من أمور . وكانت تسعد أبداً كلما التقت بشخص ناقم جداً ، بتلك النقمة التي تفتش في عناد ، وهي تحتج على صفعات القدر ، عن الاجوبة لأسئلة ناضجة واضحة جلية . وكانت لوحة الحياة البشرية ، باضطرابها الدائب ونضالها المستمر في سبيل الشبع ، تنبسط أمام عينيها بكل تنوعها . وفي كل مكان ، كانت ترى بكل وضوح تلك المحاولات الوقحة الفظيعة السافرة المبذولة في سبيل خداع الناس وسرقتهم وجرع دمائهم وامتصاص آخر قطرة منهم فى سبيل المصلحة الشخصية . ولقد رات أيضاً ان ثمة خيراً عميماً من كل الأشياء على سطح الأرض ، بينما جماهير الناس في الوقت ذاته في حاجة ، يعيشون نصف جياع في ملء الغزارة الفائقة . إن كنائس المدن مليئة بالفضة والذهب اللذين لا حاجة لله بهما ، في حين يرتجف على أبواب الكنائس عدد لا يحصى من المتسولين ينتظرون ، بفارغ صبر ، هبات نحيلة تلقى في أيديهم المفتوحة . ولقد شاهدت فيما سبق هذا كله : الكنائس الغنية وثياب الكهنة المطرزة بالذهب ، اكواخ الفقراء وأسمالهم المخجلة ولكنها قبلت به حينذاك على اعتباره أمراً طبيعياً ، بينما هي تجده الآن لا يُعقل ولا يطاق ، بل هو بالأحرى إهانة موجهة الى الفقير

الذي يُعتبر ، فيما تعلم ، أقرب إلى الكنيسة وأحوج إليها من الرجال الاثرياء .

ولقد عرفت من الصور التي راتها عن المسيح ، والقصص التي سمعتها عنه ، انه كان يرتدي ثياباً بسيطة ، وانه كان للفقير صديقاً قريباً . ولكنها رات صورته في الكنيسة مصفّدة في ذهب وقح وحرير يخشخش في ازدراء لدى رؤية الفقراء الذين ياتونه ، هو المسيح ، يطلبون العزاء لديهم . وتذكرت بالرغم منها كلمات ريبين :

«لقد خدعونا حتى في ما يتعلق بالله أيضاً !»

وشرعت ، دون أن تلاحظ ذلك ، تقلّل من صلواتها وإن راحت تفكر أكثر من ذي قبل في المسيح وفي أولئك الناس الذين ، دون أن يذكروا اسمه أبداً ، وحتى كأنهم لا يعرفون شيئاً عنه ، يعيشون في ما يخيّل إليها حسب مشيئته وعلى غراره ، معتبرين الأرض مملكة الفقير ، راغبين في تقسيم كل ثرواتها بين الناس بالعدل والقسطاس . كانت تعمل فكرها في ذلك ، فتنمو أفكارها في داخلها وتزداد عمقاً وهي تشمل كل ما تراه أو تسمعه . لقد ازدهرت تلك الأفكار واتخذت بريق صلاة تضيء كل هذا العالم المظلم باشعاعاتها ، كل الحياة وكل الناس . وبدا لها أن المسيح نفسه ، هذا الذي أحبته دائماً بحنانٍ غامض — بعاطفة معقدة كان الخوف فيها يسير مع الرجاء جنباً الى جنب ، وكذلك الفرح مع الترح — قد أضحى عزيزاً على قلبها أكثر منه قبلاً . ولقد تبدل أيضاً فغدا أكثر ارتفاعاً وإدراكاً وأعظم بريقاً وبهجة فكأنه في واقع الأمر بُعِثَ الى الحياة ، وقد

اغتسل وانتعش بتلك الدماء التي أهدرها باسمه ، في سخاء ، قوم" يمتنعون بكل تواضع عن لفظ اسم صديق الانسان المسكين هذا . وبعد كل سفرة من سفراتها كانت تعود الى نيقولاي سعيدة متأثرة بكل ما شاهدت وسمعت في الطريق ، راضية لأنها حقّقت واجبها على الوجه الأكمل .

تحدثت معه في المساء قائلة له :

– ما أروع أن يضرب الإنسان في آفاق الأرض هذه ، يُطمح بصره إلى الكثير من الأمور ! ليجعلك ذلك تتفهّم معنى الحياة . لقد ألفي الشعب على هامش الحياة حيث يدبُّ متذللاً في مكانه ولكنه لا يمتنع – دون ارادة منه – عن التساؤل فيم سبب هذه المعاملة التي يعاملونه بها . لِمَ يجب أن يُطرد الناس الفقراء بعيداً ؟ لِمَ يجب أن يجوعوا عندما يكون ثمة فيض من كل شيء ؟ لِمَ يجب ان يكونوا اغبياء جاهلين عندما يكون هنالك ينبوع فيّاض من الثقافة في كل مكان ؟ واين هو اللّه الكلي الرحمة الذي ليس في نظره غني او فقير بل الكل أولاده المحبوبون ؟ إن الناس يثورون شيئاً فشيئاً حينما يفكرون بحيواتهم ، وهم يحسون ان الظلم سيخنقهم ان لم يهتموا بانفسهم !

واصبحت تحسُّ ، اكثر فاكثر ، ان من واجبها مخاطبة الناس بلسانها عن حياتهم المضطهدة حتى ليصعب عليها كثيراً، في بعض الأحيان ، مقاومة هذا الدافع الطموح وصدّه .

وعندما كان نيقولاي يجدها تتمعن في رسوم الكتب ، كان يبتسم ويميل يحدثها عن بعض غرائب هذا العالم ، فتستطلعه في ريبة ، مذهولة لجراة القضايا التي يأخذها

الإنسان على عاتقه :

– أمثل هذا الشيء ممكن ؟

فينبري يصوِّر لها المستقبل في صبر وإيمان لا يتزعزع بحقيقة تنبؤاته ، شاخصاً إليها بعينيه اللطيفتين من خلف نظارتيه :

– إن رغبات الانسان لا حدود لها ، وقوته لا ينضب لها معين ! ومع ذلك فالعالم لا يغتني فكرياً بعدُ إلا ببطء شديد ، لان كل من يريد الآن ان يُمسي مستقلاً لا بدّ له من تجميع المال بدلاً من المعرفة . وعندما يتحرّر الناس من الجشع ، ويحرّرون انفسهم من عبودية العمل الاجباري . . .

لم تكن تفقه معنى كلماته الا في الندّرى ، لكن الايمان الهادئ الذي يملؤها ويحييها كان يصبح شيئاً فشيئاً اقرب منالاً منها . قال :

– ثمة عدد قليلٌ من الناس الأحرار على هذه الأرض ، تلك هي مصيبتها !

وكانت تفهم هذا ، فهي تعرف قوماً تحرروا من الجشع والخبث ، وتعلم أنه لو وُجد عدد أكبر من مثل هؤلاء الناس لكفّت الحياة عن أن تكون مظلمة مخوفاً لتغدو أبسط واكثر بشاشة وطيباً وضوءاً .

وكان نيقولاي يهتف بكآبة :

– إن الناس مجبورون على ان يكونوا قساة !

فتهزُّ راسها إشارة الموافقة ، وهي تستعيد ذكر كلمات الاوكراني .

في ذات يوم آب نيقولاي ، وهو الدقيق أبداً في مواعيده حتى الدرجة القصوى ، من عمله متأخراً أكثر من المعتاد ، وأذاع في عجلة دون أن يخلع معطفه ، وهو يفرك يديه بعصبية ظاهرة :

– لقد فرّ أحد رفاقنا من السجن هذا النهار ، يا نيلوفنا . من عساه يكون ؟ هذا ما لم أستطع معرفته . . .

ترنحت الأم ، وقد طغى الاضطراب عليها ، فاقتعدت كرسياً وهي تهمس :

– أيمكن أن يكون بافل ؟

فهز نيقولاي كتفيه ، مجيباً :

– يمكن ! ولكن كيف نساعده على الاختفاء ؟ وأين ترانا نعثر عليه ؟ لقد رحت الآن أتجول في الشوارع ذهاباً وإياباً آملاً في لقياه . تلك بلاهة بالطبع ، ولكن ينبغي أن نفعل شيئاً . وإني لذاهب من جديد . . .

فصاحت الأم:

– وأنا أيضاً !

فاقترح نيقولاي ، وهو ينطلق مسرعاً :

– الأحرى بك أن تذهبي إلى ييجور وتري إن كان يعرف شيئاً .

فألقت وشاحاً على رأسها ، واندفعت خلفه في الشارع والأمل يملؤ الصدر منها . وراحت لطخٌ سود تتراقص أمام عينيها وتترجّح ، وقلبها يخفق بسرعة وعنف فيدفعها إلى

العَدوِ تقريباً . كانت تسير نحو لقاء هذا الاحتمال ، مطأطأة الرأس ، ذاهلة عن كل ما يُحدق بها .

«ماذا لو وصلتُ ورأيته هناكِ !»

وتنخسها بارقة الرجاء هذه فتروح تحثُّ الخطو دون شعور منها .

كان الحر شديداً ، وهي تلهث من الإجهاد ، حتى إذا بلغت السلم الموصِل إلى الشقة التي يقطنها ييجور توقفت عاجزة عن الذهاب قدماً ، والتفتت تتطلع حواليها ، وإذا هي ترسل صيحة دهشة قصيرة هادئة وتغمض عينيها لحظة . هُدهِدَ لها أنها بصرت بنيقولاي فيزوفشيكوف واقفاً قرب بوابةَ المنزل ، ويداه في جيبيه . ولكنها ما أن نظرت من جديد حتى لم يقع بصرها على أي شخص كان .

روّأت تفكر ، وهي تتسلق درجات السلم وتصيخ بسمعها جيداً :

«لقد تخيّلت ذلك ليس غير !»

وبلغ سمعها من الفناء صدى خطوات بطيئة ، فتوقفت برهة على باحة السلم ونظرت الى الأسفل ، فشاهدت مرة أخرى الوجه المجدور ، وهو يبتسم لها هذه المرة .

صاحت ، وهي تهبط لملاقاته ، وقلبها منقبض من خيبة الأمل :

– نيقولاي ! نيقولاي . . .

فهمس في صوت هادئٍ ، وهو يلوّح بيده :

– إرجعي ! إرجعي !

فارتقت الدرج بسرعة ، ودخلت غرفة ييجور ، فألفته مضطجعاً على الاريكة .

غمغمت لاهثة :

– نيقولاي . . . لقد هرب . . . من السجن !

فسأل ييجور بصوته الاجش ، وهو يرفع راسه عن الوسادة :

– اي نيقولاي ؟ ثمة اثنان يحملان هذا الاسم . . .

– فيزوفشيكوف . . . وهو آت الى هنا !

– عظيم !

وفي هذه اللحظة زَحَفَ نيقولاي نفسه إلى الغرفة ، واوصد الباب خلفه بالمزلاج ، وخلع قبعته ، ووقف هناك يضحك في رقة وخفوت وهو يسرح شعره بيده . وتحامل ييجور على مرفقيه ، وحمحم ، وهزّ راسه قائلاً :

– اهلاً بك . . .

فاقترب نيقولاي من الأم ، تداعب شفتيه ابتسامة عريضة ، وتناول يدها كاشفاً :

– لو لم ألقك ، لما بقي امامي سوى العودة إلى السجن ! فلست اعرف احداً في المدينة ، ولو عدت إلى الضاحية لما تأخروا في العثور عليّ . وهكذا رحت أدور وأدور وانا أفكر طوال الوقت في مدى جنوني وحماقتي عندما أقدمت على الفرار . وفجاة ، رايت نيلوفنا تركض في الشارع ، فانطلقت أعدو وراءها . . .

فاستقصت الأم :

– وكيف استطعت الفرار ؟

جلس متململاً على حافة الأريكة ، وهزّ كتفيه في ارتباك قائلا :

– إنه الحظ وحده . كنت في الفناء أتمتع بفرصة التهوية ، فاذا المجرمون العاديون ينهالون على أحد المراقبين ضرباً . وكان هذا المراقب دركياً سابقاً طرد من الخدمة لأنه اقدم مرة على السرقة ، ثم أصبح يتجسس على الجميع ، ويشي بهم ، وينغّص عليهم الحياة بمضايقاته المستمرة . وهكذا انثالوا يكيلون له اللكمات دون حساب ، فعمّت الفوضى كل شيء ، وراح المراقبون يتراكضون مذعورين وهم ينفخون في صفاراتهم . نظرت فرأيت البوابات مفتوحة ، والى الوراء منها الساحة الكبرى والمدينة ، فسرت نحوها متباطئاً ، وكانني في حلم ، حتى اذا مَثَلتُ في الشارع وقطعت فيه مسافة كبيرة ثبتُ الى رشدي وفكرت : الى أين اذهب الآن ؟ تطلعت الى الخلف ، فرأيت البوابات أغلقت . . .

وقال ييجور :

– هِمْ ! ولِمَ لم ترجع ، ايها السيد العزيز ، وتقرع الباب في أدب ، وتسألهم السماح لك بالدخول ؟ إني أسألكم العفو ، أيها السادة ، ولكني ارتكبت خطأ صغيراً ، وسهوت قليلاً . . .

فابتسم نيقولاي :

– تلك بلاهة بكل تأكيد . غير اني أسأت التصرف ، مع ذلك ، تجاه رفاقي إذ خرجت هكذا دون أن أقول شيئاً لأيٍّ منهم . . . وهكذا مشيت إذن ، فرأيت جنازة – كانوا يدفنون طفلاً – فانضممت إليها وسرت خلف النعش مطرق

الراس لا اتطلع في وجه احد على الاطلاق . ثم جلست فترة هناك في المقبرة أعبُّ شيئاً من الهواء ، واذا فكرة تلمع في خاطري على غير انتظار . . .

فاستطلع ييجور :

– فكرة واحدة فقط ؟

ثم اضاف ، وهو يتنهد :

– لست اعتقد انها احسّت الضيق في راسك هذا . . .

فضحك فيزوفشيكوف منشرح الصدر ، وهز راسه قائلاً :

– اوه ! راسي لم يعد اليوم فارغاً كما كان في سالف الأيام . اما زلت عليلاً ، يا ييجور ايفانوفيتش ؟

فاجاب ييجور ، وهو يسعل سعالاً رطباً :

– كل يعمل ما في وسعه . هيّا ، تابع قصتك !

– ثم ذهبت الى المتحف المحلي ، ورحت ادور فيه واتفرج وانا لا افتأ افكر : إلى اين اذهب الآن ؟ لا بل إني نقمت على نفسي ايضاً ، وكنت جائعاً بالاضافة الى ذلك . خرجت الى الشارع من جديد وتركت قدميَّ تتدافعان الخطو فيه مضطرب البال مبلبل الفكر . لاحظت ان رجال الشرطة يراقبون سائر الناس في انتباه . هجست نفسي : حسناً لن تتاخر سحنتي هذه عن إلقائي بين قوائم القاضي . ثم على حين فجاة ، جاءت نيلوفنا تركض نحوي ، فابتعدت جانباً ورحت اتبعها ، هذا كل شيء !

فقالت الأم في نغمة مذنبة :

– انا لم الحظك !

وتفحصت فيزوفشيكوف بعناية ودقة فبدا لها أنحل منه فيما غبر من الزمن .

وقال فيزوفشيكوف ، وهو يحكّ راسه :

– الرفاق سيقلقون كما اظن . . .

فلاحظ ييجور :

– ماذا عن السلطات ؟ يبدو أنك لا تشفق عليهم ، فلا ريب انهم سيقلقون بدورهم أيضاً !

وفتح فمه ، وشرع يحرك شفتيه وكأنه يمضغ الهواء ، واضاف :

– فلندع الهزل جانباً . ينبغي علينا أن نخفيك في مكان ما ، وهذا ليس بالأمر اليسير وإن كان مبهجاً . لو أستطيع النهوض وحسب . . .

لهث ، ورفع يده إلى صدره يفركه في ضعف وتكاسل . جهر نيقولاي ، وهو يطرق براسه :

– يبدو أن مرضك شديد الوطأة ، يا ييجور إيفانوفيتش !

وتنهدت الأم ، واختلست النظر في قلق الى الغرفة الصغيرة المزدحمة .

واجاب ييجور :

– ذلك من شأني انا . هيا اسأليه عن بافل ، يا أم . ودعي التواضع جانباً !

فارتسمت على شفتي فيزوفشيكوف ابتسامة عريضة ، واعلن :

– بافل على احسن حال ، وصحته جيدة للغاية ، وهو

هناك وليسنا نوعاً ما . فهو الذي يتكلم مع الرؤساء ، ويصدر الأوامر بصورة عامة . والجميع يحترمونه . . .

كانت نيلوفنا تهزّ راسها وهي تنصت الى فيزوفشيكوف وتختلس النظر من زاوية عينيها إلى وجه ييجور المنتفخ والمزرق في الوقت ذاته . كان هذا الوجه يبدو مسترخياً بشكل غريب ، جامداً مجرداً عن كل تعبير ، اللهم إلا عيناه اللتان تبرقان وحدهما في مرح وحيوية .

هتف نيقولاي بغتة :

– لو اعطيتماني شيئاً اسد به رمقي ! ما أشد جوعي !

فقال ييجور :

– ثمة قطع من الخبز على الرف ، يا أم . ثم اخرجي الى الرواق واقرعي الباب الثاني على اليسار ، فتفتح لك امراة ، فاطلبي منها القدوم إلى هنا ، وستجلب معها كل ما تجده ملائماً للأكل .

فقال نيقولاي معترضاً :

– ما حاجتي الى كل شيء !

– لا تقلق ، فلن يكون هناك كثير منه . . .

خرجت الأم وقرعت الباب الذي عيّنه لها . وبينما هي تصغي الى السكون وراء الباب فكرت في ييجور بكآبة :

«إنه يموت . . .»

واستوضح صوت من داخل الغرفة :

– من هناك ؟

فردت الأم في صوت خافت :

– جئت من لدن ييجور ايفانوفيتش . . . إنه يرجوك ان تاتي الى غرفته . . .

فأجابت المراة دون أن تفتح الباب :

– إني قادمة في الحال !

وانتظرت الأم لحظة ثم طرقت الباب من جديد ، ففتح سريعاً وبدت على عتبته امراة مديدة القامة ذات نظارتين ، دلفت الى الرواق ، وسالت الأم في برود ، وهي تسوي في عجلة ما تغضّن من كم بلوزتها :

– ماذا تريدين ؟

– لقد أرسلني ييجور ايفانوفيتش . . .

– هيا بنا !

ثم هتفت في صوت خافت :

– اني اعرفك . . . مرحباً ! هذه العتمة . . .

تطلعت الأم اليها ، فتذكرت أنها شاهدتها عدة مرات عند نيقولاي .

وخطر في بالها :

«إنهم جميعاً من جماعتنا !»

افسحت المراة الطريق لبيلاجيا كي تسير أمامها ، واستفهمت :

– أساءت حالته ؟

– نعم . هو راقد في فراشه . وهو يرجوك أن تحملي بعض الطعام . . .

– هذا ليس ضرورياً . . .

وبينما هما تدخلان غرفة ييجور ، قال هذا بصوته الأجش :

– إني ذاهب للقاء أجدادي ، يا صديقتي لودميلا فاسيليفينا ، ان هذا الفتى تجرأ على الخروج من السجن دون إذن من السلطات . أعطيه قبل كل شيء ما يأكله – ومن ثم أدركيه بمكان يختبئ فيه .

فأشارت المرأة برأسها إيجاباً . والقت على وجه الرجل المريض نظرة متفحصة ، ونبرت بلهجة قاسية :

– كان يجب أن ترسل في طلبي منذ اللحظة التي قدم فيها ، يا ييجور . واني لأرى انك لا تتناول دواءك مرتين متواليتين . يا للعار ! تعال إلى غرفتي أيها الرفيق ، فسوف يأتون بعد قليل ليأخذوا ييجور الى المستشفى !

– وهكذا انت . عازمة حقاً على إدخالي المستشفى ؟

– نعم ، ولسوف أبقى هناك بجانبك .

– وهناك أيضاً ؟ يا للّه !

– كفاك هذراً . . .

وبينا هي منهمرة في الحديث ، أصلحت من وضع الغطاء فوق ييجور ، وتفحصت نيقولاي بامعان ، ونظرت الى الزجاجات كي تقدّر مبلغ ما بقي فيها من الأدوية . كانت تتكلم بصوت خفيض ، متساوي النبرات ، وتنتقل في أرجاء الغرفة برشاقة ولطف عظيمين . وكانت شاحبة الوجه ، وحاجباها السوداوان يلتقيان تقريباً فوق جذر أنفها . ولم يُرق وجهها للأم ، بل وجدت فيه كثيراً من تكبّر وعجرفة ، أما عيناها فلم تعرفا

أبداً معنى الابتسامة أو البريق . وكانت تخاطب الناس دائماً بلهجة الآمر المعتاد أن يطاع . تابعت تقول :

– سوف نترككما الآن ، ولكن سأعود سريعاً . أعطي ييجور ملعقة من هذا الدواء ، ولا تسمحي له بالحديث أبداً . . .

وخرجت مصطحبة نيقولاي ، فقال ييجور متنهداً :

– امرأة رائعة ، مدهشة بكل بساطة . بودّي أن تقيمي معها يا أم ، فهي تجهد نفسها كثيراً . . .

فردّت الأم في لطف :

– كفاك كلاماً ، خذ هذا الدواء !

فجرع الدواء وأغمض إحدى عينيه ، واستأنف :

– سوف أموت على أية حال ، وإن احتفظت بفمي مغلقاً . . .

راح يراقب الأم بعينه الثانية ، في حين انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة . أما الأم فاطرقت برأسها ، وتملّكتها موجة من الرثاء ، رجرجت الدموع في عينيها . قال :

– لا بأس في ذلك . إنه في حكم الطبيعة . . . فلذّة الحياة تستدعي ضرورة الموت . . .

فوضعت الأم يدها على رأسه ، وقالت مرة أخرى في لطف عظيم :

– أفلا تستطيع حقاً أن تكفّ عن الكلام ؟

فأغلق عينيه وكأنه يصيخ السمع الى خرخرة صدره ، ثم عاود في عناد :

– ليس في الصمت أي معنى ، يا أم . ماذا عساني أربح

به ؟ بضع ثوان أخرى من عذاب النزع الأخير ، وأنا أضيّع لذة تبادل بعض الكلمات مع امرأة طيبة مثلك . إني لعلى يقين ان البشر في العالم الاخر ليسوا على طيب هؤلاء الناس . . .

فقاطعته الأم في قلق :

– ستعود الآن هذه السيدة وتعنفني لأني تركتك تتكلم . . .

– ليست سيدة . بل هي ثورية رفيقة ، امرأة مدهشة حقاً . ولا ريب أنها ستعنّفك ، فهي تعنّف الجميع على الدوام . . .

وشرع يبجور في بطء ، وهو يبذل جهداً واضحاً كي يحرك شفتيه ، يروي لها قصة حياة جارته . كانت عيناه تبتسمان فتدرك الأم تعمّده مضايقتها ، فتنظر في وجهه النديّ المزرق وتفكر مذعورة :

«سوف يموت . . .»

رجعت لودميلا ، ولم تكد تغلق الباب في عناية وحذر حتى استدارت إلى الأم :

– ينبغي لصديقك أن يبدل ثيابه ويغادر غرفتي في أسرع وقت ممكن ، وهكذا عليك أن تذهبي حالاً وتأتيه بما يرتديه . إحملي الثياب الى هنا . من سوء الحظ ان صوفيا ليست موجودة . . . فذلك من شأنها وحدها – إخفاء الناس !

فقالت الأم ، وهي تلقي بوشاحها على كتفيها :

– إنها عائدة غداً !

كانت كلما أعطيت مهمة تمتلئ رغبة شديدة في تنفيذها سريعاً على أكمل وجه حتى لتعجز عن التفكير في شيء آخر . . .

سألت في صوت جدي ، وهي تسبل حاجبيها في اهتمام :

– أي زي تفضلين له ؟

– لا فارق ، إذ سيترك المدينة ليلاً . . .

– ذلك أسوأ منه في النهار ، حين لا يكون في الشوارع غير قليل من الناس ، ويكون رجال الشرطة أشد حذراً وأكثر عناية وتزمّتاً في المراقبة . وهو ليس على كثير من المهارة . . .

واطلق يبجور ضحكة مبحوحة .

سألته الأم :

– هل أستطيع زيارتك في المستشفى ؟

فأشار برأسه ، وهو يسعل . واستفهمت لودميلا ، وهي ترمق الأم بعينيها السوداوين :

– هل تحبين أن نتبادل العناية به ؟ أنت تريدين ؟ عظيم . أما الآن فاذهبي بأقصى سرعة ممكنة . . .

تأبطت ذراع الأم في حنان ، ولكن في حزم ، وقادتها نحو الباب ، حتى اذا خرجتا منه توقفت لتقول بصوت خافت :

– لا تغضبي من طردي إياك هكذا ، فالكلام يؤذيه كثيراً ، وأنا ما زلت أرعى آمالاً . . .

وشدّت على يديها حتى فرقعت عظام أصابعها ، ثم أسبلت جفنيها المتعبين في اعياء . . .

واضطربت الأم لذلك الاعتراف ، فغمغمت :

– ما هذه الأقوال . . .

فقالت المرأة في صوت هامس :

– إنتبهي من الجواسيس حولك !

ورفعت يديها الى وجهها تفرك صدغيها ، وارتعشت شفتاها ، في حين رقت سيماؤها كثيراً .

قالت الام بخيلاء :

– إني أعلم !

وبينا هي تعبر البوابة وقفت برهة ، وراحت تصلح وضع وشاحها وهي تختلس النظر فيما حولها بعينين حادتين يقظتين . لقد اصبحت تعرف كيف يميز الجاسوس من بين حشد كبير من الناس دون خطأ تقريباً . إنها تعلم جيداً تلك اللامبالاة المبالغ بها في خطوهم ، وتلك الطلاقة غير الطبيعية في إشاراتهم ، وتلك السيماء من الملل والضجر التي لا تفلح في إخفاء البريق الملتاع الآلم الذي يطلُ من عيونهم الحادة البغيضة .

ولكنها لم تستطع هذه المرة أن تميز مثل هذه الوجوه . فتماهلت الخطوَ على طول الشارع ، ونادت عربة وأمرت سائقها ان ينقلها الى السوق ، حيث راحت تشترى ثياباً لنيقولاي وهي تساوم في عناد ، وتكيل الشتائم دون حساب لذلك الزوج السكير الذي تجبرها عربدته الدائمة على أن تشتري له طقماً كاملاً من الملابس كل شهر تقريباً . ولم تؤثر خرافتها هذه في البائعين كثيراً ، ولكن نفسها ارتاحت لها كل الارتياح ، على أية حال ، وابتهجت بها ، لأنها تصورت في الطريق ان رجال الشرطة سيدركون ضرورة شراء ثياب جديدة لنيقولاي ، فيرسلون بالتالي جواسيسهم إلى السوق . وقفلت إلى مسكن ييجور وهي تتخذ نفس الحيطة الساذجة ، ومن ثم رافقت نيقولاي حتى حدود المدينة ، وهما يسيران كلٌ على

جانب من الطريق ، والأم تتسلى طوال الوقت ، مسرورة برؤية نيقولاي يخب معها في تثاقل ، مطرق الراس ، وهو يتعثر باذيال معطفه الكستاني الطويل ، ويدفع إلى الخلف بقبعته التي لا تنفك تنزلق فوق جبينه حتى تبلغ أنفه . والتقيا بساشنكا في زقاق جانبي مقفر ، فأشارت الأم الى فيزوفشيكوف براسها ، ثم هرولت راجعة الى الدار . وفكرت في كآبة :

«ولكن باشا ما برح في السجن . . . وكذلك اندريوشا . . .»

١٠

هتف نيقولاي ايفانوفيتش بها لما رآها في نبرة الاضطراب والقلق :

– ييجور في حالة سيئة ، سيئة للغاية ! نقلوه الى المستشفى ، ومرت لودميلا بنا ، وهي تريدك على الذهاب . . .

– إلى المستشفى ؟

اصلح نيقولاي من وضع نظارتيه بحركة عصبية ، وساعد الأم على ارتداء سترتها . قال في صوت مرتعش ، وهو يضغط اصابعها في يده الجافة الدافئة :

– انظري ، خذي هذه الرزمة معك . هل دبرت أمر فيزوفشيكوف ؟

– نعم . . .

– سأذهب ، انا ايضاً ، لرؤية ييجور . . .

كانت الأم متعبة جداً حتى تشعر بدوران في رأسها فراح اضطراب نيقولاي يثير فيها توقعاً أليماً لكارثة قريبة . وكانت هذه الفكرة القاتلة «إنه يموت» لا تفتأ تنهال على رأسها ضرباً مثل مطرقة ثقيلة .

ولكنها عندما دخلت الغرفة الصغيرة النظيفة المشرقة ، حيث كان ييجور يضحك بصوت مبحوح وقد جلس على السرير غارقاً في أكمة من الوسائد البيض ، هدأ روعها في الحال ، توقفت برهة مبتسمة على عتبة الباب تنصت إلى ما يحدّث الرجل المريض الطبيب به :

– إن مداواة المريض مثل الاصلاحات . . .

فهتف الطبيب والقلق يسيطر على صوته العالي النبرة :

– كفاك هذراً ، يا ييجور !

– ولكني ثوري ، وأمقت الاصلاحات . . .

فوضع الطبيب ، في لطف ، يد ييجور على ركبته ونهض وهو يعبث بلحيته مفكراً ، ويجسُّ ما في وجه المريض من انتفاخ . وكانت الأم تعرف هذا الطبيب جيدا فهو من أعز أصدقاء نيقولاي واسمه إيفان دانيلوفيتش . اقتربت متمهلة من ييجور الذي حياها بمدّ لسانه ، فاستدار الطبيب إليها وقال :

– آه ، هذا أنت ، يا نيلوفنا ! مرحباً بك ! ما هذا الذي تحملين في يدك ؟

– كتب ، فيما اعتقد !

فأمر الطبيب قصير القامة :

– القراءة ممنوعة عليه .

فقال المريض شاكيا :

– في نيّته ان يجعلني أبله غبياً .

ندّت عن صدره زفرة قصيرة مؤلمة ، مصحوبة بخرخرة رطبة ، واكتسى وجهه بقطرات دقيقة من العرق ، ولم يستطع رفع يده حتى مسح جبينه إلا في جهد عظيم للغاية . وكان ذلك الجمود الغريب في خديه المنتفخين يشوّه وجهه العريض الدمث ، اذ يشلُّ سيماءه في قناع ميت لا حياة فيه . عيناه وحدهما ، الغارقتان عميقا في الانتفاخ الذي يعمّ وجهه بأسره ، كانتا تشعان في صفاء ، وتبتسمان في تسامح وحنان .

– هيْ ! يا أبا علم الطب ، إني متعب . أفلا أستطيع الاستلقاء ؟

فأجاب الطبيب في اقتضاب :

– كلا !

– حسناً ، سوف استلقي في اللحظة التي تغادر الغرفة فيها . . .

– لا تسمحي له بذلك ، يا نيلوفنا . رتبي وسائده وارجوك الاّ تتحدثي معه – ذلك ضار له . .

فأشارت الأم برأسها ، أما الطبيب فخرج وهو يكردح بخطوات سريعة قصيرة . وألقى ييجور برأسه إلى الخلف ، وأغمض عينيه ، وجمد دون حراك أللهم إلا أصابعه التي ما فتئت تضطرب في لطف . كانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء ترشح برداً جافاً ، وضيقاً ضابياً ثقيل الوطأة . وكانت قمم أشجار الزيزفون الشعثاء ترى من خلال النافذة الواسعة ،

ولطخ صفر تلمع من خلال اوراقها المغبرة كما لو ان الخريف الوشيك ترك لمساته الباردة .

قال ييجور ، دون ان يتحرك أو يفتح عينيه :

– الموت يقترب مني في بطء . . . وبالرغم منه . . . إنه يشفق عليّ نوعاً ما على ما اظن . . . فلقد كنت دائماً على استعداد للتآلف معه . . .

رجته الأم ، وهي تربت على يده في لطف :

– هلا كففت عن الكلام ، يا ييجور ايفانوفيتش ؟

– انتظري لحظة . . . سوف أكفّ . . .

وتابع ، وهو يلهث ويبذل صعوبة كبرى كي يلفظ الكلمات ، ويستريح من عناء الحديث كلما اعوزته القوة للاستمرار فيه :

– ما اروع ان تكوني بيننا ، وما ابهج رؤية وجهك ! لأسال نفسي احياناً كيف ستكون نهايتها ؟ ومما يرثى له حقاً ان يدرك المرء ان ما ينتظرك – مثل الباقين جميعاً – هو السجن وكل الوان التعاسات . اخائفة انت من المضيّ إلى السجن ؟

فاجابت بكل بساطة :

– كلا !

– بالطبع لا ، ومع ذلك فالسجن أمر فظيع ! والسجن مَن صنع بي هذا ! إذا اردت الحقيقة ، فأنا لا أريد ان أموت .

وكادت الأم تقول : «ربما لن تموت بعد !» ، ولكن نظرة وحيدة الى وجهه ردّت الكلمات عن شفتيها .

– كنت استطيع إذن متابعة النشاط . . . ولكن إذا كنت عاجزاً عن العمل . . . فلا معنى لحياتي إذن . . . فهي تكون سخيفة عندئذ . . .

وتنهدت الأم بعمق وهي تتذكر مرغمة تعبير اندريه : «ذلك عدل . . . ولكنه لا يعزي !» لقد قضت يوماً متعباً ، وهي إلى ذلك جائعة. وكان همس الرجل المريض المبحوح ، المتردّد على وتيرة واحدة ، يملأ الغرفة وينزلق على الجدران الملساء عاجزاً مقهوراً . وكانت قمم اشجار الزيزفون خارج النافذة اشبه بسحب واطئة قاتمة حتى لتثير اوراقها المسودة المكتئبة الذهول والعجب في نفس الناظر اليها . لقد اضحى كل شيء هادئاً بشكل غريب ، غارقاً في جمود القيلولة المظلمة ، ينتظر معذباً قدوم الليل .

قال ييجور ، وهو يغمض عينيه ويلوذ بالصمت :

– حالتي سيئة واي سوء !

فنصحت الأم له :

– هلا رقدت ! لعلك إذن تتحسن حالاً .

انصتت فترة إلى تنفسه ، وصعّدت النظر في ما حولها ، وعادت إلى الجلوس دون حراك بعض الوقت ، ونير حزن بارد يجثم عليها بوطاته . واخيراً هَجَدَ النعاس في عينيها .

ايقظتها حركة حريصة عند الباب . فانتفضت ورأت عيني ييجور مفتوحتين .

قالت في صوت خافت :

– إني غفوت ، فاصفح عني !

فاعلن في مثل خفوت صوتها :

– انت مَنْ يجب أن يصفح عني . . .

اطلت دُجنة الليل الأغبش من خلال النافذة ، وانسل برد عجيب يملأ عيني الأم ، والظل يغمر كل شيء بصورة غريبة . وكان وجه الرجل المريض مظلماً فاحم اللون .

وسُمع حفيف ، ثم صوت لودميلا يقول :

– ما بالكما تجلسان هكذا في العتمة البهماء تتهامسان ؟ اين مفتاح النور ؟

وعلى حين فجأة ، غمر نور أبيض بارد قلب الغرفة التي وقفت لودميلا في وسطها كظل اسود بقامتها المديدة وظهرها المستقيم .

مرت رعشة شديدة في جسد ييجور برمّته ، فرفع يده إلى صدره .

صاحت لودميلا ، وهي تركض إليه :

– ماذا دهاك ؟

فرمق الأم بعينين جامدتين بدتا الآن متسعتين كثيراً ، براقتين بشدة غريبة ، وفغر فاه ، ورفع راسه ومدّ يده إلى الأمام ، فتناولتها الأم بلطف وادفئت النظر في وجهه وهي تحبس انفاسها . غير انه القى براسه إلى الخلف بحدة وقد اطبق على عنقه اختلاج شديد ، وقال في صوت مرتفع النبرة :

– لا أستطيع . . . إنها النهاية !

ملكت جسده رعشة سريعة وسقط راسه خائراً على كتفه ، وانعكس نور المصباح المعلّق فوق سريره ، ميتاً ، في عينيه البجّاوين .

تمتمت الأم :

– اواه ، يا عزيزي !

ابتعدت لودميلا في بطء عن السرير حتى صاقبت النافذة ، ووقفت تشخص إلى الخارج . قالت في صوت مرتفع غير مالوف لم تسمعه الأم من قبل :

– لقد مات . . .

انحنت فوق النافذة ، وقد اعتمدت حفافها بمرفقيها ، ثم سقطت فجأة خائرة القوى على ركبتها ، وكأنها تلقت ضربة شديدة على امّ راسها ، وغطت وجهها بيديها وانثالت تئن بصوت مخنوق .

صلّبت الأم يدي ييجور الثقيلتين فوق صدره ، واحسنت ن وضع راسه على الوسادة ، ثم خطت مقتربة من لودميلا ، وهي تمسح دموعها ، ومالت عليها تلمس شعرها الكثيف .

فحوّلت المرأة الثانية إليها عينين باهتتين متوسعتين وناضلت كي تنهض على قدميها ، وهي تهمس بصوت راعش النبرات :

– لقد عشنا معاً في المنفى . ذهبنا الى هناك معاً ، وقضينا مدة في السجون . . . ذلك لا يطاق في الأحايين . ذلك يبعث على النفور ، وكثيرون هم الذين تخونهم الشجاعة .

اعتصرتها نوبة من بكاء مرتفع جاف تغلّبت عليها في جهد عظيم ، ثم أطفتّ من الأم بوجهها الذي رقّت سيماؤه بما انطبع عليه من حنان وكآبة حتى بدت صاحبته أصغر سناً مما هي عليه ، وتابعت في همس سريع وهي تبكي دون عبرات :

– أما هو فلم يكن ينضب لمرحه معين . يضحك أبداً ويمزح ، مخفياً آلامه الخاصة ليسكب الشجاعة في قلوب

الضعفاء منا . لقد كان أبداً طيب القلب ، لطيفاً ، رقيق الشعور وهناك . . . في سيبيريا . . . كثيراً ما تفسد البطالة الناس وتقودهم الى إطلاق العنان لغرائزهم الدنيئة . . . لكم كان يعرف كيف يحارب هذا كله ! . . . آه لو تعلمين أي رفيق مدهش رائع كان . . . لقد كانت حياته الخاصة مؤلمة تعسة كل التعاسة ، لكن أحداً لم يسمع قط كلمة شكوى أو تبرّم من شفتيه . . . أبداً ! ولقد كنت صديقة عزيزة عليه ، وادين للطفه بالشيء الكثير ، ولقد اعطاني كل ما في مقدوره من ثراء فكره . . . ومع ذلك لم يسأل أبداً ثواباً ، بالرغم من إعيائه ووحدته ، ولم يطلب أدنى عطف أو أية عناية شخصية . . .

واقتربت من ييجور ، وانحنت عليه تقبّل يده . ثم قالت هامسة باكتئاب :

– أيها الرفيق ، يا رفيقي العزيز الطيب ، شكراً لك . . . شكراً لك من صميم قلبي . وداعاً ! لسوف أتابع العمل كما فعلتَ أنت دائماً . . . دون كلل ، وبأيمان لا يتزعزع ، طوال حياتي ! وداعاً !

راح جسدها يرتجف وهي تجهش بالبكاء ، ثم ارتمت عند قدميّ ييجور ، وكانت الأم تبكي في سكون وغزارة وهي تحاول ، لسبب ما ، أن تحبس عبراتها. إنها تريد أن تعزي لودميلا بحنان عميق وعطف عظيم ، تريد أن تقول كلمات رائعة عن ييجور تطفح حباً وحزناً . ومن خلال دموعها نظرت إلى وجهه الغائر وعينيه نصف المغمضتين بجفنيه المسبلين فكأنه يغفو وشفتيه القاتمتين الطافرة عليهما ابتسامة خفيفة . . . لقد

كانت جميع الأشياء ساكنة برّاقة حتى درجة الإيلام . . .

دخل إيفان دانيلوفيتش بخطواته السريعة المعهودة ، وتوقف بغتة في وسط الغرفة ، ثم دفع يديه في جيبيه بقسوة ، واستقصى بصوت مرتفع عصبي :

– متى ؟ . .

فلم يتلقّ جواباً . اتجه صوب ييجور وهو يترنح قليلاً ، ويمسح جبينه ، وبعد أن ضغط على يده ابتعد جانباً .

– لم يكن ذلك مفاجأة . كان يجب أن يحدث ، بمثل قلبه ، قبل ستة أشهر . . . على الأقل . . .

وفجأة انكسر صوته الحاد ، المرتفع كثيراً ، والهادئ في الوقت ذاته عن تعمد ، فاستند إلى الحائط وراح يعبث بلحيته في عصبية ، وهو يراقب المرأتين قرب السرير . وكانت عيناه تطرفان بسرعة . همس قائلاً : – واحد آخر يتلاشى !

نهضت لودميلا وذهبت تفتح النافذة ، وبعد لحظة كانوا يقفون جميعاً بالقرب منها كتفاً لكتف يشخصون في وجه ليل الخريف الأدعج . وكانت مصابيح الدجى تتلألأ ، فوق قمم الأشجار القاتمة ، فتزيد فراغ السماء اللامتناهي عمقاً وبعداً . . .

تأبطت لودميلا ذراع الأم ، ضمت نفسها الى كتفها في سكون ؛ ووقف الطبيب مطرق الرأس ، يمسح نظارتيه بالمنديل ؛ ومن خلال النافذة أتت أصداء ليل المدينة المتعبة . داعب البرد وجوههم وحرّك شعورهم في لطف ، فارتجفت لودميلا ، في حين راحت دمعة ملتهبة تترقرق على خدها . ومن الرواق تناهت أصداء متكسرة مذعورة ، ووقع

اقدام سريعة مضطربة ، وانّات ، وهمس مكتوم حزين ، غير ان الثلاثة ظلوا ساكنين لا حراك بهم عند النافذة يشخصون في الليل البهيم .

وأحست الأم ان وجودها لم يعد مستحباً في الغرفـة ، فتخلصت من لودميـلا في اناة ، وانحنت لييجور ، واتخذت طريقها إلى الباب .

استجلى الطبيب بصوت خفيض ، ودون ان يلتفت اليها :

– اتذهبين ؟

– نعم . . .

ولما بلغت الشارع روّأت تفكر بلودميـلا وعبراتها المكتومة :

«إنها حتى لا تعرف كيف تبكي . . .»

وتنهدت وقد تذكرت آخر ما تفوه به ييجور من كلمات قبل وفاته . وراحت تتذكر وهي تخطو في تماهـل عينيه الطافحتين بالحيوية ، ومرحه الدائب ، والقصص التي رواها عن الحياة . هجست في نفسها :

«ان الحياة عسيرة على الانسان الطيب ، أما الموت فسهل للغاية . . . كيف سأموت انا ، يا ترى ؟ . . .»

ورات بعيني فكرها لودميلا والطبيب واقفين إلى نافذة تلك الغرفة البيضاء المشعشعة بالضياء ، وعيني ييجور الميتتين إلى الخلف منهما . تنهدت بعمق وقد غمرها رثاء عظيم للجنس البشري ، فاسرعت خطاها ، يحرّضها شعور غامض غير محدود .

فكرت ، وهي تخضع لقوة داخلية تمتزج بكثير من الكآبة والاقدام : «يجب أن أسرع !»

١١

قضت الأم اليوم التالي برمّته منهمكـة في تدبير أمور المأتم . وفي المساء ، بينما هي وصوفيا ونيقولاي يترشّفون الشاي ، هبطت ساشنكا عليهم كثيرة المرح والحيويـة حتى درجة غريبة . كانت وجنتاها متوقدتين ، وعيناهـا تلمعان فرحاً ، حتى بدا للأم ان صدرها يطفح برجاء بهيج للغاية . كان مزاجهـا متناقضاً بحدة وعنف مع جو الكآبـة الذي راحوا يستعيدون فيه الذكريات عن ييجور . ولم يمتزج مع ذلـك الجو ، بل حيّر الجميع وأعمى عيونهم مثل نار تتأجج ، دون انتظار ، في الظلمة العابسة .

قال نيقولاي ، وهو يضرب على الطاولة بأصابعه متفكراً :

– ما دهاك اليوم ، يا ساشـا ؟ لستِ على طبيعتك ومزاجك . . .

فأجابت ساشا ، مرسلة ضحكة سعيدة : – حقاً ؟ ربما !

تطلعت الأم إليها في عتاب أخرس ، بينما همهمت صوفيا تذكرها :

– لقد كنا نتكلم عن ييجور إيفانوفيتش . . . فهتفت ساشا :

– اي إنسان رائع كان ! أليس كذلك ؟ لم القـه أبداً إلا والابتسام يموج على شفتيه ، والمزاح يتراقص في فمه . وكيف كان يعمل ! لقد كان فناناً في الثورة ، أستاذاً كبيراً في التفكير الثوري . بأية قوة وبساطة كان يرسـم لوحاته عن الكذب ، والخداع ، والظلم !

كانت تتكلم بصوت خافت ، وفي عينيها ابتسامة مفكرة ، لكنها اعجز عن إطفاء نار الغبطة التي استطاع ثلاثتهم تمييزها ، وإن لم يستطع احد منهم فهمها .

ابوا ان يستبدلوا ذلك المرح الذي تحمله ساشا بالكآبة الناشئة عن موت رفيقهم فطفقوا يدافعون ، دون وعي منهم ، عن حقهم في الانغماس في الحزن ساعين ان يردوا الفتاة إلى مشاركتهم أتراحهم . .

قالت صوفيا في إصرار ، وهي ترمق ساشا بنظرة مدققة :

– وها هو الآن قد مات !

شملتهم ساشا بنظرة سريعة مستفهمة وعبست ، ثم أطرقت برأسها صامتةً وهي تلمس شعرها بحركة يد بطيئة . قالت بصوت مرتفع بعد فترة من الصمت المتوتر وهي تحدج الحاضرين بنظرات التحدي :

– لقد مات ؟ ماذا يعني هذا . . . مات ؟ ما الذي مات ؟ هل مات احترامي لييجور ، أو حبي له كرفيق ، او ذكرياتي عن آرائه وافكاره ؟ هل ماتت تلك الافكار ، هل اختفى ذلك الشعور الذي يثيره في قلبي ، أو معرفتي به كإنسان شريف مقدام ؟ هل مات كلُّ هذا ؟ أعلم أن ذلك لا يمكن أن يموت أبداً بالنسبة إليَّ . يؤتى لي أننا نتسرّع كثيراً حينما نقول عن شخص ما . . . إنه مات . «لقد ماتت شفتاه ، واما كلماته فستظلُّ حية الى الابد في قلوب الأحياء !»

وفي انفعالها جلست الى المائدة من جديد ، واعتمدت

عليها بمرفقيها ، وتابعت وهي أكثر هدوءاً وتأملاً مبتسمة لرفاقها بعينين مكفهرتين :

– لعل ما أقول يبدو لكم حماقة ، أيها الرفاق . ولكنني أؤمن بخلود الناس الشرفاء ، خلود أولئك الذين منحوني السعادة حتى أعيش هذه الحياة الرائعة التي أحياها ، هذه الحياة التي تسكرني بتعقدها المدهش ، وغناها بالحوادث ، ونموِّ الأفكار العزيزة عليَّ معزّةَ قلبي نفسه . لعلنا نبخل كثيراً بعواطفنا ، فنحن نعيش كثيراً مع أفكارنا ، وهذا يشوهنا نوعاً ما . نحن نقدّر جميع الأشياء دون عاطفة . . .

فاستفهمت صوفيا ، وشفتاها تفترّان عن ابتسامة صغيرة :

– هل وقع لك حادث سعيد ؟

أجابت ساشا وهي تهز رأسها :

– نعم ، حادث جميل جداً على ما يخيّل إليَّ . لقد قضيت الليل بطوله أحادث فيزوفشيكوف . أنا لم أحبه من قبل أبداً . كنت أخاله فظاً جاهلاً ، ومما لا ريب فيه أنه كان فظاً جاهلاً . كان أبداً مفعماً بنقمة سوداء جامدة ضد سائر الناس ، وهو يضع نفسه بخراقة في قلب جميع الأشياء فكأنه مركز الثقل ، ويروح يقول في جفوة وخبث دون انقطاع : أنا ، أنا أنا ! لقد كان في ذلك شيء من ضيّق التفكير مما يثير أعصاب المرء . . .

وابتسمت ، ثم راحت تحدجهم من جديد بعينين لامعتين :

– أما الآن فهو يقول : أيها الرفاق . ويجب أن تسمعوه كيف يقول هذه الكلمة . . . إنه يلفظها بنوع من المحبة

اللطيفة الخجول التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات . لقد أضحى بسيطاً مخلصاً ، مليئاً بالرغبة في العمل . لقد وجد نفسه . إنه واعٍ تماماً لقواه ولمساوئه على حدّ سواء . الأمر الرئيسي هو ذلك الشعور الحقيقي بالرفقة الذي ولد فيه . . .

وكانت الأم سعيدة وهي تنصت إلى ساشا ، إذ تكتشف ان مثل هذه الإنسانة الصارمة النفس يمكن أن تصبح لطيفة فرحة . ولكنها في الوقت ذاته كانت تفكر ، في مكان ما من أعماق قلبها ، في غيرة :

«وماذا عن بافل ؟»

وتابعت ساشا تقول :

– إنه يفكر في رفاقه فحسب ، وهل تعلمون بماذا حاول إقناعي ؟ بضرورة تدبير أمر فرارهم . هذا ما يقول ! إنه يدّعي أن ذلك بسيط سهل للغاية . . .

فرفعت صوفيا رأسها ، وقالت في لهفة :

– تلك فكرة رائعة ، يا ساشا ! ما رأيك ؟

ارتجف قدح الشاي في يد الأم ، أما ساشا فعقدت حاجبيها وهي تحاول كبت عواطفها وانفعالاتها . وبعد فترة من الصمت قالت في صوت رزين ، لكن بابتسامة سعيدة :

– إن كان ما يقوله حقاً ، فعلينا إذن أن نحاول ! واجبنا أن نحاول ! . .

واحمرّ وجهها بغتة ، وسقطت في مقعد دون أن تقول شيئاً .

وفكرت الأم ، وهي تبتسم :

«يا حبيبتي !»

وكذلك ابتسمت صوفيا ، بينما اختلس نيقولاي النظر إلى ساشا وضحك في رقة ، فرفعت الفتاة رأسها إليهم ، كانت شاحبة الوجه ، وعيناها تبرقان ، وصوتها جافاً جريحاً . قالت :

– اني أفهم سبب ضحككم . . . أنتم تظنون أن لديّ دافعاً شخصياً إلى تحقيق ذلك ؟

فقالت صوفيا في خبث ، وهي تنهض وتقترب منها :

– لماذا ، يا ساشا ؟

وبدا للأم أن ذلك آلم ساشا ، وأن صوفيا غير محقة في ذلك القول ، فتنهدت ، وارتفع احد حاجبيها ، ونظرت إليها في عتاب . هتفت ساشا :

– إذن فانا أرفض التدخّل في هذه القضية ! لست أقوى على المساهمة في تقرير ذلك ما دمتم تعتقدون أنه . . .

فقال نيقولاي في هدوء :

– كفى ، يا ساشا !

ذهبت الأم إليها أيضاً وراحت تمسح على شعرها في لطف فامسكت الفتاة بيدها ورفعت محياها الخجول المورّد نحو وجه الأم ، فابتسمت هذه وتنهدت في كآبة وقد أعوزتها الكلمات بينا جلست صوفيا على المقعد بجانب ساشا واحاطت كتفها بذراعها ، وقالت وهي تتطلع في عينيها بابتسامة مستفهمة :

– لأنت غريبة ! . .

– ربما كان من البلاهة أن . . .

فتابعت صوفيا :

– كيف يمكن أن تفكري . . .

ولكن نيقولاي قاطعها بلهجة رزينة :

– يجب تدبير هربهم ، إن كان هذا الهرب ممكناً . هذا امر لا ريب فيه . ولكن يجب ان نعرف قبل كل شيء إن كان رفاقنا في السجن يريدوننا ان نفعل هذا . . .

فاطرقت ساشا براسها .

اشعلت صوفيا لفافة ، والقت بعود الثقاب في إحدى الزوايا باهمال وهي ترنو إلى اخيها . أما الأم فتنهدت ، وقالت :

– كيف يمكن الا يريدوا ذلك ؟ ولكني لا أعتقد بإمكانه . . .

كانت تتلهف أن تسمعهم يؤكدون احتمال الفرار ، بيد انهم ظلوا سكوتاً .

قالت صوفيا :

– يجب ان ارى فيزوفشيكوف !

فاجابت ساشا خافتة الصوت :

– ساقول لك غداً متى يمكن ذلك ، وفي أي مكان .

استوضحت صوفيا ، وهي تذرع ارض الغرفة في ذهاب وأوبة :

– ماذا سيعمل ؟

– ينوون ان يسندوا إليه عمل منضّد حروف في المطبعة الجديدة ، وفي انتظار ذلك سيعيش مع أحد حراس الغابات .

كانت ساشا عابسة ، وقد استردّ وجهها تعبيره الكالح المالوف . وكانت تتكلم بجفاء واقتضاب .

قال نيقولاي ، وهو يتجه إلى حيث الأم تغسل الاقداح :

– يجب ان تسلمي بافل رسالة صغيرة حين تنطلقين لزيارته بعد غد . انت تفهمين . . . يجب أن نعرف . . .

فاسرعت الأم تؤكّد له :

– إني افهم ، إني افهم ! ساتدبر الأمر كي أسلمه إياها . . .

– إني ذاهبة الآن !

اعلنت ساشا ذلك ، وبعد ان صافحت كلاً منهم بسرعة اختفت منتصبة القامة بشدة ، وبخطوات ثابتة حازمة أكثر من المعتاد .

بعد ذهابها وضعت صوفيا يديها على كتفي الأم وطفقت تهزها إلى الأمام والخلف . سالت مبتسمة :

– افي استطاعتك ان تحبي مثل هذه الابنة ، يا نيلوفنا ؟

فصاحت الأم ، وهي على شفا البكاء :

– آه ، يا إلهي ! لو استطيع رؤيتهما معاً ليوم واحد فقط !

فغمغم نيقولاي في صوت رقيق :

– نعم ، إن قليلاً من السعادة لا يؤذي أحداً . ولكن أحداً لا يقنع بالقليل من السعادة ، فإذا كثرت جداً . . . أصبحت رخيصة . . .

واتجهت صوفيا إلى البيان ، وانشأت تعزف لحناً حزيناً .

١٢

في صباح اليوم التالي كان حشد من الرجال والنساء يقف عند بوابة المستشفى ينتظرون خروج نعش رفيقهم المتوفي في العشية ، وقد دار حولهم بعض الجواسيس في حذر واحتراس يصغون إلى هتافاتهم ، ويسجلون في اذهانهم الوجوه والحركات والكلمات ، بينما راقبهم عبر الشارع فريق من رجال الشرطة ، والمسدسات في أحزمتهم . وثارت ثائرة الحشد من وقاحة الجواسيس ، والابتسامات الساخرة التي تعلو شفاه رجال الشرطة المستعدين في كل لحظة للبرهنة على قوتهم . وراح بعضهم يُخفون ضجرهم وراء الهزل والمزاح ، في حين استمر البعض الأخر يشخصون في عناد الى الأرض حتى يتجنبوا الاهانات الموجهة إليهم ، وفريق ثالث ، وقد عجزوا عن إخفاء سخطهم ، يلقون بملاحظات جارحة عن السلطات المذعورة من قوم لم يتسلّحوا إلا بالكلمات . وكانت سماء الخريف الزرقاء الشاحبة تلتمع ببريق فوق حجارة الطريق الرمادية المزروعة بأوراق صفر تساقطت عن الأشجار ، فراح الهواء يعصف بها عند أقدام القوم المحتشدين ويذروها .

وقفت الأم بين الحشد تفكر في كآبة ، وهي تحدج الوجوه المألوفة المحيطة بها :

«ليس عددكم كبيراً . . . ليس كبيراً . . . وليس بينكم عمال تقريباً . . .»

فُتحت البوابة ، وخرج منها بعض الرجال يحملون

غطاء النعش الذي تُوّج ببعض أكاليل من الأزهار أحاطت بها اشرطة حمر ، فاسرع المتجمهرون يرفعون قبعاتهم ، فكأن سرباً من العصافير السود ينطلق فوق رؤوسهم . واندفع في الحشد ضابط شرطة طويل القامة ، أحمر الوجه ، كث الشارب الأسود ، يتبعه الجنود وهم يدفعون الوقوف في فظاظة ، ويضربون الأرض بأحذيتهم الثقيلة في شدة وعنف . قال الضابط في صوت أجش آمر اللهجة :

– ارفعوا هذه الأشرطة !

فاستكفّ الرجال والنساء حوله يتكلمون بانفعال وهياج شديدين يلوّحون بأذرعتهم ويتدافعون بالأكتاف . وتراقصت امام عيني الأم وجوه شاحبة ، منفعلة ، ترتجف شفاهها في عصبية ، وانحدرت دموع الهوان واليأس على وجنتي إحدى النساء غزيرة مدرارة . . .

وعلا صوت فتى يقول :

– فليسقط العنف !

غير أن هتافه ضاع فوراً في حماة الجدال وضجيجه .

كانت المرارة تملأ قلب الأم أيضاً ، فالتفتت الى فتى رث الثياب يقف الى جانبها وقالت ساخطة مغيظة :

– انهم لا يسمحون لرفاقه حتى بالاحتفال بمأتم ميت كما يحلو لهم . . . ذلك مخزٍ حقاً !

ونما شعور العداء بين المجتمعين ، بينما راح غطاء النعش يترنح فوق رؤوس القوم ، وأشرطته الحمر تخفق في الفضاء، فتنال الرؤوس والوجوه تحتها بحفيف جاف ثائر من الحرير الناعم .

اجتاح الأم الخوف من حدوث اصطدام بين الفريقين ، فراحت تقول بسرعة ذات اليمين وذات اليسار في صوت خافت :

– فلننزع الاشرطة اذا كانوا يريدون ذلك ! فلنحقق ما يسعون اليه ، وخلاص !

وتردد صوت مرتفع حاد النبرات طاغياً على الضوضاء :

– إننا نطلب الا تمنعونا عن تشييع رفيقنا إلى مثواه الأخير ، هذا الرفيق الذي عذبتموه . . .

وبدأ صوت عال ينشد :

لقد سقطتم ضحايا نبيلة . . .

– الرجاء نزع الأشرطة ! اقطعها ، يا ياكوفليف !

علا صليل سيف يُستل من غمده ، فاغلقت الأم عينيها تتوقع صراخاً ولكن الضوضاء اصبحت اقل بينما استمر القوم في الغمغمة والتكشير عن الأنياب مثل ذئاب وقعت في حصار ومن ثم ساروا في سكون ، مطرقي الرؤوس ، يملؤون الشارع بوقع خطاهم .

كان غطاء النعش الذي دُنس واعتدي عليه يسبح في المقدمة فوق رؤوس الناس بأكاليله المهشمة ، وإلى جانبه يترنح فرسان الشرطة على متون جيادهم . وكانت الأم تمشي على الرصيف فلا تستطيع سبيلاً إلى رؤية النعش الذي تكللّه الناس من كل حدب وصوب ، وهم يتكاثرون باستمرار بصورة غير محسوسة ، حتى اصبحوا حشداً كبيراً يغمر الشارع

برمته . وإلى الخلف من الحشد كانت أشباح فرسان الشرطة الرمادية تنتصب ايضاً ، وثمة آخرون يسيرون راجلين على جانبي الموكب وايديهم على مقابض سيوفهم . وفي كل مكان كانت الأم تستطيع تمييز أعين الجواسيس الحادة تتفحص بإمعان وجوه الناس .

وانشد صوتان عميقان كئيبان :

وداعا ، ايها الرفيق وداعا . . .

فصاح صوت ثالث :

– كفى ! ينبغي السير في صمت ايها السادة !

كان في هذه الصيحة شيء صارم كثير الجد حتى ان النشيد انقطع للحال ، وسكن لغط الحديث بين المشيعين فلم يعد يُسمع سوى وقع الأقدام الثابت المتسق . كانت هذه الأصداء ترتفع فوق رؤوس الناس وتحلق عاليا في السماء الشافة ، وهي تهزّ الفضاء مثل هزيم الرعد الأول المبشّر بعاصفة لما تزل بعيدة . وكانت ريح قارسة تشتد شيئاً فشيئاً تلفح بعداءٍ وجوه القوم بغبار شوارع المدينة واوساخها ، وتتشبث بشعورهم وثيابهم ، وتعمي أعينهم وتضربهم في صدورهم ، ثم تدور حول اقدامهم في حمية وجنون . . .

كان ذلك المأتم الصامت ، الغني عن الكهنة والترتيل المؤثر ، وهذه الوجوه المغرقة في التفكير ، والحواجب العابسة المقطبة ، تملأ الأم باحساس من غم وهلع . فتروح

افكار متماهلة تدوّم في ذهنها . . . فتكسوها في كلمات كئيبة قليلة :

«لستم كثراً ، أنتم الذين تقفون للدفاع عن الحقيقة . . .»

مشت مطاطاة الرأس ، يبدو لها أنهم لا يدفنون ييجور بل شيئاً آخر مالوفا عزيزاً عليها ، شيئاً تحتاج اليه كل الحاجة . كانت تشعر بالوحشة والحيرة . وتحس قلبها يمتلئ قلقاً نفوراً من الناس المشيّعين لييجور . فكرت :

«بالطبع ، إن ييجوروشكا لا يؤمن باللّه ، وليس احد بين هؤلاء الناس . . .»

ولم تشأ أن تسترسل في فكرة فتنهدت وهي تجرب تحرير نفسها من عبء حمل ثقيل :

«أواه ، يا إلهي . أواه ، يا يسوع الحبيب ! أيمكن اني أنا أيضاً . . .»

بلغوا المقبرة ، وظلوا طويلاً يدورون حول القبور خلال دروب ضيقة حتى أهدفوا أخيراً الى فسحة طليقة من أرض مزروعة بصلبان صغيرة بيض كثيرة العدد ، فتحلقوا في صمت حول القبر المفتوح . كان سكون الأحياء هذا بين القبور يحمل في طياته شيئاً مخوفاً كثير الرهبة حمل قلب الأم على الارتعاش في توقيع اليم . وعوت الريح وصفرت بين الصلبان ، وهي تخفق في كآبة بين الأزهار المهشمة فوق غطاء النعش . . .

وقف رجال الشرطة على أهبة العمل ، وعيونهم مثبتة في رئيسهم . وانتصب بجانب اللحد شاب حاسر الرأس طويل

القامة شاحب الوجه ذو حاجبين سوداوين وشعر باسق الطول مسترسل . . . وفي ذات اللحظة صاح ضابط الشرطة بصوته الأجش :

– ايها السادة . . .

وبدأ الشاب ذو الحاجبين السوداوين يقول في صوت مرتفع واضح النبرات :

– ايها الرفاق !

فزعق الضابط :

– لحظة واحدة ! لا استطيع السماح بأية خطبة على الاطلاق . . .

فاجاب الفتى في هدوء :

– اريد ان اقول كلمات قليلة ليس غير ! ايها الرفاق ، فلنقسم على قبر صديقنا ومعلمنا اننا لن ننسى قط وصاياه ، وأن كلاً منا سيحفر دون كلل ، طوال حياته ، قبر تلك السلطة التي هي مصدر سائر آلام وطننا الأم ، تلك السلطة الشريرة التي تضطهده : الملَكية !

فصاح الضابط :

– اعتقلوه !

ولكن صوته ضاع في عاصفة من الهتافات :

– فلتسقط الملَكية !

شق رجال الشرطة طريقهم ، بين المحتشدين ، نحو الخطيب ، ولكنه لوّح بذراعيه من حيث أزدحم اصدقاؤه لحمايته ، وصاح :

– عاشت الحرية !

دُفعت الأم جانباً فاعتمدت ، مذعورة ، احد الصلبان واغمضت عينيها تنتظر ان تُصفع وتلطم . وا صمّت اذنيها زمجرة أصداء متنافرة ، ومادت الأرض تحت قدميها وغدا التقاط انفاسها عسيراً عليها ، بسبب من الريح والذعر جميعاً . وراحت صفارات الشرطة تمزّق الفضاء في لوعة ، وتردد صوت قاسٍ يصدر الأوامر بعنف ، وطفقت النساء يصحن مخبولات ، وعيدان السور تتكسر ، واحذية ثقيلة تضرب الأرض الجافة بثقل وقوة . استمر ذلك زمناً طويلاً ، حتى لم تعد تستطيع احتمال الوقوف هناك مغلقة العينين اكثر مما فعلت .

فتحت عينيها ، فاطلقت صيحة ثم وثبت الى الأمام ممدودة الذراعين . كان رجال الشرطة ، غير بعيد عنها ، في الدرب الضيقة بين القبور ، قد احاطوا بالشاب المسترسل الشعر ، وهم يبعدون الجماهير المندفعة من كل صوب ومنحنىً لحمايته . ولمعت السيوف العارية بيضاً باردة في الفضاء ، تسطع تارة فوق رؤوس الناس وتهوي بينهم تارة اخرى . وارتفعت العصي وقضبان الحواجز المهشمة أسلحة للدفاع ، واختلطت أصوات الناس المتصارعين في رقص مجنون ، ويشرف عليهم الوجه الشاحب للفتى الطويل من علٍ . وجاء صوته القوي خلال هذه العاصفة من العواصف المجنونة الصاخبة :

— أيها الرفاق ، لِمَ تبددون قواكم ؟

اخذ يبتعد راكضاً ، فالقى القوم عصيهم ، وولوا الادبار الواحد تلو الآخر . ولكنّ الأم ظلت تتابع الطريق قدماً

تدفعها قوة لا تقاوم ، فرأت نيقولاي وقبعته فوق مؤخرة راسه وهو يدفع جانباً الناس المستثارين بالحقد والغيظ . كان يصيح معاتباً :

— هل جننتم ؟ ثوبوا الى رشدكم !

شخص لها ان إحدى يديه حمراء . صاحت ، وهي تندفع نحوه :

— نيقولاي إيفانوفيتش ! إذهب من هنا !

— إلى اين تذهبين ؟ سوف يضربونك هناك . . .

احست يداً على كتفها ، ورأت صوفيا تقف إلى جانبها عارية الراس ، شعثاء الشعر ، ممسكة بصبي من يده . وكان الصبي ، وهو يكاد أن يكون ولداً صغيراً ، يمسح الدم عن وجهه المحطم ويغمغم بشفتين مرتعشتين :

— اتركيني . . . ليس هذا بذي بال . . .

قالت صوفيا في عجلة :

— اعتني به . . . خذيه إلى بيتنا ! إليك هذا المنديل كي تضمدي وجهه ! . .

وحين وضعت يد الصبي في يد الأم ، ذهبت عَدْواً وهي تقول :

— إذهبي سريعاً وإلا اعتقلوك !

كان القوم يتشتتون في المقبرة في سائر الاتجاهات ، ورجال الشرطة يتبعونهم في تثاقل بين القبور وهم يتعثرون في اذيال معاطفهم ، ويقسمون الأيمان المغلّظة ، ويلوّحون بسيوفهم بينما راح الصبي يراقبهم بعيني ذئب جريح .

صاحت الأم به بصوت خافت ، وهي تمسح وجهه بالمنديل :

– اسرع بنا !

فتمتم ، وهو يبصق من فمه دماً :

– لا تقلقي من أجلي . . . ذلك لا يؤذي . . . لقد ضربني بقبضة سيفه ، إلا أني ناولته بالمقابل ما يستحق . . . لقد ناولته ضربة من عصاي أرسلته يعوى . . .

وصاح في صوت متكسر ، وهو يهزّ قبضته الدامية في الهواء :

– ولكن انتظروا . . . هذا ليس شيئاً بالنسبة لما سيكون . . . لسوف نسحقهم دون قتال إذا ما نهضنا يوماً – جميعنا العمال !

فحثّته الأم ، وهي تتخذ طريقها نحو الباب الصغيرة في سور المقبرة :

– أسرع !

كانت تخال ان افراد الشرطة ينتظرونهما في الحقل العارى ما وراء سور المقبرة ، ولن يكادا يطلان على الخارج حتى يهاجموهما ويشبعوهما ضرباً . ولما بلغت الباب أخيراً وفتحته في حذر واختلست النظر الى الحقل المكسو بنسيج رمادي من قيلولة الخريف ، طمأنها السكون والخلاء وهدأ من روعها في الحال . قالت :

– تعال ههنا ، دعني أضمد وجهك .

– لا تزعجي نفسك ، فلست خجلاً منه . لقد كان ذلك

قتالاً شريفاً ، أعطاني نصيبي وأعطيته نصيبه . . .

ضمدت الأم الجرح بسرعة . كانت رؤية ذلك الدم تملؤها شفقة ، فتزحف على طول ظهرها قشعريرة باردة عندما تحتك اصابعها بلزوجته الدافئة . ومشت مع الصبي سريعاً ، دون أن تتفوه ببنت شفة ، عبر الحقل ، وهي تمسك به من ذراعه . ولكنه حرّر فمه من الضماد ، وقال لها ساخراً :

– إلى اين تذهبين بي ، ايتها الرفيقة ؟ أستطيع الذهاب دون معونتك ! . .

احست أن يده ترتعش ، وأنه يترنح على قدميه وان مشيته غير ثابتة . واستمر يتكلم ويطرح الأسئلة في صوت ضعيف ، دون أن ينتظر من رفيقته جواباً :

– من انت ؟ أنا سنكري واسمي إيفان . لقد كنا ثلاثة في حلقة يبجور إيفانوفيتش الدراسية . ثلاثة من السنكريين ، وكان المجموع أحد عشر . لقد كنا مغرمين به بصورة فظيعة . اسكن اللّه نفسه جنان فردوسه ! وبالرغم من اني لا أؤمن باللّه فإني . . .

في احد الازقة نادت الأم عربة . وبعد أن أجلست إيفان فيها ، همست :

– والآن ، أطبق شفتيك !

ضمدت فمه بالمنديل في عناية فرفع يده إلى وجهه ثم تركها تسقط في حجره عاجزاً ، اضعف من أن يناضل ضد الضماد . غير أنه استمرّ مع ذلك يغمغم من خلال المنديل :

– لا تظنوا اني أنسى هذه الضربات ، يا اعزائي . . .

قبل أن يأتي كان ثمة طالب يدعي تيتوفيتش يدرسنا . . . الاقتصاد السياسي . . . ثم اعتقلوه . . .

فأحاطت الأم إيفان بذراعها ، والقت برأسه على صدرها . وفجأة ثقل رأسه وأخلد الى السكون ، أما هي فراحت مشلولة رعباً ، تتطلع في جميع الاتجاهات ، تخال أن الشرطة ستأتي لملاقاتها ركضاً من وراء زاوية ما ، فإذا ما رأت ضماد إيفان امسكت به وقتلته .

سأل السائق ، وهو يلتفت نحوها ، ويبتسم منشرح الصدر :

– أهو سكران ؟

فقالت ، وهي تتنهد :

– لقد شرب كثيراً . . . حتى فقد الوعي . . .

– أهو ابنك ؟

– نعم ، وهو إسكافي ، أما أنا فطاهية . . .

– ما اصعب حياتك . . .

هزّ السوط فوق ظهر جواده ثم استدار إليها من جديد ، وتابع في هدوء :

– إسمعي . . . لقد جرى قتال قبل لحظات في المقبرة ! كانوا يدفنون واحداً من اولئك السياسيين . . . واحداً من اولئك الذين يعملون ضد السلطات . . . والذين يختلفون معها أبداً . . ويبدو أن المشيعين كانوا جميعاً من مثل طينته ، اريد ان أقول أنهم اصدقاء له . . . وقد راحوا يصيحون : فلتسقط السلطات لأنها تجعل الشعب فقيراً ! . . وهجمت الشرطة عليهم تكيل لهم الضربات . . .

ويقال إن بعضهم جرحوا حتى الموت . ولقد تلقّت الشرطة نصيبها أيضاً . . .

صمت لحظة ، ثم اضاف في صوت غريب ، وهو يهزّ رأسه ارتياباً وإنكاراً :

– يوقظون الأموات هكذا ، ولا يعطونهم فرصة للراحة !

راح رأس إيفان يتدحرج في هدوء فوق صدر الأم والعربة تقفز في فرقعة على حجارة الشارع ، واستمر الحوذي يتمتم متأملاً ، وهو ما برح مستديراً نصف استدارة نحو الأم :

– ان الاضطراب قد دخل الشعب . . . والفوضى تنبثق من الأرض انبثاقاً . في الليلة الفائتة جاء الدرك الى بيت أحد جيراننا ، وظلوا ينبشون وينبشون حتى الصباح ، ثم اقتادوا معهم واحداً من الحدادين عندما ذهبوا . والناس يقولون إنهم سيأخذونه في احدى تلك الليالي الى ضفة النهر ويغرقونه هناك في سكون . لقد كان الحداد رجلاً طيباً للغاية . . .

فسألت الام :

– وما اسمه ؟

– الحداد ؟ سافيول ، سافيول ييفشنكو . وهو ما برح صغير السن ، ولكنه يعرف أشياء كثيرة . يبدو كأن المعرفة ممنوعة ! كان يأتي الينا عادة ويقول لنا : ما هذه الحياة التي تعيشون أيها الحوذيون ؟ فكنا نقول : أسوأ من حياة الكلاب ، اذا أردت الحقيقة . . .

قالت الأم :

– قف !

أيقظ وقوف العربة إيفان ، فأرسل أنيناً خافتاً .

قال الحوذي :
– ان الفتى فاقد القوى تماماً ! تلك هي نتيجة الفودكا الملعونة . . .
عبر إيفان الساحة مترنحاً في صعوبة جمة ، وهو يحتجّ طوال الوقت :
– إني على احسن حال . . . اني أستطيع السير . . .

١٣

كانت صوفيا قد سبقتهما الى الدار ، فاستقبلتهما في قلق وانفعال وبين أسنانها لفافة مشتعلة . وبعد ان مددت الصبي على الاريكة ، حلت ضماده في حذق ومهارة ، وبدأت تلقي الأوامر ، وهي تضيق عينيها تفادياً من دخان لفافتها :
– لقد أتيا ، يا ايفان دانيلوفيتش ! متعبة ، يا نيلوفنا ؟ ولقد ذعرتِ أيضاً ، أليس كذلك ؟ حسناً ، استريحي الآن . . . أعطِ نيلوفنا كأساً من النبيذ ، يا نيقولاي !
كانت الأم مذهولة بالصدمة التي تلقتها قبل قليل ، وهي تجد صعوبة في التنفس وتحس في الصدر ألماً حاداً جارحاً . غمغمت :
– لا تقلقوا من أجلي . . .
ولكن كائنها بمجموعه كان يسترعي الانتباه ويسأل عطفاً حنوناً ورعاية مواسية .
جاء نيقولاي من الغرفة المجاورة مضمد اليد ، وبصحبته

الطبيب إيفان دانيلوفيتش ، مشعث الهندام منتصب الشعر كالقنفذ . وأسرع هذا الاخير يعبر الغرفة حتى الاريكة التي اضطجع إيفان عليها ، ومال عليه قائلاً :
– ماءً ، كثيراً من الماء . وقطناً وقطعة قماش نظيفة !
فاتجهت الأم نحو المطهى . لكن نيقولاي تأبط ذراعها بيده اليسرى وقادها الى غرفة الطعام ، قائلاً في لطف :
– طلب من صوفيا ، وليس منك . أخاف أن تكوني لقيت كثيراً من الازعاج ، أليس كذلك ، يا عزيزتي ؟
عندما لاقت الأم عينيه القلقتين الرقيقتين لم تستطع ضبط عبراتها .
صاحت :
– أواه ! ما أفظع ما حدث يا صديقي العزيز ! لقد ذبحوا الناس ، وقطعوهم بأسيافهم !
فقال نيقولاي وهو يهزّ رأسه ، ويناولها كأساً من النبيذ :
– لقد رأيت ذلك ! ان كلا الجانبين أضاع رشده قليلاً ، ولكن لا تقلقي من أجل ذلك . لقد ضربوا بجوانب السيوف ، ويبدو ان ثمة شخصاً واحداً جراحه خطيرة . لقد فعلوا ذلك به امام ذات عينيّ ، وتدبرت الامر كي أجره بعيداً عن الحشد . . .
هدأ صوت نيقولاي ووجهه ونور الغرفة وحرارتها من روع الأم ، فنظرت إليه في امتنان قائلة :
– هل ضربوك أيضاً ؟
– الظاهر أني فعلت ذلك بنفسي . . . اصطدَمتْ يدي

على غير انتباه مني بشيء فسحجت البشرة عنها . اليك قليلاً من الشاي ، البرد شديد في الخارج وانت لا ترتدين إلا ثياباً خفيفة . . .

أرادت أن تتناول الكأس ، فاذا هي تلاحظ دماً جافاً يغطي اصابعها الممدودة ، فالقت يدها من دون وعي في حجرها . . . كانت تنورتها رطبة أيضاً . . . رفعت حاجبيها ، وفتحت عينيها واسعتين وهي ترمق اناملها شزراً . . . وخفق قلبها ، وأحست دواراً في رأسها :

«باڤل أيضاً . . لعلهم يفعلون به الشيء نفسه !»

دخل إيفان دانيلوفيتش الغرفة وقد شمّر ردني قميصه . وأجاب عن استفهام نيقولاي الأخرس بصوته المرتفع :

– الجرح في وجهه ليس بذي بال ، ولكن في جمجمته كسراً ليس خطراً أيضاً ، فالفتى ذو بنية متينة . سوى أنه أضاع كمية كبيرة من الدم على أية حال . هل نرسله إلى المستشفى ؟

فقال نيقولاي :

– لِمَ ؟ فليبقَ ههنا .

– هذا اليوم ، ولربما الغد أيضاً . أما فيما بعد ، فمن الأفضل بالنسبة إليّ أن يكون في المستشفى ، إذ ليس لديّ الوقت الكافي لزيارة المرضى في منازلهم . هل ستكتب منشوراً عن هذا الحادث في المقبرة ؟

فجزم نيقولاي :

– بكل تأكيد !

نهضت الأم في هدوء ، وأخذت سمتها صوب المطهى ،

فاستجلى نيقولاي معترضاً والقلق مرتسم على محياه :

– اين تذهبين ، يانيلوفنا ؟ ستدبر صوفيا كل شيء وحدها !

حدجته بناظريها ، سرت الرعشة في جسدها . قالت ، وهي ترسل ضحكة غريبة :

– أنا ملطخة بالدم . . .

وبينا هي تبدّل ثيابها في غرفتها الخاصة راحت تفكر ، من جديد ، في هدوء هؤلاء الناس ومهارتهم في التغلب على مثل تلك الاشياء الراعبة بكل هذه السهولة الفائقة ، فاسبغت هذه الافكار على روعها شيئاً من طمأنينة ، وطردت المخاوف من قلبها . ولما دلفت الى الغرفة حيث اضطجع الصبي الجريح وجدت صوفيا منحنية عليه وهي تقول :

– هراء ، أيها الرفيق !

فاعترض في صوت واهن :

– سوف أزعجكم !

– كف عن الكلام . . . ذلك خير لك . . .

وقفت الأم خلف صوفيا ويدها على كتفها ، وراحت تبتسم في وجه الصبي الشاحب وهي تقصُّ عليه كيف أرعبها في العربة بما تمتم من كلمات الهذيان الخطرة ، فاذا عينا إيفان تلتهبان في حمية ، ثم طقطق بلسانه وقال في حياء وخفَر :

– يا لي من أحمق !

فقالت صوفيا ، وهي تصلح من وضع غطائه :

– سوف نتركك الآن . هلا رقدت !

دخلنا غرفة المائدة حيث جلسوا طويلاً يناقشون حوادث

النهار ؛ وراحوا ، وهم ينظرون إلى تلك المأساة وكأنها شيء أمسى من الماضي البعيد ، يتطلعون في ثقة نحو المستقبل ويضعون الخطط لتنظيم أعمال الغد . كانت وجوههم متعبة ، ولكن أفكارهم جريئة مقدامة . وبينا كل يتحدث عن العمل الذي أنجز ، لم يكن يخفي عدم رضاه عن نفسه . وكان الطبيب يتململ في عصبية بمقعده وهو يقول ، مجرّباً أن يخفف من حدة صوته وارتفاعه :

– الدعاية ! الدعاية ليست كافية في هذه الأيام . والعمال الشباب على حق ، فعلينا توسيع نطاق فعّالياتنا . أقول لكم إن العمال على حق . . .

فقال نيقولاي بكآبة وبذات النغمة التي تحدث بها الطبيب :

– إننا نسمع شكاوى من كل جانب عن عدم كفاية المطبوعات ، ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من تأمين مطبعة حسنة . ولودميلا تنهك نفسها للغاية ، ولسوف تذوب إن لم نقدم لها بعض المعونة . . .

فسألت صوفيا :

– وماذا عن فيزوفشيكوف ؟

– إنه لا يستطيع العيش في المدينة ، ولن يبدأ العمل الا في المطبعة الجديدة ، ولكننا ما زلنا نحتاج . الى شخص آخر قبل أن نفعل ذلك .

فاستوضحت الأم في صوت خفيض :

– أفلا أصلح أنا لذلك ؟

فاشرأبت أنظار الثلاثة إليها في صمت عدة ثوانٍ ، ثم هتفت صوفيا :

– تلك فكرة رائعة !

فقال نيقولاي بجفاء :

– ذلك شاق عليك جداً ، يا نيلوفنا ، إذ ستضطرين الى العيش خارج المدينة ، وهذا يعني أنك لن تستطيعي رؤية بافل بعد ذلك . وعلى العموم . . .

فردّت ، وهي تتنهد :

– ذلك لن يعني الشيء الكثير بالنسبة إلى بافل ، أما انا فتلك الزيارات تقطع نياط القلب في الواقع . لا يحقّ لنا ان نقول شيئاً ، بل أقف هناك اواجه ولدي مثل الحمقاء ، بينا هم يشخصون إلى فمي ليبصروا إن كنت لن أجمجم شيئاً لا يجوز لي فتح فمي به . . .

كانت متعبة من حوادث الأيام القليلة الأخيرة ، حتى إذا سنحت لها الآن فرصة العيش بعيداً عن مأساة المدينة ، تشبثت بها في لهفة وجشع .

لكن نيقولاي بدّل موضوع الحديث ، فقال وهو يلتفت إلى الطبيب :

– ماذا يشغل بالك ، يا إيفان ؟

فرفع الطبيب رأسه المطرق ، وأجاب بكآبة :

– أفكر في قلّتنا ! علينا أن نعمل بعزم أكثر من ذي قبل ، وان نقنع بافل وأندريه بضرورة هربهما . . فهما أثمن من ان يجلسا هناك دون ان يأتيا عملاً . . .

قطّب نيقولاي حاجبيه ، وهزّ رأسه في ارتياب ، وتطلع

جهة الأم ، فادركت أنهم يجدون الحديث عن ابنها في حضورها من الصعوبة بمكان ، فنهضت وبرحت الغرفة جريحة الكبرياء لأن هؤلاء القوم تجاوزوا رغبتها ولم يعيروها التفاتاً . وبينما هي تستلقي في سريرها متسعة العينين تنصت إلى همس الاصوات الرقيق ، شرع إحساس بالجزع والقلق يطغى عليها شيئاً فشيئاً ، وهي تستسلم إليه دون مقاومة .

لقد انقضى النهار مظلماً ممتنعاً عن الادراك ، مليئاً بالاحساسات المنذرة بالويل ، ولكنها تابى التفكير في ذلك فتروح ، وهي تطرد تلك الانطباعات المقلقة من ذهنها ، تركز كل انتباهها حول بافل . كانت تتلهف الى رؤيته حراً طليقاً . وفي الوقت ذاته تستشعر الخوف من حريته ، فهي تحس ان الحوادث التي تجري حولها ستقود حتماً الى جو شديد التوتر ينذر بصدام قاس . إن تحمل الناس الساكن الأخرس قد زال ليفسح المجال الآن لتوقع كثير من القلق ، وسخطهم يزداد بصورة محسوسة يوماً بعد يوم ، وهي تسمع من كل لفتة وصوب كلمات حادة ناقمة ، وتجد كل ما يحيط بها يتنفس القلق والاضطراب . . . كانت كل منشورة تثير مناقشات حادة في الأسواق والحوانيت ، وبين الخدم والحرفيين ؛ وكانت تعليقات مذعورة متبلبلة ، بَلْه ساخطة في الأحايين ، تتبع كل اعتقال مهما كان سببه . وإنها لتسمع أكثر فاكثر أناساً بسطاء يتفوهون بتلك الكلمات التي طالما اهرقت الذعر في قلبها والثورة في افكارها : التمرد ، الاشتراكيون ، السياسة . . . واذا كانوا يرددونها في سخرية فقد كان يمكن تمييز الفضول وراء السخرية ؛

واذا كانوا يقولونها في خبث فقد كان يمكن اكتشاف الخوف وراء الخبث ؛ واذا كانوا يتلفظون بها في تفكر فقد كان الرجاء والوعيد يجثمان وراء التفكير . . . كانت أمواج الاضطرابات تنتشر في تباطؤ ولكن في حلقات واسعة فوق المياه الآسنة لهذه الحياة الراكدة ، وقد أخذت الأفكار الناعسة تستيقظ ، والخضوع المألوف الهادئ للحوادث اليومية يفقد ثباته ويترنح . كانت تستطيع رؤية كل هذا بوضوح أكثر من الناس الآخرين لأنها أعرف منهم بسيماء الحياة العابثة . وهي إذ ترى الآن غضون التفكير والسخط تتلامح على هذا السيماء ، لا تستطيع لقاء ذلك إلا ان تفرح وتقلق في وقت واحد . . . تفرح لأنها ترى في كل ذلك عمل فتاها ، وتقلق لانها تعلم حق العلم أنه إذا هرب من السجن فسيأخذ مكانه في الطليعة وفي المركز ، الاكثر خطراً ، وسيفنى .

وفي بعض الأحيان كانت صورة ابنها تتخذ في عينيها أبعاد احد أبطال الأساطير ، فتوحّد فيها سائر الكلمات الباسلة الشريفة التي رنّت في سمعها أبداً ، وجميع أولئك الناس الذين اعجبت بهم يوماً ، ومختلف تلك الأشياء البراقة البطولية التي عرفتها فيما سبق من الأزمان . وفي مثل هذه الحالات يملؤها الخيلاء والحنان ، فتروح تتأمل فيه في إشراق حنون ، وهي تفكر طافحة رجاءً وأملاً :

«كل شيء سينتهي على خير ما يرام . . . كل شيء !»

وكان حبها ، حبها الأمومي ، يلتهب عندئذ ويجعل قلبها ينقبض بصورة مؤلمة . وبعدئذ كان الأمومي فيها يعوق نموّ ما هو إنساني خالص ويحرقه لهيب عظيم ، فيحلّ مكان

ذلك الشعور العظيم رماد خوف وقلق تضرب فيه فكرة وجلة واحدة فقط ، الا وهي :

«لسوف يموت . . . لسوف يُقضى عليه ! . .»

١٤

كانت تجلس ، ظهراً ، مقابل بافل في مكتب السجن تراقب وجه الملتحي بعينين غشتهما العبرات ، وهي تفتش عن فرصة مؤاتية كي تدسّ في يده الرسالة المنسحقة بين اصابعها .

قال في همس خافت :

– إني لعلى احسن حال ، وكذلك سائر الباقين . كيف حالك أنت ؟

فاجابت إجابة آلية :

– على احسن حال . مات ييجور ايفانوفيتش .

فهتف بافل :

– حقاً ؟

واطرق راسه ببطء .

وتابعت الأم في بساطة ودون حذق :

– ولقد دبّر رجال الشرطة معركة اثناء المأتم واعتقلوا احد الفتيان .

فطقطق معاون مدير السجن بشفتيه الرقيقتين سخطاً وقفز ناهضاً على قدميه ، وهو يغمغم :

– افلستِ تعلمين ان الحديث عن هذه الأمور ممنوع ؟

الحديث عن السياسة غير مسموح به !

ونهضت الأم بدورها وقالت في سذاجة ، وفي رنين صوتها ظل من الاعتراف بالجرم :

– لم اكن اتكلم عن السياسة ، بل عن معركة . والحقيقة انهم تقاتلوا ، لا بل حطموا راس احد الفتيان أيضاً . . .

– لا فرق بين هذا وذاك . ينبغي لي أن أسالك الصمت ، يعني ان تسكتي عن كل شيء ليس له بك علاقة شخصية . . . يعني عائلتك وبيتك بصورة عامة !

واذ ادرك انه يتلعثم ، جلس إلى مكتبه من جديد ، وشرع ينبش في بعض الأوراق ، وهو يضيف في إعياء :

– إني مسؤول عن مثل هذه الأمور . . .

اسرعت الام تلقي الورقة الصغيرة في يدي بافل بعد ان القت نظرة الى معاون المدير ، ثم تنهدت وقد رفعت عن قلبها عبئاً ثقيلاً قائلة :

– انا لا افهم ما المسموح بالحديث عنه . . .

فضحك بافل ، وهمهم :

– ولا أنا أيضاً . .

فنبر معاون المدير مغتاظاً :

– إذن فلا فائدة من المجيء الى هنا ! ما معنى عدم وجود موضوع يمكن الحديث عنه ، والاستمرار في القدوم الى هنا . . وازعاج الناس . . . .

وسالت الأم بعد برهة صمت :

– هل ستجري المحاكمة سريعاً ؟

– لقد كان النائب العام هنا قبل عدة ايام مضت ، وقال إن ذلك سيتم عما قريب . . .

تبادلا بعض الملاحظات التافهة الأخرى التي لا يحتاج احدهما اليها . لاحظت الأم ان بافل ينظر إليها بعينين رقيقتين طافحتين بالمحبة . كان هادئاً صارماً مثله ابداً ، لم يتبدل فيه شيء ، اللهم إلا بياض يديه ولحيته التي جعلته يبدو اكبر سناً منه في واقع الأمر . ارادت أن تقول له شيئاً جميلاً . . . ان تعلمه شيئاً عن نيقولاي ، فاسترسلت دون ان تغير اللهجة التي بادلته بها الملاحظات السابقة :

– رايت فليونك قبل ايام . . .

فبحث بافل عن عينيها في استفهام صامت ، فشرعت تضرب على خدها باصبعها كي تذكره بعلامات الجدري على وجه فيزوفشيكوف ، وهي تقول :

– الصبي على أحسن حال . . ولسوف يُعطى عملاً في وقت قريب . . .

وفهم فتاها ما تريد ، فاشار لها براسه بعينين ضاحكتين . قال :

– هذا رائع !

فاختتمت حديثها ، راضية عن نفسها ، متاثرة بسعادته :

– هذه هي الامور !

وضغط على يدها بشدة مودّعاً :

– شكراً ، يا امّ !

اجتاحها شعور بهيج بتقارب قلبيهما ، وصعد الى راسها

مثل خمرة قوية ، فضغطت على يده في سكون ، وقد أعوزتها الكلمات كي تردّ عليه .

وجدت ساشا تنتظرها في الدار لدن عودتها . كانت الفتاة تزورها عادة في الأيام التي ترى بافل فيها ، ولكنها لا تسأل عنه قط ، فإذا لم تذكره الأم من تلقاء ذاتها ، كانت ترضي فضولها بالتطلعّ طويلاً في وجهها . اما هذه المرة فقد لاقتها في استفهام قلق :

– كيف حاله ؟

– جيدة .

– هل اعطيته الرسالة ؟

– بالطبع ، وبصورة رائعة جداً . . .

– هل قراها ؟

– وكيف يستطيع ذلك ؟

فقالت الفتاة في تماهل :

– طبعاً . لقد نسيت . علينا أن ننتظر أسبوعاً آخر . . . أسبوعاً كاملا . أتعتقدين أنه سيقبل ؟

قطبت ساشا حاجبيها ، ونظرت الى الأم ملياً . كانت هذه تفكر :

– لا ادري ! ولِمَ لا يقبل ، ان لم تكن ثمة خطورة في الأمر ؟

وهزت ساشا راسها ، وسألت في جفاء :

– أتعلمين ماذا يستطيع المريض أن ياكل ؟ إنه جائع .

– يستطيع أن ياكل اي شيء كان ، لحظة واحدة وسوف . . .

زحفت إلى المطهى حيث لحقت بها ساشا في بطء .

– هل أستطيع مساعدتك ؟

– شكراً لك ، ليس من حاجة !

انحنت الأم فوق الموقد وتناولت منه قدراً . قالت الفتاة في صوت خافت :

– انتظري . . .

شحب وجهها ، واتسعت عيناها في ألم في حين راحت شفتاها المرتعشتان تهمسان بسرعة وفي لهفة :

– كنت اريد أن أسألك . إني على يقين من انه سيرفض ولذلك ارجو ان تقنعيه بذلك . قولي له ان وجوده هنا ضروري من أجل القضية . قولي له إني خائفة من أجل صحته . وأنت ترين بنفسك أن يوم المحاكمة لم يعيَّن بعد . . .

كانت تتكلم بصعوبة ، وهي تنظر في ثبات إلى إحدى الزوايا ، وقد انتصبت قامتها كل الانتصاب ، وراح صوتها يتموج ويضطرب . واسبلت جفنيها في إعياء ، وعضت شفتيها في عذاب وقهر ، واستطاعت الأم ان تسمع طقطقة قبضتيها المنضمتين .

هزّ هذا الانطلاق العاطفي نفس الأم ، غير أنها فهمت ساشا تماماً ، فضمتها إليها في انفعال حزين ، وأجابت في كآبة :

– آه ، يا عزيزتي ! إنه لن يعير أحداً آذاناً صاغية ، سوى نفسه وحدها . . . لن يصغي إلى أحد على الاطلاق !

بقيتا صامتتين فترة ، وقد التصقت كلتاهما بالأخرى ،

ثم تحررت ساشا بلطف من ذراعي الأم المحيطتين بكتفيها وقالت مرتعشة :

– أجل ، أنت على حق . . . كل هذا هراء . . . إن اعصابي . . .

وفجأة قالت في هدوء وبساطة :

– حسناً ، هلا أطعمنا مريضنا ؟

جلست إلى جانب سرير إيفان وسألته في حنان هل يؤلمه رأسه ، فأجاب وهو يجرُّ الغطاء حتى ذقنه مرتبكاً ، ويرفُّ بعينيه فكأن النور أشد من أن يُحتمل :

– ليس كثيراً ، فكل شيء ما ينفكُّ عكراً نوعاً ما ، وإني لأحسُّ ضعفاً .

ادركت ساشا انه يخجل من تناول الطعام في حضورها ، فنهضت وغادرت الغرفة ، فجلس إيفان في فراشه يتبعها بنظرته ، وغمغم مطرقاً بعينيه :

– ما أجملها !

كانت عيناه الرماديتان مرحتين ، وأسنانه بيضاً منتظمة ، وصوته متبدل الجرس .

استعلمت الأم مفكرة :

– كم هو عمرك ؟

– سبعة عشر عاماً . . .

– وأين والدك ؟

– في القرية . اما انا فهنا منذ كنت في العاشرة من سني ، إذ لم اكد انهي دراستي حتى هربت الى المدينة . ما اسمك ، أيتها الرفيقة ؟

كانت الأم تبتهج كلما توجه الناس إليها بهذه الكلمة التي كانت تثير فيها مشاعر الحنان . سألت ، وهي تبتسم :

– ولمَ تريد ان تعرف ذلك ؟

فصمت الصبي فترة في ارتباك ثم أوضح :

– ذلك أن واحداً من الطلاب في حلقتنا الدراسية . . . يعني واحداً من الذين يدرّسوننا ، قد حدثنا عن والدة بافل فلاسوف العامل . هل تذكرين مظاهرة أول ايار ؟

فأشارت الأم براسها ، واصاخت بسمعها .

وأعلن الفتى في خيلاء وجد صداها في قلب الأم :

– لقد كان أول من رفع راية حزبنا على رؤوس الأشهاد . ولم أكن ، أنا ، هناك يوم ذاك . كنا نريد تنظيم مظاهرتنا الخاصة ، ولكننا لم ننجح لأن عددنا قليل جداً . ولكننا سننظمها في العام المقبل . . . لسوف ترين ذلك !

كان يتنفس بصعوبة لشدة ما يثير فيه تصور حوادث المستقبل من انفعال . ثم تابع ، وهو يلوّح بملعقته :

– إذن فقد كنت أتكلم عن أم فلاسوف هذا . لقد انضمت الى الحزب بدورها بعد ذلك . يقال إنها أعجوبة مدهشة !

فافترّت شفتا الأم عن ابتسامة عريضة ، وقد أبهجها الإصغاء الى مديح الصبي ، أبهجها واربكها في الوقت ذاته . ارادت أن تقول : «إني أم فلاسوف ذاك ! . . .» ولكنها ردّت الكلمات عن شفتيها ، وقالت تحدث نفسها بحزن وفي قليل من السخرية اللطيفة : «يا لك من حمقاء عجوز !»

انحنت عليه بغتة ، وراحت تقول في انفعال :

– كل شيئاً آخر ، ينبغي ان تتحسن حالك سريعاً في سبيل القضية الطيبة . . .

فتح باب الغرفة مفسحاً السبيل لأنفاس الخريف الباردة الرطبة . وإذ رفعت الأم عينيها رأت صوفيا واقفة هناك مشرقة الوجه ابتساماً ، مضرجة الخدين فرحاً .

– قسماً بشرفي ان الجواسيس يتعقبونني مثلما يلاحق الخطّاب وريثة كثيرة الثراء ! لقد آن لي ان ارحل من هنا . . . حسناً ، كيف حالك ، يا إيفان ؟ أتشعر بتحسن ؟ ما هي الأخبار عن بافل ، يا نيلوفنا ؟ هل ساشا هنا ؟

داعبت صوفيا الصبي والام بعينيها الرماديتين وهي تشعل دخينة ولا تنقطع عن طرح أسئلة دون أن تتوقع أجوبة لها ، فيما ابتسمت الأم بينها وبين نفسها وهي تراقبها ، وفكرت : «ها إني أنا أيضاً أعتبر واحدة من هؤلاء القوم الطيبين !»

ومالت على إيفان مرة أخرى ، وقالت :

– هيا عجل بالشفاء ، يا بنيّ !

ثم دلفت الى غرفة الطعام حيث وجدت صوفيا تتحدث الى ساشا :

– جهزّت حتى الآن ثلاثمائة نسخة ، ولسوف تقتل نفسها بهذه السرعة التي تسير بها ! هذه هي البطولة ! إنها لسعادة أن يعيش المرء بين هؤلاء القوم ، يا ساشا ، وأن يكون لهم رفيقاً ويشاركهم العمل . . .

فأجابت الفتاة في صوت رقيق :

– بلى !

وبينما هم يتناولون الشاي ذلك المساء ، قالت صوفيا للأم :

– يجب ان تقومي بزيارة أخرى إلى الريف ، يا نيلوفنا !

– حسناً ، متى ؟

– اتظنين انك تستطيعين بعد ثلاثة أيام ؟

– بالطبع . . .

فقال نيقولاي ناصحاً بصوت خافت :

– يفضل هذه المرة ان تستأجري احصنة البريد وتسلكي طريقاً اخرى ، عبر مقاطعة نيقولسكويه . . .

لاذ بالصمت . كان عابساً مكتئباً ، الأمر الذي لا يلائمه إذ يفسد سكينته الهادئة المعتادة .

لاحظت الأم :

– إن الطريق ستطول جداً عبر نيقولسكويه ، أما استئجار الأحصنة فتكاليفه غالية . . .

فقال نيقولاي :

– الحقيقة اني ضد مثل هذه الرحلة ، فالأمور ليست هادئة هناك – بل جرت بعض الاعتقالات – ويبدو انهم القوا القبض على احد المدرّسين . علينا ان نكون اكثر حذراً ، وان ننتظر قليلاً ايضاً . . .

فلاحظت صوفيا ،وهي تنقر على المنضدة بأصابعها :

– المهم بالنسبة الينا ان يستمرّ نشر المطبوعات دون انقطاع .

ثم سألت الأم على حين غرة :

– هل انت خائفة من الذهاب ، يا نيلوفنا ؟

فتأذت الأم من ذلك . قالت :

– وهل كنت خائفة في اي وقت كان ؟ عندما ذهبت للمرة الاولى لم استشعر خوفاً . . . والآن . . . على حين فجاة . . .

اطرقت برأسها دون ان تنهي حديثها . كانت تحسُّ ، كلما سألوها إن كانت خائفة ، او إن كانت تجد هذا الشيء او ذاك ملائماً ، او إذا كانت تستطيع ان تفعل هذا الأمر او ذاك ، انهم يتوجهون إليها برجاء خاص ، فتخال انهم يضعونها جانباً ويعاملونها على خلاف ما يعاملون بعضهم بعضاً .

قالت بتنهيدة قصيرة :

– لِمَ تسألونني إن كنت خائفة أم لا ؟ إنكم لا تطرحون على بعضكم البعض مثل هذه الأسئلة .

فرفع نيقولاي نظارتيه عن عينيه ثم أعادهما من جديد في عصبية وهو ينظر ملياً الى أخته . وأحست الأم انزعاجاً من السكون المتوتر ، فنهضت عن المائدة في ارتباك ، وأرادت ان تقول شيئاً ، لكن صوفيا تناولت يدها في لطف وقالت في نبرة رقيقة :

– إصفحي عني ، لن افعل ذلك بعد الآن ابداً !

حمل هذا ابتسامة الى وجه الأم ، وبعد عدة دقائق كان الثلاثة يناقشون ، في حمية ونشاط ، الرحلة المقبلة الى القرية .

١٥

عند الفجر كانت الأم تتلكأ في إحدى عربات البريد على طول درب غسلته امطار الخريف . وكانت ريح رطبة تعصف

في الفضاء ، ورذاذ الوحل يتطاير في كل حدب وصوب . استدار الحوذي نحوها في مقعده كي يشتكي إليها في صوت أخن :

– وهكذا قلت له ، أعني لأخي ، فلنتقاسم ذلك . . . هذا ما قلته وعندئذ ابتدأنا نتقاسم . . .

وبغتة انهال بسوطه على الحصان الأيسر ، وصاح غاضباً :

– هيا ! إمش ، يا ابن الساحرة !

كانت غربان الخريف السمينة تنتقل في رصانة فوق أخاديد الأرض العارية ، وريح باردة تصفر في عنف ، فتشد الغربان أعطافها كي تلاقي هجمات الريح التي تنفش أرياشها في محاولة إيقاعها على الارض ، وتضطرها الى الانتقال في تكاسل الى بقعة أخرى من الحقل الشاسع الأبعاد .

وتابع الحوذي حديثه قائلاً :

– وهكذا راح يجردني من حصتي ، فاذا بي أجد نفسي خاوي الوفاض . . .

أصغت الأم إليه وكأنها في حلم ، وحوادث كثيرة وقعت في السنين القليلة الأخيرة تتدفق في ذاكرتها . فتجد نفسها تساهم فيها جميعاً بفعالية ونشاط . فيما سبق كانت الحياة تُخلق في مكان ما بعيداً جداً ، دون أن يعرف أي إنسان من خلقَها والغاية الحقيقية من وراء ذلك . اما الآن فان قسماً كبيراً منها يُخلق أمام ذات عينيها وبمساهمتها الشخصية . وأيقظ ذلك فيها مشاعر مختلفة من الرضى ، والارتياب في ذاتها ، والبلبلة ، وشيئاً من الغم الهادئ . .

كان كل ما حولها يترنح في حركة بطيئة ، وغيوم رمادية كثيفة تسبح في السماء متثاقلة يلاحق بعضها بعضاً ، وعلى قارعتي الطريق تلوح الأشجار الرطبة بأغصانها العارية وهي تفر الى الوراء ، والحقول تفسح مكانها لهضبات واطئة تتلاشى بدورها أيضاً .

اختلط صوت الحوذي الأخن وقرع أجراس العربة ، وصفير الريح الرطبة وحفيفها ، وامتزجت جميعاً في تيار رنان واحد يتدفق تدفقاً رتيباً فوق الحقول . .

تابع الحوذي ، وهو يتأرجح فوق مقعده :

– الفردوس نفسه يضيق عن الانسان الشري . وهكذا فقد شرع يضايقني . . . وكانت السلطات كلها تقف بجانبه ، فهم اصدقاء له . . .

عندما بلغ المحطة حلّ أعنة الحصانين وقال للأم في نغمة شاكية :

– هلا اعطيتني خمسة كوبيكات أشرب بها كأساً . . .

اعطته قطعة النقود ، فقلبها في راحته وتابع بالنغمة ذاتها :

– سأشرب الفودكا بثلاثة منها ، أما الاثنان الباقيان فمن أجل الخبز . . .

بعد الظهيرة بلغت الأم ، منهوكة القوى باردة الأطراف قرية نيقولسكويه الكبيرة ، واتجهت إلى بناء المحطة كي تتناول قدحاً من الشاي ، وجلست إلى إحدى النوافذ ، وقد وضعت حقيبتها الثقيلة تحت دكة . كانت تستطيع أن ترى من النافذة ساحة صغيرة مكسوة بعشب أصفر معفر . وبناء

رمادياً اسود ذا سقف مقوس هو مقرّ رئاسة المقاطعة . وكان فلاح اصلع ذو لحية طويلة يجلس على العتبة يدخن الغليون وهو لا يرتدي من الثياب شيئاً فوق قميصه . وكان خنزير يرعى العشب في الساحة ، وهو يهزّ اذنيه في استياء ويدسّ انفه في الأرض ، ويلوّح برأسه يمنة ويسرة دون انقطاع .

تسلقت السحب بعضها فوق بعض في كتل كثيفة مظلمة ، وكان كل شيء هادئاً ، قاتماً ، كئيباً ، فكأن الحياة نفسها اختفت في مكان ما ، منقطعة الأنفاس .

بغتة بدأ أحد رقباء الشرطة يعدو بجواده الأصهب عبر الساحة حتى بلغ عتبة بناء المحافظة حيث لوح بسوطه في الهواء وصاح بالفلاح الأصلع ، فقرعت صيحاته زجاج النوافذ قرعاً شديداً . لكن الأم لم تستطع تمييز الكلمات فيها . ونهض الفلاح على قدميه ، وأشار بيده الى المدى البعيد ، فقفز الفارس عن صهوة جواده ، وترنح قليلاً على قدميه ، والقى عنان الحصان إلى الفلاح ، واتجه نحو درجات البناء يتسلقها في تثاقل معتمداً الدرابزون ، ثم اختفى وراء باب البناية . . .

وخيم السكون على كل شيء مرة اخرى ، اللهم إلا الحصان الذي ضرب الأرض الرخوة بحافره مرتين . ودخلت الغرفة بنية صغيرة تتدلى جديلة قصيرة من الشعر صفراء اللون على قمة رأسها ، وتشع عينان لطيفتان في وجهها المستدير ، وهي تحمل بين ذراعيها الممدودتين صفيحة كبيرة مهترئة الحفافي ، مثقلة بالآنية ، ولا تفتأ تعض شفتيها ، وتلقي السلام باشارات متتابعة من رأسها .

قالت الأم في لطف :

ـ نهارك سعيد ، يا عزيزتي !

ـ نهارك سعيد !

عندما وضعت الفتاة الصحون وادوات الشاي على المائدة اعلنت بغتة في انفعال شديد :

ـ لقد اعتقلوا لصاً قبل قليل . . . ولسوف يأتون به الى هنا !

ـ من هو هذا اللص ؟

ـ لا ادرى . . .

ـ وماذا فعل ؟

فرددت البنية :

ـ لا ادرى ! سمعت أنهم امسكوا به . وقد ذهب حارس المحافظة يدعو رئيس الشرطة .

تطلعت الأم من خلال النافذة ، فرأت الساحة تغص شيئاً فشيئا بالفلاحين .

كان بعضهم يأتون في وقار وتمهل ، والآخرون يندفعون الى الساحة في عنف وهم يزرّرون اثناء ذلك معاطفهم القصيرة . احتشدوا عند عتبة البناء وهم ينظرون الى مكان ما ناحية اليسار .

نظرت البنية من النافذة ، وأسرعت تعدو الى الخارج صافقة الباب خلفها ، فانتفضت الأم ودفعت بحقيبتها تحت الدكة الى ابعد من ذي قبل ، ثم القت بوشاح على رأسها ، وأسرعت نحو الباب وهي تكبت رغبة في الركض غير مفهومة السبب . . .

عندما بلغت عتبة بناء المحطة عضّ البرد عينيها وصدرها جميعاً ، فوجدت صعوبة جمة في تدارك أنفاسها ، وتحجرت رجلاها . كان ريبين آتيا عبر الساحة مقيد اليدين خلف ظهره – يسير شرطيان إلى جانبيه وهما يضربان الأرض بعصاهما دون انقطاع ، فيما الحشد يقف ساكناً عند عتبة بناية المحافظة ينتظر .

انتصبت الأم ، مصعوقةً ، لا تستطيع أن تحيد بعينيها عن هذا المشهد . وكان ريبين يقول شيئاً تسمع صوته ، ولكن كلماته تلاشت في فراغ قلبها القاتم دون ان تدركها .

ارسلت نفساً عميقاً ، واستردت زمام نفسها من جديد . كان يقف قرب العتبة فلاح ازرق العينين ، أشقر اللحية عريضها ، يشخص اليها ملياً في اهتمام . سعلت ، وفركت حلقها بيدين ترتعشان فَرَقاً ، ثم سألته وهي تبذل جهداً كبيراً :

– ما الذي حدث ؟

فاجاب ، وهو يستدير عنها :

– تحققي من ذلك بنفسك !

ودنا فلاح آخر ، ووقف بالقرب منه .

توقف الشرطيان اللذان يقودان ريبين أمام الحشد المتوافر دون انقطاع ، وان ظل ساكناً لا تصدر عنه أية ضوضاء . وارتفع صوت ريبين العميق بغتة فوق رؤوسهم يقول :

– أيها المسيحيون المؤمنون ، هل سمعتم شيئاً عن الكتابات التي تشرح بوضوح الحقيقة السافرة عن حياتنا نحن

الفلاحين ؟ حسناً ، انا اتعذب الآن من اجل هذه الكتابات ، فانا الذي وزعتها على الناس !

فالتفّ الحشد حول ريبين أكثر فأكثر . كان صوته هادئاً غير متسرع ، الأمر الذي بعث القوة والنشاط في قلب الأم .

قال الفلاح الثاني في صوت خافت ، وهو يلكز بمرفقه جنب ذي العينين الزرقاوين :

– أسمعت هذا ؟

فرفع الأخير رأسه ، وحدج الأم بناظريه مرة أخرى دون ان يحري جواباً . وتطلع الآخر اليها أيضاً ، وكان أصغر سناً من رفيقه ، ذا لحية سوداء قليلة الشعر ، ووجه ناحل تغطيه بقع من النمش ، ثم ابتعد كلاهما عن العتبة .

وفكرت الأم بالرغم منها :

«إنهما خائفان !»

اضحت أشد انتباهاً . كانت تستطيع ان تبصر بكل وضوح ،من العتبة حيث تقف ، وجه ميخائيلو إيفانوفيتش القاتم المضروب ، وبريق عينيه الملتهب . وارادت أن يراها هو الآخر ، فتطاولت على رؤوس أصابعها ومدت عنقها في اتجاهه .

نظر القوم اليه في ارتياب كئيب وظلوا بالصمت معتصمين ، اللهم إلا في الصفوف الأخيرة من الحشد حيث كانت بعض أصوات مكتومة تتلاحق في خفوت .

نبر ريبين بصوت مرتفع ثابت النبرات :

– أيها الفلاحون ! صدقوا ما كُتِبَ في تلك الأوراق .

قد اضحيّ من اجلها بذات حياتي . . . فقد ضربوني وعذبوني ، يريدونني على الجهر بالمكان الذي حصلت عليها منه ، ولسوف يضربونني من جديد أيضاً . ولكنني على استعداد لتحمل كل شيء لأن ما ترويه تلك المنشورات هو الحقيقة بعينها ، والحقيقة يجب ان تكون اعز علينا من خبزنا اليومي نفسه . . . تلك هي القضية !

وهتف أحد الفلاحين الواقفين قرب العتبة في همس :

– لمَ يقول هذا ؟

فقال ذو العينين الزرقاوين في تماهل :

– سواء بالنسبة إليه الآن ، فالمرء لا يموت إلا مرة واحدة . . .

استمر الناس وقوفاً هناك مصغين لا ينبسون بحرف ، شاخصين في اكتئاب من تحت حواجبهم ، يلوح ان عبئاً غير منظور يثقل عليهم ويضنيهم .

وخرج الرقيب مترنحاً من بوابة المحافظة ، وصاح في قحة ثملة :

– من ذا الذي يتكلم هنا ؟

وتدحرج بغتة على درجات السلم واطبق على ريبين من شعره ، وراح يهزّ راسه الى الأمام والخلف صائحاً :

– اانت من كنت تتكلم ، يا ابن الكلبة ؟

ترنح الحشد وانتشرت فيه موجة من الغمغمة ، بينا أطرقت الأم براسها في عجز يائس ، ولكن صوت ريبين تردد مرة اخرى في رنين مرتفع :

– أنظروا ، أيها القوم الطيبون . . .

فصاح الرقيب ، وهو يلطمه على اذنه :

– صمتاً !

فترنح ريبين ورفع كتفيه :

– انهم يوثقون ايديكم ، ثم يفعلون بكم ما يحلو لهم . . .

– قوداه ، أيها الشرطيان ! أما أنتم ، ايها الناس ، فتفرّقوا جميعاً !

وجعل الرقيب يقفز أمام ريبين مثل كلب بسلسلة أمام قطعة من اللحم ، وهو يضرب وجهه وصدره وبطنه بقبضته .

صاح بعضهم من وسط الحشد :

– كفاك تضربه !

وجاء صوت آخر يدعمه :

– لماذا تضربه ؟

وقال الفلاح الأزرق العينين ، وهو يشير الى رفيقه :

– فلنذهب !

اقتربا من بناء المحافظة في تماهل بينا الأم تشيعهما بنظرة عطوف . وصعّدت زفرة ارتياح حينما رأت رقيب الشرطة يتسلق سلّم البناية من جديد متثاقلاً حيث صرخ من هناك بصوت مجنون وهو يلوح بقبضته مهدداً :

– اجلباه هنا ، قلت لكما . . .

وعلا صوت قوي بين المحتشدين . ادركت الأم تواً انه صوت الفتى ذي العينين الزرقاوين :

– لا تفعلوا ذلك ! لا تتركوهم ، أيها الشباب ! إن

اخذوه هناك فسوف يضربونه حتى الموت ، ثم يقولون إننا نحن الذين فعلنا ذلك . لا تتركوهم يأخذوه . . .

وصاح ميخائيلو :

– أيها الفلاحون ! أفلا تستطيعون أن تروا ما أشبهت حياتكم ؟ أفلا تستطيعون أن تدركوا كيف يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم ؟ كلُّ شيء يأتي منكم . . . انتم أعظم قوةٍ على وجه الأرض . . . وأية حقوق تملكون ؟ حق الموت جوعاً ليس غير !

وفجاة راح الفلاحون يصيحون ، وهم يقاطعون بعضهم بعضاً :

– إنه يقول الحقيقة !

– ادعوا رئيس الشرطة . اين هو رئيس الشرطة ؟ . .

– لقد ذهب رقيب الشرطة يدعوه . . .

– هو سكير ! . .

– ليس من شاننا ان ندعو السلطات . . .

وانهمرت الأصوات تتزايد وتعلو :

– هيا تكلم ! فلن ندعهم يضربونك . . .

– حلوا وثاق يديه !

– حذارِ لئلا يرتكب خطيئة الفرار !

قال ريبين في هدوء ، وصوته الرنان يعلو فوق سائر الأصوات :

– الحبال تؤذي يديَّ ، وانا لن اهرب ، أيها الفلاحون ! لست أقوى على الاختفاء من الحقيقة . . . إنها تعيش في داخلي . . .

انفصل بعض الرجال عن الحشد غير مسرعين وهم يتبادلون الملاحظات ويهزّون رؤوسهم متجهين في مختلف الجهات ، ولكن اناساً مهتاجين ، يرتدون الأسمال البالية في إهمال ، كانوا يأتون باستمرار وينضمون الى الذين يتجمهرون كتلةً سوداء حول ريبين الذي ينتصب بينهم مثل حرم في الغابة ، يلوحُ بذراعيه فوق راسه ويصيح :

– شكراً لكم ، أيها القوم الطيبون ، شكراً لكم ! إن لم نحل أيدي بعضنا البعض ، فمن يفعل ذلك إذن ؟

ومسح لحيته ، ورفع مرة أخرى يداً ملطخة بالدم :

– هذا هو دمي ، أهرق في سبيل الحقيقة !

هبطت الأم عن العتبة ، ولكنها لم تستطع رؤية ميخائيلو بين الحشد ، فتسلقت الدرجات مرة أخرى ، وفي صدرها شيء حار يشبه فرحا غامضا خفاقا .

– أيها الفلاحون ! افتحوا أعينكم جيداً من أجل تلك الأوراق ، واقراوها في أناة ! لا تصدقوا الكهنة والسلطات عندما يعالنونكم أن المبشرين بالحقيقة كفرة متمردون . الحقيقة تضرب في أرجاء الأرض خفية تفتش لها عن أعشاش بين الشعب ، هي مثل النار والسيف بالنسبة إلى السلطات . إنهم لا يستطيعون الركون اليها فهي تذبحهم إذن وتحرقهم . الحقيقة صديق طيب عندكم ، أما عندهم فعدوٌ لدود ! هذا هو السبب في انها تضرب خفية في أرجاء الأرض !

وارتفعت الهتافات مرة أخرى بين المحتشدين :

– أصغوا ، أيها المسيحيون المؤمنون !

– آه ، أيها الأخ ، لسوف ينالونك من أجل هذا . . .

– من الذي خانك ؟

فأجاب أحد الشرطيين :

– الكاهن !

فارسل اثنان من الفلاحين أيماناً مغلّظة .

وارتفع صوت محذر :

– انتبهوا ، أيها الأخوان !

١٦

كان رئيس الشرطة يقترب متمهلاً ، وهو رجل طويل القامة متين البنيان مدور الوجه ، انعطفت قبعته كثيراً فوق اذنه الواحدة وانحرف أحد شاربيه إلى العالي ، أما الآخر فمال نحو الأرض حتى بدا وجهه وكأنه التوى وتشوّه بابتسامة بلهاء ميتة . كان يحمل سيفاً بيده اليسرى ، ويؤرجح اليد اليمنى في عنف وقوة ، ويتقدم بخطاً ثقيلة ثابتة استطاع سائر الحضور سماع وقعها الأصم على الأرض . وتباعد المحتشدون يفسحون له الطريق ، وقد اعتلى وجوههم الاعياء والكآبة ، وذابت ضوضاؤهم فكأن الأرض امتصتها . واحست الأم عينيها تلهبان ، وبشرة جبهتها ترتجف ، وقد انتابتها الرغبة في الانضمام إلى الحشد من جديد ، فانحنت إلى الأمام وجمدت متوترة الأعضاء متيبسة الأطراف دون حراك .

سأل رئيس الشرطة ، وهو يقف أمام ريبين ويقيسه بعينيه :

– ماذا ؟ لمَ يداه غير مربوطتين ؟ أيها الشرطيان ، قيّداه !

كان صوته مرتفعاً رناناً ، لكنه لا حياة فيه .

اجاب أحد الشرطيين :

– كانتا مقيدتين فحلّ الشعب وثاقه !

– ما هذا ؟ الشعب ؟ اي شعب هذا ؟

رمق رئيس الشرطة الحشد الملتفّ حوله في نصف دائرة ، واستفسر دون أن يرفع أو يخفض صوته الرتيب :

– مَنْ هو الشعب ؟

ولمس صدر الفلاح ذي العينين الزرقاوين بصفحة قبضة سيفه ، وقال :

– اانت هو الشعب ، يا شوماكوف ؟ حسناً ، ومن ايضاً ؟ أنت ، يا ميشين ؟

وسحب لحية أحدهم بيده اليمنى .

– تفرقوا من هنا ، أيها الأوغاد ، وإلا . . وإلا اريتكم من أكون !

لم يكن في صوته او وجهه أثر للغضب أو الوعيد ، فهو يتكلم في هدوء ، ويضرب الناس بحركة مألوفة منتظمة من ذراعيه الطويلتين القويتين . وتراجع القوم أمامه يطرقون برؤوسهم ويشيحون بوجوههم .

توجه الى الشرطيين قائلاً :

– لمَ أنتما هنا ؟ اربطاه ، قلت لكما . . .

واطلق سيلاً من الشتائم ، ثم حملق في ريبين مرة أخرى وامره بصوت مرتفع :

– ضع يديك وراء ظهرك ، أنت . . .

فقال ريبين :

– لا اريدهما على ربط يديّ ، فلست افكر في الفرار كما اني لن اقاوم ، فما معنى تقييدهما إذن ؟

فسأل رئيس الشرطة ، وهو يخطو في اتجاهه :

– ما هذا ؟

فتابع ريبين ، وهو يرفع صوته :

– كفاكم تعذيباً للشعب ، أيها المتوحشون ! لسوف تدق ساعتكم عن قريب . . .

وقف رئيس الشرطة ينظر في وجهه مرتعش الشارب ، ثم تراجع إلى الخلف خطوة ، وصاح مندهشاً في صوت مجنون :

– أنت ، يا ابن الكلبة ! ما هذا الذي تقول ؟

وجه الى ريبين ، بغتة ، صفعة رنانة على وجهه ، فصاح هذا متقدماً نحوه :

– لن تستطيع قتل الحقيقة بقبضتك ، وليس لك الحق في ضربي ، أيها الكلب القذر !

فعوى رئيس الشرطة ، وهو ينبر الكلمات بقوة :

– انا ، ليس لي الحق ؟ انا ؟

رفع يده مرة اخرى يهدف راس ريبين ، ولكن هذا انحنى فاخطأته اللكمة ، وكادت ان ترمي رئيس الشرطة ارضاً . قهقه أحد الواقفين وهو ينفخ من منخريه بضوضاء ، في حين ارتفع صوت ريبين الغاضب مرة أخرى :

– امنعك من ضربي ، يا أيها الشيطان القذر !

أسفّ رئيس الشرطة النظر حوله ، فوجد الناس العابسين الصامتين قد تألّفوا في حلقة كثيفة قاتمة . صاح مستديراً حوله :

– نيكيتا ! هيْ نيكيتا !

فبرز من قلب الحشد فلاح قصير القامة ، متين البنية ، مفتول العضلات ، يرتدي معطفاً قصيراً من فرو الخراف . كان راسه العريض الشاعث مطرقاً إلى الأرض .

قال رئيس الشرطة ، وهو يفتل شاربيه في هدوء :

– نيكيتا ! اعطه لكمة على اذنه . . . لكمة قوية !

فتقدم الفلاح ، ووقف أمام ريبين ، ورفع رأسه نحوه ، فاطلق عليه ريبين سيلا من الكلمات العنيفة المثقلة بالحقيقة :

– انظروا فقط ، أيها الشعب ، كيف يخنقكم هؤلاء الوحوش بذات أيديكم ! أنظروا ، وفكروا في ذلك جيداً !

رفع الفلاح ذراعه في بطء ، ووجّه مضطرا الى ريبين لطمة على راسه .

فصاح رئيس الشرطة في زعيق :

– أهكذا قلت لك ، يا ابن الكلبة ؟

وارتفع صوت من الحشد يقول في هدوء :

– هيْ نيكيتا ! لا تنس الله !

فصاح رئيس الشرطة ، وهو يدفعه من رقبته :

– إضرب ، قلتُ لك !

فطأطأ الفلاح رأسه ، ثم ابتعد جانباً ، وهو يقول بنبرة عبّاسة :

– لن افعل ذلك . . .

– ماذا ؟

مرّت رعشة على وجه رئيس الشرطـــة ، فضرب الأرض بقدمه ، ثم انطلق نحو ريبين وهو لا يني عن شتمه . وتردد صدى صفعة ترنح ريبين لها ، فرفع ذراعه ، ولكن صفعـــة ثانية عاجلته ورمته أرضاً ، وإذا رئيس الشرطة يهجم عليه وهو يزمجر ويروح يرفسه في صدره وعطفه ورأسه .

ارتفعت غمغمة عدائية من المحتشدين ، وبدأوا يتحركون صوب رئيس الشرطة . ولكنه لاحظ ذلك منهم فتراجـــع إلى الوراء ، وهو يستلّ سيفه من غمده .

– ما هذا ؟ عصيان ؟ . . . هكذا . إذن !

ارتجف صوته ، وارتفع الى الدرجة القصوى ، ثم انقطع وهو يرسل زعيقاً أجش .وخارت قواه بغتة مع صوته ، فانحنى وادخل رأسه بين كتفيه ، وراح يتطلع حوله بعينين فارغتين وهو يتقهقر متحسساً الأرض إلى الوراء منه بقدميه . صاح في صوت أجش وبقلق :

– حسناً جداً ! خذاه من هنا ، أنـــا ذاهب . والآن ؟ افلستم تعرفون ، أيها الأوغاد ، انه مجرم سياسي ؟ أفلا تعلمون انه يحرض الشعب ضد القيصر ؟ ثم أنتم تدافعون عنه ؟ اذن فانتم ثائرون أيضاً ، أليس كذلك ؟ هكذا إذن !

كانت الأم تقف دون حراك ، دون ان يرفّ لهـــا جفن واحد ، مجردة عن القوة ، خالية من القدرة على التفكير ، يعتلج

فيها الرعب والرثاء، فكأنها ترزح تحت نير كابوس ثقيل . وكان صراخ الناس المكتئب ، الغاضب ، الثائر ، يختلط في ذهنهـــا بصوت رئيس الشرطة المرتجف وبعض همس مكبوت ينطلق من هنا وهناك ، ويتحوّل إلى دويّ أشبه بطنين سرب مغيظ من الزنابير . . .

– إن كان مذنباً ، فقدموه إلى المحكمة . . .

– إرفق به ، يا صاحب السعادة . . .

– الحقيقة أنه لا يوجد قانون يسمح بهذه المعاملة . . .

– هل هذا ممكن ؟ سائر الناس يلجأون الى الضرب . . . فماذا سيكون الحال ؟

انفصل الحشد إلى فريقين أحاط احدهما برئيس الشرطة يصيح معه ويلتمسه بينما التف الفريق الآخر ، الأقل عدداً ، حول الرجل المطروح وأفراده يغمغمون مهددين متوعدين . وانهض عدد من هؤلاء ريبين عن الأرض ، وعندمـــا حاول الشرطيان تقييد يديه من جديد صاحوا بهما :

– لِمَ كل هذه العجلة ، أيها الشيطانان ؟

مسح ميخائيلو الطين والدم عن وجهه ولحيته ، وتطلع حوله في سكون فوقعت نظرته على الأم التي انتفضت وانحنت في اتجاهه وهي تلوّح بذراعها بالرغم منها . لكنه استدار عنها ، ولم تكد تمضي عدة دقائق حتى كانت عيناه تثبتان على وجهها من جديد . وخيل إليها انه انتصب ورفع رأسه ، وان وجنتيه الملطختين بالدماء ترتعشان . . .

«لقد عرفني . . . أيمكن حقاً ان يكون عرفني ؟ . .»

أشارت اليه برأسها ، وهي ترتعش بلهفة مؤلمة مخيفة .

وفي اللحظة التالية لاحظت أن الفلاح الأزرق العينين يقف إلى جواره ويرنو إليها بدوره . وأثارت نظرته في الأم إحساساً بالخطر لم يدم أكثر من لحظة قصيرة . . .

«ماذا افعل ؟ لسوف يأخذونني انا أيضاً !»

قال الفلاح لريبين شيئاً ، فأجاب عليه هذا بإشارة من راسه ، ثم قال في صوت واضح النبرات جرىء بالرغم من ارتعاشه :

– حسناً ! لستُ الوحيد على وجه الأرض ! ولن يستطيعوا قط أن يسجنوا الحقيقة بأسرها . ان ذكراي ستبقى في كل مكان مررت به ، وان أتلفوا العشّ وساقوا سائر الرفاق والاصدقاء . . .

خمّنت الأم في الحال :

«إنه يتوجه بهذا إليّ !»

– ولكنّ يوماً سيأتي تحلّق النسور فيه حرة ، ويحطم الشعب فيه أصفاده !

أتت امرأة بسطل من الماء وراحت تغسل وجه ريبين وهي تئن وتتأوه طوال الوقت ، فيختلط صوتها المرتفع الشاكي بكلمات ريبين حتى تعجز الأم عن تمييزها . وتقدم فريق الفلاحين الثاني يتقدمهم رئيس الشرطة ، وصاح البعض من بينهم :

– هاتوا عربة تأخذ السجين من هنا ! نوبة مَنْ هذه المرة ؟

وارتفع صوت رئيس الشرطة متبدلاً ، أقرب الى الشكوى :

– استطيع أن اضربك ، اما أنت فلا تستطيع أن تضربني . لست تجرؤ على ذلك ، أيها الابله !

فصاح ريبين :

– حقاً ؟ ومن تحسب نفسك . . . الله ؟

وغطى انفجار من الهتافات المكتومة صوته وطغى عليه :

– لا تناقشه ، ايها الاخ . . . انها السلطة !

– لا تنقم عليه ، يا صاحب السعادة ، فهو لا يملك زمام نفسه . . .

– هدئ روعك ، أيها الساذج !

– سيأخذونك إلى المدينة الآن . . .

– في المدينة عدالة أكثر !

كانت صيحات القوم مترجية مصالحة ، تختلط في دويّ شاكٍ غامض يعبر عن نضاضة من الأمل . وامسك الشرطيان بريبين من ذراعيه وقاداه إلى بوابة بناء المحافظة حيث اختفيا به . واخذ الفلاحون يتفرقون في تماهل ، ولكن الأم شاهدت ذا العينين الزرقاوين يأتي صوبها ، وهو يحدجها من تحت حاجبه ، فارتجفت ركبتاها وانثال اليأس يمسك قلبها بقبضة حديدية ، ويثير فيها إحساساً شديداً بالغثيان . فكرت :

«يجب الا أذهب ، كلا !»

وامسكت الدرابزون بقوة ، وانتظرت .

كان رئيس الشرطة يقف على وصيد بناء المحافظة ، يحرك ذراعيه ويتحدث إلى الفلاحين معاتباً بصوت عاد من جديد أبيض لا روح فيه :

– مجانين انتم ، يا أبناء الكلبة ، إذ تدسون أنوفكم في أمور لا تفهمون منها شيئاً . هذه قضية تتعلق بالدولة ، أيها الدواب . واجبكم ان تشكروني ، واجبكم أن تجثوا على ركبكم امتناناً لي لطيبة قلبي تجاهكم . لو اردت لأرسلت بكم جميعاً إلى الأشغال الشاقة .

كان عشرون فلاحاً تقريباً يقفون عراة الرؤوس ينصتون إليه . وتكاثف الظلام ، بينمـــا السحب تنخفض نحو الأرض اكثر فأكثر . واقترب ذو العينين الزرقاوين من العتبة حيث تقف الأم وقال متنهداً :

– هذه هي الأمور هنا . . .

فأجابت الأم في صوت خافت :

– نعم . . .

فسأل ، وهو ينظر في عينيها باستقامة وجرأة :

– ما هي أشغالك ههنا ؟

– إني أشترى مطرزات من الفلاحات ، وبعض القماش أيضاً . . .

فمشط الفلاح لحيته في تباطؤ ، ثم قال في ضجر وهدوء ، وهو ينظر الى بناء المحافظة :

– إن هذه الاشياء ليست موجودة هنا . . .

حدجته الأم بناظريها فترة من الوقت ، وهي تنتظر الفرصة الملائمة للرجوع الى داخل الغرفة . كان وجه الفلاح جميلاً متأملاً ، وعيناه حزينتين . وكان طويـــل القامـــة عريض المنكبين ، يرتدي قفطاناً مرقعاً ، وقميصـــاً قطنياً نظيفاً ،

وسروالاً أسمر اللون من الجوخ المحلي ، وحذائين في قدميه العاريتين . . .

ارسلت الأم ، لسببٍ ما ، زفرة ارتياح ، ثم قالت بغتة وهي تستسلم لحدس كان أسبق من أفكارها المضطربة :

– أيمكن أن أقضي الليل عندك ؟

كان السؤال مفاجئاً بالنسبة إليها ، ولم تكد تطرحه حتى أصبح كل ما فيها من عضلات وعظام شديد التوتر ، فانتصبت ونظرت إلى الرجل في ثبات ، وافكار حادة تتراقص في ذهنها :

«لسوف ادمر نيقولاي إيفانوفيتش ، ولن ارى بافل زمناً طويلاً ، طويلاً جداً ، ولسوف يضربونني !»

اجاب الفلاح دون تسرُّع ، وعيناه مثبتتان في الأرض ، بينما هو يضم طرفي قفطانه على صدره :

– تبيتين الليـــل عندي ؟ لمَ لا ، إلا أن كوخي حقير جداً . . .

فقالت الأم دون تفكير :

– لم أعتد ما هو أفضل !

فوافق الفلاح ، وهو يقيسها بناظريه المتفحصتين مرة اخرى :

– حسناً ، إذن !

كان الظلام قد اشتد ، فراحت عيناه تلمعان باردتين ، وقد بدا وجهه شاحباً في ضوء القيلولة .

قالت الأم في صوت خفيض ، وهي تشعر كأنها تتدحرج في هاوية :

– إذن فسوف اذهب وإياك مباشرة ، ولعلك تحمل الحقيبة عني ؟

– حسناً جداً .

رفع كتفيه ، وهو يصلح من قفطانه مرة أخرى . قال في هدوء :

– هذه العربة جاءت . . .

ظهر ريبين على عتبة بناء المحافظة ، مقيد اليدين من جديد ، مغمور الرأس والوجه في قماش رمادي ، وارتفع صوته في ضوء القيلولة البارد :

– وداعاً ، أيها القوم الطيبون ! فتشوا عن الحقيقة ، واكنزوها ! ثقوا بالانسان الذي يحمل اليكم الكلمة الحقة ، ولا توفروا انفسكم في الدفاع عن الحقيقة !

فصاح رئيس الشرطة :

– سدّ حلقك ! حثّ الجياد ، انت ، أيها الشرطي الأبله . . .

– ما الذي تخافون من خسرانه ؟ انظروا الى حيواتكم فقط !

وانطلقت العربة ، فصاح ريبين بصوت أجش من حيث كان جالساً بين اثنين من رجال الشرطة :

– ما الذي يدفعكم الى الاستمرار في الجوع حتى الموت ؟ إذا نلتم حريتكم مرة ، فسوف تحصلون على الخبز والعدالة . الوداع ، أيها القوم الطيبون !

وطغت زمجرة العجلات على صوته ، وابتلعه عدو الجياد وصياح رئيس الشرطة .

قال الفلاح ، وهو يهزّ رأسه :

– انتهى كل شيء !

واستدار نحو الأم ، وتابع في صوت مخفوض :

– انتظريني هنا في المحطة ، فسوف أعود بعد هنيهة . . .

دلفت الأم الى الغرفة ، وجلست الى المائدة تجاه السماور ، وتناولت كسرة من الخبز نظرت اليها لحظة ، ثم ردتها متثاقلة الى مكانها من الصحن : إن موجة الغثيان تجتاحها مرة اخرى ، فلا تستطيع إلى الطعام سبيلاً . واحست حرارة مزعجة تنهكها تمتص كل الدم من قلبها وترميها بدوار شديد لا تقدر له على مقاومة . وكانت ترى إلى الأمام منها وجه الفلاح الأزرق العينين ، منقوصاً بصورة غريبة ، موحياً بالارتياب والتشكك . ولسببٍ ما لم تشأ أن تفكر في إمكان وشايته بها ، ولكن هذه الفكرة كانت قد سبقت واخترقت ذهنها واستقرت ثقيلة لا حراك بها فوق قلبها . هجست في ضعف واعياء :

«لقد لاحظني ، لقد لاحظني . . . وخمّن كل شيء . . .»

لم تتطور تلك الفكرة أو تكبر على الاطلاق ، لشدة ما كانت غارقة فيه من كآبة يائسة يرافقها إحساس لزج بالغثيان المرهق .

وكان صمت مطبق حل محلّ الضوضاء ما وراء النافذة يكشف عن إحساس الخوف والاضطهاد المسيطر على القرية . واحتدّ الشعور بالوحدة يملأ النفس بظلمات قاتمة ناعمة مثل الرماد .

وظهرت البنية مرة أخرى على عتبة الباب . قالت :

– اجيئك ببعض البيض المقلي ؟

– لا تزعجي نفسك ، فلست أرغب في الطعام . لقد اخافوني بصياحهم وصراخهم !

فاقتربت الصغيرة من المائدة ، وهي تقول في صوت منفعل مكتوم :

– كيف ضربه رئيس الشرطة ! لقد كنت اقف بالقرب منه . . لقد اقتلع أسنانه ، وأنا رأيته يبصقها بأمّ عينيّ – وكان الدم ثخيناً ، اسود واحمر معاً . . . أما عيناه فقد انتفختا كثيراً جداً . إنه فحام ، ورقيب الشرطة يرقد هنا – ثملاً للغاية ، ومع ذلك يطلب الخمرة باستمرار . وهو يقول إن ثمة عصابة كاملة منهم ، وإن ذلك الملتحي هو رئيسهم . لقد اعتقلوا ثلاثة منهم ، ولكن واحداً استطاع الفرار ، وكذلك اعتقلوا معلم مدرسة ينتمي الى عصابتهم . . . إنهم لا يؤمنون بالله ويحاولون باستمرار ان يقنعوا الناس الآخرين بالكفر به حتى يسرقوا الكنائس . . . ذلك هو جوهرهم ! إن بعض فلاحينا يأسفون من اجله ، ولكن الآخرين يقولون إنه من الضروري وضع حد له . . . ثمة كثير من الفلاحين الأشرار عندنا . . . يا لطيف !

أنصتت الأم بانتباه إلى رواية البنية المتقطعة السريعة ، جاهدة ان تتغلب على مخاوفها وتنصرف عن الانتظار الكئيب . وكانت الصغيرة سعيدة فيما يبدو بأن تجد من يصغي إليها فاستمرت تتحدث في هياج وانفعال ، ولكن في صوت خفيض دائماً :

– ابي يقول إن سبب كل ذلك الموسم السيء ، فالأرض لم تنتج شيئاً طوال سنتين . . . لقد تعذبنا . . . ولذلك اصبح فلاحونا أشراراً حتى هذه الدرجة . إنهم يتصايحون ويتقاتلون في اجتماعات القرية . وفي ذات يوم بينا كانوا يبيعون ممتلكات فاسكوف كي يفوا ديونه بها ، ضرب المختار على وجهه بعنف وهو يقول : اليك ديونك مني نخذها . . .

سمع وقع أقدام ثقيلة عند الباب ، فامسكت الأم بالمائدة وتحاملت على نفسها ناهضة . . .

زعق الباب بالفلاح الأزرق العينين الذي قال دون ان يخلع قبعته :

– اين حقيبتك ؟

ورفع الحقيبة بكل يسر وهزها :

– فارغة . دلي هذه المرأة على الطريق إلى كوخي ، يا ماركا .

وخرج دون أن ينظر الى الخلف أبداً .

سالت البنية : – أتقضين الليل هنا ؟

– نعم . لقد جئت طلباً للمطرزات . . . إني أشترى المطرزات . . .

– إنهم لا يشتغلون بها ههنا ، يشتغلون بها في تنكوفا ودارينا ، اما هنا فلا .

– سأذهب الى هناك في الغداة . . .

وعندما دفعت الأم ثمن الشاي ، منحت الصغيرة ثلاثة كوبيكات كان لها في نفسها وقع بهيج للغاية . ثم غادرتا

المحطة ، والفتاة تسير بخطوات سريعة فوق الأرض النديـــة بقدميها الحافيتين . قالت :

– إن شئت ذهبت إلى دارينا وقلت للنساء أن يحملن مطرزاتهن إلى هنا . ولسوف ياتين ههنا فلا تحتاجين الى ركوب مركب السفر حتى هناك . إن المسافة تبلغ الاثني عشر فرسخاً على اية حال . . .

فقالت الأم ، وهي تسير الى جانبها :

– لا تزعجي نفسك ، ياعزيزتي !

انعشها الهواء البارد ، وراح عزم غامض ينمو فيها شيئاً فشيئاً . كان ينمو في بطء واضطراب ، فشرعت تسأل نفسها في إلحاح ، راغبة في أن تعجل ذلك النمو :

«ماذا ينبغي أن افعل ؟ اذا قلت كل الحقيقة بصراحة . . .»

كان الطقس بارداً ، مظلماً ، رطباً . كانت نوافذ الاكواخ تلمع بنور احمر واهن ، وفي ذلـــك السكون تتردد صيحات خافتة ويرتفع مواء القط الناعس في مزاربها . والتفتّت القرية بكآبة ثقيلة العبء . . .

قالت الصغيرة :

– هنا ، لقد وقعتِ على مكان حقير تقضين الليل فيه . إنه فلاح فقير للغاية . . .

وتحسست الباب . وعندما فتحته مدت رأسها من خلاله ، وصاحت في حيوية :

– أيتها العمة تاتيانا !

ثم ولت الادبار . وجاء صوتها عبر الظلمة :

– إلى اللقاء !

١٧

وقفت الأم على العتبة . واستكفّت حتى يحسن استطلاعها للكوخ . كان الكوخ ضيقاً ، ولكنه سرعان ما لفت انظارهـــا بنظافته . ورنت إليها امرأة شابة بعينيها من وراء الموقد ، واشارت برأسها مسلّمـــة دون كلام ، ثم انسحبت . وكان مصباح يلتهب على مائدة تقع في زاوية الايقونات ، جلس إليها صاحب الكوخ ينقر عوارضها بأصابعه ، باحثاً بناظريه عـن عيني الأم . قال بعد برهة من الصمت :

– تفضلي ! تاتيانا ، هلا ناديت بيوتر ، وأسرعت في ذلك !

لفظ البابَ المرأة ، دون ان تنظر إلى الأم التي قبعت على دكة مقابل الرجل وراحت تبصر حواليها ، فلا تقع انظارها على حقيبتها في اي مكان . كان الكوخ يعجّ بسكون ثقيل ، لا يعكر صفوه إلا طقطقة المصباح من وقت لآخر . وراح وجه الفلاح العابس القلق يتموّج أمام عيني الأم موقظاً في فؤادها اضطراباً كئيباً .

استوضحت ، فجـــأة ، في صوت دُهشت هي نفسهـــا لارتفاعه :

– اين حقيبتي ؟

فأجاب الفلاح في بطء ، وهو يهز كتفيه :

– إنها لن تضيع . . .

ثم أضاف في صوت خفيض :

– لقد قلت عمداً في المحطة إنها فارغة حتى تسمع البنية

ذلك . ولكنها ليست فارغة ، بل على العكس ثقيلة جداً !

فسألت الأم :

– حسناً ، وما في ذلك ؟

فنهض ورسم نحوها ، ثم انحنى عليهـــا كثيراً ، وهو يهمس في صوت خافت :

– انت تعرفين ذلك الرجل ؟

فردّت الأم في لكنة ثابتة ، رغم ان السؤال دهمها على غير انتظار :

– نعم .

بدا أن الكلمة أضاءت كل شيء من الداخل ، فأوضحت الأمور وأجلتها . فتنهدت الأم بارتياح ، واستقرت على الدكة في ثبات أكثر . . .

استطالت في شفتي الفلاح ابتسامة عريضة شبعى ، وقال :

– لاحظتكِ اشرتِ إليه هناك فردّ على إشارتك . ولقد همستُ في اذنه إن كانَ يعرف المراة الواقفة على العتبة هناك .

فاستعجلت الأم في اندفاع :

– وبمَ اجاب ؟

– هو ؟ لقد اجاب : ثمة كثيرون منا . اجـــل ! ثمــة الكثيرون . هذا ما قال . . .

ونظر الفلاح مستفهماً إلى عينيّ ضيفته ، وتخايلت علـى شفتيه ابتسامة أخرى وهو يتابع حديثه قائلاً :

– إنه لرجل قوي حقاً ! وشجاع أيضاً . لقد قال دون لفّ او دوران : انا من فعل ذلك . واستمرّ يقول ما يريد ان يقول غير آبه لما ينزلون به من تنكيل . .

ارتاحت الأم أكثر فأكثر إلى صوتـــه الضعيف المتردد وهدّأت من روعها رؤية عينيه الصريحتين في وجه يبدو كأنما يعوزه شيء ما . وراح القلـــق والاعياء في صدرها يفسحان المجال شيئاً فشيئاً لرثاء حاد عنيف من أجل ريبين . صاحت فجأة في غيظ مرير :

– يا للأوغاد ! يا للوحوش !

وانخرطت تبكي . فصدَرَ الفلاح عنها ، وهو يهزُ رأسه ساخطاً . قال :

– السلطات تجعل الناس أعداءها . . هذه هي الحال !

واستدار إلى الأم مرة أخرى ، وقال في هدوء :

– يخيل إليّ . . . اعتقد ان في الحقيبة صحفاً . ألست على حق ؟

فأجابت الأم ببساطة ، وهي تمسح عبراتها :

– بلى ! كنت أحملها إليه .

فقطب الفلاح حاجبيه . وأخذ لحيته في قبضتـــه ، وراح يشخص إلى إحدى الزوايا في صمت . قال أخيراً :

– لقد جاؤونا بتلك الصحف إلى هنا ، وببعض الكتب أيضاً . ونحن نعرف هذا الرجل . . . لقد كنا نراه في بعض الأحايين !

وسكت مستغرقاً في التفكير ثانية قصيرة ، ثم سأل :

– ماذا تنوين الآن أن تفعلي بها ؟ . . . بالحقيبة ؟

فرمقته الأم وقالت في تحدٍ :

– سأتركها معكم !

فلم يرفض ولم يبدُ عليه أي أثر للدهشة . . . ردّد باقتضاب :

– معنا . . .

وهو يشير براسه موافقاً ، ويمشّط لحيته بأصابعه ويجلس إلى المائدة .

كان مشهد المعاملة الوحشية التي لاقاها ريبين يثقل على الأم ويقتحم مخيلتها في عناد لا يعرف الرحمة . وطردت صورته كل الأفكار من ذهنها ، كما ان ما احست به من ألم ومذلة تجاه الجنس البشري طرد سائرالعواطف الأخرى حتى امست عاجزة عن التفكير في الحقيبة او في اي شيء آخر . وتحسست عبراتها متدفقة ، وإن ظلت سيماؤها قاسية ، وصوتها ثابتاً غير مرتعش ، وهي تقول :

– الا فلتحلّ اللعنة عليهم إلى الأبد لطريقتهم في سرقة الكائنات البشرية ، والتنكيل بهم ، وتعفيرهم في الوحل هكذا !

فهمهم الفلاح في صوت رقيق :

– إنهم اقوياء ، اقوياء جداً !

فهتفت الأم في يأس :

– ومن أين يجيئون بقوتهم ؟ انهم ياتون بها منّا ، نحن عامة الشعب . . . إن سائر الأشياء تؤخذ منا !

كان وجه الفلاح الصريح الغامض التعبير في الوقت ذاته يثيرها .

قال في تثاقل :

– أجل ، إن العجلة . . .

وانتفض فجأة ، واصاخ بأذنيه في اتجاه الباب ، وقال في همس :

– انهم آتون . . .

– من ؟

– ليس غرباء ، فيما يبدو . . .

دخلت زوجته يصحبها فلاح آخر القى بقبعته في إحدى الزوايا ، واقترب سريعاً من صاحب الكوخ . سأل :

– حسناً ؟

فاشار الآخر براسه في الايجاب . وقالت زوجته من حيث وقفت أمام الموقد :

– ستيبان ، لعلّ الضيفة تريد ان تاكل شيئاً ؟

فقالت الأم :

– كلا ، شكراً لك ، يا عزيزتي !

دنا الفلاح الآخر من الأم ، وقال في صوت سريع متكسر :

– اسمحي لي ان اقدّم نفسي . إسمي بيوتر ريابينين والقبّ بالمخرز ؛ وإني افهم شيئاً أو شيئين عن عملك ، واعرف القراءة والكتابة ، ولست أبله إن صح التعبير . . .

وهزّ اليد التي مدتها الأم له واستدار نحو المضيف ، وقال :

– انظر بنفسك ، يا ستيبان . الحقيقة إن بربارا نيقولايفنا سيدة كثيرة اللطف . ولكنها تدّعي ان كل هذه الاعمال من التوافه والهراء ! فكأنه من صنع اولاد وطلاب اغبياء يثيرون عامة الناس . ولكن انت وانا قد راينا انهم

اعتقلوا اليوم رجلاً طيباً ، فلاحاً مائة في المائة . والآن ، انظر ، ههنا امرأة نَصَف" لا تمتُ إلى الأسياد بصلة كما تدلّ كل المظاهر . ما هو اصلك ، إذا غفرتِ السؤال ؟

كان يتكلم في تسرع ووضوح دون أن يستريح لتدارك انفاسه ، ولحيته ترتجف بعصبية ، وعيناه لا تفتآن تتمعنان في وجه الأم وجسدها . وكانت ثيابه ممزقة مهترئة ، وشعره مشعثاً فكأنه خارج تواً من قتال يملؤه الفرح إذ انتصر فيه على خصمه . أحبته الأم مباشرة لاندفاعه وحديثه البسيط الصريح ، المجرد من اللف والدوران . وتطلعت مبتسمة في وجهه وهي تردُ على سؤاله ، حتى إذا انتهت منه صافحها من جديد واطلق ضحكة جافة قصيرة ، قائلاً :

– وإنه عمل عادل يا ستيبان ، إنه عمل رائع ! ألم اقل لك إنه يصدر عن الشعب نفسه ؟ أما تلك السيدة العظيمة فهي لا تقول لك الحقيقة . فهي تؤذي نفسها إن روت لك الحقيقة بعينها . اواهٍ ، أنا أحترمها – هذا أمر ليس فيه خلجة من شك . فهي طيبة كثيراً وتريد أن تمدَّ لنا يد المساعدة – قليلاً جداً – دون أن يسبب ذلك لها أي اذى على الإطلاق . اما عامة الناس فإنهم يريدون الخير دون لف أو دوران ، وهم لا يخافون من الأذى والمضرة . هل فهمت الفارق؟ إنهم يتأذون طوال حياتهم ، يصيبهم الأذى مهما فعلوا ، ولا مكان لهم يلجأون إليه ، والكلمة الوحيدة التي يسمعونها هي «قف» مهما تكن الطريق التي يسلكون .

وقال ستيبان وهو يشير برأسه :

– إني ارى !

واضاف مباشرة :

– إنها قلقة من أجل حقيبتها .

فغمز بيوتر الأم في خبث وقال ، وهو يلوّح بيده مطَمْئِناً :

– لا تقلقي . فكل شيء سيجري على ما يرام ، يا أمي العزيزة . حقيبتك في منزلي . عندما حدثني اليوم عنك فكأنك انت أيضاً تشتركين في هذا العمل وتعرفين ذلك الشخص قلت له : راقبها جيداً لأن القضية كثيرة الخطورة وعلينا الاّ نضيع الفرصة . ويبدو أنك اشتممت شيئاً بدورك عندما كنا واقفين إلى جانبك . فالمرء لا يخطىء وجه الشريف إذا رآه ، ما دام ليس في العالم كثرة من أمثاله ، وتلك حقيقة لا مراء فيها . لا تقلقي من أجل حقيبتك فهي في منزلي . . .

جلس إلى جانبها ، وتطلع إليها مستفهماً :

– إن كنت تحبين التخلص مما فيها كنا سعيدين بمساعدتك . . . نحن بحاجة إلى تلك الكتب . . .

فقال ستيبان :

– هي تريد أن تتركها كلها معنا !

– هذا رائع ، يا أمي العزيزة ! ولسوف نجد مكاناً من اجل كل شيء ! . .

قفز ناهضاً على قدميه وهو يضحك ، وشرع يجوس أرض الغرفة روحة غدوة في عجلة واندفاع :

– هذا حظ نادر ، وإن لم يكن غريباً جداً . الحبل ينقطع في هذا الموضع فيعاد ربطه في موضع آخر ، وهذا حسن جداً . إن الصحيفة عظيمة ، يا امي العزيزة وهي كثيرة الفائدة ترفع

العصائب عن العيون ، ولكنها تزعج الأسياد . أنا أشتغل عند سيدة تبعد سبعة فراسخ من هنا أنجّر لها . . . وهي امرأة شهمة تعيرنا كتباً من كل الأنواع ، نقرؤها أحياناً فتفتح عيوننا على أشياء كثيرة . ونحن ممتنّون لها بصورة عامة . ولكني أريتها مرة هذه الجريدة ، فاغتاظت قليلاً بسببها وقالت : لا تقرأ هذه البضاعة ، يا بيوتر . إنهم جماعة من التلاميذ الخبثاء الذين يكتبون مثل هذه الأشياء ، ولن تستفيد من قراءتها سوى الوقوع في المشاكل – السجن وسيبيريا – هذا ما قالت . . .

ولجأ إلى الصمت من جديد ، ثم سأل بعد برهة تفكير :

– هذا الرجل ، يا أمي العزيزة . . . أهو قريب لك ؟

فأجابت الأم :

– كلا ! هو غريب !

فضحك بيوتر دون ضوضاء ، وهزّ رأسه فكأنه مسرور جداً من شيء ما . وشخص للأم بعد فترة قصيرة أنها نالت من كرامتها بإنكارها كل صلة لها بريبين الذي لا يستحق هذا «الغريب» فأضافت :

– ليس هو قريبي ، ولكني أعرفه منذ زمن طويل ، وأحترمه مثل أخ لي . . . أخ يكبرني سناً . . .

لم تكن تستطيع إيجاد الكلمات الملائمة للتعبير عن شعورها ، وكان ذلك كثير الإيلام حتى أنها انخرطت تبكي في هدوء مرة أخرى . وساد الكوخ سكون متحفز ثقيل الوطأة ، وقد انتصب بيوتر مطرق الرأس كمن يصيخ السمع إلى شيء ما بينما جلس ستيبان مرتفقاً المائدة وهو لا يبرح ينقر عليها

في بطء وزوجته تستند إلى الموقد ، والأم تدرك أن نظرتها مثبتة في وجهها . وكانت الأم تختلس النظر بين الآونة والآونة إلى المرأة الشابة التي كان وجهها المسمر البيضوي الشكل ذا أنف مستقيم ، وذقن مدببة حادة وعينين خضراوين يقظتين .

قال بيوتر في صوت خافت :

– لقد كان إذن صديقاً لك . إنه لذو شكيمة في الحقيقة ، يعتدّ بنفسه كثيراً كما يستحق ذلك ! إنه لفتى رائع حقاً . أليس كذلك ، يا تاتيانا ؟ أنت تقولين . . .

فقاطعته تاتيانا ، وهي تضمّ شفتي فمها الصغير :

– أمتزوج هو ؟

فردّت الأم في كآبة :

– بل أرمل .

فقالت تاتيانا في صوت عميق غني النبرات :

– هذا هو السبب في شجاعته . إن رجلاً متزوجاً لا يختار هذا الدرب ، بل سيخاف . . .

فصاح بيوتر :

– وأنا ؟ ألست متزوجاً ؟

والتوت شفتا المرأة فقالت وهي تتجنب النظر إليه :

– ماذا تقول ، أيها العرّاب ! وما شأنك في هذا ! لا تفعل سوى الكلام ! ومن وقت لآخر تقرأ كتاباً أو ما شابه . إن قعودك وستيبان تتهامسان في إحدى الزوايا المظلمة على طريقتكما هذه لا يفيد الشعب كثيراً .

فاحتجّ الفلاح في صوت مخفوض ، وقد آذاه كلامها :

– كثيرون يصغون إلى كلماتي . وأنا ، إن صح التعبير ،

أشبه الخميرة في عملي هنا . لا يحقُّ لك أن تقولي إن . . .

فسما ستيبان ببصره إلى امرأته في سكون ، وأطرق برأسه من جديد .

سألت تاتيانا :

– لِمَ يتزوج الفلاح ؟ يدّعي أنه في حاجة إلى امرأة تعمل من أجله . أي عمل هذا !

فاستفسر ستيبان في صوت أجشّ :

– أهو لا يكفيك ؟

– أي معنى في هذا العمل ؟ أن تعيش نصف جائع يوماً بعد يوم . وإن كان لديك أولاد فليس لديك الوقت للعناية بهم بسببٍ من العمل الذي لا يؤمن لك حتى خبزك اليومي .

ذهبت إلى الأم وجلست قربها ، وهي تتكلم في عناد ، لكن دون شكاية أو كآبة :

– رزقت طفلين أحرق أحدهما ماء مغليا على نفسه وهو في الثانية من عمره . أما الآخر فوُلد ميتاً – قبل أن يحين موعد ولادته – وكل ذلك بسبب ذلك العمل اللعين . هل حمل إليَّ شيئاً من السعادة ؟ أقول لكم إن زواج الفلاحين عبث ، فهم لا يفعلون إلا ربط أيديهم ، في حين ينبغي لهم أن يعيشوا دون من يعترض سبيلهم ، يناضلون من أجل حياة أفضل . عندئذ يستطيعون الذهاب وراء الحقيقة باستقامة مثل ذلك الرجل . ألست على حق ، يا أماه ؟

فقالت الأم :

– أنت على حق ، أنت على حق ، يا عزيزتي . . . وإلا فلا سبيل إلى تبديل هذه الحياة . . .

– ألم يكن لك رجل ؟

– لقد مات . إن لي ابناً . . .

– وهو يعيش معك ؟

– إنه في السجن !

قالت الأم هذه الكلمات وأحست شيئا من الخيلاء ترافق الألم المألوف الذي تثيره في صدرها .

– هذه هي المرة الثانية التي يطرحونه هناك – ومردُّ ذلك أنه يزرع حقيقة الله بين الشعب دون خفاء . . . إنه في ريعان الصبا ، جميل وذكي . وهو الذي اقترح إصدار صحيفتكم ، وهو الذي دلَّ ميخائيلو إيفانوفيتش على الصراط المستقيم مع أن ميخائيلو يكبره سناً بمرتين . وعما قريب سوف يحاكمون ابني بسبب ذلك ، ويصدرون حكمهم الصارم . ولكنه سيهرب من سيبيريا ، ويعود إلى هنا ليتابع العمل . . .

وبينا هي تتكلم ، كان إحساس الخيلاء ينمو باستمرار في صدرها ، خالقاً صورة بطل تتطلب التعبير عنها في عزم وعناد وكان هذا الاحساس يغص في حلقها . كان من الضروري بالنسبة إليها أن ترسم لوحة من النور والعقل تعيض عن ظلمة ذلك النهار الذي كانت شاهدة عليه ، تلك الظلمة التي ما برحت فظاعتها السخيفة ووحشيتها الوقحة تسحقانها تحت نيرهما الثقيل . ولذلك راحت ، وهي تخضع دون وعي منها إلى حاجة طبيعتها السليمة ، تكتّل كل ما رأت من نيِّر وطاهر في لهب واحد يعميها بريقه الخلاب . . .

– ثمة كثيرٌ من الناس الآن على شاكلته . . . وكل يوم

يولد منهم عدد جديد . ولسوف يكافحون حتى نهاية حياتهم في سبيل حرية البشر والحقيقة . . .

وراحت ، وقد نسيت كل حيطة وحذر ، وإن لم تذكر مع ذلك أية أسماء على الإطلاق ، تروي كل ما تعرف عن ذلك العمل السري الجاري في سبيل تحرير الجماهير من أصفاد الجشع . وبينا هي تصف أناساً أعزاء على قلبها ، طفقت تسكب في كلماتها تلك القوة العظيمة ، وذلك الفيض من المحبة التي أيقظتها فيها السنين الطويلة من آلام الحياة ومصائبها . وكانت ، هي نفسها ، تنظر في بهجة إلى أولئك القوم الذين يهبّون امام عيني مخيلتها يضيئهم نور عاطفتها ويجددهم .

— وهذا العمل يجري في سائر أنحاء الأرض ، في سائر المدن يقوم به أناس طيبون في كل مكان . . . لاحدود لقواهم ، ولا مقاييس ، وهي تنمو أبداً ، ولن تبرح تنمو حتى تحلّ ساعة انتصارنا . . .

كان صوتها يسبح بثبات ، وهي لاتجد صعوبة في العثور على الكلمات ، فتجمعها مثل حبات من اللؤلؤ المتعدد الألوان في خيط متين من الرغبة اللاهبة في تطهير قلبها من دم ذلك النهار وطينه . كانت ترى أن هؤلاء الفلاحين يبدون وكأنهم قد رسوا في أماكنهم بفعل ما ترويه لهم ، فهم يشخصون اليها بثبات حتى لا حراك بهم . وكانت تسمع تنفس المرأة المتقطع إلى جانبها فيقوي ذلك كله ايمانها بما تقول وبما تَعِدُ به هؤلاء الناس . . .

— جميع أولئك الذين يحيون حياة شاقة ، جميع أولئك

الذين أتلفهم العنف والحاجة ، جميع أولئك الذين يضغط عليهم الاغنياء واعوانهم ، جميع أولئك سيذهبون قدماً وينضمون إلى الذين يفنون في السجن من أجلهم ويواجهون العذاب والموت في سبيل الشعب . . . إنهم يدلون ، دون أن يفكروا بأنفسهم مطلقاً ، على طريق السعادة للشعب بأسره . ودون أية محاولة للخداع والكذب يقولون : صعبة وشاقة هي الطريق . وليسوا يجبرون أحداً على سلوكها . . . ولكن المرء حينما يأخذ مكانه مرة إلى جانبهم لن يتركهم بعد ذلك قط ، إذ يدرك أن ذلك هو الحق ، وتلك هي الطريق ، وليس من سبيل آخر !

كانت سعيدة بأن تصنع أخيراً ما تمنّت دائماً صنعه : إنها هي نفسها تروي الحقيقة للشعب !

— إن بسطاء الناس ليسوا في حاجة للقلق والتردد قبل أن يرافقوا هؤلاء القوم . هؤلاء لن يرضوا بالشيء اليسير ، ولن يقفوا قبل القضاء على كل خداع ، وكل جشع ، وكل شر . . . ولن يكتّفوا أيديهم حتى يصبح الشعب بأسره روحاً واحدة ، ويصيح بصوت واحد : أنا هو السيد ، ولسوف أصنع أنا قوانين تكون سواء بالنسبة إلى الجميع ! . .

احست التعب فتوقفت عن الكلام ، وتطلعت فيما حولها ، وثقتها ثابتة في أن كلماتها لن تذهب عبثاً . وظل الفلاحون يرمقونها بأنظارهم ، منتظرين شيئاً آخر . وصلّب بيوتر ذراعيه فوق صدره ، وضيّق فرجة عينيه ، بينما شع وجهه الانمش بابتسامة بهيجة . أما ستيبان فكان يستند إلى المائدة بأحد مرفقيه وإن كان جسده بأسره منعطفاً إلى الأمام مشرئباً

فكانه لما يزل منصتاً . وكان وجهه يختبئ في الظل فيبدو لذلك وقد اكتمل نوعاً ما . اما زوجته الجالسة إلى جانب الأم ، فكانت تعتمد ركبتها بالمرفقين ، وهي تمعن النظر إلى أرض الكوخ . وتمتم بيوتر ، وهو يجلس متماهلاً على الدكة ويهز راسه :

– كذلك هي الامور !

وانتصب ستيبان في بطء ، واقتنع بصره نحو زوجته ، فتح ذراعيه فكانه يريد ضم شيئاً ما . . .

قال متفكراً وفي همس :

– إذ بدأ المرء مرة هذا النوع من العمل ، فلا ريب انه سيهب له نفسه كلها . . .

فقال بيوتر في حياء :

– نعم ، الحقيقة ! فليس من مجال للتطلع إلى الخلف !

وتابع ستيبان :

– يبدو ان العمل يسير على نطاق واسع !

فاضاف بيوتر من جديد :

– على نطاق عالمي !

١٨

استندت الأم إلى الجدار ، والقت براسها خلفاً ، مصغية إلى كلماتهم الهادئة الثقيلة . ونهضت تاتيانا واقفة ، واشخصت البصر فيما حولها ، ثم عاودت الجلوس ، وفي عينيها الخضراوين بريق بارد ترمق به الفلاحين في ازدراء واستياء .

التفتت صوب الأم بغتة ، وقالت :

– يخال لي أنك عرفتِ آلاماً كثيرة في حياتك ؟

فاجابت الأم :

– صدقت .

– ما اروع حديثك ، فكلماتك تضرب على أوتار القلب مباشرة . عندما أصغي إليك افكر : أواه ، يا إلهي ، اي شيء لا اعطي كي القي ولو نظرة خاطفة على مثل هؤلاء الناس الذين عنهم تتحدثين ! وعلى مثل تلك الحياة أيضاً ! كيف نعيش هنا ؟ قطيع من الغنم ! أنا مثلاً ، انا أعرف كيف اقرأ واكتب ، وكثيراً ما اطالع وافكر ايضاً . . . وإني لا انام الليالي في بعض الأحيان لكثرة التفكير . لكن ما جدوى ذلك ؟ اذا توقفتُ عن التفكير ، ذبلتُ وفنيتُ في سبيل لا شيء على الإطلاق . وإذا تابعت التفكير ، فمن أجل لا شيء ايضاً .

كانت تتكلم وفي عينيها هزء وسخرية يبدو احياناً انها تعضّ الكلمات عضاً كما تفعل بخيط بين اسنانها . ولم ينبس الفلاحان ببنت شفة . كانت الريح تداعب زجاج النوافذ ، وتهمس بعذوبة في المدخنة ، وتنفخ القش الملقى على السطح وتخشخش فيه . وكان كلب يعوي في مكان ما ، ومن حين لآخر تقع قطرة من المطر ، مرغمة ، على النافذة فتقرع زجاجها قرعاً لطيفاً . وارتعش نور المصباح ، وقد خبا حتى كاد ينطفئ ، كي يعود فيستعيد الحياة منتعشاً ، ويستمر في اللهيب متألقاً ثابت الشعلة .

– وقتما سمعتك تتكلمين اخذت افكر وافكر : هذا شيء جديرة الحياة في سبيله ! وإنه لغريب حقاً . . . إني أدرك ،

وانا أصغي ، اني أعرف هذا كله ! ولكنني لم أسمع شيئاً مثيلاً له من قبل قط . . . كما ان مثل تلك الأفكار لم تراودني أبداً . . .

فقال ستيبان متثاقلاً ، وهو يعقد ما بين حاجبيه :

– الأفضل أن نتناول شيئاً نمسك به رمقنا . وينبغي ان نطفىء المصباح ، يا تاتيانا . . . فقد يلاحظ الناس ان النور في بيت آل شوماكوف يضيء أكثر من المعتاد هذه الليلة ، وذلك سواء بالنسبة إلينا ، ولكنه قد يؤذي ضيفتنا . . .

فنهضت تاتيانا وسعت إلى الموقد . وابتسم بيوتر ، وقال خفيض الصوت :

– أجل ، فلا بدَّ لنا من مراقبة خطواتنا هذه الأيام ، أيها العرّاب ! وعندما تظهر الصحيفة بين الناس ، فسرعان . . .

– لست أفكر في نفسي . فإذا اعتقلوني لن تكون الخسارة كبيرة .

فاقتربت زوجته من المائدة ، وقالت :

– ابتعد . . .

فنهض ، و"فَصَلَ" جانباً ، وراح يراقبها تهيىء المائدة . قال ، وابتسامة ساخرة تتخايل على شفتيه :

– لا تساوي الباقة من امثالي أكثر من خمسة كوبيكات وذلك عندما يكون مائة منا في كل باقة أيضاً . . .

شعرت الأم فجأة بالرثاء له . كانت محبتها له تزداد بمقدار ازدياد معرفتها به . وأحسّت إنها تخلصت من عبء ذلك النهار القذر بعد حديثها ، وكانت راضية عن نفسها ،

تريد الخير العميم لسائر الناس على الإطلاق . قالت :

– إنك لعلى ضلال ، يا صاحبي ! ينبغي الا تقبل الثمن الذي يسعّرك به أولئك الذين لا يفعلون سوى امتصاص دمائك . يجب أن تدرك قيمتك جيداً ، وأن تضع بنفسك ثمن ما في باطنك ، ثمن أصدقائك لا ثمن أعدائك . . .

فهتف الفلاح في صوت خافت :

– اي أصدقاء لنا ؟ إنهم أصدقاء – حتى تتناول أول كسرة خبز حقيرة . . .

– أؤكد لك أن لعامة الناس أصدقاءهم . . .

أجاب ستيبان مفكراً :

– ربما ، ولكن ليس هنا . وتلك هي المشكلة !

– ولِمَ لا تفتشون عن أصدقاء هنا ؟

فرو"ا ستيبان لحظة قبل أن يجيب :

– بلى ، ذلك ما يجب أن نفعل . . .

وقالت تاتيانا تدعوهم :

– إجلسوا ، فالعشاء جاهز !

استعاد بيوتر مرحه ، أثناء العشاء ، بعد أن ارتبك على ما يظهر ، بفعل ما روت الأم له . قال بسرعة كعادته :

– عليك الانطلاق باكراً في الصباح ، يا أُماه ، حتى لا تلفتي انتباه أحد . فتركبين مباشرة حتى المحطة الثانية دون ان تمري بالمدينة . خذي عربة البريد .

فقال ستيبان :

– ولِمَ ذلك ؟ ساوصلها بنفسي .

– كلا ! ينبغي الا تفعل . ماذا لو سالوك : هل قضت

الليل عندك ؟ . . نعم ، لقد فعلت . . . وأين هي الآن ؟ . . لقد اوصلتها إلى المحطة . . . هاها ! إذن فانت من رافقها ؟ إدخل السجن إذن ! فاهم ما اقول ؟ ولكن لا حاجة تدعو إلى الاسراع في الذهاب إليه ، بل كل شيء يأتي في موعده المحدد ، وحتى القيصر نفسه يموت آونة تدقُّ ساعته ، كما يقول المثل . أما الآن ، فهي قد قضت الليل هنا ، ثم استأجرت بعض الجياد ورحلت ! شيء بسيط . كثيرون هم الذين يقضون الليل هنا باعتبار أن قريتنا تقع على الطريق الرئيسية . . .

فاستقصت تاتيانا في سخرية :

– ومن اين تعلمت ان تخاف هكذا ، يا بيوتر ؟

فهتف بيوتر ، وهو يلطم ركبته :

– علينا إتقان الأمور ، أيتها العرّابة ، علينا معرفة متى نخاف ومتى نتشجع ! تذكري كيف أساءوا معاملة فاجانوف بسبب تلك الصحيفة . أنت لن تقنعيه بتناول كتاب بين يديه مرة اخرى ، لا محبة ولا اغراء بالمال . ولكنك تستطيعين الثقة بي ، يا أُماه ، فأنا محتال ماكر كما يعترف الجميع بذلك ، وساوزّع تلك الصحف والمنشورات التي حملتِ ، مهما تكُ كثيرة ، في الأماكن التي يجب أن توزّع فيها . صحيح ان قومنا اميّون في الغالب وجبناء ، ولكن هذه الأيام تجبر المرء على ان يفتح عينيه واسعتين ، ويتساءل عن الأسباب والنتائج . وهذه المنشورات تقول الجواب ببساطة عظيمة ، والمشكلة كلها تتطلب قليلاً من التفكير ! ويحدث احياناً ان الأميين يفهمون أكثر من المتعلمين ، وخاصة إذ كان المتعلمون غير جائعين . لقد سافرت كثيراً حول

هذه الأماكن ورايت أموراً عديدة . لا بأس ! نحن نستطيع أن نتدبر الأمور على أفضل وجه ، ولكن ينبغي لنا من أجل ذلك ان نعمل فكرنا ، وان نكون يقظين حتى لا نتعثر منذ البداية . والسلطات ، فيما يبدو ، تشتمُّ أن الفلاح تبدل ، ولم يعد كما يجب أن يكون . لقد كفَّ عن الابتسامة ، ولم يعد لطيفاً تجاههم ، فكأنه بصورة عامة يريد التخلص من السلطات . منذ أيام جاؤوا يجمعون الضرائب في سمولياكوفو – وهي قرية قريبة من هنا – ولكن الفلاحين هبوا ثائرين والاوتاد في أيديهم ، فقال لهم رئيس الشرطة دون لفّ او دوران : «وهكذا فإنكم تثورون ضد القيصر ، يا أبناء الكلاب !» . فقام واحد من الفلاحين واسمه سبيفاكين ، وقال رداً عليه : «فلتذهب إلى الجحيم انت وقيصرك جميعاً . ما هذا القيصر الذي يختطف منا آخر قميص نكسو به اجسادنا ؟» . أترين إلى أي حد وصلت الأمور ، يا أُماه ؟ ولقد قبضوا بالطبع على سبيفاكين ورموا به في السجن ، ولكن كلماته بقيت ، بل الأولاد أنفسهم يتذكرون ما قال ويرددونه . إن كلماته تعيش وتصرخ !

لم يأكل شيئاً ، بل تابع يتكلم في همس سريع ، محملقاً بجراة فيما حوله بعينيه السوداوين الخبيثتين ، ناشراً أمام الأم بسخاء كثير ملحوظاته عن حياة الفلاحين ، فكأنه يفرغ كيساً من قطع النقود النحاسية الصغيرة .

وقاطعه ستيبان مرتين ليقول :

– هلا طعمت شيئاً ؟

وفي كلتا المرتين تناول بيوتر كسرة من الخبز وملعقته ،

ثم استمر يروي قصصه بطلاقة بلبل ينشد إحدى الاغنيات . وعندما انتهى العشاء قفز على قدميه فجاة ، ونبر :

– حسناً ، لقد آن لي ان اعود إلى البيت !

وتوقف امام الأم وهز راسه وهو يصافحها :

– وداعاً ، يا أماه ! ربما لن نلتقي مرة أخرى ، ولكني أريدك أن تعلمي أني اعتبر كل هذا رائعاً للغاية . . . رائعاً أن ألقاك واستمع إليك ! اثمة شيء آخر في حقيبتك تلك إلى جانب الصحيفة ؟ وشاح من الصوف ؟ حسناً ، وشاح من الصوف ، تذكر ذلك ، يا ستيبان . لسوف يعود إليك بحقيبتك في لحظة واحدة فقط . هيا بنا ، يا ستيبان إلى اللقاء ، وحظاً سعيداً ! . .

اصبح ضجيج الصراصير مسموعاً بوضوح بعد رحيلهما . . . وكذلك عصف الريح فوق السطح . . . وزمجرتها في المدخنة . . . وقرع المطر الرتيب على زجاج النافذة . . . وهيات تاتيانا سريراً للأم من اغطية تناولتها من سطح الموقد والواح خشبية قائمة بين الموقد والسقف ، ونشرتها على الدكة .

قالت الأم . – إنه رجل اجتماعي !

ألقت تاتيانا نظرة إليها من تحت حاجبيها وأجابت :

– إنه يثير كثيراً من الضوضاء ، ولكنه لا يذهب ابعد من ذلك !

– وماذا عن زوجك ؟

– إنه رجل طيب . لا يشرب الخمرة أبداً . ونحن سعيدان معاً . ولكنه ضعيف الشخصية . . .

30—444

وانتصبت ، ثم قالت بعد صمت قصير :

– ماذا ينبغي أن يفعل الشعب الآن ؟ أفلن يثور ؟ بالطبع سيثور . هذا ما يفكر فيه كل إنسان ، ولكن كل إنسان يفكر فيه بينه وبين نفسه ، في حين يجب أن يفكر فيه على رؤوس الأشهاد . . . بيد أنه لا بدَّ من شخص يخطو الخطوة الأولى . . .

وجلست على الدكة ، وسالت فجاة :

– لقد قلت إن فتيات من عائلات النبلاء يشتركن في هذا العمل . يختلطن بالعمال ويقرأن لهم . . . أفلا يضقن بذلك ذرعاً ؟ أفلا يخفن ؟

وارسلت زفرة عميقة بعدما أصغت بانتباه إلى جواب الأم ، ثم أطرقت بعينيها وطاطات رأسها ، وهي تتابع :

– لقد وقعت في أحد الكتب على هذا التعبير : حياة عديمة المعنى ! أوه ، لقد فهمت ما يعني ذلك تماماً ، منذ الوهلة الأولى ، إذ أني أعرف تلك الحياة حق المعرفة . إن المعاني موجودة هناك ، لكنها غير مترابطة . . . مثل الخراف دون راع ، ودون من يجمعها إلى بعضها البعض . تلك هي الحياة العديمة المعنى . بودي أن أهرب منها دون أن ألتفت إلى الوراء ، ولا مرة واحدة لو استطيع . . . كل شيء مؤلم لا يطاق وقتما تدركين شيئاً من الحقيقة !

استطاعت الأم رؤية ذلك الألم في البريق الجاف الذي تشع به عينا المرأة الخضراوان ، وفي وجهها الناحل ، وفي جرسْ صوتها . وارادت أن تلاطفها وتعزيها :

– إنك تفهمين ، أنت ، ما يجب عمله ، يا عزيزتي . . .

فقاطعتها تاتيانا في صوت رقيق :

– ولكن ينبغي للمرء ان يعرف كيف يعمله . سريرك جاهز الآن فاستريحي !

ذهبت حتى الموقد حيث وقفت منتصبة القامة ، ساكنة الحركات ، غارقة في لجة من التفكير . استلقت الأم في فراشها دون ان تخلع ثيابها ، وعظامها تشكو الاعياء فتئن بصوت خافت . أطفأت تاتيانا المصباح ، حتى إذا غمرت الظلمة الكوخ راحت تتحدث بنغمة خفيضة ثابتة ، فيتردد صوتها كانه يمحو شيئاً ثقيلاً عن وجه العتمة العريض .

– أرى انك لم تصلي . انا ايضاً لا أؤمن بالله ، ولا بالعجائب .

تقلّبت الأم في اضطراب على الدكة . كانت هاوية الليل العديمة القرار تشخص إليها من خلال النافذة ، بينا تزحف في الديجور أصداء خافتة ضئيلة حتى أذنيها . وتكلمت في خوف ، في شبه همس تقريباً :

– أما فيما يتعلق بالله . . . فلا أعلم . ولكني أؤمن بالمسيح ، وإني أؤمن بكلماته : أحبْ قريبك كنفسك . إني أؤمن بهذا ! . .

لم تحر تاتيانا جواباً . كانت الأم تميز حدود جسدها الغامضة المرتسمة رمادية اللون على جدار الموقد الأسود وراءها ، وهي جامدة لا تأتي نأمة على الاطلاق . وأغلقت

الأم عينيها في أسف . ولكنها سمعت المرأة تقول بغتة بصوت بارد :

– لن أستطيع أبداً الصفح عن الله او الانسان من اجل موت ولدي . . . أبداً ! . .

فانهضت بيلاجيا نفسها بقلق ، وروحها مدركة ذلك الأذى الفائق الذي يرنّ بمثل هذه الكلمات . قالت في لطف :

– انت ما برحت صبية ، ولسوف ترزقين أولاداً آخرين .

لم تردّ المرأة مباشرة ، وعندما أجابت كان حديثها همساً :

– أبداً . لم أعد أنفع لذلك ، والطبيب يقول إني لن أستطيع بعد الآن أن أحمل . . .

عدت فارة عبر الغرفة . . . ورنّ صوت مرتفع حطم السكون مثل برق خاطف . . . وعلا مرة أخرى صدى سقوط المطر على السطح . . . والريح تعبث بالقش كما تفعل أصابع نحيلة رهيبة . وكانت قطرات الماء تتساقط على الأرض في وجوم ، تحصي دقائق بطيئة في تلك الليلة الخريفية . . .

وسمعت الأم ، وهي تغفو ، صدى وقع أقدام ثقيلة في الطريق ، اقتربت حتى بلغت عتبة الباب ، ثم فتح هذا بحذر وتردد صوت هامس من خلاله :

– أنت نائمة ، يا تاتيانا ؟

– كلا .

– أهي نائمة ؟

– فيما يبدو .

وانبثق نور تارجح لحظة ثم اختنق في الظلمة . وأطفئ

الفلاح من فراش الأم واصلح من وضع الغطاء الملقى على قدميها . فتأثرت الأم من بساطة عنايته واغلقت عينيها مرة أخرى وهي تبتسم . وخلع ستيبان ثيابه دون أن يقول شيئاً ، ثم زحف إلى الموقد . وخيم الهدوء مطلقاً .

استلقت الأم دون حراك ، تنصت في انتباه إلى تموجات السكون الحالمة ، وأمام عينيها يتراقص في الظلمة وجه ريبين الدامي . . .

وجاءها من الموقد صدى وشوشة خافتة :

– هل ترى أي قوم يساهمون في هذا العمل ؟ شيوخ عملوا طوال حياتهم وشربوا كأس الآلام حتى الثمالة . وقد آن لهم أن يرتاحوا أخيراً . ولكن إليك ما يفعلون بدلاً من ذلك . أنت فتى بعد ، وذكي إلى ذلك . . . أواه ، يا ستيبان . . .

فأجاب صوت الرجل ، عميقاً ثرياً :

– يجب أن أفكر في ذلك جيداً قبل أن أساهم . . .

– لقد سمعت هذا منك فيما سبق . . .

وانقطع الصوتان برهة ، ثم تابع ستيبان :

– إليك كيف يجب أن نبدأ . . . أولاً نتحدث إلى الفلاحين ، كلّ على انفراد – ألكسي ماكوف مثلاً – إنه متعلم عاقل ، وناقم على السلطات . وسيرجي شورين فلاح ذكي أيضاً . أما كينيازيف فشريف غير هياب . وهذا يكفي من أجل البداية . ولا بدّ لنا من إلقاء نظرة على القوم الذين تحدثت عنهم . سوف آخذ فأسي واذهب إلى المدينة ، فكأني أريد أن أربح بعض المال الاضافي بتكسير الحطب . . . علينا أن

نكون حذرين . لقد كانت على حق عندما قالت إن قيمة المرء في عمله ، مثل ذلك الفلاح اليوم ، فهو لن يخضع حتى ولا للإله ذاته . . . لقد صمد . ولكن ما رأيك بنيكيتا ذاك ؟ لقد خجل من نفسه . . . يالها من دهشة !

– لقد ضربوا رجلاً أمامكم وتحت أنوفكم ، وأنتم لم تفعلوا شيئاً سوى التطلع إلى ذلك بأفمام فاغرة . . .

– مهلاً ، مهلاً ! يجب أن تفرحي إذ لم نقم نحن أنفسنا بالتنكيل به ، ذلك الرجل !

واستمر يهمس فترة طويلة ، وهو يخفض صوته أحياناً فلا تستطيع الأم التقاط كلماته ، ويتحدث في أحيان أخرى في صوت عميق واضح النبرات . وعندئذ توقفه زوجته عند حده :

– صه ، سوف توقظها . . .

استغرقت الأم في نوم ثقيل هبط عليها مثل سحابة شاسعة الأبعاد غمرتها وجرفتها في تيارها .

أيقظتها تاتيانا والفجر الرمادي يطلّ من النوافذ وهو ما برح أعمى العينين . وكان ناقوس الكنيسة يقرع إيذاناً بانتهاء حراسة الليل . خيم على القرية سكون بارد يذوب فيه في تكاسل صدى أصواته .

– لقد أضرمت نار السماور ، فتناولي قبلاً قدحاً من الشاي يدفئك ، وإلاّ جمدت أطرافك من البرد إذا رحلت إثر نهوضك من النوم مباشرة . . .

وبينما كان ستيبان يمشط لحيته الشعثاء سأل الأم عن

عنوانها في المدينة . خيل إليها ان وجه الفلاح نضج خلال الليل ، واصبح اكمل نوعاً ما .

قال ضاحكاً ، وهم يحتسون الشاي :

– ما اغرب أن يتمّ ذلك على هذا الغرار !

فسألت تاتيانا :

– ماذا ؟

– تعارفنا بمثل هذه البساطة . . .

فقالت الأم متفكرة لكن في ثقة ثابتة :

– ثمة بساطة مدهشة في كل ما يتعلق بعملنا .

ودّعاها في هدوء ، دون إسراف في الكلام او العواطف ، وإن اظهرا اهتماماً كلياً براحتها تجلى بالف عناية صغيرة ، او تحذير رقيق ، او توصية عابرة .

عندما اقتعدت كرسي عربة البريد راحت تفكر في كيف سيبدأ ستيبان عمله بحذر ودون ضوضاء مثل خلد ارضي ، ولكن دون ان يكلّ او يتعب ابداً ، بل سيرن صوت زوجته الساخط في اذنيه دون انقطاع ، وستلتمع عيناها الخضراوان على الدوام بذلك اللهب الحاد ، ولن تتحرر قط من ذلك الحزن المتعطش إلى الانتقام ، الذئبي الشرس ، حزن أم على أولادها الذين ماتوا .

وتذكرت ريبين . . . تذكرت دماءه ، ووجهه ، وعينيه الملتهبتين ، وكلماته فانقبض قلبها بإحساس مرير من العجز تجاه الوحشية . ولم تبرح صورة ميخائيلو منتصبة امام عينيها طوال طريق العودة إلى المدينة ، مرتسمة على قرار ذلك النهار الأسود القاتم : إنها ترى لحيته السوداء ، وقامته

المتينة في قميصه الممزق ، ورأسه اشعث الشعر ، ويديه المعقودتين خلف ظهره . . . تراه رجلاً طافحاً غضباً ، مفعماً ايماناً بالحقيقة التي يذود عنها . وفكرت الأم في القرى التي لا يحصى عددها ، الرابضة في تواضع جم على وجه البسيطة ، وفي الناس الذين ينتظرون سراً حصول العدالة ، وفي آلاف البشر الذين يقضون حياتهم كلها صامتين لا يفكرون في شيء دون أن يأملوا بما هو افضل .

وتصورت الحياة حقلاً صخرياً صلداً غير محروث ، ينتظر في سكون ، ولكن في لهفة ، الحارث الذي يقلب احشاءه ، وهو يقول فيما يبدو للناس الأحرار الشرفاء :

«إزرعوني ببذور الحقيقة والعقل ، وسأردُّ لكم أتعابكم مائة ضعف !»

وإذ تذكرت النجاح الذي توّجَ به عملها الخاص ، غمرها خفقان من الفرح كبتته في كثير من الحياء والخجل .

١٩

فتح نيقولاي الباب عليها ، مشعث الشعر ، يحمل كتاباً في إحدى يديه ، وصاح مبتهجاً :

– عدتِ ؟ إنك لسريعة حقاً !

راحت عيناه تطرفان باستمرار في لطف وراء نظارتيه ، وهو يساعدها على خلع معطفها ويحدج وجهها بابتسامة مغرمة . قال :

– لقد فتشوا بيتنا الليلة الفائتة فراودتني الشكوك

فيما هو سبب ذلك ، وخفت أن يكون أصابك مكروه . ولكنهم لم يعتقلوني . لو كنت اعتقلتِ لأخذوني أنا الآخر بكل تأكيد !

قادها إلى غرفة المائدة ، وهو يتابع حديثه باندفاع :

– مما لا ريبة فيه أني سأفقد وظيفتي ، ولكن ذلك لا يزعجني على الاطلاق . لقد أملَّني الجلوس إلى مكتب أحصي عدد الفلاحين الذين لا يملكون جواداً !

كانت الغرفة تبدو وكأن عملاقاً جباراً ، أخذه جنون مفاجىء ، هزَّ جدران البيت حتى انقلب عاليه سافله ، فالصور ملقاة على الأرض ، وأوراق الحيطان منزوعة في بعض الأماكن ومتدلية مثل الأشرطة في الهواء ، وفي إحدى الزوايا من أرض الغرفة عارضة مقتلعة ، وإطار النافذة مخلوع من مكانه ، ورماد كثير منتثر بالقرب من الموقد . هزّت الأم رأسها لدى رؤية هذا المشهد المألوف ، ونظرت إلى نيقولاي ملياً وهي تحسُّ شيئاً جديداً فيه .

كان السماور البارد يقبع على المنضدة وبجانبه أقداح كثيرة وسخة وقليل من الجبن واللحم المقدَّد الذي ما برح جاثماً في الأوراق التي اشتري فيها . وكان غطاء المائدة مغطى بالكتب وفتات الخبز والجمر المتساقط من السماور . حملقت الأم في هذه الاشياء كلها ، وارسلت ضحكة قصيرة . وكذلك ابتسم نيقولاي مرتبكاً ، وقال :

– بالطبع أضفتُ حصتي إلى الفوضى الشاملة ، ولكن لا بأس في ذلك ، يا نيلوفنا . لقد فكرت أنهم سيعودون

من جديد ، ولذلك لم أرفع شيئاً من كل هذا . حسناً ، حدثيني عن رحلتك .

وقع السؤال ثقيل الوطأة على قلبها ، وهبّت من جديد صورة ريبين أمام عينيها ، فاستاءت من نفسها إذ لم تتحدث عنه فوراً . انحنت نحو نيقولاي وبدأت تقدم له تقريرها ، محاولة الاحتفاظ بهدوئها ، وعدم حذف شيء من روايتها مطلقاً .

– لقد اعتقلوه . . .

– حقاً ؟

قال نيقولاي ذلك وقد اختلج وجهه ، فأوقفته الأم بإشارة من يدها ، وتابعت الحديث فكأنها في حضرة العدالة نفسها تحتجُّ إليها على ذلك التعذيب الذي شاهدت كائناً بشرياً يُسامه . واستلقى نيقولاي إلى الخلف في مقعده يصغي شاحب الوجه ، وهو يعضّ شفته طوال الوقت . ورفع نظارتيه في تماهل ، ووضعهما على المائدة وامرَّ يده على وجهه ، فكأنه يمسح عنه شبكة عنكبوت غير منظورة . واحتدت سيماؤه بغتة وقست ، وبرز عظما وجنتيه بشكل غريب وراح خيشوماه يرتعشان دون انقطاع . إن الأم لم تره قط على مثل تلك الحال . . . ولقد ذعرت منه .

ولما انتهت من قصتها ، نهض وراح يقطع أرض الغرفة رائحاً غادياً في صمت وقد دفع قبضتيه عميقاً في جيبيه . غمغم من خلال أسنانه المنطبقة :

– إنه شخص عظيم كما أعتقد ، ولسوف يصعب السجن عليه ، فالناس الذين على شاكلته يجدون ذلك قاسياً !

ولم ينِ عن دفع قبضتيه أكثر فأكثر في جيبيه كي يلطّف من حدة هياجه ، ولحظت الأم حالته وأدركتها . وراحت عدوى انفعاله تنتقل إليها شيئاً فشيئاً . زرَّ عينيه حتى أصبحتا أشبه بحد الموسى ، وقال مرة أخرى في غضب بارد ، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً :

– تصوري فظاعة ذلك ! ثمة قبضة من الأفراد الحمقى تملكهم الجنون في سبيل الاحتفاظ بسيطرتهم على الشعب ، فأخذوا يضربون كل الناس ، ويخنقونهم ويسحقونهم . إن البربرية تسيطر ، والوحشية تصبح قانون الحياة . فكري في ذلك فقط ! بعضهم ينكّلون بالناس ، ويتصرفون فكأنهم حيوانات مفترسة ، إذ يعرفون أنهم وراء القانون يتجاوزون حدوده هم مرضى بعطش دنيء إلى التعذيب . . . هذا الداء المنفّر الكريه يُغني العبيد الناعمين بحرية إطلاق العنان لأهوائهم العبودية وعاداتهم الحيوانية . وآخرون قد تسمموا برغبة الانتقام ، وثمة آخرون أيضاً قد صُمّت آذانهم وأُعميت عيونهم وتوحشت نفوسهم لكثرة ما نالوا من جلد وضرب . لقد فسد البشر جميعاً !

وتوقف برهة ، ومال إلى الصمت مطبق الأسنان .

قال في صوت خافت :

– المرء يصبح متوحشاً رغم أنفه في هذه الحياة المتوحشة .

إلا أنه انتصر على انفعاله ، حدج وجه الأم الباكية هادئاً كل الهدوء تقريباً ، وفي عينيه بريق ثابت :

– يجب ألا نضيع الوقت ، يا نيلوفنا ! هلا تمالكنا أنفسنا ، أيتها الرفيقة العزيزة . . .

ذهب إليها متربعة على شفتيه ابتسامة كئيبة ، واستوضح وهو ينحني عليها ويضغط على يدها :

– أين حقيبتك ؟

– في المطبخ .

– ثمة جواسيس اتخذوا مراكزهم عند بوابتنا ، فلا نستطيع أن نحمل من الدار شيئاً كثيراً من غير أن يلاحظوا ذلك ، كما ليس لدينا مكان نخفي البضاعة فيه . وأعتقد أنهم سيأتون هذه الليلة أيضاً ليتحروا البيت مرة أخرى ، ولذلك لا بدَّ لنا ، مهما يكن من مدعاةٍ للأسف ، أن نحرق كل شيء .

– اى شيء ؟

– ما في الحقيبة .

فهمت الأم . فلم تقدر ، رغم كآبتها العظيمة ، أن تمنع شفتيها عن ابتسامة اعتزاز بما حققت . قالت ، وهي تنتعش رويداً رويداً إذ تروي له لقاءها مع شوماكوف :

– ليس في الحقيبة شيء على الاطلاق . حتى ولا قصاصة ورق واحدة !

عبس نيقولاي في البدء وهو يصغي في شيء من القلق ؛ ويا سرعان ما علت وجهه ، بدل العبوس ، سيماء الدهشة والذهول حتى قاطعها أخيراً ، وهو يصيح في انفعال :

– هذا بديع ، والله ! إنك لسعيدة الحظ بصورة تفوق التصور . . .

أمسك بيدها يضغط عليها ، وهو يهتف بصوت رقيق :

– ايمانك في الناس يهزّني . . . وإني لأحبك مثل أمي عينها !

فابتسمت وهي تراقبه في فضول ، متعجبة من انقلابه هكذا نشيطاً منفعلاً حتى هذه الدرجة . فرك يديه ، وضحك بعذوبة ، وقال :

– هذا ، على العموم ، شيء ممتاز ! لقد قضيت وقتاً رائعاً في هذه الأيام القليلة الأخيرة . . . بين العمال طول الوقت . . . اقرأ لهم واتحدث إليهم واراقبهم . ولقد امتلأ قلبي بشيء طاهر وسليم بصورة مدهشة للغاية . إنهم لقوم رائعون جداً ، يا نيلوفنا ! أنا اتحدث عن العمال الشباب . . . هم اقوياء ، مرهفو الشعور ، متعطشون إلى فهم كل شيء . وعندما انظر إليهم ، اشعر ان روسيا ستصبح يوماً ما اكثر البلدان ديمقراطية في العالم أجمع !

ورفع يده تأكيداً لذلك ، فكأنه يقطع على ذلك عهداً ، ثم تابع بعد صمت قصير :

– كنت أعيش سجيناً ههنا بين هذه الكتب والارقام . سنة كاملة قضيتها في مثل هذه الحياة منهمكاً على الكتابة . . . يا للهول ! لقد نَمَوْتُ على العيش بين العمال ، وأحسُّ نفسي ضائعاً عندما اكون بعيداً عنهم – اكون إذن متوتر النفس ، مجهد الروح . أما الآن فلسوف أعيش مثل رجل حرٍّ طليق مرة أخرى ، لسوف أراهم طوال الوقت وسأعمل معهم دون انقطاع . هل تفهمين ؟ سوف اكون عند مهد أفكار جديدة ، في حضور طاقة فتية خلاقة . إن ذلك لبسيط رائع

بصورة مدهشة ، وهو دافع عظيم للعمل في الوقت ذاته . إنه يبعث في الإنسان الفتوة والقوة . إنه لأسلوب في الحياة كثير الثراء !

ضحك سعيداً ، وهو لا يخلو من بعض الارتباك في الوقت ذاته . وفهمت الأم فرحته وشاركته فيها .

هتف :

– وبالاضافة إلى ذلك – أنت نفسك امرأة رائعة . . . بأية حيوية تصفين الناس ، وما أكثر ما تجيدين فهمهم وإدراكهم !

جلس بقربها ، وقد أدار أول وهلة وجهه المتألق جانباً وراح يمسح شعره ، كي يخفي ارتباكه ، وما أسرع أن استدار إليها يرمقها بأنظاره ويستمع إليها في انتباه وهي تتحدث قصتها في كلمات بسيطة حية مؤثرة . هتف :

– يا له من حظ سعيد ! كان ثمة امكانية كبرى كي تنتهي إلى السجن أيضاً ، ولكن بدلاً من ذلك . . . بلى ، إن بعض الظواهر تشير إلى أن الفلاحين بدأوا يستيقظون . . . وإن ذلك لطبيعي جداً . تلك المرأة – أستطيع رؤيتها بوضوح مدهش . . . يجب أن نعيّن أناساً خاصين بالعمل في القرية . الناس ! ليس لدينا كثرة منهم . . . فالعمل يحتاج إلى المئات . . .

قالت الأم في صوت خافت :

– آه لو كان بافل طليقاً ! وأندريوشا أيضاً !

فاختلس النظر إليها ، وخفض عينيه :

– قد يصعب عليك أن تسمعيني أقول ذلك ، يا

نيلوفنا ، ولكني أعرف بافل جيداً ، وانا على يقين من أنه لن يفرّ من السجن أبداً . إنه يريد أن يقدّم إلى المحاكمة ، يريد فرصة كي يبلغ شأوه كاملاً ، وهو لن يأبى مثل هذه الفرصة أبداً . ولِمَ يرفضها ؟ لسوف يهرب من سيبيريا .

تنهدت الأم ، واجابت في صوت خفيض :

– حسناً . أنه يعرف أفضل . . .

قال نيقولاي بعد لحظة ، وهو يرمقها من خلال نظارتيه :

– هه ! أود أن يأتي فلاحك هذا سريعاً وينضم إلينا . لمن الضروري أن نكتب منشوراً عن ريبين إلى الفلاحين ، وذلك لن يؤذيه ما دام هو نفسه أعلن عن كل شيء بمثل تلك الجرأة . سوف أكتبه اليوم ، وستطبعه لودميلا على الفور . . ولكن كيف نوصل إليهم المنشورات ؟

– سأحملها إليهم . . .

فهتف نيقولاي سريعاً :

– كلا ! لأتساءل إن كان فيزوفشيكوف يستطيع ذلك .

– هل أحدّثه بالأمر ؟

– يمكنك أن تجرّبي ، وأن تعلّميه كيف يفعل ذلك .

– وما عساي أفعل أنا ؟

– لا تقلقي ، فسوف نجد لك عملاً !

جلس ليكتب ، فاسترقَت النظر إليه وهي تنظف المائدة ، ترى الريشة كيف ترتجف في يده وهو يملأ الورقة بصفوف من الكلمات السود . وكانت عضلات عنقه تختلج أحياناً ، فإذا ألقى رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه استطاعت مشاهدة ارتعاش ذقنه . ولقد أثارها ذلك .

قال أخيراً ، وهو ينهض :

– لقد انتهيت منه ! خذي هذه الورقة واخفيها في مكان ما من ثيابك . . . ولكن . . . إذا جاء الدرك فسوف يفتشونك أيضاً .

فاجابت في هدوء :

– فليأخذهم الشيطان !

جاء الطبيب إيفان دانيلوفيتش ذلك المساء . سأل ، وهو يتنقل بخطوات سريعة على طول الغرفة :

– ما الذي يقلق السلطات حتى هذه الدرجة على حين بغتة ؟ لقد فتشوا سبعة من المنازل في الليلة الماضية . أين مريضي ؟

فاجاب نيقولاي :

– لقد غادرني البارحة . فاليوم السبت ، وهو لا يستطيع التغيب عن حلقته الدراسية . . . .

– ذلك جنون . . . أن يجلس في حلقة دراسية بقحف مكسور . . .

– لقد بذلت ما في وسعي لإقناعه ، فذهبت جهودي أدراج الرياح . . .

فقالت الأم :

– لا ريب أنه يريد التباهي على رفاقه . . . أنظروا إليّ . . . لقد هدرت دمي منذ الآن . . .

فتطلع الطبيب إليها ، وتظاهر بأنه مغتاظ جداً ، وقال من خلال أسنانه المطبقة :

– بر – ر – ر . . . يا لك من مخلوق قاسي القلب !

– حسناً ، يا إيفان ، ليس ما يدعوك للبقاء ههنا . نحن نتوقع ضيوفاً ، فهيا اذهب . نيلوفنا ، أعطيه الورقة . . .

وصاح الطبيب :

– ورقة أخرى ؟

– خذْ ، 'خذ' هذه الورقة أوصلها إلى المطبعة .

– لقد أخذتها ، وسأوصلها إلى حيث يلزم . أثمة شيء آخر ؟

– لا شيء مطلقاً . إن جاسوساً يقف هناك عند الباب .

– لقد رأيته . وثمة آخر عند بابي أيضاً . إلى اللقاء ! إلى اللقاء ، أيتها المرأة الشريرة . وثقا ، أيها الصديقان ، أن القتال في المقبرة قد أحسن الإثمار رغم كل شيء . فالمدينة بأسرها تتحدث عنه ، والمنشور الذي كتبته عنه رائع جداً ، وجاء في وقته تماماً . رأيي على الدوام أن قتالاً حسناً أفضل من سلم رديء . . .

– حسناً ، هيا اخرج من هنا . . .

– لا أستطيع القول إنك مضياف ، يا صاحبي . يدكِ ، يا نيلوفنا . ذلك الصبي ارتكب فعلاً أحمق في الحقيقة ! هل تعرف أين يقطن ؟

فأعطاه نيقولاي عنوانه .

– سوف أزوره غداً . فهو فتى طيب ، أليس كذلك ؟

– كثيراً . . .

وتابع الطبيب ، وهو في طريقه إلى الباب :

– يجب العناية به ، فإن له رأساً طيباً فوق كتفيه ! إن شباناً مثله سوف يؤلفون الانتيليجينسيا البروليتارية

الحقة التي ستأخذ مكاننا عندما نغادر نحن إلى تلك الشطئان حيث لا يوجد ، فيما يخال لي ، أية تناقضات طبقية . . .

– لقد أمسيت كثير الثرثرة في هذه الأيام الأخيرة ، يا إيفان . . .

– ذلك أنني مرتاح . وهكذا فأنت تنتظر الذهاب إلى السجن ؟ أتمنى لك راحة جيدة !

– شكراً ، فأنا لا أشعر بالاعياء .

أصغت الأم إلى حديثهما ، وكانت مبتهجة باهتمامهما بذلك العامل الشاب .

عندما غاب الطبيب جلست الأم ونيقولاي يتناولان الشاي ويتحدثان في هدوء بانتظار زوّارهما في الليل . حدثها نيقولاي عن رفاقه في المنفى ، وعن أولئك الذين فروا منه وهم يتابعون العمل الآن تحت أسماء مستعارة . وكانت الجدران العارية 'ترجّع كلماته الهادئة ، فكأن أقاصيصه عن هؤلاء الأبطال المتواضعين المخلصين الذين يبذلون قصارى جهودهم لبناء عالم جديد تتجاوز التصديق فلا يُقبل أو يعترف بحقيقتها . وعانق الأم ظلٌ رقيق شملها في عطف يدفئ قلبها تجاه هؤلاء الناس المجهولين ، المنصهرين في مخيلتها في فرد واحد عظيم غير هيّاب يتحرك في تمهل على الأرض ، ولكنه يتحرك في ثبات ويقين ، يكنس عنها بيديه عفن الأكاذيب القديمة قِدَم التاريخ كي يبين للشعب حقيقة الحياة الواضحة البسيطة . وكانت هذه الحقيقة الكبرى المتولدة أبداً دون انقطاع تدعو الجميع دون تمييز ، وتَعِدُ كلاً منهم بالتحرر من الجشع والحقد والكذب ، هؤلاء الأبالسة

الثلاثة المرهوبين الذين يستعبدون العالم أجمع بقوتهم الدنيئة ويزرعون فيه المخاوف . . . كانت تلك الصورة تثير فيها شعوراً أشبه بذلك الشعور الذي كانت تجثو به أمام الأيقونة كي تختتم في صلاة الشكر والامتنان نهاراً حالته أسهل من سواه . أما الآن فقد نسيت تلك الأيام ، سوى أن الإحساس الذي كانت تثيره اتسع وانتشر ، وأصبح أكثر لمعاناً وفرحة ، يستقر أعمق فأعمق في روحها ، ويحترق بلهب أشدّ قوة وروعة .

وهتف نيقولاي بغتة وهو يقاطع حديثه :

– هلا يأتي الدرك ؟

فأجابت الأم في زعل بعد برهة صمت ، وهي ترشقه بنظرة سريعة :

– فليأخذهم الشيطان !

– صدقت ولكن حقّ لك الآن نيلُ بعض الراحة ، يا نيلوفنا . أنت متعبة فوق كل حدود إن صدق حدْسي ، وليس من ينكر أن لك بنية متينة بصورة تذهل الألباب . كل هذه الأخطار والانفعالات ، وأنت لا تأبهين لها . . . ولكن شعرك يشيب بسرعة كبيرة . حسناً ، أسرعي واستريحي !

٢٠

استيقظت الأم على قرع شديد ينهال على باب المطبخ . كان شخص يقرع الباب باستمرار في صبر وعناد ، وكانت الظلمة والهدوء ما برحا يسودان كل شيء ، فإذا ذلك القرع

العنيد يملأ العتمة الغبشاء بقلق شديد . وطرحت الأم سريعاً على كتفيها أول شيء نالته يدها ، ودلفت إلى المطبخ ووقفت عند الباب . سألت :

– من هناك ؟

فأجاب صوت غير مألوف :

–أنا !

– مَنْ ؟

فتوسل الطارق بصوت خفيض :

– افتحي الباب !

فرفعت الأم المزلاج ، ودفعت الباب بقدمها ، فمرق اغناطي من خلاله وصاح في مرح :

– وهكذا فأنا لم أخطئ !

كان ملطخاً بالوحل حتى خاصرتيه ، ووجهه رمادي اللون ، وعيناه غائصتين في محجريهما ، وشعره الجعد منبوشا ينطلق من تحت قبعته في سائر الجهات .

همس ، وهو يغلق الباب :

– لقد وقعنا في مصيبة !

– أعلم هذا . . .

فدهش الفتى لسماعه ذلك . سأل ، وهو يطرف بعينيه :

– كيف عرفته ؟

فأوضحت له كل شيء باختصار وسرعة :

– هل أخذوا أيضاً ذينك الاثنين الآخرين . . . رفيقيك ؟

– لقد كانا غائبين ، فهما مدعوان لمركز الخدمة

العسكرية . وقد ذهبا لتسجيل اسميهما . لقد اعتُقل خمسة ، بما فيهم العم ميخائيلو . . .

واستنشق الهواء في ضجيج ، واضاف وهو يطلق ضحكة قصيرة :

– وبقيت أنا ، ولا ريب أنهم يفتشون الآن عني .

– وكيف تدبرت أمر الهرب ؟

فتح باب الغرفة المجاورة قليلاً .

هتف أغناطي ، وهو يجلس على دكة ويتطلع حواليه :

– أنا ؟ دقيقة أو دقيقتان قبل مجيئهم فقط ! فقد ركض حارس الغاب وقرع نافذتي صائحاً : إنتبهوا ، أيها الاخوان ، فهم يلاحقونكم . . .

وضحك بصوت خافت ، وهو يمسح وجهه بذيل معطفه :

– حسناً . ليستحيل أن ينذهل العم ميخائيلو في حال من الأحوال ، قال : «يا أغناطي ، إنطلق إلى المدينة بأقصى سرعة . أتذكر تلك المرأة العجوز ؟» وتابع ، وهو يكتب ورقة صغيرة أثناء حديثه : «إليك ، خذها إليها ! . .» وهكذا زحفت في الحرش ، وسمعتهم بكل وضوح يقتربون . كانوا كثرة ، يزحفون من كل الجهات ، أولئك الشياطين ! ويحيطون بمكان عملنا من كل حدب وصوب . انبطحت في الحرش فمروا بجانبي دون أن ينتبهوا الي ، وعندئذ نهضت وطفقت أمشي وامشي ما في وسعي . ولقد مضى عليّ في الطريق ليلتان ويوم كامل دون أن أقف او أستريح .

كان يبدو أنه مسرور بنفسه ، فتضيء ابتسامة عينيه

العسليتين كل وجهه ، بينما ترتجف شفتاه العارمتان الحمراوان دون انقطاع .

قالت الأم متعجلة ، وهي تتناول السماور :

– ساهيئ لك بعض الشاي في لحظة واحدة !

– اليك ، خذي الرسالة . . .

رفع قدمه بصعوبة جمة ، وهو يدمدم ويكشر ، ووضعها على الدكة . وفي تلك اللحظة ظهر نيقولاي في فرجة الباب . قال ، وهو يزوّي ما بين عينيه :

– عِمْ مساء أيها الرفيق ! اسمح لي أن أساعدك .

وانحنى فوق رجل أغناطي ، وشرع يرفع بسرعة قماطاتها الوسخة التي تعيض عن الجوارب . صاح الفتى في همس ، وهو يبعد رجله ويتطلع دهشاً الى الأم ، ويطرف بعينيه :

– لا !

فقالت دون أن تلاحظ نظرته :

– يجب أن تدلك له قدميه بالفودكا . . .

فأجاب نيقولاي :

– بالطبع !

وشخر أغناطي مرتبكاً حائراً .

التقط نيقولاي الرسالة ، وسوّى ما أصاب الورقة الرمادية من غضون ، ثم رفعها إلى قرب عينيه وهو يقرؤها .

«لا تهملوا قضيتنا ، يا أماه . قولي لتلك السيدة الطويلة الا تنسى أن تكتب عن قضيتنا أكثر من قبل . أرجو ذلك . الى اللقاء . ريبين» . وأسبل نيقولاي ببطء يده الممسكة بالرسالة . وغمغم :

– ما اروع هذا ! . .

قعد اغناطي يراقبهما ، وهو يحرك في حذر وعناية اصابع رجله العارية الوسخة . وجربت الأم اخفاء الدموع في وجهها . . . وهي تحمل وعاء من الماء، وتجثو أمامه وتمد يدها الى قدمه . . . ولكنه صاح فزعاً ، وهو يدفع بقدمه تحت الدكة :

– ماذا أنت فاعلة ؟

– أعطني قدمك ، واسرع في ذلك . . .

وقال نيقولاي :

– سأجلب بعض الكحول .

ولكن الفتى دفع قدمه أكثر فأكثر تحت الدكة ، وتمتم :

– ماذا تحسبان ؟ اانا في مستشفى ؟

طفقت الأم ترفع الخروق عن قدمه الأخرى . فشخر اغناطي بصوت مرتفع ، وهو يلوي عنقه مضطرباً ويتطلع الى الأم من فوق الى اسفل ، وارتخت شفتاه بشكل مضحك . قالت هذه بصوت مرتجف :

– لقد ضربوا ميخائيلو ايفانوفيتش . . .

فهتف الفتى في هدوء وذعر :

– حقاً ؟

– أجل ! لقد كان في حالة سيئة عندما جاؤوا به الى نيقولسكويه وهناك ضربه رقيب الشرطة ورئيسها . . . على وجهه . . وانهالا عليه رفساً . . . حتى غمر الدم وجهه كله !

فقال الفتى وقطب ما بين الحاجبين ، وكتفاه يرتعشان :

– انهم يعرفون كيف يفعلون ذلك ! أنا أخاف منهم كما أخاف من ألف شيطان . هل ضربه الفلاحون أيضاً ؟

– لطمه واحد منهم عندما أمره رئيس الشرطة بذلك . ولكن موقف الباقين كان رائعاً ، لا بل وقفوا الى جانبه أيضاً ، وصاحوا بهم أن لا حق لهم في ضربه . . .

– لقد بدأ الفلاحون يدركون من هم الذين يدافعون عنهم ، ولماذا يدافعون .

– ثمة أناس عاقلون بين الفلاحين أيضاً . . .

– ثمة أناس عاقلون في كل مكان . هي الحاجة تجعلهم على ما هم عليه . لكن الصعوبة هي في العثور عليهم .

وحمل نيقولاي زجاجة من الكحول ، ودس قليلاً من الفحم في السماور ، ثم خرج دون أن يقول شيئاً . وكان اغناطي يراقبه في فضول . سأل الأم في همس عندما أصبح نيقولاي خارج الغرفة :

– من هو السيد ؟ . . . طبيب ؟

– ليس سادة بين هؤلاء الذين يشتركون في هذا العمل . كلنا رفاق . . .

فقال اغناطي ، وابتسامة تشير الى الارتباك والارتياب تتراقص على شفتيه :

– يبدو لي ذلك مضحكاً !

– ما الذي يبدو مضحكاً ؟

– الأمور بصورة عامة . فمن جهة يدمون لك أنفك ،

ومن جهة اخرى يغسلون لك قدميـك ؛ وفي الوسط ، ماذا يوجد ؟

فتح الباب ، وقال نيقولاي من خلاله :

– في الوسط يوجد اولئك الناس الذين يلحسون أيدي من يدمي أنوفكم ، ويمتصون دماء من تدمى أنوفهم . ذلـك ما في الوسط !

اسامَ اغناطي نظره اليه في احترام ، ثم قال بعد صمت قصير :

– ما اقرب ذلك الى الحقيقة !

ونهض ، وخطا بضع خطوات ثابتة ، ثم قال :

– لكأنهما قدمان جديدتان . شكراً لكم . . .

زرفوا الى غرفة الطعام كي يحتسوا الشاي ، فراح اغناطي يحدثهما عن حياته وهو يتكلم في صوت عميق :

– لقد اعتدت ان اوزع صحيفتنا . إني مشّاء عظيم .

فسأل نيقولاي :

– أيقرؤها كثيرون في الريف ؟

– جميع المتعلمين ، وحتى الاغنياء منهم . ولا يأخذهـا الأغنياء منا نحن طبعاً . . . انهم يدركون تماماً ان الفلاحين سوف يغسلون الأرض بدمائهم ويطهرونها من الملاكين . فإذا فعلوا ذلك مرة اقتسموها فيما بينهم ، فلا يبقى بعد ذلك ملاكون ورجال بالأجـرة . . . ذلـك واضح جداً ، والا فلمَ نبدأ القتال ؟

وبدا كأنه غضب ، وراح يرمق نيقولاي مستفهمـاً مرتاباً ، فابتسم هذا ولم يقل شيئاً .

– واذا رحنا جميعنا اليوم نقاتل وننتصر كي يكون في الغد اغنياء وفقراء مرة أخرى . . . فأي معنى في ذلك ؟ لا ، شكراً ! اننا لن نخدع ! فالثراء مثل الرمال الجافة . . . لا تقبع في مكانها هادئـة قط ، بل تعود فتتبعثر في كل حدب وصوب . اوه ، كلا . . . نحن لن نقبل بهذا أبداً .

فمزحت الأم ، وقالت :

– حسناً ، لا حاجة لك لأن تغضب بسبب ذلك .

وقال نيقولاي متفكراً :

– ما يشغل بالي هو كيف يمكننا ان نسرع ونوصل ذلك المنشور عن اعتقال ريبين الى قريتك !

فتيقظ اغناطي ، واصاخ بأذنيه . سأل :

– اهناك مثل هذا المنشور ؟

– نعم .

فاقترح ، وهو يفرك يديه :

– أعطني اياه ، وسأحمله انا .

ضحكت الأم بصوت خافت دون ان تنظر إليه . قالت :

– ولكنك متعب ، وقد قلت انك خائف .

فسرّح اغناطي شعره الجعد الى الوراء براحته العريضة ، قائلاً بلهجة جدية :

– الخوف شيء والعمل شيء آخر . لمَ تضحكين ؟ لغريبة حقاً ، أنت أيضاً !

فهتفت الأم بالرغم منها ، مستسلمة للسعادة التي أثارها فيها :

– آه ، يا طفلي الصغير !

فابتسم خجلاً ، وقال :

– بخ ، أنا طفل ؟

فقال نيقولاي ، وهو يرمقه بنظرة عطوف من عينيه المضيّقتين :

– انك لن تعود الى هناك . . .

فسأل أغناطي ، وقد ساوره القلق :

– ولم لا ؟ الى اين اذهب اذن ؟

– سيأخذ المنشور شخص آخر ، اما انت فما عليك إلا اعطاءه التعليمات المفصّلة عما يجب أن يفعل وكيف . . . أتوافق ؟

فقال اغناطي ، اخيراً ، بلهجة من خاب امله :

– حسناً !

– وسوف نؤمن لك أوراقاً جديدة مضمونة ، ونسند اليك عمل خفير في الغابات .

رفع اغناطي رأسه بسرعة وسأل في قلق :

– وماذا أفعل اذا جاء الفلاحون يقطعون حطباً أو يأخذون اي شيء آخر ؟ . . . هل أمسكهم وأقيّدهم ؟ كلا ! هذا العمل لا يلائمني . . .

ضحكت الأم ، وضحك نيقولاي كذلك ، الأمر الذي آلم الفتى وضايقه مرة أخرى ، فقال له نيقولاي معزياً :

– لا تقلق ، فلن تحتاج الى تقييد أي فلاح كان . أعطيك عهداً بذلك .

فقال أغناطي ، وابتسامة سعيدة تشرق على شفتيه :

– حسناً . ولكني افضل الحصول على عمل في مصنع . يقال ان فتيان المصانع اذكى من سواهم .

فنهضت الأم عن المائدة ، واقتربت من النافذة . فكّرت :

– يا للحياة من شيء غريب ! يضحك المرء خمس مرات في اليوم ويبكي مثلها . حسناً ، هل انتهيت ، يا اغناطي ؟ هيا ، وارقد قليلاً . . .

– ليس بي حاجة الى النوم . . .

– هيا ، هيا . . .

– انت دقيقة وصارمة جداً ! حسناً ، اني ذاهب . . . شكراً من اجل الشاي . . . ومن اجل لطفكما . . .

وبينما هو يتسلق سرير الأم ، حكّ رأسه وتمتم :

– كل هذه الأشياء ستفوح هنا برائحة القطران . . . لا معنى في كل هذا . . فلست ناعساً . . . لشدّ ما كان سريعاً في كلامه عن أولئك الذين في الوسط . . . يا للشياطين . . .

شخر بغتة بضوضاء ، واستغرق في النوم ، فمه نصف مفتوح ، وحاجباه مرتفعان .

٢١

كان يجلس ، في ذلك المساء عينه ، على الكرسي قبالة فيزوفشيكوف في غرفة صغيرة في أحد الاقبية ، يقول له بصوت خافت مقطبا حاجبيه :

– اربع مرات على النافذة الوسطى . . .

فسأل نيقولاي في قلق :

– اربع ؟

– في البدء ثلاث ، هكذا . . .

وقرع باصبعه المرات الثلاث على المائدة .

– واحدة ، اثنتان ، ثلاث . انتظر ثانية ، ثم مرة رابعة .

– فهمت .

– وسيفتح لك الباب فلاح أحمر الراس ، ويسأل : «أجئت من أجل القابلة ؟» فتقول : «نعم ، من قِبَلِ زوج صاحب المصنع» . هذا كل شيء ، ولسوف يفهم .

جلسا متقاربي الراس ، كلاهما فتى قوي البنية مفتول العضلات ، يتكلمان بأصوات خافتة بينما الأم تراقبهما وذراعاها متصالبتان على صدرها ، وهي واقفة قرب المائدة ، مبتسمة بينها وبين نفسها من كل تلك الضربات وكلمات السر . هجست في خاطرها :

«لمّا يزالا ولدين . . .»

كان مصباح معلق على الحائط ينير سطولا عتيقة وقطعا من حديد السقوف مبعثرة هنا وهناك على أرض الغرفة الممتلىء جوها برائحة العفونة ودهان الزيت والصدأ .

كان اغناطي يرتدي معطفاً ثقيلاً مصنوعاً من نسيج وبري يروقه كثيراً فيما يظهر . بينا الأم تنظر اليه يمسح على كمه في حنان ، ويمد في جهد عنقه الضخمة كي يتفرج على نفسه . فكّرت ، وحنان دافىء يغمر قلبها :

«يا ولديّ العزيزين . . .»

قال اغناطي ، وهو ينهض :

– حسناً ، لا تنسَ أن تذهب إلى موراتوف أولاً ، وتسأل عن الجد . . .

فأجاب فيزوفشيكوف :

– لن أنسى !

ولكن اغناطي لم يقتنع بذلك كما يبدو ، فأعاد كل الضربات والاشارات وكلمات السر قبل أن يمدّ يده أخيراً ويقول :

– بلّغهم أشواقي ، ولسوف ترى أنهم قوم طيبون . . .

ورشق نفسه بنظرة راضية ، ومسح على ذيل معطفه ، وسأل الأم :

– هل آن لي الذهاب ؟

– اتستطيع أن تجد الطريق ؟

– سأجدها . . . الى اللقاء ، أيها الرفاق !

خرج منتصب القامة ، عريض المنكبين ، مرفوع الصدر ، وقبعته الجديدة مائلة فوق احدى أذنيه ، ويداه مدفوعتان عميقاً في جيبيه ، وخصل من شعر جعد أشقر تموج على صدغيه .

قال فيزوفشيكوف ، مقترباً من الأم في تماعل :

– وهكذا فقد مُنِحْتُ الآن عملاً . لقد بدأت أضجر وأتساءل لمَ هربت من السجن ، فأنا لا أفعل هنا شيئاً الا الاختباء ليلاً ونهاراً ، بينما كنت أستطيع هناك أن أتعلم شيئاً . لقد كانت طريقة بافل التي تجعلنا نستفيد من عقولنا رائعة حقاً . ماذا تمّ في شأن فرارهم ، يا نيلوفنا ؟

فقالت ، وهي ترسل زفرة بالرغم منها :

– لا ادري !

فوضع نيقولاي يداً ثقيلة على كتفها واقترب بوجهه منها ، وقال :

– اقنعيهم انت ، فسوف يصغون اليك . ذلك بسيط للغاية . انظري بنفسك ، ههنا يقوم جدار السجن ، والى جانبه عامود احد مصابيح الشارع ، يقابله تماماً ميدان خال ، والى اليسار المقبرة ، والى اليمين شوارع وبنايات . . . ولسوف ياتي احد شعلة المصابيح لينظف ذلك الفانوس في وضح النهار ، فيلقي سلماً على الحائط ويتسلق عليه ويثبّت طرف سلم من الحبال بإحدى القرميدات في قمة الجدار ، ثم يلقي به الى فناء السجن و . . . هذا كل شيء ! وهم يعرفون ، داخل السجن ، متى سيحدث ذلك ، ويقنعون المجرمين العاديين بأن يثيروا بعض الاضطراب ، او يثيرونه هم انفسهم حتى يعطوا الحرس شيئاً يفكرون فيه ، في حين يتسلق الفارون السلم ويولون الادبار . . . واحد ، اثنان ، وينتهي كل شيء . . . ما ابسط ذلك !

كان يلوّح بيديه امام وجه الأم وهو يشرح خطته البادية كثيرة الوضوح والبساطة والفطنة . لقد عرفت نيقولاي ثقيلاً متجهماً دائماً ، ولقد كان فيما سبق ينظر الى سائر الأشياء في ارتياب وحقد خبيث . أما الآن ، فالمرء يخاله ولد من جديد . فيشع منه نور دافئ ثابت اكتسب قلب الأم واثار مشاعرها . . .

– فكري انهم سوف يفعلون ذلك في وضح النهار ، وفي

وضح النهار تماماً . لن يرتاب انسان في انّ سجيناً يجرّب الهرب في وضح النهار والسجن كله مفتوح العينين يقظ حذر !

فاستجلت الأم ، وارسلت زفرة عميقة :

– افلا يمكن ان يطلقوا الرصاص ؟

– من ؟ ليس ثمة جنود ، والحرس يستعملون مسدساتهم ليدقوا المسامير بها . . .

– ذلك يلوح بسيطاً جداً . . .

– ولكنك ستتحققين من ذلك بنفسك . أقنعيهم به . ولقد أعددت أنا كل شيء : السلم الحبلي ، والكلاليب . وصاحب بيتي هذا سيكون موقد المصباح . . .

وسعل شخص ما في الجهة الثانية من الباب ، وأثار بعض الضجيج بين قطع من الحديد .

– هذا هو !

برز في فرجة الباب مغسل من القصدير . . . وغمغم صوت أجش في الوقت نفسه :

– اعبُر من هنا ، أيها الشيطان . . .

وقعت أبصارهما الى الأعلى من المغسل على رأس مدوّر بلا قبعة ووجه رقيق السيماء ذي عينين جاحظتين ، وشعر وشارب اشيبين .

ساعده نيقولاي في نقل حمله ، فزرف الى الغرفة رجل طويل القامة ، محدودب الظهر ، سعل وهو ينفخ وجنتيه الحليقتين ، ويبصق على الأرض ، ثم حياهما بصوت أجش :

– السلام عليكما . . .

فهتف نيقولاي :

– اليك ، فاستوضحيه .

– تستوضحني ماذا ؟

– عن موضوع الفرار . .

فقال السمكري ، وهو يمسح شاربيه بأصابع سود ملونة :

– آه ! آه !

– انها لا تؤمن بسهولة ذلك ، يا ياكوف فاسيليفيتش .

– لا تؤمن بذلك ؟ اذن فانا أعتقد أنها لا تريده . أما أنت وأنا فنريده ، ولذلك نؤمن به !

قال السمكري ذلك في هدوء ، ثم تقوّس فجأة ، وانطوى على نفسه وهو يسعل بشدة حتى اذا انتهت نوبة السعال وقف فترة طويلة في وسط الغرفة ، يفرك صدره ويتمعن في الأم بعينيه الجاحظتين ويشخر . قالت الأم :

– سيقرر بافل ورفاقه هذه الامور .

فاطرق نيقولاي برأسه متفكراً ، فيما سأل السمكري وهو يقتعد كرسياً :

– من هذا ، بافل ؟

– ولدي .

– وكنيته ؟

– فلاسوف .

فأشار برأسه ، وتناول كيس تبغه ، وطفق يحشو غليونه . قال باقتضاب :

– سمعت عنه . وابن أخي يعرفه . ابن أخي في السجن

أيضاً – اسمه يفشينكو . أسمعت عنه ؟ أما اسمي نجوبون . عن قريب سيلقون بكل الفتيان وراء القضبان ، وبذلك يخلو الجو لنا ، نحن الشيوخ ! لقد قال لي رئيس الدرك انه سيرسل ابن أخي الى سيبيريا ، وانه لقادر على ذلك ، هذا الكلب !

واستدار الى نيقولاي ، وشرع يدخن غليونه وهو يبصق على الأرض من وقت لآخر . قال :

– وهكذا ، فهي لا تريد هذا ؟ ذلك من شأنها . عندما يكون المرء طليقاً فهو حرّ أن يمشي إن كان متعباً من القعود ، أو يقعد ان كان متعباً من المسير . ان سرقوك فاغلق عينيك . . . وان ضربوك فلا تصرخ . . . وان قتلوك فانك تضطجع هناك . . . كل انسان يعرف هذا . ولكني سأنتزع سافكا ابن أخي من هناك ، سأنتزعه بكل تأكيد .

ذهلت الأم لجمله القصيرة المتلاحقة في شبه عواء . ولكن كلماته الأخيرة أثارت الحسد في قلبها .

كانت تفكر في نيقولاي وهي تسير على طول الشارع ، تتلقى الريح الباردة ورذاذ المطر في وجهها :

«لشدّ ما تبدل ! أصبح رجلا حقيقياً !»

وتذكرت جوبون ، فومض في خاطرها في شبه صلاة تقريباً :

«مما لا شك فيه أني لست الوحيدة التي عادت الى الحياة ، وبدأتها من جديد ! . .»

وفي اللحظة نفسها ، طفح قلبها بالأفكار عن ولدها :

«لو أنه يقبل !»

٢٢

بينما هي تودع بافل في الأحـــد التالي في مكتب السجن ، أحست به يدفع في راحتها كرة صغيرة من الورق ، فانتفضت كأن الكرة أحرقت يدها ، ونظرت الى وجه فتاهـــا في تساؤل صامت ، ولكنها لم تجد في محياه اي جواب عن تساؤلهـــا . كانت عيناه الزرقاوان تفتران عن ابتسامتهمـــا المألوفـــة ، الهادئة والحازمة في وقت واحد . قالت ، وهي تتنهد :

– الى اللقاء !

مدّ فتاها يده مرة أخرى ، واكتسى وجهه ، لحظة عابرة ، بظل من حنان :

– الى اللقاء ، يا أماه !

فانتظرت دون أن تفلت يده . قال :

– لا تقلقي ، ولا تغضبي أيضاً !

كانت هذه الكلمات ، وذلك الخط العنيد المرتسم علـى جبهته ، الجواب المنتظر .

غمغمت ، ووهي تطرق برأسها :

– يا الهي ! ما هذا الذي تقول ؟ . .

أسرعت في الخروج دون أن تنظر اليه مجدّداً حتى لا يرى الدموع في عينيها ، والارتعاش في شفتيها . وبدا لهـــا طوال الطريق الى الدار أن اليد التي تحمل الورقة تؤلمهـــا ، وان ذراعها برمتها تتدلى ثقيلة فكأنها تلقت لكمة على كتفها . ولم تكد تبلغ الدار حتى أعطت الرسالة الى نيقولاي ووقفت تنتظره

وهو يسوي غضون الورقة ، وفي قلبها خفقان من رجاء . ولم يبرر نيقولاي ذلك الخفقان ، قال :

– بالطبع ! اليك ما يكتب : «لن نحاول الفرار ، أيهـــا الرفاق . اننا لا نستطيع ، ليس احد منا يستطيـــع . فنحن سنخسر احترامنا لأنفسنا ان فعلنا ذلـــك . ولكن جربوا أن تساعدوا ذلك الفلاح الذي اعتُقل حديثاً . انه في حاجـــة الى عنايتكم ، وهو جدير بكل ما تستطيعون من أجله . انـــه يتعذب كثيراً ههنا ، وفي كل يوم يتقاتل مع السلطات . وقد قضى حتى الآن أربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة الانفرادية ، ولسوف يعذبونه حتى الموت . اننا جميعاً نشفع له . عزّوا والدتي وتلاطفوها ، واوضحوا لها كل شيء ، وهي ستفهم» .

رفعت الأم رأسها ، وقالت في صوت خفيض يتخللـــه الارتعاش :

– ماذا هناك للايضاح ؟ اني أفهم !

واستدار نيقولاي جانباً بسرعة ، تناول المنديل ، وتمخط بشدة وضجيج .

غمغم :

– يبدو اني أصبت بزكام . . .

رفع يديه يصلح من وضع نظارتيه ، ثم قال وهو يتمشى جيئة وذهاباً في الغرفة :

– الحقيقة أنه ليس لدينا على اية حال متسـع مـن الوقت . . .

فقالت الأم عابسة ، بينما الكآبة تثقل على قلبها وتغمره مثل ضباب كثيف :

– لا بأس في ذلك ، فليقدموه الى المحكمة !

– اليك ، لقد تلقيت قبل هنيهة رسالة من احد الرفاق في بطرسبرج . . .

– وعلى اية حال ، فهو يستطيع الفرار من سيبيريا ، أفليس كذلك ؟

– طبعاً ! ذلك يقول إن المحاكمة ستجري عما قريب ، وان الحكم قد اتفق عليه منذ الآن . . . النفي لهم جميعاً . هل تفهمين ؟ هؤلاء الأشقياء التافهون يجعلون من قضائهم اضحوكة دنيئة . تصوري ذلك . . . الادانة قرّرت في بطرسبرج حتى قبل انعقاد المحكمة .

فقالت الأم في ثبات :

– لا تبالِ بهذا ، يا نيقولاي ايفانوفيتش ، فلا حاجة بك الى ايضاح الأمور لي أو تعزيتي . بافل لا يرتكب الخطل قط ، ولن يرضى بأن يتألم هو وجميع رفاقه من أجل لا شيء . وهو يحبني . . . اجل ! وانت تستطيع أن ترى من تلقاء نفسك كيف يفكر فيّ على الدوام . انه يقول : أوضحوا لها الأمور ، عزوها . أليس كذلك ؟ . .

وراح قلبها يخفق بعنف ، فيدور رأسها لشدة انفعالها . هتف نيقولاي بصوت مرتفع غير معهود منه :

– ابنك شخص رائع ، وانا أكنّ له عظيم الاجلال !

فاقترحت الأم :

– فلنبحث عن طريقة لمساعدة ريبين .

كانت تودّ أن تصنع شيئاً في التوّ واللحظة . . . أن تذهب الى مكان ما . . . أن تمشي حتى تسقط اعياء . . .

قال نيقولاي ، وهو يدبُّ على ارض الغرفة :

– حسناً ، اننا نحتاج الى ساشنكا . . .

– لسوف تاتي ، فهي تاتي دائماً في الأيام التي أزور بافل فيها . . .

جلس نيقولاي على الأريكة الى جانب الأم ، واطرق برأسه مفكراً وهو يعضّ شفته ويعبث بلحيته :

– لمما يؤسف له ان أختي بعيدة . . .

– ما أروع أن نحقق ذلك وبافل لما يبرح هناك . . . ذلك سيسعده كثيراً !

سكتا فترة من الوقت قالت الأم بعدها بغتة في همس وتماهل :

– لا افهم لماذا لا يريد ذلك . . .

فهبّ نيقولاي ناهضاً ، ولكن الجرس قرع في تلك اللحظة بالذات ، فتبادلا نظرات سريعة . قال نيقولاي في صوت خافت :

– هذه ساشا دون ريب .

فسألت الأم بمثل خفوت صوته :

– كيف سنقول لها ذلك ؟

– آه . . . بلى . . .

– اني آسف كثيراً من أجلها . . .

تردد القرع من جديد ، لكن أقل حزماً هذه المرة ، فكأن الشخص الواقف الى الباب يتردد في الدخول . واندفع نيقولاي والأم كلاهما نحو الباب معاً ، ولكن نيقولاي وقف جانباً عندما بلغ باب المطهى ، وقال :

– الأفضل ان تذهبي وحدك . . .

ولم تكد الأم تفتح الباب حتى سألتها الفتاة في شجاعة وثبات : – هل أبي ؟
– نعم .
– كنت اعرف ذلك .

قالت ساشا هذا بكل بساطة ، ولكن وجهها شحب حتى أضحى أبيض اللون . فكت أزرار معطفها ثم زررت بعضاً منها ، وحاولت عبثاً أن تخلع المعطف عن كتفيها . . . قالت :
– رياح ومطر . . . يا للطقس الفظيع ! اهو في صحة جيدة ؟
– نعم .

فقالت في صوت خفيض ، وهي تتفحص يدها :
– مرح وفي صحة جيدة .

فردت الأم ، دون أن تنظر اليها :
– لقد كتب يقول : علينا أن نجرب انقاذ ريبين .

فأجابت الفتاة في تمهل :
– حقاً ؟ يتراءى لي أن علينا الاستفادة من مشروعنا .

وهتف نيقولاي ، وهو يبدو بغتة في فرجة الباب :
– وهذا ما أفكر فيه أنا أيضاً . مرحباً ، يا ساشا !

فمدت الفتاة يدها اليه . سألت :
– ولِمَ ننتظر ؟ الجميع يعترفون بأنه مشروع حسن ؟
– ولكن مَن يطبقه ؟ الجميع مشغولون . . .

فقالت ساشا بسرعة ، وهي تنهض واقفة :
– سأفعل ذلك ، فلدي الوقت الملائم له .
– حسناً ، عليك أن تسألي الآخرين اذن . . .

– سوف أسألهم ، سأذهب اليهم حالاً .

وشرعت تبكل أزرار معطفها مرة أخرى بحركات ثابتة من أصابعها النحيلة .

قالت الأم :
– يجب أن تنالي بعض الراحة قبلاً !

فأجابت الفتاة بابتسامة هادئة وبصوت الطف مما قبل :
– لست متعبة . لا تقلقي من اجلي . . .

صافحتهما في سكون وخرجت ، صارمة الوجه باردة التقاطيع كعادتها .

ذهب نيقولاي والأم الى النافذة يراقبانها وهي تعبر الفناء وتختفي وراء البوابة ، ثم أرسل نيقولاي من بين شفتيه صفيراً رقيقاً ، وجلس الى المائدة وشرع في الكتابة . قالت الأم بصوت خافت متفكر :
– لسوف يخفف هذا العمل عنها كثيراً !
– بالطبع !

قال نيقولاي ذلك ، واستدار الى الأم وعلى وجهه اللطيف ابتسامة حلوة .

تابع :
– يبدو أن تلك الكاس وفرت عنك ، يا نيلوفنا ، واخال أنك لم تعرفي قط معنى اللهفة والشوق الى رجل تحبينه .

فأجابت الأم ، ملوحة بيدها :
– ايه ! العاطفة الوحيدة التي احسست بها هي الخوف من أن يزوجوني هذا الرجل او ذاك .

– الم تغرمي بأحد قط ؟

فكرت برهة ثم اجابت :

– لست أذكر يا عزيزي . واعتقد اني اغرمت ، لا بدّ اني اغرمت بأحد ما ، ولكنني لا أذكر .

حدجته بانظارها ، ثم تابعت في لهجة حزينة وبكل بساطة :

– لقد ضربني زوجي كثيراً حتى انتزع من راسي كل ما حدث لي قبل زواجي منه .

واستدار نيقولاي الى المائدة ، بينما خرجت الأم من الغرفة برهة قصيرة . وعندما عادت ، نظر نيقولاي اليها في عطف ، وبدأ يقول كانه يلمس ذكرياته بكلمات اللطف والحب :

– اما بالنسبة الي ، فقد مررت في تجربة أشبه ما تكون بتجربة ساشا . كنت أحب احدى الفتيات . وكانت فتاة رائعة ! كنت في العشرين من عمري تقريباً عندما التقيت بها ، ولقد احببتها منذ ذلك الحين . واقول بصراحة انني لأحبها الآن مثلما احببتها يومذاك تماما . . . من كل قلبي ، وفي امتنان ، والى الأبد . . .

ورات الأم ، من حيث كانت تقف الى جواره ، النور البراق الدافىء المشع من عينيه ، وقد وضع يديه على مسند احد المقاعد ، واراح راسه عليهما وراح ينظر الى مكان ما بعيد بعيد ، وكل جسده ، النحيل والمتين البنيان في الوقت ذاته ، ينجذب نحو رؤيا جميلة ، مثلما تنجذب الزهرة نحو الشمس النيرة .

نصحت الأم :

– لتتزوجها اذن . ما معنى في الانتظار !

– اوه ! لقد تزوجت منذ أربعة اعوام . . .

– ولمَ لم تسبق وتتزوجها ؟

فاستغرق في التفكير برهة ، ثم قال :

– لم تسنح لنا الفرصة ، ان صح التعبير : عندما أكون انا حراً ، فهي في السجن والمنفى ؛ وعندما تكون هي طليقة ، فانا سجين . وذلك يشبه وضع ساشا الى حدّ بعيد ، أقول والحق ! واخيراً نفوها الى سيبيريا لمدة عشرة أعوام . نفوها الى احدى المناطق الأبعد . واردت الذهاب معها ولكنني خجلت ، وكذلك خجلت هي أيضاً . وهناك التقت برجل آخر ، فتى رائع للغاية – واحد رفاقي . وقد هربا معاً ، وهما الآن يعيشان خارج الحدود . . . هم – م . . .

رفع نيقولاي نظارتيه ومسحهما ، ثم عرضهما على النور يتحقق من نظافتهما . وعاد يمسحهما مرة أخرى .

وهتفت الأم في حنان ، وهي تهز راسها :

– اواه ، يا صديقي العزيز !

رثت له من صميم قلبها ، ولكن شيئاً فيه كان يدفعها في الوقت نفسه الى الابتسام بحرارة ، بعاطفة الأم الرؤوم . واحسن نيقولاي من جلسته وتناول الريشة من جديد ، وراح يلوّح بها في تناسق مع كلماته ، وهو يقول :

– الحياة العائلية تنقص طاقة الثوري . . . انها تفعل ذلك دائماً . الأطفال ، والحرمان ، وضرورة العمل لاطعام العائلة . . ينبغي للثوري ان يضاعف طاقته باستمرار ،

بحيث تستطيع فعاليته ان تتسع وتتعمق أكثر فأكثر . الايام تتطلب ذلك ، فمن واجبنا ان نسير دائماً في مقدمة الجميع ، لأننا نحن العمال الذين اختارهم التاريخ لتدمير العالم القديم وبناء عالم جديد ، اذا تقاعسنا في المؤخرة ، مستسلمين للاعياء أو تخدير فوز حقير ، فاننا مسؤولون اذن عن أذى يقارب خيانة القضية . ليس هناك من نستطيع السير معه جنباً الى جنب دون أن نلحق الضرر بأيماننا ، ونحن يجب الاّ ننسى قط أن واجبنا ليس فوزاً صغيراً عارضاً . . . بل الانتصار التام الأخير . . .

أصبح صوته ثابتاً ، ووجهه شاحب اللون ، وعيناه تبرقان بتلك القوة الهادئة المتماسكة المألوفة عنده .

قرع الجرس مرة أخرى وقاطع حديث نيقولاي . دلفت لودميلا من الباب مضرجة الخدين بفعل الصقيع ، في معطف ارقّ من ان يدفع عنها زمهرير الفصل البارد .

قالت في غضب ، وهي تخلع جزمتيها المطاط المهترئتين :

– ستجري المحاكمة في الأسبوع المقبل !

فصاح نيقولاي من الغرفة المجاورة :

– أمتأكدة أنت من هذا ؟

انطلقت الأم نحوه ، لا تدري على وجه التحقيق ان كان الخوف او الفرح هو الذي يثير كل ذلك الضجيج في صدرها . ولحقت لودميلا بها ، تقول وفي صوتها العميق ظل من سخرية :

– إني متأكدة ! . . وهم لا يخفون في المحكمة حقيقة اصدار الإدانة سلفاً . . . كيف تستطيع أن تفسر مثل هذا الأمر ؟ هل تخاف الحكومة أن يعامل موظفوها أعداءها في شيء

من اللين ؟ هل تخاف الا يكون اجراؤها اوغاداً آخر الأمر ، بالرغم من كل الزمن والطاقة اللذين صرفتهما في افسادهم ؟

جلست لودميلا على الأريكة تفرك خديها الناحلين بيديها . وعيناها تعبران عن ازدراء لاحدود له ، وصوتها يلتهب غضباً أكثر فأكثر .

قال نيقولاي ، ساعياً إلى تهدئتها :

– لا تضيعي طاقتك ، يا لودميلا . إنهم لا يسمعونك ، كما تعلمين . . .

اصغت الأم في انتباه عميق إلى كلماتها ، ولكنها لم تفقه منها شيئاً ، لأن فكرة واحدة فقط لم تكف عن الضجيج في ذهنها :

«المحاكمة . . . في الأسبوع المقبل !»

وبغتة أحست باقتراب قوة لا إنسانية ، قوة لا تعرف معنى للرحمة والشفقة مطلقاً .

٢٣

هكذا عاشت الأم في سحابة من البلبلة والكآبة والانتظار القلق طوال يومين آخرين ، وفي اليوم الثالث جاءت ساشا وتوجهت إلى نيقولاي بالخطاب قائلة :

– كل شيء جاهز . . . اليوم في الساعة الواحدة . . .

فسأل دهشاً :

– بكل هذه السرعة ؟

– ولِمَ لا ؟ ما كان عليّ سوى تأمين الثياب لريبين ،

وتدبير مكان يلجأ إليه . وقد اخذ جوبون على عاتقه القيام بكل شيء آخر ، وليس على ريبين سوى الذهاب بضع مئات من الأمتار فقط ، وسيلقاه فيزوفشيكوف ، متنكراً طبعاً ، ويلقي معطفاً على كتفيه وقبعة على راسه ، ويدله على الطريق . وساكون في انتظاره بلباس كامل له ، واقوده بقية الطريق .

فسأل نيقولاي :

– لا غبار على ذلك ، ولكن من هو جوبون هذا ؟

– انت تعرفه ، ففي غرفته كنت تعقد حلقتك الدراسية مع الميكانيكيين .

– آه ، تذكرت . عجوز غريب الأطوار . . .

فقالت ساشا متفكرة ، وقد انفذت بصرها من النافذة :

– إنه جندي متقاعد ، سمكري ، قليل الثقافة ، ولكنه يرعى حقداً هائلاً ضد العنف مهما كان ظاهره . وهو إلى ذلك فيلسوف الى درجة ما .

انصتت الأم في سكون . وفي ذهنها تنمو فكرة غامضة غير محدودة .

– ان جوبون يريد إنقاذ ابن اخيه ، اتذكر ييفشنكو ذاك ؟ كنت تحبه إذ كان رشيقاً دائماً ، ونظيفاً الى الدرجة القصوى .

فأشار نيقولاي براسه .

– لقد هيأ كل شيء على الوجه الأكمل ، ولكنني بدأت ارتاب في أن المحاولة ستكلل بالنجاح لأنها ستجرى ساعة النزهة ، وأنا اخاف أن يرغب عدد كبير من المساجين في الهرب ساعة يرون السلم فوق الجدار . . .

أغلقت عينيها وسكتت ، فاقتربت الأم منها .

– ولسوف يضايق بعضهم بعضاً بالطبع . . .

كان ثلاثتهم وقوفاً إلى النافذة ، والأم وراء نيقولاي وساشا ، يثير حديثهما السريع عواطف مختلفة في صدرها . قالت بغتة :

– ساذهب انا أيضاً !

فسألت ساشا :

– لماذا ؟

ونصح لها نيقولاي :

– لا تذهبي ، يا عزيزتي ، فقد يصيبك مكروه . لا تذهبي .

رمقته الأم طويلاً ، وقالت في صوت رقيق ، لكن في ثبات وعزم :

– كلا ، إني ذاهبة . . .

وتبادلا نظرات سريعة ، ثم قالت ساشا وهي تهزّ كتفيها :

– لقد فهمت . . .

استدارت نحو الأم تأبطت ذراعها ، وتمايلت نحوها وقالت بلهجة بسيطة رقيقة خفق قلب الأم لها :

– اريد أن اقول لك ان ما تتوقعينه عبث . . .

فصاحت الأم ، وهي تقرّبها منها بيد مرتعشة :

– يا حبيبتي ، خذيني معك ، ولن أضايقكم أبداً ! يجب أن أذهب ، فلست أعتقد أن . . . الهرب ممكن حقاً !

وقالت الفتاة لنيقولاي :

– إنها آتية معنا .
فأجاب ، وهو يطرق برأسه :
– ذلك من شأنك وحدك .
– ولكن يجب الا نكون معـــاً . انت تذهبين إلى حقول الخضروات ، ومن هناك تستطيعين رؤية جدار السجن . . . لكن ، كيف تفسرين وجودك هناك إذا استجوبوك ؟
فنبرت الأم مسرورة بلهفة :
– سوف أجد ما أقول .
فحذّرتها ساشا بقولها :
– لا تنسي ان حراس السجن يعرفونـــك ، فان رأوك هناك . . .
– لن يروني . . .
كان الرجاء المتولد في صدرها دون وعي منها يلتهب الآن في بريق عظيم وينعشها ، فتروح تفكر وهي ترتدي ثيابها في سرعة : «ربما هو أيضاً . . .» .
وبعد ساعة ، كانت الأم قد بلغت الحقل الممتـــد خلف السجن ، وريح صرصر تهب فتتعلق بثيابها ، وتلطم الأرض المتجلدة ، وتهزّ سور حديقة تمرّ بجوارها ، ثم ترمي بنفسها بكل ما فيهـــا من عزم على جدار السجن القليـــل الارتفاع ، وتسقط في فنائه فتلتقط من هناك صيحات بشرية ، وترسلها في اعصار نحو السماء حيث السحب المتلاحقة السريعة تنشق من وقت لآخر فتشكل ثغرات صغيرة الأبعاد في الجلَد الأزرق .
كانت الحدائق تستلقي وراء الأم بينا المقبرة تقوم إلى الأمام منها ، والسجن ينتصب على بعد سبعين قدماً تقريبـــاً

ناحية اليمين . وكان جندي يسوق جواده المربوط بالحبـــل حوله بالقرب من المقبرة ، وجندي آخر يقف دانياً منه وهو يضرب الأرض بحذائه صائحاً ، ضاحكاً ، ومصفرّاً . ولم يكن ثمة إنسان آخر في جوار السجن .
مرّت بالقرب من الجنديين في تمهـــل حتى بلغت السور المحيط بالمقبرة وهـــي تختلس النظر إلى الوراء وإلى اليمين منها . وفجأة ، أحست ركبتيها ترتخيان ، وقدميهـــا ينقلان فكان الجليد لصقهما بالأرض لصقاً . هذا موقد المصابيـــح المقوّس الظهر يبرز من وراء زاوية السجن ، وعلى كتفه سلم طويل ، عجلان الخطا كما ينتظر من موقدي المصابيـــح ان يفعلوا . وتطلعت الأم إلى الجنديين وعيناها تطرفان هلعاً ، فرأتهما ثابتين في مكانهما والجواد يحوم حولهما . . . وشخصت إلى الرجل ذي السلم ، فوجدته أسند سلمه إلى الجدار وراح يتسلقـــه في هدوء ، ثم لوّح بيده نحو فناء السجن ، وعاد يهبط بنشاط ليختفي وراء زاوية الجدار . وخفق قلب الأم في تسارع ، وراحت الثواني تتباطأ . وكان السلم لا يكاد يُرى إلا بصعوبة مسنداً إلى جدار السجن القاتم الملطخ بالأوحال حتى غاض اللون منه ، المبقّع هنا وهناك بالقرميـــد الأحمر الظاهر من وراء الجص المتساقط . وبغتة ، ظهر رأس أسود فوق الحائط ، ثم جسد تدحرج فوق قمة الجدار وهرول يهبط الجهة المقابلة ، ثم ظهر رأس آخر مغطى بقبعة شعثاء ، وقفزت على الأرض كرة سوداء ضخمـــة اختفت سريعاً وراء زاويـــة السجن . وانتصب ميخائيلو بقامته ، وحملق حواليه ، وراح يهزّ رأسه . . .

همست الأم ، وهي تضرب الأرض بقدمها :

– إهرب ، إهرب !

كان طنين يدوّي في أذنيها ، وصيحات عالية تبلغ سمعها من وراء جدار السجن . وظهر فوق الجدار راس ثالث ، فاطبقت الأم بيديها منقبضتين على صدرها ، وانشأت تراقب ما يجري منقطعة الأنفاس . واندفع الراس الأشقر الفتي ، الحليق الذقن ، في الفضاء ، كأنه اراد أن ينفصل عن الجسد ، لكنه اختفى فجاة خلف الجدار من جديد . واصبحت الصيحات أكثر ارتفاعاً وهياجاً ، فيما طفقت الريح تحمل ارتعاش الصفارات الحاد عبر الفضاء . سار ميخائيلو على طول الجدار حتى تجاوزها ، واخترق الحقل الخالي المرتمي بين السجن ودور المدينة . خيل إليها انه يسير في بطء شديد ، وانه يرفع راسه في الهواء كثيراً ، وأن كل من راى وجهه مرة فلن ينساه . همست :

– اسرع . . . اسرع . . .

وعلا رنين في الجهة الثانية من جدار السجن ، وبلغ سمعها صوت زجاج يتحطم . وكان أحد الجنديين يقف وقدماه مغروستان في الأرض ، وهو يشدُّ عنان الحصان ؛ بينا رفع الآخر قبضته إلى فمه ، وجعل يصيح بشيء ما في اتجاه السجن ، حتى اذا انتهى من صياحه ادار أذنه نحو الريح كي يلتقط الجواب .

وقفت الأم متوترة الأعصاب ، تدور براسها في كل الاتجاهات ، ترى عيناها كل شيء ، ولكنهما لا تصدقان مما تريان شيئاً . إن ما تخيلته معقداً مثقلاً بالمخاطر قد تمَّ

الآن في سرعة وبساطة أذهلتها عن نفسها واضعفتها الوعي . وقد اختفى ريبين الآن ، ولكن رجلاً مديد القامة ، يرتدي معطفاً طويلاً فضفاضاً ، يسير الآن على طول الطريق ، تعدو امامه فتاة في ميعة الصبا . وانطلق من وراء زاوية السجن ثلاثة حراس يركضون متلاصقين ، واذرعتهم اليمنى ممدودة إلى الأمام ، فذهب أحد الجنديين لملاقاتهم ، بينما استمر الآخر يكردح حول الحصان محاولاً امتطاء صهوته ، فيحرن الحيوان ويروح يقفز في الهواء باستمرار ، فيتراءى للأم أن كل شيء آخر حولها يقفز معه . وجاء صدى الصفير يقتطع الفضاء في عناد مجنون فيثير صياحه اليائس في المرأة شعوراً بالخطر ، فترتجف وتسير على طول سور المقبرة ، دون أن تحيد بناظريها عن الحرس حتى اختفوا مع الجنديين وراء زاوية أخرى من زوايا السجن . وسرعان ما لحق بهم شبح معاون المدير المألوف لديها ، وكان يرتدي معطفاً غير مزرّر . . . ومن مكان ما ظهر بعض رجال الشرطة وبدأ الناس يحتشدون .

وعصفت الريح في رقص إعصاري فكأنها تبتهج وتفرح ، وهي تحمل حتى أذني الأم فتاتاً من صيحات مختلطة ، وصفيراً متقطعاً . أبهجها الاضطراب فحثت خطاها ، وهي تفكر :

«كان في مكنته أن يفعل ذلك !»

وعلى غير انتظار . . . اندفع من وراء زاوية سور المقبرة شرطيان ، صاح أحدهما منقطع الأنفاس :

– قفي ! هل رأيت . . . رجلاً . . . ذا لحية ؟

فأشارت نحو الجنائن ،وقالت في هدوء :

– انطلق في ذلك الاتجاه . لماذا ؟
– ييجوروف ، انفخ في صفارتك !
رجعت الأم ادراجها الى الدار وهي تحسُّ الأسف على شيء ما ، وفي قلبها شعور بالمرارة والألم . ومرت عربـــة من امامها ، وهي تجتاز الشارع بعد ان قطعت الحقل ، فاختلست النظر الى داخلهـا لترى رجلاً فتياً اشقر الشارب ، شاحب الوجه متعبه . ولقد رآها هـو ايضـاً ، وكان يجلس منكمشاً على نفسه بحيث ارتفعت كتفه اليمنى على الكتف اليسرى .
استقبلها نيقولاي فرحاً :
– حسناً . ماذا حدث ؟
– يبدو ان كل شيء انتهى على ما يرام . . .
شرعت تقدم له تقريراً عن الهرب ، محاولـة أن تتذكر التفصيلات . ولكنها تحدثت كمن تروي قصة سمعتهـا من سواها ترتاب في صدقها وحقيقتها .
قال نيقولاي ، وهو يفرك يديه :
– الحظ في جانبنا ! الشيطان وحده يعرف كم كنت قلقاً لئلا يصيبك اذى . اسمعي ، يا نيلوفنا ! خذي مني نصيحة صديق وكفّي عن الخوف من تلك المحاكمـة . فكلما اقترب موعدها اقتربت حرية بافل معه . صدقيني ! ولعله سيهرب وهو في طريقه إلى المنفى اما المحاكمة فستكون هكذا على وجه التقريب . . .

اخذ يصف لها لوحة الجلسة . وبينما هو يتكلم أدركت ان ثمة شيئاً يخافه هو نفسه رغم جهوده لتهدئـة روعها . سألت ، على حين فجأة :
– هل تخاف أن أقول شيئـاً في المحكمـة ينبغي الا اقوله ؟ او اني سأرجوهم شيئاً ما ؟
فهبَّ ناهضاً على قدميه ، ولوّح بيديه مستغفراً ، وقال بلهجة مشبعة باللوم :
– بالطبع لا !
– إني خائفة ، وتلك هي الحقيقة . لكني لا أدري ممَّ اخاف !
وتوقفت عن الكلام ، يجول بصرها عبر الغرفة :
– اعتقد احياناً انهم سيقسون بالكلام على باشـا ، وسيقولون : انت ، ايها الفلاح ، انت ، يا إبن الفلاح ، ماذا تحسب نفسك ؟ وبافـل رجل عزيز النفس ، ولسوف يردُّ عليهم ، او سيروح أندريه يسخر منهم . وإن الآخرين نزقون ايضاً ، الأمر الذي يدفعك الى التفكير فيما سيحدث ان فقدوا صبرهم بغتة ، فادانتهم المحكمة . . . ادانتهم بحيث لا أراهم مرة أخرى أبداً !
فعبس نيقولاي دون أن يجيب ، وهو يعبث بلحيته . . .
وتابعت الأم في هدوء :
– ليس من وسيلة لنزع هذه الأفكار من راسي . وهذا هو السبب في ان المحاكمة . . مخيفة الى هذه الدرجـة . وعندما يشرعون يتفحصون كل شيء ويزنون كل شيء ، مـا

أرهب ذلك ! ليس الحكم هو المخوف ، بل المحاكمة . لست ادري كيف أعبّر عن ذلك . . .

واحست أن نيقولاي لم يفهمها ، فزاد ذلك في صعوبة التعبير عن مخاوفها .

٢٤

لم تفعل هذه المخاوف ، الأشبه بعفونة تعوق رطوبتها الثقيلة تنفسها ، سوى النموّ في صدرها . وعندما حلّ يوم المحاكمة أخيراً ذهبت إلى مكان انعقادها محنية الظهر تحت عبء نير يثقل على قلبها ويرهقها .

حيّاها في الطريق من يعرفها من الضاحية ، فكانت تنحني لهم دون أن تنطق حرفاً ، وهي تشق لها طريقاً بين الجماهير العابسة . والتقت في أروقة المحكمة ومقرها أقارب المتهمين : كانوا يتبادلون الملاحظات بأصوات خفيضة ، فتخال أن الكلمات عبث ، وأنها لا تستطيع لها فهماً . إنهم جميعاً مشربون بالألم نفسه المنتقلة عدواه إلى الأم ، وهي تدرك هذا فيضاعف الثقل وطأته على قلبها .

قال سيزوف ، وهو يُفسح لها مكاناً على الدكة :

– إجلسي ههنا بالقرب مني .

فجلست صاغرة ، أصلحت من هندامها ، ثم جحّظت النظر حواليها . كان مزيج من الشعاعات الخضر والحمر وخيوط صفر رفيعة للغاية تتراقص أمام عينيها . وتمتمت امرأة تجلس بالقرب منها :

– ابنك اضل فتانا جريشا الطريق واهلكه .

فقال سيزوف غاضباً :

– صه ، يا ناتاليا !

نظرت الأم الى المرأة ، فعرفت فيها أم صمونيلوف . كان زوجها يجلس بجانبها ، وهو رجل أصلع الرأس ، لطيف الطلعة ، ضامر الوجه ، عريض اللحية الحمراء المنتشرة كالمروحة ، يشخص إلى الأمام بإستمرار وقد ضيّق فرجة عينيه ، فترتجف لحيته .

كان نور قاتم ينسكب في قاعة المحكمة من خلال نوافذ عالية علق الثلج بها من الخارج . وكانت صورة كبيرة للقيصر تتدلى بين النوافذ في إطار كبير مذهب براق تختفي جوانبه وراء غضون الستر الثقيلة الكستنائية اللون المسترخية على جانبي النوافذ ، وإلى الأمام من الصورة مائدة مغطاة بقماش أخضر تحتل كل عرض الصالة تقريباً ؛ وإلى اليمين ، وراء بعض القضبان المشبكة ، كانت دكتان من الخشب تنتصبان جنب الجدار ، بينما يُشغل الشمال صفان من المقاعد المكسوة بقماش كستنائي اللون . وكان بعض الكتبة ، بياقاتهم الخضر وازرارهم المذهبة المصطفة فوق صدورهم وبطونهم ، يروحون ويغدون دون ضوضاء ، ووشوشة من الأصوات المكتومة تسبح بحياء في الجو المضطرب حيث تفوح رائحة حادة تشبه رائحة الصيدلية . كانت كل هذه الألوان والانعكاسات والأصوات والروائح تثقل على الأعين ، وتخترق الصدر مع الهواء المُستنشَق ، وتملأ القلب الفارغ بخوف راكد يمتزج به الاضطراب والهمود .

وتكلم بعضهم فجاة بصوت مرتفع ، فاجفلت الأم ، واذ رات الجميع ينهضون وقوفاً وقفت بدورها ممسكة بيد سيزوف . انفتح باب مرتفع إلى اليسار دخل منه ، مترنحاً ، رجل عجوز تغطي نظارتان عينيه الصغيرتين ، ويرتجف سالفان رقيقان اشيبان فوق عظام صدغيه . وكانت شفته العليا الحليقة تهوي في الشدقين الخاليين من الأسنان ، وذقنه وجنتاه البارزتان ترتاحان على ياقة لباسه المرتفعة ، الموحية بأن العنق معدومة تحتها . وكان يسنده من الخلف فتى طويل القامة يبدو كأن وجهه المدور الأحمر قد نُحت من الخزف ، ومن خلفهما يتقدم في تماهل ثلاثة أشخاص آخرين يرتدون البسة طرزت بالذهب ، يتبعهم ثلاثة آخرون في ثياب مدنية . انفقوا زمناً طويلاً حتى اتخذوا اماكنهم إلى المائدة الطويلة ، فإذا تمّ ذلك إنحنى أحدهم ، وكان محلول أزرار الثياب ، حليق الذقن ، متعب المحيا ، وانثال يهمس شيئاً في اذن الرجل العجوز ، وهو يحرك شفتيه المنتفختين في تثاقل وسكون . وجلس الرجل العجوز ، منتصب القامة بصورة غريبة ، عديم الحراك ، ينصت إلى ما يُهمس اليه ، والأم تميّز من وراء زجاج نظارتيه بقعتين صغيرتين عديمتي اللون .

وكان رجل طويل أصلع الراس يقف عند طرف المنضدة ، امام مكتب صغير ، ينظف حنجرته ويقلب الأوراق الموضوعة امامه .

انحنى الرجل العجوز إلى الأمام ، وشرع يتكلم . وقد تفوه بكلماته الأولى في وضوح ، أما الكلمات التي تلت ذلك فبدت كأنها تتدحرج فراراً عن شفتيه الرماديتين الرقيقتين :

– إني أعلن . . . أدخلوهم . . .

همس سيزوف للأم ودفعها برقة ثم نهض واقفاً :

– انظري !

انفتح الباب القائم خلف القضبان ، ودلف منه جندي يتنكّبُ سيفاً مجرداً ، يتبعه بافل وأندريه وفيودور مازين وكلا الأخوين جوسيف وصمائيلوف وبوكين وسوموف وخمسة شبان آخرين لا تعرف الأم أسماءهم . ابتسم بافل في لطف ، وافترّت شفتا أندريه عن ابتسامة عريضة وهو يهز رأسه . وتراءى لها ان ابتسامتهما ، ووجههما الحبيب ، وحركاتهما اللطيفة قد خففت من وطأة ذلك الجو الثقيل الكئيب المخيم على القاعة ، وحملت إليه النور حتى خبا بريق الذهب فوق الألبسة الرسمية . وانتعشت الأم ، واجتاحها تيار من القوة لتلك النفحة من الثقة الهادئة والقوة الحية اللتين حملهما المساجين معهم ، فيما ارتفعت وشوشة خافتة إلى الوراء منها ، حيث كان القوم حتى ذلك الحين يقبعون في هدوء وينتظرون في اعياء وكلل . همس سيزوف :

– ليسوا بخائفين !

وانفجرت أم صمونيلوف تبكي في هدوء . وصاح صوت صارم :

– صمتاً !

قال الرجل العجوز :

– يجب ان أحذّركم . . .

كان بافل وأندريه يجلسان متجاورين على الدكة الأولى

مع مازين وصموئيلوف والأخوين جوسيف . وكان أندريه قد حلق ذقنه ، وإن اطلق العنان لشاربيه حتى تدليا على جانبي فمه واشبها براسه المدور راس القط . وكان في محياه شيء جديد : سيماء صرامة وحدّة حول فمه ، وظلال ظلمة في عينيه . . . اما مازين فقد ظهر خطان أسودان على شفته العليا ، وتدوّر وجهه وقد امتلأ بعد أن كان نحيلاً . وكان صموئيلوف مجعد الشعر مثله أبداً ، وإيفان جوسيف يبتسم ما شاء له الابتسام . همس سيزوف ، وهو يخفض رأسه :

– آه ! فيودور ، يا فيودور !

ارهفت الأم السمع إلى الأسئلة غير الواضحة التي يطرحها الرجل العجوز على المساجين ، دون أن ينظر إليهم ، ورأسه يرتاح دون حراك في ياقته . واصغت إلى أجوبة فتاها الهادئة المقتضبة ، فخيل إليها ان رئيس المحكمة والقضاة المساعدين لا يمكن ان يكونوا قساة على ابنها ، واشراراً يريدون الأذى به . وبينا هي تتفحص الوجوه الجالسة الى المنضدة الطويلة ، ساعية إلى تخمين نتيجة المحاكمة ، راحت بارقة من الرجاء تنمو في قلبها وتتعاظم .

قرأ الفتى الخزفي الوجه وثيقة ما بنغمة رتيبة لا مبالية ، فرنّ صوته في القاعة يملؤها ضجراً يخدّر الحضور ، فكأن الرشد سُلب منهم . وكان أربعة محامين يحادثون المتهمين بأصوات خفيضة ، ولكنها حية . . . وكانت حركاتهم سريعة واسعة ، حتى أشبهوا طيوراً سوداً ضخمة .

وطفح المقعد القائم على أحد جانبي الرجل العجوز ببدانة قاضٍ دفنت عيناه الصغيرتان الناعستان في الشحم ، بينما

جلس على الجانب الآخر من الرجل العجوز قاض آخر محدودب الظهر ، أحمر الشاربين ، شاحب المحيا أراح في إعياء رأسه على مسند المقعد ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ، وراح يسبح تائهاً في لجة من التفكير . وكذلك كان النائب العام متعباً ، ضجراً . وجلست ، إلى الوراء من القضاة الشخصيات الهامة التالية : عمدة المدينة ، وهو رجل ضخم الجثة ، مهيب الطلعة ، قعد مستغرقاً في التفكير يداعب وجنته دون انقطاع ؛ رئيس مجلس النبلاء ، وهو رجل أشيب الشعر ، أحمر الوجه ، طويل اللحية عريضها ، لطيف العينين واسعهما ؛ ثم رئيس المحافظة ، وهو رجل عريض المعدة التي تسبب له – فيما يبدو – بعض الارتباك اذ طفق يغطيها بأذناب معطفه التي راحت تنزلق عنها باستمرار .

وارتفع صوت بافل يقول بثبات :

– ليس ثمة مجرمون وقضاة ، بل ثمة أسرى ومنتصرون ليس غير . . .

سيطر الهدوء على الجميع ، ولم تستطع الأم – طوال بضعة ثوان – أن تسمع شيئاً خلا صرير ريشة على الورق ، وخفقان قلبها أيضاً .

وبدا رئيس المحكمة منصتاً ينتظر ما يتلو ذلك . أما مساعدوه فاضطربوا وراحوا يتململون في مقاعدهم . قال أخيراً :

– همْ – مْ أندريه ناخودكا ! هل تعترف . . .

فنهض أندريه متباطئاً ، ودفع بكتفيه إلى الخلف ، وراح يفتل شاربيه وهو ينظر إلى الرجل العجوز من تحت حاجبيه

المنخفضين ، واجاب بصوته المالوف الناعم المتمهل ، هازاً كتفيه :

– ولكن باي ذنب اعترف ! اني لم أقتل أحداً ، ولم أسرق اي شيء . انا ، بكل بساطة ، اعارض شكلاً من الحياة يقود الناس إلى ان يسرقوا ويقتلوا بعضهم بعضاً . . .

فقال الرجل العجوز في جهد ولكن بوضوح :

– كن اكثر اقتضاباً في اجوبتك .

احست الأم هرجاً الى الوراء منها ، وشرع الناس يتهامسون ويتحركون ، فكانهم يتخلصون من خيوط العنكبوت التي نسجتها كلمات ذلك الفتى الخزفي الوجه . وهمس سيزوف :

– اتسمعين ما يقولون ؟

– اجب ، يا فيودور مازين . . .

فقال فيودور ، وهو يهب على قدميه :

– كلا ، لن اجيب !

كان وجهه ملتهباً ، وعيناه براقتين ، قد اختفت يداه – لسبب ما – خلف ظهره . وتاوه سيزوف ، واتسعت عينا الأم دهشة وذهولاً .

– لقد رفضت ان يكون لي محام للدفاع . وانا ارفض التفوّه باي شيء كان . إني اعتبر هذه المحاكمة غير مشروعة . من انتم ؟ هل اعطاكم الشعب الحق كي تحاكمونا ؟ كلا ، إنه لم يفعل . إني أرفض الاعتراف بسلطتكم !

وجلس ، وخبأ وجهه المضرّج خلف كتف أندريه .

اشار القاضي البدين إلى رئيس المحكمة ، وهمس شيئاً في اذنه . ففتح القاضي الشاحب الوجه عينيه ، ورشق

المساجين بنظرة جانبية ، وكتب بالقلم شيئاً على ورقة امامه . وهزّ رئيس المحافظة رأسه ، وحرّك قدميه بحذر حتى يريح معدته أكثر من ذي قبل ويغطيها بيديه ، كما مال الرجل العجوز ، دون أن يدير وجهه ، نحو القاضي الأحمر الشارب وهمس شيئاً في أذنه ، فاصغى إليه هذا الأخير مطرق الراس . أما رئيس مجلس النبلاء فاسرّ شيئاً الى النائب العام والعمدة يصغي إليهما ، وهو ما برح يداعب وجنته ، ثم راح رئيس المحكمة يتكلم من جديد بصوته الرتيب . همس سيزوف في اذن الأم مدهوشاً :

– إسمعي كيف يقطع عليهم الدرب ! ان موقفه افضل من موقف الآخرين في الحقيقة !

ابتسمت الأم دون أن تفهم شيئاً . كان كل ما يجري امامها يبدو لها مقدمة مملة عديمة الضرورة لذلك الشيء المخيف الذي سيحدث بعد هنيهة ، فيسحقهم جميعاً بهوله البارد . الا ان كلمات بافل واندريه ترددت قوية غير هيابة ، فكانهما يتكلمان في دارهما الصغيرة في الضاحية العمّالية لا امام منصة محكمة معقودة لإدانتهما ، كما ان انفجار فيودور اللاعب انعشها وبعث الحياة في قلبها . ثمة جراة تنتشر في قاعة المحكمة . وإذا أخذَ هرج القوم الجالسين وراءها بعين الاعتبار ، فإدراك ذلك ليس وقفاً عليها وحدها . سال الرجل العجوز :

– ما هو رايك ؟

فنهض النائب العام الأصلع الراس ، ووضع إحدى يديه على المكتب امامه وهو يلقي خطاباً سريعاً ويذكر ارقاماً

عديدة . ولم يكن في صوته ما يحمل على الخوف أبداً .

لكن إحساساً ناخساً راح ، في الوقت ذاته ، يثير القلق من جديد في قلب الأم ، احساساً غامضاً بوجود شيء عدائي في الجو لا يهزّ قبضته او يزعق بصوته ، بيد انه ينمو باستمرار بصورة خفية غير محسوسة على الاطلاق ، ويسبح في تكاسل حول القضاة حتى ليخال المرء انه يغمرهم في سحابة كثيفة تنصّلهم من كل ما يجري خارجاً عنها وتعزلهم عنه . نظرت إلى القضاة فوجدتهم غامضين لا قبل للادراك بفهمهم . إنهم لا يغضبون على بافل وفيودور كما كانت تتوقع . . . ولا يهينونهما . . . بل ليصوّر لها أنهم لا يعلّقون اية أهمية على الأسئلة التي يطرحونها ، فلهجتهم غير مبالية ، تعوزهم القوة على سماع الأجوبة عنها ، فكأنهم يعرفون سلفاً كل شيء ، وكان كل ما يجري لا يثير فضولهم أبداً .

وقف دركي امامهم ، وانهمر يقول خافض الصوت :

– بافل فلاسوف ، هو في راي الجميع ، المحرّض الرئيسي . . .

فسأل القاضي البدين في تكاسل وهدوء :

– وماذا عن ناخودكا ؟

– وهو كذلك . . .

فنهض احد المحامين ، وقال :

– أيمكن ان نقول كلمة ؟

فسأل الرجل العجوز :

– اثمة اعتراضات ؟

تراءى للأم أن سائر القضاة يشكون اعتلالاً في صحتهم ، وأن إعياء مريضاً يتجلى في تصرفاتهم واصواتهم ، وان وجوههم تحمل ذات الطابع من الإجهاد والضجر . وكان من الواضح أنهم يجدون كلّ هذه الأمور : البستهم الرسمية ، وقاعة المحكمة ، ورجال الدرك والمحامين ، وضرورة الجلوس في مقاعدهم ، يطرحون الأسئلة ويسمعون الأجوبة ، ثقيلة متعبة لا تطاق .

تقدم ذلك الضابط الأصفر الوجه الذي تعرفه إلى امامهم ، وهو الآن يروي ما يعلم عن بافل واندريه بصوت مرتفع شديد النبرات .

همهمت الأم في حنايا نفسها ، وقد اعارته أذنيها :

«لست تعرف الشيء الكثير !»

نظرت إلى الأشخاص الجالسين خلف القضبان ، دون خوف من أجلهم ودون شفقة عليهم . إنها لا تستطيع الرثاء لهم ؛ فهم لا يثيرون فيها إلا الدهشة ، ولا يبعثون في صدرها إلا تلك الموجة الدافئة من المحبة التي تفيض في قلبها الآن . وكانت الدهشة هادئة ، المحبة حية فرحة . كانوا يجلسون هناك شباناً أقوياء مستندين إلى الجدار ، لا يعيرون إلا القليل من الانتباه حديثَ القضاة والشهود الرتيب ، وحجج المحامين مع النائب العام . يضحك أحدهم في سخرية من وقت لآخر ، ويلقي بملاحظة إلى رفاقه فتمرُّ على وجوههم الابتسامة الساخرة نفسها . وكان بافل واندريه يهمسان دون انقطاع بشيء في اذن أحد المحامين الموكول اليه الدفاع عنهم ، وهو الذي راته الأم في العشية في دار نيقولاي . ومازين ، وهو

اكثر حيوية وانفعالاً من الآخرين جميعاً ، لا يفتأ ينصت الى حديثهم . وفي بعض الأحيان كان صموئيلوف يتمتم شيئاً لإيفان جوسيف ، فيردُّ عليه الآخر بلكزة من مرفقه ، ويبذل جهداً عظيماً كي يمتنع عن الضحك حتى ليصبح وجهه أحمر لون الدم ، وتنتفخ وجنتاه ، ويطاطئ براسه كي يخفي ما يبدو على محياه من تلك الامارات . ولقد انفجر ضاحكاً مرتين متواليتين ، فكان بعد كل مرة يجلس منكمشاً بضع دقائق محاولاً استعادة زمام نفسه . ولكن فتوّة طاغية كانت تفور في باطنهم تتحدى كل جهودهم لكبت غليانهم الرائع وتتغلب عليها بكل سهولة ويسر .

لمسها سيزوف في مرفقها ، حتى إذا استدارت إليه وجدته مسروراً ولكنه قلق بعض الشيء . همس :

— انظري كم أصبح هؤلاء الاشقياء أقوياء واثقين من انفسهم ؟ لكأنهم أسياد حقيقيون !

كان الشهود في قاعة المحكمة لا ينفكون يتحدثون بأصواتهم المتسرعة العديمة اللون ، بينا القضاة يتكلمون مرغمين مبالين . وتثاءب القاضي البدين ، وهو يغطي فمه بيده السمينة ، اما الأحمر شارباه فاضحى أكثر شحوباً منه في اي وقت آخر ، وهو يضغط على صدغيه بأصابعه بين الفينة والفينة ، ويشخص إلى السقف بعينين واسعتين كأنهما لا تريان شيئاً على الاطلاق . وكان المدعي العام يكتب شيئاً بقلم الرصاص من حين لآخر ، ثم يعود إلى متابعة حديثه المكبوت مع رئيس مجلس النبلاء الذي يمشط لحيته الشائبة ، ويحملق بعينيه الكبيرتين الجميلتين ، ويبتسم وهو

يلوي رقبته بصورة تدل على الخطورة . أما العمدة فجلس متصالب الرجلين يشخص إلى أصابعه مراقباً حركاتها المستمرة فوق ركبتيه . وكان يلوح أن رئيس المحافظة الذي اطرق براسه واستلقت معدته فوق ركبتيه ، واحاطت بها ذراعاه في حنان ، هو الوحيد الذي يعير وشوشة الأصوات الرتيبة أذنين مفتوحتين ، اللهم إلا الرجل العجوز الجالس في مقعده دون حراك مثل الهوائيّ في يوم سكنت ريحه ، جديراً هو ايضاً أن يمنح شرف الاستماع الى ما يجري . ولقد طال ذلك حتى ملأ الضجر من جديد قلوب الناس وأرهقهم .

قال الرجل العجوز ، وهو ينهض :

— إني أعلن . . .

وضاعت بقية كلماته وراء شفتيه الرقيقتين . وامتلأت قاعة المحكمة بالتنهدات ، والهتافات الخافتة ، والسعال ، وحفيف الأقدام ، بينا قيد المساجين الى الخارج وهم يبتسمون ويهزون رؤوسهم مسلمين على اقاربهم وأصدقائهم . . . بل إن إيفان جوسيف لم يتورّع عن الهتاف غير العالي ، متوجهاً إلى شخص ما :

— لا تفقد الشجاعة ، يا ييجور ! . .

وخرجت الأم وسيزوف الى الرواق حيث استوضح الشيخ في رفق وحنان :

— هل تذهبين الى المقصف كي نتناول قدحاً من الشاي ؟ لدينا ساعة ونصف الساعة .

— لا أريد ان أحتسي شاياً .

— وأنا ايضاً . ما رايك في هؤلاء الفتيان ؟ لقد قعدوا

هناك وكأنهم البشر الوحيدون على وجه الأرض ، وكأن كل ما عداهم لا يعني شيئاً على الاطلاق . وفيودور ذلك !

اقترب والد صموئيلوف منهما . . . وقبعته بين يديه . . . اعلن بابتسامة مرتبكة حائرة :

– أرأيتما فتاي جريجوري ! لقد رفض كل دفاع وأبى حتى التحدث إليهم . لقد كان أول من فكر في ذلك . أما ابنك ، يا بيلاجيا ، فقد كان يصرّ على ضرورة المحامين . ولكن ابني قال إنه لا يريد أي محامٍ مطلقاً . . . وعندئذ فعل أربعة مثله . . .

وقفت زوجته إلى جانبه ، وهي تطرف بجفنيها كثيراً كي تمنع الدموع في عينيها من الانهمار ، وتمسح أنفها بطرف منديلها في الوقت ذاته .

وتابع صموئيلوف ، عابثاً بلحيته ، شاخصاً بناظريه إلى الأرض :

– يا لهذه القضية ! عندما ينظر المرء اليهم ، هؤلاء الأوغاد ، لا يستطيع إلا ان يفكر في حماقتهم عندما ألقوا بأنفسهم في هذه المشاكل ، وضيعوا أنفسهم مقابل لا شيء . ثم هو يفكر بغتة : لعل الحقيقة هي معهم رغم كل شيء ، وخاصة عندما يرى كيف يزداد عددهم باستمرار في المعمل . والشرطة لا تني تعتقلهم الواحد تلو الآخر ، ومع ذلك فهم يتضاعفون كالسمك في النهر . ومرة ثانية يفكر المرء : لعل القوة هي وراءهم رغم كل شيء .

فقال سيزوف :

– ليصعب علينا فهم هذه الأمور ، يا ستيبان بتروفيتش .

فوافق صموئيلوف :

– أجل ، ليصعب علينا .

وقالت زوجته وهي تشخر في ضوضاء :

– إنهم ، جميعاً ، في صحة جيدة ، أولئك الأوغاد . . .

توجهت إلى الأم ، وعلى محياها العريض الكثير الغضون ابتسامة واسعة .

قالت :

– لا تغضبي مني ، يا نيلوفنا . لقد نقمت في الصباح الباكر على فتاك من أجل هذا . أقول بصراحة : الشيطان وحده يعرف من هو الملوم أكثر من سواه في هذه القضية . أسمعت ما قال الجواسيس ورجال الدرك عن فتانا جريجوري ؟ لقد ساهم بحصته ، هذا القرد الأحمر الرأس !

كان من الواضح أنها فخورة بابنها دون أن تقدّر ، فيما يبدو ، مشاعرها وعواطفها . ولكن الأم أدركت ذلك ، وأجابت بابتسامة لطيفة وكلمات منبعثة من صميم القلب :

– القلوب الفتية أسرع إمساكاً بالحقيقة على الدوام . . .

تاه الناس في الرواق على غير هدى يشكلون جماعات تتحدث بأصوات منفعلة مكتومة . ولم يكن أحد يقف وحيداً تقريباً ، بل إن سائر الوجوه تعبر عن الرغبة في الكلام وطرح الأسئلة والاصغاء إلى الأجوبة . وراحوا يتمشون غدوة وروحة في الممر الضيق الأبيض المحصور بين جدارين قاتمين ، وكأن

ريحاً صرصراً تعصف بهم فيفتشون عن شيء متين ثابت يمكن أن يلقوا عنده مراسيهم .

كان شقيق بوكين البكر ، وهو فتى طويل القامة ، اشقر الشعر مثل أخيه ، يلوّح بذراعيه ويستدير في كل الاتجاهات ساعياً إلى ان يبرهن :

– كليبانوف هذا ، رئيس المحافظة ، لا شأن له ههنا البتة . . .

فقال عجوز قصير ، هو أبوه ، رانياً حواليه في حذر :

– اغلق فمك ، يا قسطنطين !

– كلا ، لا اريد ! ثمة بعض الاشاعات تقول إنه قتل احد موظفيه في العام الأخير من أجل زوجة الموظف . إنها تعيش معه ! ماذا تسمون هذا ؟ بالاضافة إلى ذلك ، فالجميع يعرفون أنه لص . . .

– محبة بالله ، يا قسطنطين . . .

وقال صموئيلوف :

– صحيح ما تقول ! صحيح ما تقول ! ان المحاكمة غير قانونية من نواح كثيرة . . .

وسمع بوكين صوته فاقترب منه مسرعاً ، جاراً معه سائر الباقين . وكان وجهه أحمر اللون ، وهو لا يفتأ يلوح بذراعيه ويصيح :

– عندما يكون هناك قضية قتل وسرقة فإن لجنة من المحلفين تحاكم الناس . . . يحاكمهم عامة الشعب ، الفلاحون وسكان المدينة . أما عندما يقوم الناس ضد السلطات فإن السلطات نفسها هي التي تحاكمهم . ما تسمون هذا ؟ انت

تهينني ، فألطمك على حنكك ، فتحاكمني انت . ولا ريب أنك تجدني مذنباً ، ولكن من هو السابق إلى ارتكاب الخطأ ؟ انت !

فرق الحشد حارس أشيب الشعر ، مقوس الأنف ، مغطى الصدر بالمداليات ، وهزّ إصبعه في وجه بوكين متوعداً . قال :

– كف عن الصياح ، فانت لست في حانة !

– حسناً أيها السيد ! إني افهم ، ولكن إذا كنت انا الذي ضربتك ، ثم كنت أنا القاضي ، فمن تظن . . .

فقال الحارس بصرامة :

– اظن أنه من الأفضل أن آمر برميك خارج هذا المكان !

– يرمون بي خارجاً ؟ لماذا ؟

– لأنك تثير هذا الضجيج . هدىء روعك في الشارع . . .

فنظر بوكين إلى أولئك الذين يحيطون به ، وقال في صوت خافت :

– كل ما يريدون هو أن يُسكتوا الناس . . .

فصاح الشيخ بقسوة وفظاظة :

– طبعاً ، ماذا تحسب إذن ؟

فلوّح بوكين بذراعيه ، وبدأ يتكلم في هدوء أكثر :

– ولِمَ لا يسمح للشعب بحضور المحاكمة ؟ للاقارب فقط ؟ إن كانت محاكمتك قانونية فاسمح للجميع بحضورها ، من تخاف ؟

فأجاب صمونيلوف بصوت مرتفع :

– المحاكمة ليست قانونية ، صحيح ما تقول !

ارادت الأم أن تروي له ما سمعت من نيقولاي عن عدم شرعية المحاكمة ، ولكنها لم تفهم وقتذاك كل ما قال ، ثم إنها نسيت بعض الكلمات . حاولت ان تتذكرها ، فتنحت جانباً ، ولاحظت ان فتى في مقتبل العمر ، أشقر الشارب ، يراقبها ويده اليمنى في جيب سرواله ، مما جعل كتفه اليسرى أوطأ من اليمنى ، الأمر الذي بدا مألوفاً لدى الأم نوعاً ما . ولكنه سرعان ما أدار لها ظهره فنسيته في اللحظة ذاتها ، منهمكة في أفكارها الخاصة ومحاولتها تذكر ما فاتها .

ولكن أذنها التقطت ، في اللحظة التالية ، سؤالاً خافتاً :

– هذه ؟

فجاء الجواب المتلهف :

– نعم !

فتطلعت حواليها . كان الرجل المرفوع الكتف الواحد يقف جانباً يقول شيئاً لجاره ، وهو فتى أسود اللحية ، يتوشح معطفاً قصيراً ، وحذائين يبلغان منه الركبتين .

تقلّبت مرة أخرى في ذكرياتها واضطربت ، ولكنها لم تجد شيئاً معيناً واضح الحدود . كانت ممتلئة رغبة ملحة في أن تحدث الناس عن مثل ابنها الأعلى ، لتسمع ماذا سيقولون ضده ، فتقدّر هكذا ما سيكون حكم المحكمة عليه . بدأت تقول في حيطة وصوت خفيض ، متوجهة الى سيزوف :

– أهكذا يسيرون بالمحاكمة ؟ يصرفون كل الوقت ساعين لأن يجدوا من ارتكب هذا وذاك ، دون أن يعيروا انتباهاً

للسبب الذي فعلوه من أجله . وهم جميعاً شيوخ متقدمون في السن . يجب أن يحاكمهم الشباب . . .

فوافق سيزوف قائلاً :

– بلى ، ليصعب علينا فهم مثل هذه الأعمال ، يصعب جداً !

وهزّ رأسه متفكراً .

فتح الحارس باب المحكمة ، وصاح :

– الأقارب . أظهروا بطاقاتكم . . .

وقال شخص ما في تماهل وبصوت عابس :

– البطاقات ! لكأننا في سيرك !

إن نقمة غاضبة تعصف بين الناس ، فقد اصبحوا أكثر هرجاً وأكثر حرية ، وأكثر تطاولاً مع الحرس .

٢٥

دمدم سيزوف شيئاً وهو يأخذ مكانه من الدكة ، فسألته الأم :

– ما بالك ؟

– لا شيء على التعيين . الناس حمقى . . .

قرع الجرس ، وارتفع صوت لا مبال يقول :

– المحكمة . . .

هبّ الجميع نهوضاً مرة أخرى عندما دخل القضاة واتخذوا أماكنهم بالترتيب السابق ، ثم جيء بالمساجين الى مقاعدهم .

همس سيزوف :

– انتبهي ! المدّعي العام سيلقي مرافعته .

فمالت الأم بكل جسدها الى الأمام واشرأبت عنقها يحدوها توقّع جديد لشيء رهيب .

وقف المدعي العام الى جانب القضاة ، واستدار بوجهه نحوهم ، معتمداً بأحد مرفقيه المنصة أمامه ، أرسل زفرة عميقة ، ثم بدأ يتحدث ملوّحاً بيده اليمنى . لم تستطع الأم التقاط كلماته الأولى ، فقد كان صوته ثخيناً سيّالاً ، لكنه غير ثابت ، فهو سريع تارة ، وتارة كثير التماهل . كانت الكلمات تأتي طوال فترة من الوقت بطيئة رتيبة مثل خياطة دقيقة ، ثم تصبح ، على حين فجأة ، متلاحقة متسارعة فتحلّق في جوّ القاعة مثل سرب من الذباب حول قطعة من السكر . ولم تجد الأم فيها شيئاً مرعباً أو متوعداً ، فهي تتبعثر في القاعة باردة كالثلج ، رمادية كالرماد ، تملؤها قليلاً فقليلاً بضجرٍ مثير مثل غبار دقيق جاف . وكان يبدو أن هذا الخطاب ، الثري بالكلمات الفقير من كل عاطفة ، لا يبلغ بافل ورفاقه مطلقاً ، ولا يؤثر فيهم أبداً بكل تأكيد ، فهم يجلسون هنالك وراء القضبان هادئين مثلهم أبداً ، يتحدثون بأصوات مخفوضة ، ويبتسمون أحياناً ، ومن وقت لآخر يعبسون كي يُخفوا ضحكهم .

همس سيزوف :

– إنه يكذب .

لم تكن ، هي ، تستطيع أن تقول هذا . كانت كلمات المدعي العام تصل إلى مسمعيها فتدرك أنه يتهم سائر المساجين دون استثناء . فبينما هو يتكلم عن بافل ، شرع

يتحدث عن فيودور ، وعندما انتهى من فيودور انتقل الى بوكين ، فكأنه يريد حزمهم جميعاً في إبّالة واحدة . ولم ترضَ الأم عن معنى كلماته الصوري التي لم تؤثر فيها ولم تُخفها أبداً . فهي ما برحت تترقب شيئاً مهولاً فتروح تبحث عنه وراء كلماته ، في وجهه ، وعينيه وصوته ، وفي يده البيضاء التي يلوّح بها برشاقة في الفضاء دون انقطاع . أجل ، لقد كان ثمة شيء مخوف ، والأم تحسه ، ولكنها تعجز عن الإمساك به وتعريفه في كلمات محدودة ، وإن كان قلبها لا يفتأ يمتلىء بمرارة جافة مؤلمة .

تطلعت إلى القضاة : مما لا ريب فيه أن الخطاب يبعث الضجر في قلوبهم ، فهذه الوجوه العديمة الحياة ، الرمادية الصفر ، خالية من اي تعبير على الإطلاق . وكلمات المدعي العام تبثُّ في الفضاء ضباباً غير مرئي يتكاثف حول القضاة ويغمرهم أكثر فاكثر بسحابة من اللامبالاة والانتظار التعب الملول . ولم يك رئيس المحكمة يأتي حركة ، بل هو يجلس جامداً ، مستقيماً كالعصا ، ومن وقت لآخر تختلط البقعتان الرماديتان وراء نظارتيه بامتداد وجهه العديم اللون وتذوبان فيه . وبينما هي تحدج هذه اللامبالاة الميتة ، هذا التجرُّد العديم الاحساس والعاطفة ، لم تستطع الامتناع عن التساؤل «أحقا أنهم يُحاكمون ؟»

انقبض قلبها لهذا الارتباك طارداً شيئاً فشيئاً ذلك الترقّب لما هو مخوف مرعب ، غير محتفظ إلا بإحساس حاد من الإهانة ليس غير .

انتهت مرافعة المدعي العام على غير انتظار ، فأضاف

إليها بضع كلمات سريعة مقتضبة ، وانحنى للقضاة ، ثم جلس في مقعده وهو يفرك يديه . وأشار رئيس مجلس النبلاء نحوه برأسه وهو يحملق بعينيه ، ومدّ العمدة يده إليه ، أما رئيس المحافظة فشخص إلى كرشه بكل بساطة وابتسم . ولكن القضاة لم يبتهجوا بخطابه فيما يبدو ، فظلوا في مقاعدهم جامدين دون حراك ، ثم قال الرجل العجوز ، وهو يقرّب ورقة من وجهه حتى كادت تلتصق به :

— والآن ، فإن المحكمة ستستمع إلى محامي الدفاع عن فيدوسييف وماركوف وزاجاروف .

فنهض المحامي الذي أبصرته الأم في العشية عند نيقولاي . كان وجهه عريضاً دمثاً ، ذا عينين صغيرتين تلتمعان مثل شفرتين حادتين من تحت حاجبيه الحمراوين ، تقطعان شيئاً ما فى الهواء مثل المقص . وراح يتكلم بصوت مرتفع ، وبصورة واضحة غير متسرعة ، ولكن الأم لم تستطع متابعة خطابه .

همس سيزوف في اذنها :

— افهمت ما يقول ؟ فهمت ؟ يقول إن المساجين كانوا مختلطي العقل نصف مجانين . هل فيودور مجنون ؟

كانت خيبة الأمل تجتاحها بصورة قطيعة حتى لم تستطع إلى الجواب سبيلاً . وازداد إحساسها بالإهانة حتى أصبح ثقلاً هائلاً يجثم على قلبها . إن بيلاجيا لتفهم الآن لِمَ كانت تنتظر العدالة . لقد كانت تنتظر أن تشهد لقاء شريفاً صارماً بين حقيقة ابنها وحقيقة قضاته . كانت تنتظر أن يستجوبه القضاة طويلاً وبانتباه جم ، وفي تدقيق كثير عما يعتمل في

باطنه ، وأنهم سينظرون بأعين ثاقبة إلى أفكاره وأفعاله وكل حياته حتى إذا رأوا الحقيقة أعلنوا بصوت مرتفع وبكل عدالة :

— إن هذا الانسان لعلى حق صراح !

ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث . كان يبدو أن اولئك المتهمين المقدمين إلى المحكمة بعيدون جداً عن أن تصل إليهم بصائر قضاتهم ، لا بل إن هؤلاء لا يأبهون لهم مطلقاً . وأضاعت الأم ، في إعيائها ، كل اهتمام بالمحاكمة ، فراحت تفكر دون إصغاء الى ما يقال وقد غمر قلبها احساس بالاهانة :

«اتسمون هذا محاكمة ؟»

وهمس سيزوف مؤيداً :

— هذا ما يستحقونه !

كان محام آخر يتكلم الآن ، وهو رجل قصير ذو وجه حاد القسمات شاحب اللون ، ساخر التقاطيع . وكان القضاة يقاطعونه باستمرار . وقفز المدعي العام غاضباً وتفوّه بسرعة بشيء عن سير المحاكمة ، حتى إذا انتهى نطق الرجل العجوز باحتجاج ضعيف ، فأصغى إليهما محامي الدفاع مطرق الرأس احتراماً ، ثم تابع خطابه .

قال سيزوف :

— إنخسهم ، انخسهم جيداً . . .

واجتاحت القاعة موجة من الهرج ، وبدا أن طاقة متعطشة إلى القتال انطلقت من عقالها عندما شرع المحامي يلسع جلد القضاة السميك المتقادم العهد بكلماته اللاذعة .

وبدا أن القضاة يقتربون من بعضهم البعض منتفخين متجهمين حتى يردوا طعنات بلاغته الحادة .

ولقد نهض بافل الآن ، فاذا الهدوء يخيم فجأة على القاعة . ومالت الأم الى الأمام بكل جسدها . كان بافل يتكلم في هدوء :

– إني لا اعترف ، باعتباري عضواً في حزب ، بأي حكم إلا ذلك الذي يدينني به حزبي ، ولذلك فلن أتكلم كي أدافع عن نفسي . ولكني سأحاول ، نزولاً عند رغبة رفاقي الذين رفضوا أيضاً الدفاع عن أنفسهم ، ان أوضح لكم تلك الأمور التي لم تفهموها . لقد دعا المدعي العام مظاهرتنا تحت راية الديمقراطية الاشتراكية عصياناً على السلطة الحاكمة ، وراح ينظر إلينا طوال الوقت على أننا قوم نحاول قلب القيصر . ولكني أحب ان أوضح هنا أننا لا نعتبر المَلكية الغلّ الوحيد الذى يقيّد بلادنا ، ولكنه الغل الأول والأقرب ، الغل الذي من واجبنا تحرير الشعب من ربقته . . .

اضحى السكون أعمق بفعل رنين صوته القوي الذي لاح كأنه يدفع جدران قاعة المحكمة بعيداً ، حتى ليخال المرء ان بافل بعد جداً واصبح في مستوى أعلى من السامعين له .

تململ القضاة في ضيق وقلق في مقاعدهم . وهمس رئيس مجلس النبلاء شيئاً في أذن القاضى المترهل الوجه الذي أشار برأسه ، ثم همس شيئاً في أذن الرجل العجوز اليمنى ، بينما همس القاضي المعتلّ شيئاً آخر في أذنه اليسرى ، فاستدار الرجل الشيخ مترنحاً في مقعده ذات اليمين وذات اليسار ، وقال

شيئاً لبافل ، ولكن صوته ضاع في تيار حديث فلاسوف المتدفق في ثبات :

– نحن اشتراكيون ، وهذا يعني أننا ضد الملكية الخاصة التي تفرّق الناس وتجعل بعضهم يقيم ضد بعض ، وتخلق عداء بين المصالح لا وفاق له ، وتلجأ إلى الكذب والخداع في محاولات ستر هذا العداء أو تبريره ، ويفسد سائر البشر بالأكاذيب ، والرياء ، والحقد . نحن نعتقد أن مجتمعنا الذي ينظر إلى الفرد على أنه وسيلة للاثراء هو مجتمع لا إنساني معاد لنا ، فلا نستطيع قبول أخلاقه الكاذبة الثنائية ؛ نحن نرفض وقاحة موقفه من الفرد ووحشيته ؛ نحن نريد أن نناضل ، ولسوف نناضل ، ضدّ كل أشكال الاستعباد الجسدي والأخلاقي الذى يفرضه على الفرد مثل هذا المجتمع ، ضد سائر وسائل سحق الكائنات البشرية في سبيل الجشع الأناني الشخصي . نحن العمال قوم نصنع سائر الأشياء من دمى الصغار حتى الآلات الجبارة بعملنا وكدّنا ، ومع ذلك فنحن قوم محرومون من حق الدفاع عن كرامتنا الانسانية . يستطيع اى كان تسخيرنا لمآربه الشخصية ، ولكننا نريد الآن ان نحقّق درجة من الحرية تمكننا من استلام سائر السلطات بأيدينا . وإن شعاراتنا بسيطة للغاية ، فلتسقط الملكية الخاصة ! ، سائر وسائل الانتاج ملك للشعب ، السلطة كلها للشعب ، العمل واجب الجميع على حد سواء . ومن هنا تستطيعون ان تجدوا أننا لسنا مجرّد متمردين عصاة !

واطلق بافل ضحكة قصيرة ، وارسل أصابعه في شعره

ببطء ، والتمع النور في عينيه الزرقاوين أكثر تألقاً منه في اي وقت آخر .

قال الرجل العجوز في صوت مرتفع واضح النبرات :

– ارجوك ان تتكلم ضمن الموضوع !

واستدار كي ينظر الى بافـل ، فشخص للأم ان نوراً جشعاً خبيثاً التمع في عينه اليسرى الخابية . وامعن سائر القضاة النظر في ابنها ، وقد التصقت اعينهم بوجهه وجسده يريدون امتصاص قوته ، متعطشين إلى دمائه حتى يبقوا الحياة في أجسادهم المنهولة المضعضعة . ولكنه وقف هناك ، طويل القامة ، منتصب الظهر ، قوياً باسلاً ، يقول في صوت هادئ واضح النبرات وهو يمد يده نحوهم :

– نحن ثوريون ، وسنبقى ثوريين ما دام البعض لا يفعلون إلا إصدار الأوامر ، والبعض لا يفعلون إلا العمل والتنفيذ . نحن ضد ذلك المجتمع الذي أُمرتم بالدفاع عن مصالحه : نحن أعداؤه اللدُد ، كما اننا أعداؤكم أيضاً ، فليس من مصالحة ممكنة بيننا إذن ما لم ننتصر في نضالنا . وإننا ، نحن العمال ، لعلى يقين تام بالنصر ! ان اسيادكم ليسوا باقوياء كما يحسبون ، فتلك الملكية الخاصة التي يضحون من أجل توسيعها وحمايتها بملايين الحيوات التي استعبدوها ، تلك القوة بالذات التي تعطيهم السلطة علينا ، تثير الشقاق فيما بينهم ، وتدمرهم جسدياً ومعنوياً . إن تكاليف الدفاع عن الملكية الخاصة لباهظة . والحقيقة الراهنة انكم ، انتم اسيادنا جميعاً ، اكثر عبودية منا . إنكم مستعبدون روحياً – اما نحن فمستعبدون جسدياً فقط . انتم

عاجزون عن تحرير ذواتكم من نير العادات والتقاليد ، هذا النير الذي قتلكم روحياً . ولكن شيئاً لا يمنعنا ، نحن ، عن ان نكون أحراراً في الروح . فالسموم التي تغذوننا بها اضعف من الترياق الذي تصبون ، رغم إرادتكم ، في ضمائرنا . وإن وعينا للحقيقة ينمو باطراد ، وبسرعة متزايدة ، وهو يجذب أفضل الناس – سائر أولئك السالمين أخلاقياً حتى اذا كانوا من بيئتكم الخاصة عينها . أنظروا فقط . . . انتم لا تجدون من يستطيع القيام بدفاع أخلاقي عن سلطتكم لقد استهلكتم حتى الآن سائر الحجج التي يمكن أن تنقذكم من الهجمات الساحقة التي تشنها عليكم العدالة التاريخية . إنكم عاجزون عن خلق أية أفكار جديدة ، فلقد أجدبتم فكرياً . بينما تنمو افكارنا ، وهي تلتهب بتألق متزايد الشدة والاشعاع ، تشمل الجماهير الشعبية وتنظم نضالها في سبيل الحرية . إن وعي الدور العظيم الذي سيلعبه العمال سيوحّد ارواحهم في العالم كله في روح واحدة وليس لديكم شيء تجابهون به تجدُّد الحياة هذا ، اللهم إلا الوحشية والصفاقة . ولكن الصفاقة كثيرة الوضوح ، وأما الوحشية فتثير النقمة ، وإن الأيدي المطبقة اليوم على أعناقنا سوف تمتد إلينا غداً في مصافحة أخوية . طاقتكم مضاعفة الذهب الآلية ، وهي تقسمكم فرقاً ، مصيرها ان يلتهم بعضها بعضاً ؛ اما طاقتنا فتقوم في وعي حي متزايد الشدة باطراد ، وعي تضامن سائر الشغيلة . كل ما تفعلون إجرام ، لأنه موجه نحو استعباد الناس ؛ أكاذيبكم وجشعكم وشروركم خلقت عالماً من الأشباح والأبالسة لاخافة البشر ، وإنه لواجبنا أن نحررهم

من هؤلاء الأبالسة . لقد انتزعتم الانسان من الحياة ودمرتموه ، ولكن الاشتراكية ستوحّد هذا العالم الذي هدمتموه وتعيد بناءه في كلٍّ واحد عظيم . ذلك سيحدث بكل تأكيد !

وتوقف بافل برهة عابرة ، ثم ردد في نبرات أقوى وأعذب :

– ذلك سيحدث بكل تأكيد !

تهامس القضاة وكشروا بصورة غريبة دون أن يحيدوا بأعينهم الجشعة عن بافل ، فأحست الأم أنهم يوسخون جسده القوي بنظراتهم المليئة حسداً لصحته ، وقوته ، وحيويته .

وكان المساجين يستمعون إلى خطاب رفيقهم بانتباه شديد ، شاحبي الوجوه ، براقي الأعين سعادة وهناء . وكانت الأم تنهل كلاً من كلمات فتاها ، فتنطبع في ذهنها في صفوف متراصة . ولقد قاطع الرجل العجوز بافل عدة مرات ، محاولاً إيضاح شيء ما ، حتى إنه كشّر مرة عن ابتسامة كئيبة .

وكان بافل يستمع اليه في هدوء كي يعود فيتابع الحديث في ثبات رزين يجرُ الناس للإصغاء إليه ، مخضعاً إرادة القضاة لإرادته الخاصة . ولكن الرجل العجوز صاح أخيراً في عنف ومدَّ يده ملوحاً ، فاتخذ صوتُ بافل ، جواباً عليه ، نغمةً من السخرية :

– إني أختم حديثي . . . ليس لي رغبة في إهانتكم شخصياً . بل إني امتلأت ، على العكس ، عطفاً نحوكم وأنا جالس ههنا شاهداً مرغماً على هذه المهزلة التي تسمونها محاكمة . إنكم كائنات بشرية رغم كل شيء ، وإننا لنأسف دائماً عندما نرى الكائنات البشرية ، حتى الذين يعادون

قضيتنا ، ينحطّون هكذا بمثل هذا العار ، ويتدهورون في خدمة الظلم ، محرومين كل الحرمان من شعورهم بالكرامة الانسانية . . .

جلس دون أن ينظر الى القضاة ، بينما ثبتت الأم أنظارها فيهم منقطعة الأنفاس وهي تنتظر .

كان وجه أندريه مشرقاً كل الإشراق وهو يضغط على يد بافل ، وانحنى نحوه صموئيلوف ، ومازين ، والباقون جميعاً ، فابتسم بافل مرتبكاً من حماسة رفاقه ، وتطلع نحو أمه وأشار برأسه ، فكأنه يسألها :

«هل أنت راضية ؟»

فأجابت بتنهيدة سعيدة فى سكون وقد أشرق وجهها بموجة دافئة من المحبة .

همس سيزوف :

– والآن ، فإن المحاكمة الحقيقية تبدأ ، لقد نخسهم جيداً ، أليس كذلك ؟

فهزّت رأسها ولم تفه بحرف ، سعيدة لأن ولدها تكلم بكل تلك الجرأة – ولربما كانت أكثر سعادة لأنه انتهى من خطابه . وكان سؤال لا يفتأ يهاجم ذهنها بضرباته :

«والآن ، ماذا تفعلون ، يا ترى ؟»

٢٦

لم يقل ابنها شيئاً جديداً عليها ، فقد كانت متآلفة مع سائر أفكاره . ولكنها أحست للمرة الأولى هنا ، أمام

المحكمة ، بقوة أيمانه الغريبة الجاذبة . كانت مذهولــة لرزانة بافل ، فراح خطابه يتكاثف في صدرها مثل نجمـة مشعة من الأيمان بقضيته ، وبانتصاره النهائي . وانتظرت ان يبدأ القضاة نقاشاً حاداً معه الآن ، يناقضونه في غضب ، ويقدمون آراءهم الخاصة . غير أن أندريه نهض واقفـاً ، وتأرجح في مكانه ، ورمى القضاة بنظر صارمة من تحت حاجبيه ، وقال :

– يا حضرات المحامين . . .

فقال القاضي المعتل بصوت مرتفع غاضب :

– انت تخاطب القضاة ، ولا تخاطب المحامين . . .

ميزّت الأم في وجه أندريه سيماء الخبث . ارتجف شارباه ، والتمعت عيناه ببريق من المكر مألوف عنده ، وحكّ رأسه بعنف بيده الطويلة وتنهد وهز رأسه وقال :

– حقاً ؟ لقد كنت أعتقد انكم لستم قضاة ، بل محامين . . .

فلاحظ الرجل العجوز في جفاء :

– أرجوك أن تتحدث في الموضوع !

– في الموضوع ؟ حسناً جداً ! إني لأضطر نفسي إذن على القبول بكونكم قضاة حقاً ، ورجالاً شرفاء مستقلين . . .

– إن المحكمة لفي غنىً عن تقديرك !

– هي في غنىً ؟ حسناً ، ومع ذلك فسأتابع . . . فلنقل إذن إنكم قوم حياديون ، غير متحيزين ، دون «هذا لكم» و«هذا لنا» . إن أمامكم فريقين ، يقول أحدهما شاكياً :

لقد سرقني وصفعني ، والآخر يقول : إني أملك الحق في سرقة الناس وصفعهم لأني أملك بندقية . . .

فسأل الرجل العجوز ، وهو يرفع صوته :

– هل انت عاجز عن الحديث في الموضوع ؟

كانت يداه ترتجفان ، فابتهجت الأم وهي تراه غاضباً . ولكنها استاءت من سلوك أندريه . . . إن تصرفه لا يتناسق مع خطاب ابنها . . . إنها تريد أن تكون حججهم رزينة ، وقورة .

رمى الأوكراني الرجل العجوز بنظرة في سكون قبل ان يتابع في رزانة ، وهو يمسح رأسه :

– في الموضوع ؟ ولمَ أتكلم معكم في الموضوع ؟ قال لكم رفيقي كل ما يجب ان تعرفوه في الوقت الحاضر . وان آخرين سيقولون لكم البقية عندما يحين الوقت . . .

فانهض الرجل العجوز نفسه في مقعده ، وصاح :

– أمنعك من الكلام جريجورى صموئيلوف !

فضم الأوكراني شفتيه ، وجلس على مقعده بتكاسل . ووقف صموئيلوف إلى جانبه ، وهو يدفع بخصل شعره المجعد إلى الوراء :

– المدعي العام دعا رفاقي برابرة ، أعداء للحضارة . . .

– قيِّد نفسك بما يتعلق بمحاكمتك الخاصة !

– وهذا يتعلق بها . ليس هناك شيء لا يتعلّق بالناس الشرفاء . ثم إني ارجوكم الا تقاطعوني . ما هي حضارتكم ؟ هذا ما أود معرفته .

فقال الرجل العجوز ، وهو يعرّي أسنانه :

– لسنا هنا لنخوض نقاشاً معكم ! انتقل إلى القضية !

إن تبدلاً واضحاً طرأ على القضاة بعد كلمات أندريه ، فكأنها كنّست شيئاً كان عالقاً بهم ، فظهرت بقع حمر على وجوههم الرمادية ، وراحت شرارات خضر باردة تلتمع في عيونهم : لقد ثارت نقمتهم لخطاب بافل ، ولكن قوة كلماته أجبرتهم على احترامه ، والامتناع عن التعبير بالكلام عن نقمتهم هذه . ولكن الأوكراني أزاح ذلك العائق ، وكشف عما كان يكمن وراءه ، فراحوا يتهامسون ، مكشرين بصورة غريبة ، مهتاجين بشدة حتى أصبحت حركاتهم سريعة جداً ، غير معهودة في القضاة .

– إنكم تعلمون الناس كيف يكونون جواسيس ، تفسدون النساء والفتيات . وتجعلون من الرجال لصوصاً وقتلة ، وتسممونهم بالفودكا ، والحروب الدولية ، والأكاذيب العامة ، والعربدة ، والجهالة . . . تلك هي حضارتكم ! وإننا لأعداء مثل هذه الحضارة !

فصاح الرجل العجوز وهو يرفع ذقنه :

– ارجوك !

لكن صمونيلوف ردّ عليه ، مضرّج الوجه ، براق العينين ، صائحاً :

– نحن نحترم ونقدّر تلك الحضارة الأخرى التي تلقون بخالقيها في السجن كي يتعفنوا ويضيعوا عقولهم . . .

– امنعك عن الكلام ! فيودور مازين !

فهبّ مازين الصغير على قدميه ، منتصباً ناحلاً كالخرز ، قال بصوت متقطع :

– إني . . . إني اقسم ! انا أعلم انكم أصدرتم سلفاً حكمكم عليّ !

شحب وجهه كثيراً حتى بدا ان عينيه هما كل ما بقي منه . صاح ، وهو يهزّ قبضته :

– انا – اقسم لكم بشرفي – اينما ارسلتم بي ، فلسوف أتدبر أمر هربي بطريقة ما ، وأتابع العمل والنشاط دائماً – طوال حياتي . إني اقسم على ذلك !

ارسل سيزوف فحيحاً عالياً وتململ في مقعده ، واجتاحت موجة من الضجيج المكتوم الغريب الجمهور المتفاقم الهياج ، وبكت إحدى النساء ، بينما أصابت احد الحاضرين نوبة عنيفة من السعال . وتطلع رجال الدرك إلى المساجين في ذهول ، وإلى المتفرجين في غضب . وتمايل القضاة في مقاعدهم في حين صاح الرجل العجوز بصوت حاد :

– إيفان جوسيف !

– ليس لديّ ما أقول !

– فاسيلي جوسيف !

– وكذلك أنا !

– فيودور بوكين !

فنهض الفتى المبيض ، الخرنوبي الشعر ، في تثاقل ، وقال ببطء وهو يهز رأسه :

– يجب ان تخجلوا من انفسكم . إني رجل قليل الثقافة ولكني أستطيع مع ذلك فهم ما هو عدل !

ورفع يده فوق رأسه ولاذ بالصمت ، وقد اغمض عينيه نصف إغماضة فكأنه يرنو الى شيء ما في المنتأى . وصاح

الرجل العجوز في دهشة غاضبة ، وهو يرتمي إلى الوراء في مقعده :

– ما هذا ؟

جلس بوكين مكفهر الوجه . كان في كلماته القاتمة شيء كثير الضخامة والأهمية ، شيء من العتاب المكتئب الساذج . ولقد أحسّ ذلك سائر الحاضرين ، لا بل إن القضاة أيضاً أصاخوا بسمعهم فكأنهم يتوقعون صدى يكون أوضح من أقوال بوكين نفسها . وخيّم سكون متجلد على المتفرجين لا يحطمه إلا غصات من البكاء خافتة مرتعشة . وأخيراً هزّ المدعي العام كتفيه وأرسل ضحكة قصيرة ، وسعل رئيس مجلس النبلاء ، وشملت القاعة من جديد موجة من الوشوشة .

همست الأم في أذن سيزوف :

– هل يتكلم القضاة ؟

– لقد انتهى كل شيء ، ولم يبقَ إلا الإدانة . . .

– لا شيء سواها ؟

– لا . . .

لم تستطع أن تصدقه .

كانت والدة صموئيلوف تتحرك باضطراب دائب فوق دكتها ، وهي تدفع بيلاجيا بكتفها ومرفقها . سألت زوجها بصوت خافت :

– ما هذا ؟ كيف يمكن ذلك ؟

– كما ترين ، إنه ممكن تماماً .

– وماذا يفعلون بجريشا ؟

– اف ، دعيني وشاني . . .

كان الجميع يحسون وقوع بعض تشقق في داخلهم ويدركون حدوث بعض تمزق ، انحطام شيء لم يكن منتظراً ، فطفقوا يطرفون بأعينهم دون فهم ، فكأنهم يراقبون كتلة غير واضحة الحدود ، غامضة المعنى ، لكن ذات قوة لا تقاوم ، تحترق بلهيب عظيم . وراح الناس ، دون أن يفهموا هذا الشيء العظيم الذي كُشف النقاب عنه بغتة أمام أعينهم ، يبعثرون بتسارع هذا الشعور غير المألوف في أمور تافهة يستطيعون فهمها . سأل بوكين البكر في همس مرتفع دون أن يخجل :

– إسمعوا – لمَ لا يتركونهم يقولون ما يريدون قوله ؟ لقد تركوا المدعي العام يقول ما يحلو له ، وما شاءت له قريحته أن يقول . . .

وكان أحد الحجّاب يقف قرب المقاعد ، فلوّح بيده في وجه الناس وقال محذراً بصوت غير مرتفع :

– هدوءاً ، هدوءاً . . .

وانحنى صموئيلوف من وراء ظهر زوجته ، وراح يتمتم بكلمات متكسرة :

– حسناً ، فلنقل إنهم مذنبون ، ولكن أعطوهم فرصة كي يوضحوا ما يريدون ! ضد من هم ؟ هذا ما أريد معرفته . ذلك يثير اهتمامي أنا أيضاً . . .

فحذّر الحاجب ، وهو يهزّ إصبعه في وجه صموئيلوف :

– صه !

فهز سيزوف رأسه في كآبة .

أجالت الأم نظرها في القضاة فلاحظت أن انفعالهم يتزايد ،

وهم يتحادثون بصورة غير واضحة . وكان صدى أصواتهم البارد اللزج يلفح وجهها فيرتعش له خداها ، ويمتلىء فمها بطعم كريه مزعج . وخيل إليها ، لسبب ما ، أنهم يتكلمون عن أجساد ابنها ورفاقه ، عن عضلات هؤلاء الفتيان وأعضائهم الطافحة دماً حاراً وقوة حية . إن مثل هذه الأجساد لتثير فيهم حسد المتسولين الوضيع ، وذلك النهم الرديء الدبق الذي يملك عادة نفوس المرضى المنهكين . إنهم يطقطقون بشفاههم ، ويتحسرون على خسارة مثل تلك الأجساد القمينة بالعمل وزيادة الغنى ، الضمينة بان تكون خلّاقة ، وان تتمتع بالحياة . ولكن هذه الأجساد تترك الآن ميدان الحياة العملي وترفضها واصبحت ممتنعة بعد الآن على الامتلاك ، والاستثمار ، والاستهلاك . وذلك هو السبب في ان هؤلاء الفتيان يثيرون في القضاة الشيوخ تلك النقمة القارصة ، المتعطشة إلى الثار ، التي تحسها الحيوانات المستضعفة حين ترى الطعام الطازج امام عينيها ولكنها تفتقر إلى القوة اللازمة للإمساك به ، هذه الحيوانات التي لم تعد بقادرة أن تنال شبعها من قوى المخلوقات الأخرى ، بل كل عزمها ان تزمجر وتعوي إذ ترى وسيلة طيبة لإرواء غليلها تفلت منها وتضيع عليها .

كانت هذه الأفكار الغريبة الفجة تتضح في ذهنها أكثر فأكثر كلما زادت إمعاناً في دراسة القضاة . وهدهد لها أنهم لا يبذلون أدنى جهد كي يخبئوا ذلك الجشع الشديد وهذا الغيظ العاجز اللذين يميزان المخلوقات الجائعة التي عرفت يوماً معنى الشبع والتخمة . وكان يخيفها – وهي المرأة والأم التي جسد ابنها أعزّ عليها في آخر تحليل ، مما يطلقون عليه

اسم النفس – ان ترى هذه الأعين الخابية تزحف على وجهه ، وتلمس صدره وكتفيه وذراعيه ، وتحتك ببشرته الحية فكأن هذا الاحتكاك سيدفئ الدم الجاري في اوردتهم الضامرة ، وعضلاتهم المنهوكة نصف الميتة . إن وخزات الجشع والحسد التي يلسعهم بها تامل هؤلاء الفتيان الذين قدر لهم ان يدينوهم ، فيحرمون بذلك انفسهم من أجسادهم إلى الأبد ، لتبعث الحياة فيهم نوعاً ما . وبدا لها ان بافل يعي هذا الاحتكاك الرطب الكريه ، فينظر إليها مرتعشاً مرتجف الأوصال .

ترثى بافل إليها في هدوء وحنان وفي نظرته ظل من الإعياء . ومن وقت لآخر كان يشير اليها براسه ويبتسم . وقرات في ابتسامته ، الأشبه ما تكون بلمسات قلبها اللطيفة ، هذه الكلمات : «الحرية – عما قريب !»

نهض القضاة فجاة ، فنهضت الأم ايضاً دون وعي منها . قال سيزوف :

– ها هم ذاهبون !

فسألت الأم :

– من اجل الإدانة ؟

– نعم . . .

انقطع التوتر الذي كانت ترزح تحته على حين بغتة ، فاجتاحها إعياء شديد خانق . وراح حاجباها يرتجفان ، وانبثقت قطرات من العرق فوق جبينها ، وانبجس في قلبها شعور ثقيل الوطأة من الأذى وخيبة الأمل ، سرعان ما استحال إلى كراهية للقضاة والمحكمة جميعاً . واحست الماً شديداً في الحاجبين

فأمرّت يدها على جبينها بشدة وتطلعت حواليها . كان أقارب المساجين قد انطلقوا نحو القضبان ، وقاعة المحكمة غاصة بدوي الأحاديث ، فذهبت بدورها إلى بافل ، وضغطت على يده واجهشت بالبكاء ، وقد طفح قلبها ألماً وفرحاً في وقت واحد ، وضاعت في تيه من العواطف المتناقضة . راح بافل يحادثها في لطف ، بينما الأوكراني يضحك ويهزل .

بكت سائر النسوة ، لا غماً ، بل خضوعاً لطبيعة البكاء . لم يكن ثمة اي غم ساحق يسقط من العلاء غير منظور وعلى غير انتظار ، بل كان ثمة ضرورة الفراق عن أبنائهن ، وهذه الضرورة المكتئبة التي خففت من وطأتها أيضاً انفعالات هذا النهار . كان الآباء والأمهات ينظرون إلى أبنائهم بمشاعر مختلطة يمتزج فيها – بصورة غريبة – الارتياب والتشكك بالشباب وإحساس تفوّقهم المعتاد على فتيانهم ، بشعور اقرب ما يكون إلى الاحترام . إن الفضول الذي أثاره هؤلاء الفتيان الذين تكلموا بكل تلك الجراة غير الهيابة عن بناء حياة اخرى افضل من هذه ليكسف تلك الأفكار الكئيبة الملحاحة التي تراودهم عن حياتهم بعد الآن . وكُظمت العواطف لاستحالة التعبير عنها ، ولكن الكلمات كانت غزيرة عن توافه الأمور مما يتعلق بالثياب ، والبياض ، وضرورة العناية بالصحة .

وراح بوكين البكر يلوح بذراعيه وهو يحاول إقناع أخيه الأصغر :

– العدالة – تلك هي القضية ! ولا شيء آخر !

فأجاب الأخ الأصغر :

– اعتنِ جيداً بزرزوري . . .

– سأفعل !

وأمسك سيزوف بابن أخيه من يده ، وقال في تماهل :

– حسناً ، يا فيودور هذا يعني انك تغادرنا . . .

فانحنى فيودور وهمس شيئاً في أذنه وهو يبتسم في خبث . وكذلك ابتسم جندي الحرس القريب منهما ، ولكنه أسرع يستعيد هيئته الصارمة وهو يتنحنح .

حدّثت الأم فتاها مثل بقية النسوة تماماً – عن الثياب وعن صحته – ولكن صدرها كان مليئاً بآلاف الأسئلة المتعلقة بساشا ، وبها هي نفسها وبه أيضاً ، تقبع تحت هذا كله وتنمو موجة هائلة من الحبة لابنها ، ورغبة عظيمة في إدخال السرور إلى قلبه ، وفي ان تكون قريبة من فؤاده حتى الدرجة القصوى . وولى ذلك الخوف من حدوث شيء ما كثير الرهبة ، تاركاً ارتعاشاً مقيتاً لدى ذكرى القضاة ، وتلك الانطباعات القاتمة المتوارية في أعماق ذهنها . كانت تحسُّ ولادة فرح عظيم براق في جوفها لم تكن تفهمه ، وترتبك بسبب هذا . وإذ رات ان الأوكراني يتكلم مع الجميع ، وانه يحتاج إلى حنانها اكثر مما يحتاج بافل إليه ، استدارت نحوه تحدثه . قالت :

– إني لم أعجب بمحاكمتكم هذه !

فاستجلى ، وعلى شفتيه ابتسامة امتنان :

– لِمَ لا ، يا أميمة ؟ الطاحون عتيق . ولكنه جيد كالعقيق .

فقالت في تردد :

– ليس فيها ما يخيف ، ولكنها لا توضح لك أين هو الحق ، وأين هو الباطل . . .

فهتف أندريه :

– أوه ! إذن فهذا ما تريدين ؟ اتحسبين انهم معنيون بالبحث عن الحقيقة ؟

فقالت ، وهي تتنهد وتبتسم :

– لقد كنت اظن انها ستكون مخوفاً . . .

– المحكمة !

فاسرع كل إلى مكانه .

اعتمد رئيس القضاة المائدة بيد واحدة ، بينا امسك بورقة في يده الأخرى قريبة من وجهه ، وراح يقرأ بصوت ضعيف مدوٍ يشبه طنين نحلة .

قال سيزوف مرهف السمع :

– إنها الأدانة !

جثم السكون على القاعة ، وقد وقف الجميع واعينهم عالقة بالرجل العجوز الذي اشبه في ضآلته وانتصابه وجفافه عصا تمسك بها يد غير منظورة . وكان بقية القضاة وقوفاً أيضاً : رئيس المحافظة ، وقد مال راسه على أحد الجانبين وعلقت عيناه بالسقف ؛ والعمدة ، وقد تصالبت يداه فوق صدره ؛ ورئيس مجلس النبلاء ، وهو يمشط لحيته ؛ والقاضى المعتل وزميله البدين والمدعي العام ، وهم ينظرون في اتجاه المساجين . ووراء القضاة كان القيصر يتطلع من صورته ،

متالقاً في بزة حمراء ، وسيماء اللامبالاة تكسو وجهه الابيض الذي تزحف فوقه الآن حشرة صغيرة .

قال سيزوف ، وهو يتنهد ارتياحاً :

– النفي ! حسناً ، شكراً لله على ان كل شيء انتهى . لقد قالوا : «الأشغال الشاقة» . لا بأس يا أماه ، لا بأس !

فقالت الأم في صوت متعب :

– كنت أعلم ذلك .

– وعلى أية حال ، فنحن نعرف الآن بكل التأكيد ، اما قبل فمن كان يدري ؟

واستدار نحو المساجين وهم يغادرون القاعة ، وصاح :

– إلى اللقاء ، يا فيودور ! وانتم جميعاً أيضاً ! يحفظكم الله !

واشارت الأم براسها في سكون إلى ابنها والباقين ، وارادت أن تبكي ، لكنها خجلت من نفسها .

٢٧

دهشت عندما خرجت من قاعة المحكمة إذ شاهدت الليل يرين على المدينة . كانت المصابيح تلتهب في الشوارع ، والنجوم تتلألأ في السماء . وقد تجمهرت جماعات من الناس قرب بناء المحكمة ، يدوي صوت الثلج المتجمد وهو يتكسر تحت اقدامهم في الهواء القارس ، وتتردد بينهم أصوات فتية تقاطع بعضها بعضاً . تطلع رجل يلبس قبعة رمادية في وجه سيزوف ، وسأل بسرعة :

– ما هو الحكم ؟
– النفي .
– للجميع ؟
– نعم .
– شكراً !

وابتعد الرجل ، فقال سيزوف :

– اترين ؟ الناس مهتمون بالقضية . . .

احاط بهما بغتة عشرة من الفتيات والفتيان ، يمطرونهما بوابل من الأسئلة فيجتذبون أناساً آخرين ينضمون إلى حلقتهم النامية باطراد . وتوقفت الأم وسيزوف معاً يتلقيان الأسئلة عن الإدانة وعن سلوك المساجين ، وعن الذين ألقوا الخطب وماذا قالوا فيها . . . وكانت سائر هذه الأسئلـــة تطفح بفضول مشوق متلهف تبعث حميته وصدقه في النفس رغبة جموحاً في إرضائه .

قال احد الواقفين بصوت غير مرتفع :

– أيها السادة ! هذه والدة بافل فلاسوف !

فسيطر السكون على الجميع بعد برهة .

– إسمحي لي بمصافحتك !

وامسكت يد قوية باصابع الأم ، وارتفع صوت منفعل يقول :

– سيكون ابنك لنا جميعاً مثالاً للشجاعة والإقدام .

وترددت صيحة مرتفعة :

– عاش العامل الروسي !

وازدادت الهتافات وتضاعفت . وهي تنطلق تارة من هنا

وتارة من هناك . وتراكض الناس مـــن كل حدب وصوب يتحلّقون حول الأم وسيزوف . ورنت صفارات رجال الشرطة تقطع الفضاء ، ولكنها لا تستطيع خنق الأصوات أو إغراقها في لعلعتها . وكان سيزوف يضحك ، أما الأم فيتراءى لها أنّ ذلك كله إنْ هو إلا حلم جميل ، فتبتسم وتنحنـي وتروح تضغط على أيدي الناس وحلقها غاص بدموع الفرح ، ورجلاها ترتجفان إعياء ، فيما قلبها الطافح بهجة وسعادة يعكس سائر الانطباعات مثل سطح بحيرة براق لامع . وبدأ شخص قريب منها يتكلم بصوت عصبي واضح النبرات :

– أيها الرفاق ! إن الوحش الذي يلتهم الشعب الروسي قد أطبق اليوم أيضاً بأنيابه الشريرة الجشعة على . . .

وقال سيزوف :

– هيا بنا ، يا اماه !

ظهرت ساشا في هذه اللحظة من مكان ما ، وتأبطت ذراع الأم وقادتها بسرعة إلى الرصيف الآخر من الطريـق . قالت :

– هيا بنا قبل أن يحدث اصطدام مع الشرطة ، أو يعتقل بعض الحاضرين . النفي إلى سيبيريا ؟

– نعم !

– وكيف تكلم ؟ ولكنني أعلم – لقد كان اقوى الجميع ، وابسطهم أيضاً ، واكثرهم صرامة بكل تأكيد . إن طبيعته حنون مرهفة الشعور ، ولكنه يخجل من إظهار ذلك .

هدأت من روع الأم كلمات حبها هذه ، المهموس بهـــا بكل تلك الحماسة وبكل تلك الحميـــة ، وبعثت فيهـــا قوة

جديدة ، فسألت ساشا في هدوء ولطف وهي تضغط على ذراعها :

– ومتى ستلحقين به ؟

فاجابت الفتاة ، وهي تنظر في ثقة إلى الأمام منها :

– حين أجد من يستلم عملي هنا . وعلى أية حال ، فإني انتظر إدانة بدوري ، ومن المحتمل ان يرسلوني إلى سيبيريا ايضاً ، فإن فعلوا سألتهم ان يرسلوني إلى حيث أرسلوا به .

فجاء صوت سيزوف يقول من ورائهما :

– وفي هذه الحال بلّغيه تحياتي ، قولي له فقط : «من سيزوف» . إنه يعرفني ، فانا عم فيودور مازين . . .

فتوقفت ساشا واستدارت إليه ومدت له يدها :

– إني اعرف فيودور ، واسمي ساشا .

– واسم أبيك ؟

فتطلعت في وجهه ، واجابت :

– ليس لي أب .

– هل مات ؟

– كلا لم يمت !

واجابت الفتاة بانفعال . رنّ في صوتها شيء عنيد صارم ، وانعكس في تقاطيع وجهها أيضاً :

– إنه اقطاعي ، ورئيس مجلس ناحية الآن . . . يسرق الفلاحين . . .

– كذا ؟

قال سيزوف ذلك في ارتباك وراح يسير إلى جانب الفتاة في

سكون ، وهو يرشقها بنظرات جانبية طوال الوقت . قال اخيراً :

– إلى اللقاء ، يا أم ! إني ذاهب من اليسار ههنا . إلى اللقاء ، يا فتاتي . أنت قاسية على أبيك هذا ، أليس كذلك ؟ بالطبع ، ذلك من شأنك وحدك . . .

فصاحت ساشا في انفعال وحمية :

– إن كان ابنك شريراً ، إن كان يؤذي الشعب وانت تحتقره ، أفما كنت تقول ذلك ؟

فاجاب الرجل الهرم بعد لحظة من الصمت :

– كنت أقوله بالطبع !

– وهذا يعني أن العدالة أعزّ عليك من ابنك ، وإنها لأعزّ عليّ من والدي . . .

فابتسم سيزوف ، وهزّ رأسه وتنهد . ثم قال :

– هكذا إذن ! تعرفين كيف تتكلمين ! إذا كنت ستبقين على هذه الحال فيما بعد أيضاً لا بدّ ستقهرين الشيوخ مثلي وتتغلبين عليهم . . . إنك لقوية جداً ! إلى اللقاء ، ولك أفضل تمنياتي . ولكن ما رأيك في أن تكوني أرحم بالناس قليلاً ؟ إلى اللقاء ، يا نيلوفنا . عندما ترين بافل ، قولي له إني سمعت خطابه . إني لم أفهم كل ما جاء فيه ، ولقد كان بعضه مخيفاً نوعاً ما ، ولكنه كان صحيحاً وحقاً على العموم !

رفع قبعته ، واختفى وراء الزاوية في وقار .

قالت ساشا ، وهي تتبعه بنظرة مبتسمة من عينيها الواسعتين :

– يبدو أنه شخص رائع !

واستبان للأم أن وجه الفتاة اليوم ألطف وأرق منه عادة .

عندما بلغتا الدار جلستا متجاورتين على الديوان وبدأت الأم من جديد تتحدث عن سفر ساشا للحاق ببافل . ووجدت الأم السكون مريحاً ، أما ساشا فرفعت حاجبيها الكثيفين في تفكر وراحت تنظر في المدى أمامها بعينين واسعتين حالمتين ، وعلى محياها الشاحب سيماء التأمل الرزين :

– عندما يولد أطفالكما ، فسألحق بكما للعناية بهم ، ولن تكون حياتنا أسوأ منها ههنا . ولن يصعب على بافل أن يجد عملاً . فهو يستطيع أن يفعل بيديه أي شيء كان . . .

فتطلعت ساشا إلى الأم متسائلة ، وقالت :

– أفلا تنوين اللحاق به منذ الآن ؟

فأجابت الأم ، وهي تتنهد :

– وما حاجته إليّ ؟ لن أفعل إذن إلا مضايقته واعتراض سبيله فيما لو أراد الفرار . لن يقبل أبداً بذهابي معه . . .

فأشارت ساشا برأسها ، وقالت :

– أنت على حق ، فهو لن يقبل أبداً .

وأضافت الأم في شيء من الخيلاء :

– وبالاضافة ، فهناك عملي ههنا !

قالت ساشا في تفكر :

– نعم ، وهذا حسن . . .

انتفضت بغتة ، فكأنها تلقي بعيداً عنها بشيء يثقل عليها ، وشرعت تقول في هدوء وبساطة :

– لن يقبل بالعيش هناك . ومن المؤكد أنه سيهرب . . .

– وماذا عنك ؟ وعن الطفل ، إن كان ثمة طفل ؟

– سوف نرى ذلك في حينه . يجب ألا يأخذني بعين الاعتبار ، وأنا لن أسمح لنفسي قط بالوقوف في طريقه . وسيصعب عليّ كثيراً الافتراق عنه ، ولكني سأتدبر أمري طبعاً . لن أقف أبداً في طريقه ! أبداً !

وأدركت الأم أن ساشا قمينة تماماً بأن تفعل ما تقول ، فرثت لها . قالت ، وهي تعانقها :

– سيكون ذلك قاسياً عليك ، يا عزيزتي !

فابتسمت ساشا في حنان والتصقت بجسدها بالأم . وفي تلك اللحظة دخل نيقولاي ، متعباً مجهد القوى ، وقال بسرعة وهو يخلع معطفه :

– يفضل أن تولي الإدبار ، يا ساشنكا ، قبل أن يفوت الأوان ! إن جاسوسين لم يكفا عن ملاحقتي منذ الصباح . . . بصورة مكشوفة للغاية حتى لتفوح رائحة الاعتقال منها ، وإن حدسي لا يخدعني أبداً ، فلا ريب أن شيئاً حدث . وعلى فكرة ، إليك خطاب بافل . . . لقد قررنا أن نطبعه . خذيه إلى لودميلا ، واسأليها أن تعمل بأقصى ما تستطيع من سرعة . لقد ألقى بافل خطاباً رائعاً ، يا نيلوفنا . . . انتبهي إلى الجواسيس ، يا ساشا . . .

فرك يديه المتجمدتين وهو يتكلم ، ثم ذهب إلى مكتبه وبدأ يُخرج بسرعة أوراقاً من الجرارات مزّق بعضها ، ووضع بعضها الآخر جانباً . كان أشعث الشعر مشغول البال :

– لقد مضى زمن غير طويل منذ نظفتُ هذه الجرارات للمرة الأخيرة ، والشيطان وحده يعلم من أين جاءت كل هذه

الأشياء إليها . واعتقد انه يحسُن ألا تقضي الليل في الدار ، يا نيلوفنا . ما رأيك ؟ لمن المضجر أن يشاهد المرء هذه المهزلة . ثم قد يأخذونك أنت الأخرى . ولكن ينبغي لك ان تحملي خطاب بافل هنا وهناك . . .

– وماذا عساهم يريدون مني ؟

فلوّح نيقولاي بيده أمام عينيه ، وهو يقول في حزم :

– إن لدي أنفاً يشمُّ مثل هذه الأمور . ثم إنك تستطيعين تقديم يد المعونة إلى لودميلا ، فمن الخير الا تتعرضي للخطر إذن . . .

سُرَّت الأم بفكرة المساهمة في طبع خطاب ابنها ، فقالت :

– إذا كان الأمر كذلك ، فسوف أذهب .

وأضافت مدهوشة من نفسها في هدوء وحزم :

– لا اخاف الآن من شيء على الاطلاق ، فشكراً لله !

فهتف نيقولاي ، دون أن ينظر إليها :

– رائع ! ولكن الأفضل ان تقولي لي أين هي حقيبتي وثيابي . لقد أطبقت على كل شيء بيديك هاتين ، حتى أصبح يستحيل عليَّ العثور على ممتلكاتي نفسها .

كانت ساشا تحرق الأوراق في الموقد بسكون ، وهي تخلط في عناية الرماد بالفحم .

قال نيقولاي ، وهو يمدّ إليها يده :

– آن لك الذهاب ، يا ساشا ! إلى اللقاء ! لا تنسي ان ترسلي إليَّ ما يظهر من كتب هامة . إلى اللقاء ، أيتها الرفيقة العزيزة . كوني حذرة . . .

فسألت ساشا :

– هل تتوقع مدة اعتقال مديدة ؟

– الشيطان وحده يدري ! الظاهر انهم يملكون أدلة ضدي . الا يفضل ان ترافقيها ، يا نيلوفنا ؟ إن ملاحقة شخصين معاً اصعب من ملاحقة كل بمفرده .

– هل تذهبين ؟

فأجاب الأم :

– حسناً ، سأرتدي ثيابي في لحظة واحدة . . .

وراحت تراقب نيقولاي ملياً ، ولكنها لم تستطع أن تميّز فيه شيئاً غريباً ، اللهم إلا ذلك القناع الشاف من القلق الذي يكسو تقاسيم وجهه بسيمائها المألوفة من الرقة واللطف . ما كان يصدر عن هذا الرجل ، وقد أضحى اعزّ على قلبها من الآخرين جميعاً ، حركة تنمُّ عن عصبية أو إشارة تدل على اضطراب وانفعال . لقد حدب دائماً على الجميع بالعناية عينها ، وكان في كل حين لطيفاً هادئاً ، وحيداً أبداً . وهو ما برح الآن في نظر الجميع ، مثله قبلاً ، إنساناً يعيش حياة باطنية خفية تتقدم سائر الحيوات وتسبقها . وكانت تدرك أنه اقرب إليها من الباقين جميعاً ، وانها تحبه مع ذلك حباً حذراً غير وطيد الثقة في نفسه . اما الآن فهي ترثي له بصورة لا تطاق ولا تحتمل ، ولا تجرؤ مع ذلك على إظهار إشفاقها لأن هذا سيلقي الاضطراب والارتباك في نفسه ، فيبدو عندئذ مضحكاً نوعاً ما ، وهي لا تريد أن تراه على هذه الحال .

عندما عادت إلى الغرفة وجدت نيقولاي ممسكاً بيد ساشا ، وهو يقول :

– رائع ! إني لعلى يقين من أن ذلك حسن لك وله على السواء ، فقليل من السعادة الشخصية لا يؤذي أحداً . هل أنت مستعدة ، يا نيلوفنا ؟

اقترب منها ، وهو يبتسم ويصلح من وضع نظارتيه :

– حسناً ، إلى اللقاء . . . بعد ثلاثة أو أربعة شهور . . . بعد ستة شهور في نهاية الأمر كما أرجو . . . ستة شهور . . . إنها لقطعة كبيرة من الحياة . . . اعتني بنفسك ، أرجوك ، والآن فلنتعانق . . .

أحاطها ، نحيلاً رقيقاً ، بذراعيه القويتين وتطلع في عينيها ، ثم ضحك قائلاً :

– يبدو أني وقعت في حبك ، حتى أعانقك هكذا !

قبلت جبينه وخديه ، دون أن تقول شيئاً ولكن يديها كانتا ترتجفان ، فأبعدتهما حتى لا يلاحظ ما عراهما من ارتعاش .

– كوني حذرة غداً ! وإليك ما يجب أن تفعليه : أرسلي صبياً صغيراً إلى هنا صباحاً . يعيش في بيت لودميلا مثل هذا الصبي . حتى يتحقق مما حدث . حسناً ، إلى اللقاء ، أيتها الرفيقتان ! كل شيء على ما يرام !

وعندما وصلتا الشارع ، قالت ساشا في هدوء :

– إذا اضطر يوماً أن يمضي إلى ملاقاة الموت ، مضى إليه بمثل هذه البساطة وبتسرع نوعاً ما كما في هذه المرة . وعندما ينظر الموت إليه متطلعاً في محياه ، فسوف يُصلح

من وضع نظارتيه ويقول : «رائع !» ثم يموت .

فقالت الأم همساً :

– إني أحبه !

– إنه يدهشني ، ولكني لا أحبه . إني أحترمه كل الاحترام فهو لطيف ، بلهَ جنون في بعض الأحيان ، ولكن فيه شيئاً جافاً . . . إنه ليس إنسانياً بصورة كافية . . . يبدو أننا ملاحقتان ، فالأفضل أن نفترق – لا تذهبي إلى لودميلا إذا وجدت أنك متبوعة .

– أعلم هذا !

لكن ساشا استمرت تقول في إصرار :

– لا تذهبي ، بل تعالي إلى بيتي . إلى اللقاء الآن !

واستدارت بسرعة ، وعادت أدراجها من حيث أتت .

٢٨

كانت الأم تجلس ، بعد عدة دقائق ، في غرفة لودميلا الصغيرة بجانب الموقد تتدفأ ، فيما صاحبة الدار ، المرتدية ثوباً أسود محزوماً بزنار من الجلد في وسطه ، تذرع الأرض ذهاباً وإياباً في بطء ، وهي تملأ الغرفة بحفيف ثوبها ورنين صوتها الآمر . وكانت النار تطقطق وتعوي في الموقد وهي تمتص الهواء ، وصوت المرأة يسبح ثابتاً متساوي النبرات :

– الناس بلهاء أكثر بكثير منهم أشراراً ، فهم لا يستطيعون رؤية سوى ما هو تحت أنوفهم ، ما يمكن تناوله سريعاً . ولكن كل ما هو في متناول اليد رخيص . . والاشياء

البعيدة هي الثمينة العزيزة . من حيث الجوهر لو كانت الحياة على غير ما هي عليه . . . لو انها أيسر والبشر أعقل لكان ذلك اكثر فائدة وراحة للجميع . ولكن لا بدّ ، كي تحقق ذلك ، من خوض غمار بعض المشاكل في الوقت الحالي . . .

ووقفت بغتة تجاه الأم ، وقالت في هدوء أكثر وكأنها تعتذر :

– إني لا ارى الناس إلا قليلاً ، وعندما يأتي أحد لزيارتي فإني أروح في ثرثرة لا نهاية لها . هذا مضحك ، أليس كذلك ؟

فقالت الأم :

– لماذا ؟

حاولت ان تعرف أين تقوم هذه المرأة بطبع منشوراتها وكراساتها ، فلم تستطع اكتشاف شيء غير طبيعي البتة . كانت في هذه الغرفة ، بنوافذها الثلاث المطلة على الشارع ، اريكة ومكتبة ومائدة وبضعة مقاعد وسرير إلى جانب الجدار . وكانت مغسلة تحتل إحدى الزوايا قرب السرير ، والموقد يحتل زاوية أخرى ، وصور فوتوغرافية للوحات معلقة على الجدران الأربعة في كل الجهات . وكان كل شيء جديداً نظيفاً متيناً ، ولكن المرأة الصارمة تلقي على سائر الأشياء ظلاً بارداً . واحست الأم ان ثمة شيئاً مخفياً ، ولكنها لم تستطع تخمين مكانه . تطلعت إلى البابين : أحدهما يطل على الرواق الصغير وقد دخلت منه ؛ أما الثاني ، وهو مرتفع ضيق ، فينتصب إلى جانب الموقد . قالت مرتبكة ، وهي تحسُّ أن لودميلا تراقبها :

– لقد جئت في عمل !

– أعلم ذلك فالناس لا يأتون لزيارتي إلا من أجل عمل ما .

خيل إلى الأم انها تميز نغمة غريبة في صوت لودميلا . فتطلعت في محياها لترى ابتسامة شاحبة مرتسمة على شفتيها الرقيقتين ولمعان عينيها الخابيتين وراء زجاج نظارتيها ، فردّت ناظريها إلى إحدى الزوايا ، ومدّت يدها بخطاب بافل :

– خذي . هم يودون منك ان تطبعي هذا في أسرع وقت ممكن .

ثم حدثتها عن توقع نيقولاي لاعتقاله .

دسّت لودميلا الورقة في حزامها دون ان تنبس ببنت شفة ثم جلست ، فالتمعت انعكاسات النار ، حمراً زاهية ، على زجاج نظارتيها ، بينا راحت ابتسامتها الدافئة تتلاعب فوق وجهها الجامد . قالت في هدوء وحزم بعد ان أصغت إلى أقوال الأم :

– عندما يأتون ورائي فسوف أطلق النار عليهم ! إني أملك الحق في الدفاع عن نفسي ضد العنف ، ولا بدّ لي من إشعال نار القتال ضده ، ما دمت أدعو الآخرين إلى ذلك .

وتلاشى لمعان النار عن وجهها ، فأضحى مرة أخرى صارماً ، متكبراً نوعاً ما .

فكرت الأم في رفق على حين بغتة :

«ان حياتك لبائسة !»

وشرعت لودميلا تقرأ خطاب بافل بإحجام وتردد ، ولكنها راحت تنحني أكثر فأكثر على الورقة وهي تتابع القراءة ، حتى

انتهت إلى إلقاء الصفحات جانباً ، الواحدة تلو الأخرى ، في لهفة ونفاد صبر . وأخيراً نهضت ، وشدت كتفيها منتصبة القامة ، واقتربت من الأم .

قالت :

— خطاب رائع جداً !

ووقفت لحظة مطرقة الرأس .

— لا اريد ان اتحدث إليك عن ابنك . . . فانا لم التق به أبداً ، كما اني لا أحب الأحاديث المؤلمة . إني اعرف معنى الألم الذي يعتصر القلب عندما يُرسل إلى المنفى إنسان عزيز على القلب جداً . ولكن اود ان اسأل — هل من الحسن ان يكون للمرء مثل هذا الابن ؟

فقالت الأم :

— كثيراً .

— وذلك ليس — مرعباً ؟

فأجابت الأم بابتسامة هادئة :

— أبداً ، بعد الآن . . .

فمسحت لودميلا شعرها الاملس بيد سمراء ، ثم استدارت إلى النافذة . ومرّ خيال عابر على وجهها : لعله كان خيال ابتسامة مكبوتة .

— سوف أطبعه بسرعة . ارقدي انت ، فقد قضيت يوماً صعباً ولا بد انك متعبة . اضطجعي على السرير هذا فأنا لن أنام ، ولربما أيقظتك في الليل كي تساعديني . . . أطفئي المصباح عندما تسعين الى الفراش .

ألقت حطبتين في الموقد ، وخرجت من الباب الضيق ،

وأترسته وراءها بإحكام . راقبتها الأم وهي تغادر الغرفة ، ثم شرعت تخلع ثيابها وافكارها مشغولة بها :

«إنها حزينة لسببٍ ما . . .»

كانت شديدة الاعياء دائخة الرأس ، ولكن أفكارها هادئة بصورة غريبة ، وكل شيء يضيء في عينيها بنور لطيف عذب يغمر روحها في هدوء عظيم . وكان هذا الهدوء مألوفاً لديها ، فهو يهبط عليها دائماً بعد كل انفعال عنيف . ولقد كان يبعث في نفسها بعض القلق في البدء ، اما الآن فلا يعمل إلا على توسيع آفاق روحها وتوطيدها بعاطفة جموح عتية . اطفأت المصباح ثم تسلقت السرير البارد ، وانكمشت تحت الغطاء ، ولم تلبث أن استغرقت في نوم عميق . . .

عندما فتحت عينيها كانت الغرفة تعج بنور نهار الشتاء الأبيض البارد .

وتطلعت لودميلا إليها من الأريكة حيث كانت تضطجع ، وكتاب بين يديها ، ثم ابتسمت بطريقة غير معهودة لديها .

هتفت الأم مرتبكة :

— يا إلهي ! يا لي من نومة ! هل تقدم النهار كثيراً ؟

فأجابت لودميلا :

— عمي صباحاً ! ستدق الساعة العاشرة عما قريب . إنهضي وسوف نتناول قليلاً من الشاي .

— لِمَ لم توقظيني ؟

— أوشكت أن أفعل ذلك ، ولكني عندما اقتربت منك كنت تبتسمين في نومك بسلام عظيم . . .

نهضت عن الأريكة بحركة رشيقة ، واقتربت من السرير وانحنت على الأم ، فاستطاعت هذه أن تميز في عيني المرأة الخابيتين شيئاً مألوفاً لديها وعزيزاً عليها .

– بدا لي أن إيقاظك مؤلم ، فلربما كنت تحلمين حلماً سعيداً . . .

– لم أفعل !

– سواء ذلك . لقد أحببت ابتسامك . كانت كثيرة الهدوء والطيبة و . . . كبيرة جداً !

وضحكت لودميلا ، وكان ضحكها رقيقاً ، مخملي الإهاب :

– لقد حملني ذلك على التفكير فيك . ما أصعب حياتك !

فارتجف حاجبا الأم ، وشرعت تفكر في سكون . هتفت لودميلا .

– بالطبع هي صعبة !

فقالت الأم في تردد :

– لست على يقين تام من ذلك . فهي تبدو صعبة أحياناً ، ولكنها كثيرة الامتلاء – وكل الأشياء فيها كثيرة الرزانة ، مدهشة ، تتلاحق عن قرب في سرعة عظيمة . . .

هبّت في صدرها تلك الموجة المألوفة من الحيوية تملأ ذهنها بالأفكار والصور ، فجلست في السرير وراحت في سرعة تكسو أفكارها بالكلمات .

– إنها تستمر وتستمر . . . متجهة أبداً نحو الغاية نفسها . . هناك ثمة اشياء صعبة كثيرة . الناس يتألمون ، ويُنكّل بهم . . ينكل بهم بصورة وحشية ، وكثير من الأفراح ممنوع عنهم . ذلك قاسٍ للغاية !

ألقت لودميلا برأسها إلى الوراء وشملتها بناظريها ، ثم قالت :

– ولكنك لا تتحدثين عن نفسك !

نظرت الأم اليها فتركت السرير ، وشرعت ترتدي ثيابها .

– كيف تستطيعين أن تفصلي نفسك عن الآخرين عندما تحبين هذا وذاك وتخافين من أجلهم جميعاً . . . وترثين لهم جميعاً . . . جميعهم يحتشدون معاً هناك في قلبك . . . كيف تستطعين أن تفصلي نفسك عنهم ؟

وقفت برهة في وسط الغرفة غير مكتملة اللباس ضائعة في لجة من التفكير . وهَدهدَ لها انها لم تعد تلك المرأة المفعمة مخاوف وقلقاً من أجل ابنها ، المشغولة بالتفكير في كيف تستطيع حماية جسده من الأذى . تلك المرأة لم يعد لها بعد الآن وجود ، فلقد انسحبت من الميدان ، وذهبت إلى مكان بعيد بعيد ، أو لعلها احترقت بنار عواطفها فطهّر ذلك الحريق روحها وأضاءها ، نافخاً إياها بقوة جديدة . وتنصت الى ما في اعماق روحها تريد ان تكشف ما في حنايا قلبها ، خائفة من إيقاظ المخاوف القديمة .

سألتها لودميلا في حنان ، وهي تقترب منها :

– فيمَ تفكرين ؟

فأجابت الأم :

– لا ادري .

تبادلتا النظر في سكون وابتسمتا ، ثم غادرت لودميلا الغرفة وهي تقول :

– لأتساءل عما يجرى لسماوري هناك .

تطلعت الأم من النافذة . كان النهار أرزاً نيراً ، وكذلك كان صدرها يطفح نوراً ، سوى أن الدفء يرين عليه أيضاً . وأرادت ان تتحدث عن كل شيء . . . وان تتحدث طويلاً بهناء وغبطة ، ويغمر قلبها شعور غامض بالامتنان لشخص ما من أجل كل ما عمّر روحها من أحاسيس . وهو الآن يلتهب هناك بنور قرمزي ، ذلك النور الذي يسبق مغيب الشمس . وأثارت مشاعرها الرغبة في الصلاة . هذه الرغبة التي لم تجربها منذ زمن طويل ، ولمع في خاطرهـــا وجه فتى ، وسمعت صوتاً واضحاً ينادي : «هذه أم بافل فلاسوف !» . ورأت عينــي ساشا السعيدتين الحنونين ، وهيئة ريبين القاتمة ، ومحيـــا ابنها الهادىء ، البرونزي اللون ، ونظرة نيقولاي المضطربة المرتبكة ، ثم امتزج كل هذا ، بغتة في زفرة عميقة واحدة ، واختلط في سحابة وحيدة شفافة متعددة الألوان غمرت كـل أفكارها في إحساس بالسلام عظيم شاسع الأبعاد .

قالت لودميلا ، وهي تدلف إلى الغرفة من جديد :

– لقد كان نيقولاي على حق ، فقد أوقفوه . لقد أرسلت الصبي للاستكشاف كما نصحتني ، فعاد يقول : إن ثمة رجال شرطة في الفناء ، كما أنه رأى شرطياً يختبئ وراء البوابة ، والجواسيس منبثين حول الدار في كل مكان . الصبي يعرفهم .

فقالت الأم ، وهي تهز راسها :

– آه ، يا للرجل المسكين . . .

وتنهدت ، دون حزن ، مما أذهلها في سرها .

قالت لودميلا في هدوء ، والعبوس يعلو وجهها :

– لقد قام حديثاً بالقاء محاضرات كثيرة أمام العمال هنا في المدينة ، فآن له على العموم أن يُعتقل . ولقد نصحـــه رفاقه بالذهاب فأبى أن يقبل بنصائحهم . . . يؤتى لي أن الناس ، في مثل هذه الحالات ، يجب أن يُرغموا على الذهاب إرغاماً ولا يقنعوا به إقناعاً . . .

وفي تلك اللحظة بدا في فرجة الباب صبي أسود الشعر ، مضرج الخدين ، جميل العينين الزرقاوين ، مقوس الأنف ، وسأل بصوت رنان :

– هل آتي بالسماور ؟

– ارجوك يا سيريوجا ! هو ربيبي .

خيل إلى الأم أن لودميلا على غير عادتها هذا النهار ، فهي أكثر بساطة وأقل بعداً . وكان في حركات جسدهــا الرائــع الرشيقة كثير من الجمال والقوة ، مما خفف من حدة وجههـــا الشاحب ، الصارم التقاطيــع . وقد زاد الليل في الدوائر المستقرة تحت عينيها ، وأصبح المرء يُحسُّ في داخلها جهداً مستمراً ، ووتراً مشدوداً حتى الحد الأقصى في روحها .

وعاد الفتى بالسماور ، فقالت لودميلا :

– إسمح لي أن أقدمك ، يا سيريوجا . هذه بيلاجيـــا نيلوفنا والدة العامل الذي أدانوه بالامس في المحكمة .

فانحنى سيريوجـــا دون أن يقول شيئاً ، وهزَّ يد الأم مصافحاً ، وغادر الغرفة كي يعود إليها برغيف من الخبز ، ثم اتخذ مكانه إلى المائدة . وبينما راحت لودميلا تصب الشاي ، سعت لاقناع الأم بالعدول عـــن الذهاب الى الدار حتى تتبين غاية الشرطة من الانتظار هناك .

– لعلهم ينتظرونك أنت أيضاً ! من المحتمل أن يرسلوا في طلبك كي يستجوبوك . . .

– فليفعلوا ! وليعتقلوني إن أرادوا – ليس في ذلك ضرر كبير . آهٍ لو نوزع قبلاً خطاب بافل !

– لقد صففت الأحرف حتى الآن ، وغداً سيكون لدينا نسخ كافية للمدينة والضاحية العمالية . . . هل تعرفين ناتاشا ؟

– طبعاً !

– خذي النسخ إليها . . .

كان الصبي يقرأ الصحيفة كمن لا يسمع شيئاً ، ولكنه يرشق وجه الأم بنظراته بين الفينة والفينة ، فإذا ما لقيت عينيه المرحتين ابتهجت وابتسمت . وشرعت لودميلا تتحدث مرة أخرى عن اعتقال نيقولاي دون أسىً ، فتجد الأم ذلك طبيعياً للغاية . ومرَّ الوقت أسرع من المعتاد ، فما انتهوا من طعام الافطار حتى كان الوقت ظهراً . هتفت لودميلا :

– يا للّه !

قرع الباب بسرعة في هذه اللحظة . فنهض الصبي ونظر إلى لودميلا في تساؤل بعينين متضيقتين .

– إفتح الباب ، يا سيريوجا ! من هذا ، يا ترى ؟

وضعت يدها في جيب سترتها بحركة هادئة ، وهي تقول للأم :

– إن كان القادمون رجال الدرك ، فقفي أنت هناك في الزاوية يا بيلاجيا نيلوفنا ، أما أنت يا سيريوجا . . .

فأجاب الفتى في هدوء ، وهو يخرج :

87*

– إني أعلم !

وابتسمت الأم . لم تعد هذه الاستعدادات تقلقها – لقد فارقها كل توقع للكارثة . ولكن الطارق لم يك سوى الطبيب الصغير . قال بسرعة :

– قبل كل شيء ، لقد اعتُقل نيقولاي . أها ! هكذا فأنت هنا ، يا نيلوفنا ، ألم تكوني في الدار ساعة الاعتقال ؟

– لقد أرسلني إلى هنا .

– ويْ ! كذا ؟ لا أعتقد أن ذلك سيعود عليك بأية فائدة ! ثم إن بعض الفتيان قد طبعوا ، في الليلة الفائتة ، خمسمائة نسخة من خطاب بافل على الهكتوغراف . ولقد رأيتها – إنها ليست سيئة . . . بل نظيفة واضحة . . . وهم يريدون توزيعها في المدينة هذه الليلة بالذات ، ولكني أعارض في ذلك ، إذ يفضل أن توزَّع المنشورات المطبوعة في المدينة ، والاحتفاظ بتلك لمكان آخر .

فقالت الأم في لهفة :

– سآخذها إلى ناتاشا ! أعطنيها !

كانت لهفتها عظيمة كي تنشر خطاب فتاها في أسرع وقت ممكن كي تغرق الأرض بأسرها بكلماته ، فراحت تثبت عينيها متوسلة في وجه الطبيب وهي تنتظر جوابه . قال متردداً ، وهو يتطلع في ساعته :

– الشيطان وحده يعلم إن كان في مقدورك القيام بذلك الآن ! الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والأربعين . وموعد أول قطار هو الثانية والدقيقة الخامسة ، وستصلين في تمام الخامسة والربع ، أي عند هبوط المساء . بيد أن الوقت

لن يكون متأخراً على أية حال ، لكن ليست هذه هي المشكلة .

فردت لودميلا عابسة :

– ليست هذه هي المشكلة !

وسألت الأم ، وهي تقترب منهما :

– ما هي المشكلة ؟ أن ينجز العمل على خير وجه فقط . . .

فرشقتها لودميلا بنظرة متمعنة ، ثم قالت وهي تمسح جبينها :

– ذلك خطر عليك . . .

فسألت الأم في إصرار حار :

– ولِمَ ؟

فأجاب الطبيب بكلمات سريعة متكسرة :

– إليك السبب في ذلك : لقد غادرت الدار قبل اعتقال نيقولاي بساعة واحدة ، وذهبت إلى المصنع حيث يعرفونك على انك عمة المعلمة ، وبعد فترة قصيرة ظهرت منشورات ممنوعة في المصنع ، كل هذا يشكل عقدة حول عنقك .

فقالت الأم في عناد متزايد :

– إن أحداً لن يلاحظني هناك ! وإذا اعتقلوني بعد عودتي وسألوني أين كنت . . .

وترددت لحظة قصيرة ، ثم صاحت :

– أعرف ما سأقول ! سأذهب من هناك رأساً إلى الضاحية حيث أعرف صديقاً هناك – سيزوف – وسأقول إني ذهبت مباشرة من المحاكمة إلى داره – كي اخفف عن قلبي إن صح التعبير . وهو يحتاج إلى المؤاساة أيضاً ، فابن أخيه

ادين بدوره . ولسوف يشهد بالشيء نفسه . ما رأيكما ؟

واذ احست انهما يميلان إلى تلبية رغبتها ، انطلقت تتكلم في عناد اكبر يحدوها الأمل في الاسراع باقناعهما ، حتى استجابا إليها اخيراً ، فقال الطبيب في تردد وإحجام :

– حسناً ، تستطيعين الذهاب !

ولم تقل لودميلا شيئاً ، وهي لا تفتأ تذرع ارض الغرفة غارقة في التفكير ، وقد اصبح وجهها الآن قاتماً نحيلاً ، وعضلات عنقها المشدودة تفصح الجهد الذي تبذل كي تحفظ راسها بوضعها الطبيعي كما لو اصبحت ثقيلة على حين بغتة وسقطت فوق صدرها من تلقاء نفسها . لاحظت الأم ذلك ، فقالت مبتسمة :

– جميعكم تعنون بي كثيراً ، ولكنكم لا تعيرون انفسكم ادنى اهتمام على الاطلاق . . .

فقال الطبيب :

– هذا ليس صحيحاً ، فنحن نعني بانفسنا . نحن مضطرون إلى ذلك . وإننا لقساة كل القسوة على أولئك الذين نجدهم يضيعون قواهم دون جدوى . هذا ما نفعل ! والآن . . . لسوف تستلمين نسخ الخطاب في المحطة . . .

واوضح لها كيف سيتمّ ذلك ، ثم نظر في وجهها ، وقال :

– والآن ، حظاً سعيداً !

لكن ظلاً من الاستياء كان يرين على محياه لحظة غادر الغرفة . اقتربت لودميلا من الأم ، وقالت وهي ترسل ضحكة قصيرة :

– لأستطيع ان افهمك . . .

تأبطت ذراعها ، وشرعت من جديد تجوس أرض الغرفة بخطاها :

– إن لي ابناً أنا أيضاً ، وهو في الثالثة عشرة من عمره الآن ، ولكنه يعيش مع أبيه . إن زوجي نائب مدعٍ عام ، وأما الولد فهو معه . إلى مَ سيضلين ؟ كثيراً ما أفكر في ذلك . . .

وانكسر صوتها ، ثم تابعت بعد برهة في هدوء وتفكر :

– انه يتربى على أيدي عدو واعٍ لسائر الناس الذين أحبهم والذين اعتبرهم أروع أناس على وجه البسيطة . ولربما يشب ابني عدواً لي . إنه لا يستطيع عيشاً معي ، فأنا أحيا تحت اسم مستعار . وأنا لم أرَه منذ ثماني سنوات . . . ثماني سنوات ! يا له من زمن طويل !

وقفت عند النافذة ، وراحت تنظر إلى السماء الشاحبة المقفرة .

– لو عاش معي كنت أقوى إذن ، وما كان هذا الجرح يؤلم قلبي أبداً . . . ولو مات ، فذلك يكون أسهل عليَّ إذن وأيسر . . .

فتمتمت الأم ، وقلبها يتمزق ألماً ومواساة :

– آه ، يا عزيزتي !

فقالت لودميلا ، وهي تطلق ضحكة قصيرة :

– انت محظوظة ! ما أروع ذلك . . . الأم والابن جنباً الى جنب – إنه لأمر نادر للغاية !

فهتفت بيلاجيا ، مدهوشة من ذات كلماتها :

– بلي ، ذلك رائع جداً !

ثم قالت ، وهي تخفض صوتها فكأنها تتفوه بسرٍ خطير :

– وأنتم جميعاً – نيقولاي إيفانوفيتش وسائر الذين يتبعون الحقيقة – أنتم جميعاً جنباً إلى جنب ! لقد أصبح الناس ، بغتة أقارب أعزاء ، وإني لأفهمكم جميعاً ، إني لا أستطيع ان أفهم الكلمات ، ولكنني أستطيع أن أفهم كل شيء آخر . .

– كذلك هي الأمور . . . كذلك هي الأمور . . .

ووضعت الأم يدها على صدر لودميلا ، وأخذت تدفعها في لطف ، وتابعت في شبه همس ، وكأنها هي نفسها تتأمل في الكلمات التي تتفوه بها :

– أبناؤنا يمشون فوق الأرض . ذلك ما أفهم – أبناؤنا يمشون فوق الأرض – فوق الأرض بأسرها – من كل حدب وصوب نحو هدف واحد . أطهر الناس قلباً ، أشرف الناس فكراً ، يسيرون قدُماً ضد الشرّ دون ارتعاش ، يدوسون الكذب تحت أقدامهم القوية ، فتيان ، أقوياء البنية ، بريئون من كل عيب ، يوجهون قواهم كلها نحو غرض واحد – ألا وهو العدالة . إنهم يمشون نحو الانتصار على الألم الانساني ، وقد احتشدوا ليكنسوا كل بؤس عن وجه البسيطة ، وليقضوا على القباحة المعشعشة في الأرض – ولسوف يقضون عليها ! ولقد قال لي أحدهم إنهم سيشعلون شمساً جديدة – ولسوف يشعلونها بكل تأكيد ! وإنهم سوف يوحّدون جميع القلوب المنكسرة في قلب واحد متوحد – ويقيناً أنهم سيوحدونها !

وتذكرت كلمات صلوات منسية ، انبثقت من صدرها كالشرر تشعل فيها إيماناً جديداً :

– أبناؤنا يسلكون طريق الحقيقة والعقل ، ويحملون المحبة إلى قلوب البشر ، يغطون الأرض بسماء جديدة ، وينيرون الأرض بنار جديدة – نار القلب التي لا تنطفئ . تنبثق حياة جديدة ، تولد من محبة أبنائنا للجنس البشري بمجموعه . ومن يملك القدرة على إطفاء هذا اللهيب ؟ من ؟ اية قوة تستطيع أن تدمر قوة المحبة ؟ اية قوة تستطيع أن تعترض سبيلها ؟ من الأرض هي انبثقت ، والحياة بأسرها تتلهف إلى انتصارها – الحياة بأسرها !

تركت لودميلا وقد أعيتها قوة انفعالها ، وجلست وهي تتنفس بصعوبة فائقة . وكذلك ابتعدت لودميلا في سكون وحذر فكأنها تخاف أن تزعج شيئاً ما وتعكر صفوه ، وراحت تنتقل في خفة عبر الغرفة ، ونظرة عينيها الخابيتين العميقة مثبتة أمامها ، يخيَّل للناظر إليها أنها ازدادت طولاً ونحولاً وانتصاباً . وكان وجهها الصارم الرقيق يعبر عن تفكير عميق ، وشفتاها منضمتين في عصبية . وما أسرع أن سكن الهدوء المخيم على الغرفة من انفعال الأم ، فلاحظت حال لودميلا وسألتها بنغمة هادئة مذنبة :

– لربما قلتُ شيئاً ما كان يجدر بي قوله ؟

فاستدارت لودميلا وتطلعت إليها كالمذعورة ، ثم تكلمت بسرعة وهي تمدّ يدها إلى الأم ، فكأنها تريد أن توقف شيئاً في طريقها :

– لا ، لا ، كذلك هي الأمور ، كذلك هي ! ولكن يجب ان لا نتكلم عنها بعد الآن ابداً ، فلتبق كما عبّرت أنت عنها !

وازداد هدوء صوتها ، وهي تضيف :

– عليك الذهاب عما قريب – فما برحت أمامك طريق طويلة .

– أجل ، عما قريب . لو تدرين كم أنا سعيدة ! سأحمل الى الآخرين كلمات ابني ، كلمات لحمي ودمي نفسيهما ! لكأني أعطي من نفسي ذاتها !

ابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنعكس على وجه لودميلا إلا في غموض وإبهام . وأحست الأم أن فرحتها تتضاءل بصرامة المرأة الأخرى ، فتجتاحها فجأة رغبة عنيدة في أن تصبّ نارها الملتهبة في صدرها ، في تلك النفس الشموس العابسة ، لتحمل تلك المرأة على التجاوب مع نداءات قلب يلتهب فرحاً وصفاء ، فتناولت يدي لودميلا وضغطت عليهما بشدة وهي تقول :

– يا حبيبتي ! وما أحسن أن يعلم المرء أن ثمة نوراً يضيء جميع الناس ، وأن ساعة ستأتي يراه فيها الجميع فيستديرون إليه بقلوبهم !

وارتعش وجه الأم اللطيف العريض ، والتهبت عيناها ، وارتجف جفناها فوقهما كجناحين يظللان بريقهما . كانت نشوى بتلك الأفكار العظيمة التي تضج في صدرها وتفور ، بفعل كل ما عاشت حتى ذلك الحين وجرّبت ، فراحت تعصر خلاصة تلك الأفكار وتكثّفها في بلورات الكلمات البراقة النامية والمتضاعفة في هذا القلب الخريفي ، تنيرها القوة الخلاقة لشمس الربيع المحترقة هناك والمشعة ببريق متزايد اللمعان أبداً .

– ذلك أشبه بإله جديد يولد للشعب ! كل شيء

للجميع – والجميع من أجل كل شيء ! هكذا أفهم أنا عملكم جميعاً ! في الحقيقة أنكم جميعاً رفاق ، أرواح متقاربة ، أبناء أم واحدة ، وهذه الأم هي الحقيقة !

وجرفتها من جديد موجة انفعال ، فانقطعت عن الكلام وشهقت نفساً عميقاً ، وقالت وهي تفتح ذراعيها في عناق عريض :

– وعندما أقول لنفسي هذه الكلمة – رفاق – أسمع في قلبي صوتاً يقول إنهم سائرون قدُماً !

وبلغت هدفها . لقد تضرّج محيا لودميلا دهشة ، وارتجفت شفتاها ، وراحت دموع كبيرة شافة تتدحرج على وجنتيها .

احتوتها الأم بين ذراعيها وهي تضحك في سكون ، وتفرح فرحاً عذباً بانتصار قلبها .

وبينما هما تفترقان تطلعت لودميلا في وجه الأم ، وقالت في صوت خافت :

– هل تعرفين ما أحسن أن يكون المرء معك ؟

٢٩

بلغت الشارع ، فأطبق الهواء المتجلد على جسدها في عناق قاس ، ودغدغ حنجرتها ومنخاريها ، وأمسك بخناقها وحرمها ، ثانية قصيرة ، من أنفاسها . توقفت تتطلع حواليها فرأت عربة صغيرة تقف عند زاوية قريبة فيها سائق بقبعة شعثاء ، وإلى أبعد منها ، في الشارع الطويل ، يمشي رجل

باسق القامة منحني العود ، غارق الرأس بين الكتفين ، وإلى الأمام منه جندي يركض وهو يفرك أذنيه . فكرت :

«لا ريب أنهم أرسلوا به يشتري حاجة ما من الحانوت !»

تابعت طريقها ، مسرورة بسماع الثلج يتكسر تحت قدميها في حيوية وفتوة . وبلغت المحطة قبل موعد القطار . سوى أن غرفة الانتظار من الدرجة الثالثة ، الوسخة العاجة بالدخان ، كانت مزدحمة تغص بالناس ، بعد أن طرد البرد إليها عدداً كبيراً من عمال السكة ، والحوذيين ، وكثيراً من الناس المرتدين ألبسة مهترئة المحرومين من أي مأوى آخر يلجأون إليه . وكان ثمة عدد من المسافرين أيضاً ، ومن بينهم بعض الفلاحين ، وتاجر بدين يرتدي معطفاً سميكاً ، وكاهن ترافقه ابنته المجدورة الوجه ، وخمسة جنود ، وبعض الحرفيين المضطربين القلقين . وكان القوم يدخنون ويتحدثون ، ويحتسون الشاي والفودكا ؛ وشخص ما ، عند المقصف ، يطلق أكداساً من الضحك ، وأمواج من الدخان تتموج فوق الرؤوس دون انقطاع . وكان الباب يصرّ كلما فُتح ، فإذا صُفق ارتجف زجاج النوافذ وإطاراتها ، وكان جوّ الغرفة عاجاً برائحة من التبغ والسمك المملّح تخدش الأنوف .

اتخذت الأم مقعداً بيّناً للعيان عند المدخل وراحت تنتظر .. كانت موجة من الهواء البارد تهب عليها كلما فتح الباب ، فتسرّ بذلك ، وتروح تنهل من الهواء أنفاساً عميقة . وكان الداخلون مثقلين برزم كبيرة ، فإذا حاولوا عبور الباب في معاطفهم الشتائية السميكة ، علقوا في فرجته بصورة مضحكة وهبّوا يطلقون السباب وهم يلقون برزمهم فوق الأرض ، أو

المقاعد الخشبية ، يتنحنحون وهم ينفضون الثلج عن أكمامهم وياقاتهم ولحاهم وشواربهم .

ودلف من الباب فتى يحمل حقيبة صفراء في يده ، وتطلع فيما حوله بسرعة ، واتجه نحو الأم راساً . قال بصوت خافت :

– اأنت ذاهبة إلى موسكو ؟

فأجابت :

– نعم ، إلى تانيا .

– خذيها !

وضع الحقيبة على الدكة إلى جانبها ، واشعل لفافة بسرعة ، ورفع قبعته عن راسه قليلاً ثم اختفى من خلال الباب الآخر دون أن يضيف شيئاً آخر . وربتت الأم على جلد الحقيبة البارد ، ثم اعتمدتها بمرفقها ، وشرعت تتفحص القوم حولها وعلى محياها سيماء الرضى . وبعد برهة قصيرة نهضت تتخذ مقعداً آخر أقرب إلى المخرج . مشت منتصبة القامة ترنو إلى الوجوه المارة من أمامها غير هيّابة ، وهي تحمل بكل يسر وسهولة الحقيبة التي لم تكن كبيرة أو ثقيلة على الإطلاق .

اصطدم بها شاب قصير المعطف مرفوع الياقة ، ثم تنحى جانباً في صمت وسكون ، وقد رفع يده إلى رأسه . وخيّل إليها أن فيه شيئاً مألوفاً لديها ، فالتفتت إلى الوراء لتجد إحدى عينيه الشاحبتين مثبتة فيها من وراء ياقة معطفه . اخترقتها نظرته كحدّ الموسى ، فارتجفت يدها التي تحمل الحقيبة بعصبية ، وأحست بغتة أن حملها يزداد ثقلاً .

فكرت : «لقد رأيته في مكانٍ من قبل !» . وحاولت كظم هذا الاحساس المقيت وطرده من صدرها ، فرفضت تحديد ذلك الشعور البارد الذي راح يضغط على قلبها في بطء ، ولكن في عناد أيضاً بيد أنه نما وصعد حتى حلقها ، وغمر فمها بمرارة جافة فتملكتها رغبة لا تقاوم في أن تستدير وتلقي نظرة أخرى على هذا الرجل ، وإذ فعلت رأته يقف في المكان ذاته ، ينقل ثقل جسده من رجل إلى رجل أخرى فكأنه يريد أن يفعل شيئاً ما ، فلا يجد القدرة كي يحزم أمره عليه . وكانت يده اليمنى مدفوعة بين أزرار معطفه ، واليسرى مدفونة في جيبه بحيث تبدو كتفه اليمنى أكثر ارتفاعاً من الكتف اليسرى .

اقتربت من دكة في تماهل وجلست عليها في بطء وحذر فكأنها تخاف أن تسحق شيئاً ما في باطنها . واستيقظت الذكرى في ذهنها بتأثير توقّع شرٍّ مستطير ، فتذكرت المناسبتين اللتين رأت فيهما هذا الرجل من قبل : الأولى في الحقول المجرّدة ، غير بعيد عن السجن ، بعد فرار ريبين ؛ والثانية في المحكمة حيث رأت ضابط الشرطة الذي أرسلته في الطريق الضالة يتعقب ريبين واقفاً إلى جانبه ، فأدركت مباشرة أنهم يعرفونها وانها ملاحقة – لم يكن في ذلك مجال للارتياب . تساءلت :

«هل وقعتُ في الشبكة ؟»

وارتعشت بعد هنيهة وردّت على نفسها :

«ربما لم يحن الوقت بعد . . .»

وما أسرع أن بذلت جهداً إرادياً عنيفاً ، وقالت في جفوة :

«لقد وقعت في الشبكة !»

تطلعت حواليها دون أن ترى شيئاً ، وراحت الأفكار تتلاحق في ذهنها الفكرة تلو الفكرة مثل شرارات تلتهب وتنطفئ في الحال :

– «هل أترك الحقيبة وأولي الادبار ؟»

ولكن شرارة أكثر تألقاً احتلت سريعاً مكان الفكرة السابقة :

«أهجر كلمات ابني ؟ أتركها بين أيدي مثل هؤلاء . . .»

وضمت الحقيبة الى صدرها :

«هل أحملها معي ؟ . . هل أهرب ؟ . . .»

بدت لها هذه الافكار غريبة عنها ، فكأن شخصاً غيرها اضطرها إليها اضطراراً ، فهي تلفحها وتحترق في ذهنها وتثقب قلبها مثل أسلاك لاهبة . وأخرجها الألم الذي بعثته فيها تلك الأفكار عن رشدها ، وأبعدها عن بافل وعن سائر الاشياء التي أصبحت عزيزة على قلبها . وأحست قوة معادية تضغط على كتفيها وصدرها وتذلها ، وتغرقها في هلع هائل مميت . وراحت اوردة صدغيها تنبض بعنف ، وهبت حرارة شديدة في جذور الشعر من رأسها .

واهتز فجأة كل كيانها لحركة حادة هائلة انبثقت في قلبها ، وداست تلك الشرارات الصغيرة ، الوضيعة المستضعفة ، وهي تقول لنفسها في حزم وقوة :

«يا للعار !»

ارتاحت في اللحظة نفسها ، وامتلأت شجاعة وبأساً ، وأضافت :

«لا تشيني ابنك ، لا تخافي !»

لاقت عيناها نظرة كئيبة وجلة ، والتمع في خاطرها وجه ريبين ، وشخص لها ان تلك الثواني القليلة من التردد جعلتها أكثر ثباتاً ، فإذا خفقان قلبها يهدأ ويتلاشى . فكرت وهي تختلس النظر فيما حولها :

«ماذا سيحدث الآن ، يا ترى ؟»

نادى الجاسوس أحد حرس المحطة ، وهمس شيئاً في اذنه وهو يدل عليها بعينيه ، فحملق الحارس فيه طويلاً ثم تراجع ، بينا اقترب حارس آخر – وكان رجلاً هرماً ، ضخم الجثة ، أشيب الشعر ، مرسل اللحية – وأنصت إلى ما يقال له ، ثم عقد ما بين حاجبيه ، وأشار برأسه إلى الجاسوس وبدأ يشق طريقه نحو الدكة حيث تجلس الأم . واختفى الجاسوس في لمح البصر .

اقترب الحارس متباطئاً ، يتمعن في وجه الأم بنظرة غاضبة ، فتراجعت حتى وسط الدكة . فكرت :

«لو أنهم لا يضربونني . . .»

توقف قبالتها ، واعتصم هنيهة بالصمت ، ثم قال في صوت مخفوض قاس :

– ماذا تنتظرين ؟

–لا شيء .

– هكذا ؟ أيتها اللصة ! أتمتهنين السرقة وانت في مثل هذه السن ؟

صفعتها كلماته – مرة ، مرتين ! كان الخبث القاسي

الكامن فيها مؤلماً للغاية فكأنه يجرح الوجنتين منها ، ويقتلع العينين من محجريهما . . . . صاحت بأعلى صوتها ، وقد راح كل ما يحيط بها يدوّم في إعصار غضبها وثورتها ، إعصار مرارة الاهانة التي تلقتها :

– أنا ؟ أنا لست لصة ! أنت تكذب !

شدّت على الحقيبة في عنف ، ففتح غطاؤها . صاحت ، وهي تهبُ واقفة على قدميها وترفع قبضة من المنشورات فوق رأسها :

– أنظر أنت ! أنظروا جميعاً !

استطاعت أن تسمع ، من خلال الطنين في أذنيها ، هتافات القوم الذين تراهم جاؤوا يتراكضون بسرعة من كل حدب وصوب .

– ماذا حدث ؟

– هناك – جاسوس . . . .

– ما هذا ؟

– يقول إنها لصة . . . .

– مثل هذه المرأة المحترمة ؟ بخ ، بخ . . .

صاحت الأم في صوت مرتفع ، وقد هدأ من روعها قليلاً رؤية الناس المتجمهرين حولها بكثافة :

– أنا لست لصة ! لقد جرت البارحة محاكمة بعض المتهمين السياسيين . وكان بينهم ابني فلاسوف . ولقد ألقى في المحكمة خطاباً – وهذا هو ! إني أحمله إلى الشعب حتى يقرأوه ويفكروا في الحقيقة . . .

تناول أحد الوقوف من يدها منشوراً في حيطة وحذر فلوّحت هي بالمنشورات في الفضاء ورمتها فوق رؤوس الحشد حولها . وصاح أحدهم بصوت مذعور :

– لسوف ينتقمون منك من أجل هذا !

رأتهم الأم يختطفون المنشورات ويدسونها في معاطفهم وفي جيوبهم فثبت ذلك من عزيمتها مجدّداً . وشرعت تتكلم مستوفزة وهي أهدأ وأثبت من ذي قبل ، تحسُ فخراً مستيقظاً وفرحاً مكبوتاً من قبل ينموان بازدياد في صدرها . وبينا هي تتكلم ، كانت تتناول المنشورات من الحقيبة وتلقي بها ذات اليمين وذات الشمال في الأيدي الممتدة بلهفة لتلتقفها :

– هل تعلمون لماذا قدّموا ابني والذين كانوا معه جميعاً إلى المحكمة ؟ لسوف أقول لكم لماذا ، وأنتم ستصدقون قلب أم وشعرها الشائب . لقد قدموهم إلى المحاكمة لأنهم بكل بساطة ، يحملون الحقيقة اليكم جميعاً ! ولقد اكتشفتُ البارحة أن إنساناً لا يستطيع نكران تلك الحقيقة – أبداً ليس من ينكرها !

ونما الحشد يشكّل ، في سكون وهدوء ، حلقة من الأجساد الحية تحيط بالمرأة في إحكام .

– الفقر ، والجوع ، والمرض – هذا ما يكسب الناس من عملهم ! كل الأشياء ضدنا – نحن نموت مرهقين ، طوال حياتنا ، يوماً بعد يوم ، في عملنا ، ونحن أبداً معفرّون في الوحل ، مخدوعون دائماً ، بينما يمصُ الآخرون كل الفرح

والفوائد حتى التخمة ، ويقيدوننا في الجهل إلى الأبد ، مثلما يقيدون الكلب إلى سلسلته ، حتى لا نعرف شيئاً على الإطلاق ؛ وفي الخوف ، حتى نخاف من كل شيء دون تفريق ! حياتنا أشبه بليل طويل مظلم !

وارتفع جواب خفيض يقول :

– هذا حق !

– سدوا لها فمها !

وقعت عينا الأم ، وراء الحشد ، على الجاسوس وبرفقته اثنان من رجال الدرك ، فأسرعت توزع بقية المنشورات . وعندما بلغت يدها الحقيبة ، اصطدمت بيد اخرى ، فقالت وهي تنحني جانباً :

– خذها ، خذها !

وصاح الدركيان ، وهما يدفعان الناس جانباً :

– تفرقوا !

فأفسح القوم لهما الطريق مرغمين ، وهم يتعثرون في طريقهما ويمنعونهما عن التقدم ، ربما دون أن يرغبوا في ذلك ويريدوه . كان الناس ينجذبون بقوة لا تقاوم نحو المرأة الشائبة الشعر ، الواسعة العينين الشريفتين في وجهها اللطيف . إنهم يجدون أنفسهم الآن ، وهم المنعزلون في الحياة ، المتباعدون عن بعضهم البعض ، وقد توحدوا في جسد واحد تدفئه هذه الكلمات اللاهبة التي ربما فتش عنها طويلاً عدد كبير من تلك القلوب التي داسها ظلم الحياة ونسفها . وقف الأقربون إليها في سكون ، مثبتة عيونهم

فيها بانتباه مشوق ، حتى لتحس أنفاسهم الدافئة تلفح وجهها .

– إذهبي ، أيتها العجوز !

– لسوف يقبضون عليك في دقيقة واحدة ! . .

– آه ! يالها من جريئة !

وصاح الدركيان ، وهما يقتربان منها شيئاً فشيئاً :

– إذهبوا من هنا ! تفرقوا !

ترنح القوم القريبون منها ، وتماسكوا بالأيدي . وتراءى لها أنهم جميعاً على استعداد لأن يفهموا ويصدقوها ، فأرادت أن تعجل وتقول لهم كل ما تعرفه ، كل تلك الأفكار التي جرّبت قواها وجبروتها ، والتي تهب في يسر من أعماق قلبها لتشكل اغنية رائعة ، فتدرك الأم في ألم وعذاب أنها اعجز من أن تنشد الأغنية التي تصدر عن شفتيها جشّاء ، مرتجفة ، متكسرة :

– إن كلمات ابني هي كلمات شريفة لعامل لم يبع نفسه . لسوف تعرفونها من جرأتها !

كان زوج من العيون الفتية عالقاً بها في هلع وإشراق .

تلقّت ضربة في صدرها اوقعتها على الدكة . وكانت أذرع الدركيين تتأرجح فوق رؤوس القوم ، وتطبق على التلابيب والأكتاف وتلقي بالناس جانباً ، وتنتزع القبعات وترمي بها بعيداً . وأضحى كل شيء أسود مضطرباً في عيني الأم ، ولكنها تغلبت على ضعفها لتصيح بما تبقى من قوة في صوتها :

– وحدوا أيها الناس قواكم في قوة واحدة ، عاتية !

أمسك بها دركي من ياقتها بيد ضخمة حمراء ، وراح يهزها بعنف وهو يصيح :

– إخرسي !

اصطدم رأسها بالحائط ، فخيَّمت على قلبها ، برهة ، سحابة من ذعر ، ولكنه عاد مرة أخرى يفجر اللهب فيبعثر السحابة ويلاشيها .

قال الدركي :

– إمشي !

– لا تدعوا شيئاً يخيفكم ، فليس من شيء يمكن أن يكون أكثر مرارة من الحياة التي تعيشون . . .

– إخرسي ، قلت لك !

أمسك الدركي بذراعها ، وشدَّها بعنف ، وامسك الدركي الآخر بذراعها الثانية ، واقتاداها معاً وهما يخطوان بخطوات واسعة .

– . . . أكثر من المرارة التي تلتهم قلوبكم كل يوم وتقرض صدوركم !

واندفع الجاسوس إلى الأمام منها ، يهزُّ قبضته في وجهها ويصيح بصوت حاد :

– إخرسي ، أيتها الكلبة !

فالتمعت عيناها واتسعتا ، وراح فكها السفلي يرتجف بعنف ، فصاحت وهي تثبت قدميها على بلاط الغرفة اللزج :

– لن تستطيعوا قتل الروح المنبعثة للحياة !

– أيتها الكلبة !

ولطمها الجاسوس على وجهها بحركة قصيرة من يده ، فارتفع صوت يصيح في خبث :

– إنها تنال ما تستحق ، هذه الكلبة الهرمة !

أعماها هنيهة شيء أسود وأحمر ، وامتلأ فمها بطعم مالح من الدماء . ولكن ضجيجاً من الهتافات القصيرة حياها :

– لا تضربها !

– هيا بنا ، أيها الفتيان !

– يا لك من وغد ، أنت !

–إضربوه !

– لن يستطيعوا إغراق عقولنا بالدماء !

دقوها في ظهرها وعنقها ، ولطموها على كتفها ورأسها ، فراح كل شيء يترنح أمام عينيها ، ويحوّم في إعصار هائج من الصياح والعويل والصفير . كانت ثمة اشياء ثقيلة اصمت اذنيها ، وملأت حلقومها ، وأطبقت على خناقها بعزم ، فمادت الأرض تحت قدميها ، وتراخت ركبتاها ، وارتجف جسدها تحت لسعات الألم المحرقة وثقل ، ثم ترنح عاجزاً خائر القوى . ولكن عينيها لم تفقدا بريقهما ، لا بل التقتا باعين كثيرة أخرى تلتهب جميعاً بتلك النار البراقة الجريئة التي أصبحت عزيزة جداً على قلبها .

دفعوها من خلال الباب ، فانتزعت إحدى يديها من قبضة الدركي وتمسكت بمصراع الباب وصاحت :

– لن يغرقوا الحقيقة ، ولو في محيط من الدماء . . .

ضربوها على يدها .

– إنكم لا تثيرون إلا إسعار نيران الحقد عليكم ، يا أيها المجانين ، وذلك سوف يسقط على رؤوسكم يوماً ما !

وامسك بها أحد الدركيين من عنقها وراح يخنقها ، فشخرت :

– يا لكم من مساكين .

فأجاب أحدهم بنشيج عنيف .

محتويات

القسم الأول ٣

القسم الثاني ٢٨٩